

مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية - كلية الآداب - جامعة القاهرة

العدوان الثلاثى على مصر

٢٩ أكتوبر - ٢٣ ديسمبر ١٩٥٦

تحرير
عاصم الدسوقى

العدوان الثلاثى على مصر

٢٩ أكتوبر- ٢٣ ديسمبر ١٩٥٦

أعمال ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

(خمسون عاما على العدوان الإسرائيلي الفرنسي الإنجليزي)

٤-٦ نوفمبر ٢٠٠٦

تحـــرير

د. عاصم الدسوقي

من المحـــرر

عندما قام الضباط الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر بالثورة على نظـــام الحكم في مصر فجر الثالث والعشرين من يولية ١٩٥٢ كانت الحرب الباردة بين المعسكرين الغربي الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية والشرقي الاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفييتي في عنفوانها، وكان أحد مظاهرها ســعي الولايات المتحدة الأمريكية لمحاصرة الاتحاد السوفييتي بسلسلة من الأحلاف الموالية كانت قد بدأت بحلف الأطلنطي (أبريل ١٩٤٩) الذي ضـم الـدول المتاخمة للإتحاد السوفييتي من جهة الغرب والشمال الغربي. ثم أخذت فــي تنظيم حلف يضم الدول المتاخمة للإتحاد الـسوفييتي مـن جهــة الجنــوب والجنوب الشرقي.

وآنذاك كانت الحكومة المصرية قد دخلت فــي جــولات فاشــلة مــن المفاوضات مع الحكومة الإنجليزية منذ ١٩٤٦ بشأن معاهــدة ١٩٣٦ دون جدوى لا لشيء سوى أن الإنجليز لا يريدون مغادرة البلاد. وفــي ســبتمبر ١٩٥١ وأثناء جولة مفاوضات بين حكومة الوفد (بدأت من مــارس ١٩٥٠) سربت الإدارة الأمريكية إلى وزير خارجية الوفد الدكتور محمد صلاح الدين استعداد الولايات الاتحدة الأمريكية لمساعدة مصر في إلغاء المعاهــدة فــي مقابل أن تنضم إلى ما كان يعرف باسم "قيادة الشرق الأوسط" Middle East Command وهو الحلف الخاص بمحاصرة الإتحاد الـسوفييتي مــن جهــة الجنوب والجنوب الشرقي بحيث يضم تركيا وإيران وباكستان ودولة عربية وهي مصر. ومن هنا بادر مصطفى النحاس في الثامن من أكتــوبر ١٩٥١ بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ في بيانه الشهير بالبرلمان. ولكن لما عــرض عليــه

المشروع بشكل رسمي في ١٣ أكتوبر رفضه فورا وبالتالي لم تسانده الحكومة الأمريكية في إلغاء المعاهدة.

ثم جرت مياه كثيرة تحت الجسر ابتداء من اندلاع عمليات المقاومة ضد وجود الإنجليز في منطقة القنال واضطربت الأحوال وبلغت الأزمة ذروتها في ٢٦ يناير ١٩٥٢ بحريق القاهرة ثم بقيام الثورة. وآنذاك كان المعسكر الغربي قد تخلى عن مشروع قيادة الشرق الأوسط ووضع مشروعا جديدا باسم "منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط Middle East Dffense Organization وجاء إلى مصر جون فوستر دالاس وزير خارجية أمريكا في مايو ١٩٥٣ في جولة لتسويق المشروع. ولما سأله عبد الناصر ".. الدفاع عن الشرق الأوسط ضد من؟ وأجاب دالاس: ضد الشيوعية .. قال ناصر ليس هناك خطر على الشرق الأوسط من الشيوعية .. الخطر من إسرائيل"، ورفض المشروع.

وعلى هذا أدركت الحكومة الأمريكية أن مصر الثورة لن تكون في إطار التحالفات التي تنظمها ضد الإتحاد السوفييتي، ومن ثم سعت للبديل فكان "حلف جنوب شرقي آسيا" ومقره في الفليبين وأقامته بسهولة في سبتمبر ١٩٥٤. لكنها لم تنسى مشروع "منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط"، وأخذت تبحث عن دولة عربية غير مصر، ووجدت ضالتها في العراق الذي كان يدور في نطاق الهيمنة البريطانية بمقتضى معاهدة في ١٩٣٠ كانت مماثلة لمعاهدة ١٩٣٦ مع مصر، وهو البحث الذى انتهى بإقامة حلف بغداد (فبراير ١٩٥٥) وقاد عبد الناصر حملة ضد هذا الحلف وضد انضمام أية دولة عربية أخرى وقال في هذا .. إن انضمامي لحلف فيه تركيا التي تعترف بإسرائيل معناه أني اعترفت بإسرائيل ..

وبدأت مرحلة اختبار النيات والتوجهات والمساومات لعجم عود عبد الناصر ابتداء من تقليل بريطانيا كمية القطن التي اعتادت استيرادها من مصر إلى رفض مدها بالسلاح، وكذلك فعلت الحكومة الأمريكية إلا إذا قبلت مصر بعثة عسكرية أمريكية مع السلاح. لكن مصر عبرت الموقف بالحصول على السلاح من تشيكوسلوفاكيا بفضل تجمع باندونج (أبريل ١٩٥٥). ثم رفض البنك الدولي للإنشاء والتعمير بتحريض أمريكا تمويل مشروع السد العالي إلا إذا قبلت مصر بعثة مالية لمراجعة الموازنة المصرية وكأننا عدنا إلى صندوق الدين زمن الخديو إسماعيل. ثم وصل السلاح التشيكي في أواخر ١٩٥٥ الذي قلب ميزان القوة في المنطقة. وعرض مستشار الأمن القومي الأمريكي على الرئيس آيزنهاور في أبريل ١٩٥٦ توجيه ضربة إلى مصر قبل أن يستكمل الجيش المصري تدريبه على السلاح الجديد لكنه رفض إذ كان منشغلا أكثر بما يدور في المجر.

وخطا عبد الناصر خطوة أخرى لم تكن في حسبان الغرب ألا وهي اعترافه بالصين الشيوعية في ١٦ مايو ١٩٥٦ وكانت مبعدة عن المجتمع الدولي، ربما من أجل أن يضمن استمرار توريد السلاح إذا ما نجح الغرب في منع السوفييت من استمرار امداده بالسلاح في إطار توازنات الحرب الباردة. وكان هذا مؤشرا لدى الغرب بخروج مصر من دائرته وانسحابها إلى المعسكر الشرقي، وهذا الخروج قد يترتب عليه انسحاب بقية البلاد العربية تحت زعامة عبد الناصر للعروبة وللتحرر الوطني وللحياد الإيجابي وعدم الانحياز. ومثلما تم التخلص من محمد علي باشا والي مصر بمقتضى مبدأ توازن القوى الذي كان قد تقرر في فيينا في ١٨١٥ بعد التخلص من نابليون بونابرت، وتم التخلص من الخديو إسماعيل الذي سعى لكي "تكون القناة لمصر .. لا أن تكون مصر للقناة"، وعمل على تأمين حدود مصر والسودان بالتوسع في منطقة القرن الأفريقي، كان لا بد من التخلص من عبد

الناصر أيضا. وجاءت الفرصة عندما أعلن قراره التاريخي بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس ومن ثم كان العدوان في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ الذي بدا في ظاهره أنه رد فعل لتأميم القناة، لكنه كان نتيجة لكل الأسباب التي عرضناها في إطار ظروف الحرب الباردة.

وعلى هذا ورغم أن الندوة عنوانها "خمسون سنة على العدوان الثلاثي"، إلا أن المشاركين وهم من المتخصصين في التاريخ والعلوم السياسية يعرفون أن العدوان لم يكن بسبب تأميم القناة وان بدا ذلك في ظاهر الأحداث، ويعلمون أنه جاء يأسا من ربط مصر بعجلة الغرب، ولهذا جاءت البحوث في إطار هذا الصراع بين الشرق والغرب وفي إطار المسألة الشرقية، والتي اجتهد أصحابها اجتهادا مخلصا في توضيح كافة أركان الموقف دوليا وإقليميا ومحليا فجاء هذا الكتاب الذي يضم تلك البحوث ليكون مرجعا شاملا في أحد زوايا الحرب الباردة التي كانت ثورة مصر أول من أصيبت بشررها.

وتتقدم الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بخالص الشكر والتقدير للأستاذ الدكتور/ هناء الجوهرى مدير مركز البحوث والدراسات الإجتماعية بجامعة القاهرة ، لتفضلها بنشر هذا الكتاب ضمن متابعة المركز لكل ما يصدر عن الجمعية المصرية للدراسات التاريخية من أعمال.

د. عاصم الدسوقي

الفهرس

صفحة

د. محمد السيد سليم: القضايا الخلافية حول قرار تأميم شركة
قناة السويس وعلاقته بالعدوان الثلاثى ٩- ٥٧

أ.د. شريف حسن قاسم: أثر تأميم قناة السويس وحرب ١٩٥٦
على الأوضاع والاتجاهات الاقتصادية في مصر.......................... ٥٩-٦٨

د. جمال شقـرة : خمسون عاماً على العدوان الثلاثي ١٩٥٦ ....٦٩- ١٢٦

د. فوزى أسعد نقيطى: الموقف السعودى تجاه العدوان
الثلاثى على مصر ١٩٥٦ ....١٢٧-١٩٥

د. محمد عبد الوهاب: موقف الولايات المتحدة الأمريكية
تجاه أزمة السويس١٩٥٦ في ضوء نظرية سياسة الارتباط ١٩٧- ٢٣٦

د. محمد السعيد إدريس : أزمة السويس وتطورات النظام
الإقليمى فى الشرق الأوسط ٢٣٧-٢٧٣

د. رفعت يونان: العدوان الثلاثى نقطة فارقة بين عهدين ٢٧٥-٢٨٥

د. عبد المنعم ابراهيم الجميعى: عواقب العدوان الثلاثى
على مصر ٢٨٧-٢٩٥

د. محمد نصر مهنا: الدروس المستفادة من عدوان ١٩٥٦ على
الصراع العربى الإسرائيلى ٢٩٧-٣١٤

صفحة

د. فطين أحمد فريد على: الآثار والنتائج والدروس المستفادة
من العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ....٣١٥-٣٩٢

د. زكى البحيرى: العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦
فى مقررات التاريخ المدرسى المصرى والأنتماء الوطنى ٣٩٣-٤١٤

د . جينادي جارياتشكن: العدوان الثلاثى فى ذكريات المعاصرين
وشهود العيان الروس ٤١٥-٤٢٦

د. سهيلة الحسينى: صدى العدوان الثلاثى فى الأدب العراقى ٤٢٧- ٤٤٦

فايز على: أدب المقاومة في مصر
العدوان الثلاثي و أثره في الشعر ٤٤٧-٤٦٧

القضايا الخلافية حول قرار تأميم شركة قناة السويس وعلاقته بالعدوان الثلاثى

د. محمد السيد سليم

مقدمـــــــة:

يتناول هذا البحث عدداً من القضايا المتعلقة بقرار تـــأميم شـــركة قنـــاة السويس التى اختلف الباحثون حولها، وأدت بالتالى إلى اختلاف أكبر حـــول تأييد أو معارضة القرار. والهدف من هذا التنـــاول هـــو تأصـــيل جوانـــب الاختلاف، ثم تحديد أرجحية أى من جوانب الاختلاف فى ضـــوء الوثـــائق التاريخية من ناحية والتحليلات السياسية من ناحية أخرى.

وسيتناول البحث خمسة قضايا بالتحديد أولها، قضية هل كان يتعين على مصر أن تنتظر حتى انتهاء عقد امتياز شركة قناة الـــسويس ســـنة ١٩٦٨ لاستلام الشركة دون الحاجة إلى الدخول فى صراع دولى مع الشركة والدول الغربية، أى هل تسرعت مصر للحصول على شئ كانت ستحـــصل عليـــه قانوناً بعد اثنى عشر عاماً دون مخاطرة. أما القضية الثانية فهى هـــل كـــان قرار التأميم رد فعل لسحب عرض تمويل مشروع السد العـــالى أم أن هـــذا السحب كان مجرد "المناسبة" التى كان عبد الناصر يريدها لإعـــلان قـــرار التأميم؟. أما القضية الثالثة فهى هل اتخذ قرار التأميم بناء على استبعاد جمال عبد الناصر لاحتمال العدوان العسكرى الغربى على مصر، وبالتالى فقد بنى القرار على أساس غير واقعى، أم أن احتمال العدوان كان وارداً فى حسابات عبد الناصر، ولكن أرجحية هذا الاحتمال كانت محدودة فى ضـــوء تحليـــل موازين القوى؟. والقضية الرابعة هى، هل كان قرار التأميم هو البديل الوحيد

المتاح أمام عبد الناصر للرد على قرار سحب البنك الدولي موافقتــه علــى تمويل بناء السد العالي؟ أم أنه كانت هناك بدائل أخرى متاحة كان يمكن أن تحقق نفس الهدف (الحصول على عوائد شركة قناة السويس) دون أن تؤدى إلى مخاطرة الصدام العسكرى مع الغرب؟، وإذا كان ذلك صحيحاً، فلمــاذا رفضها عبد الناصر؟. أما القضية الخامسة فهى هل أدى إعلان قرار التأميم بالشكل الذى أعلن به فى الإسكندرية فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ إلى تعظــيم فرص العدوان العسكرى على مصر؟ وهل كان يمكن أن يغلن القرار بشكل يقلل من تلك الاحتمالات؟ وإذا كان ذلك صحيحاً، فلماذا أخرج عبد الناصــر القرار بهذا الشكل؟

(١)

هل كان يتعين الانتظار
حتى انتهاء امتياز شركة قناة السويس سنة ١٩٦٨؟

يرى بعض الدارسين أن قرار التأميم لم يكن ضروريا لأن مصر كانت ستتسلم إدارة قناة السويس عند انتهاء عقد الامتياز سنة ١٩٦٨، فضلا عن أن القرار أسفر عن العدوان الثلاثي ودفع تعويضات مالية لمساهمي الشركة كان يمكن تفاديها. وقد عبر عن هذا الرأى الروائي المصري نجيب محفوظ إذ لام على عبد الناصر تعجله في استلام إدارة القناة [١].

الحق أن شركة قناة السويس كانت تخطط لمد عقد الامتياز بعد سنة ١٩٦٨، وأنها سعت للحصول على تعهد رسمي من الحكومة المصرية بذلك واستعانت بنفوذ الحكومات الغربية وشركات البترول للضغط على الحكومة المصرية لمد العقد، أي أنها لم تكن تنوي تسليم ادارة القناة لمصر بعد انتهاء عقد الإمتياز. ونعلم أن الشركة بذلت في ١٩٠٩ جهودا لمد الامتياز أربعين سنة أخرى وتوقفت باغتيال رئيس مجلس النظار المصري. ويذكر جورج بيكو، مدير عام الشركة، أن الشركة قد استأنفت جهودها لمد الامتياز بعد أن قامت حكومة الوفد في الثامن من أكتوبر ١٩٥١ بإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦، وذلك بعد أن شعرت بخطورة المد الوطني المصري . ويضيف أنه في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٥١ وفي أول فبراير ١٩٥٢ أرسلت الشركة مذكرات إلى فرنسا، وبريطانيا، وأمريكا، وإيطاليا تحذر من المصاعب التي ستنشأ عند نهاية الامتياز. وتطلب إليها الدخول في مفاوضات دولية حول هذا الموضوع قبل أن يتطور التيار الوطني المصري ويجعل من الصعب إجراء تلك المفاوضات[٢]. وقد اعترضت بريطانيا، والولايات المتحدة على طلب الشركة

لأنهما تخوفتا من أن إجراء تلك المفاوضات قد يؤدى إلى مطالبة الاتحاد السوفييتى بالدخول فيها بحجة أن روسيا القيصرية كانت طرفاً فى معاهدة القسطنطينية سنة ١٨٨٨ التى تحدد حرية الملاحة فى قناة السويس، ويقول جورج بيكو إنه نتيجة لهذا الرد قررت الشركة أن تركز على إثارة إهتمام الولايات المتحدة بالمسألة نظراً لعلاقتها الطيبة بحكومة الثورة المصرية آنذاك. ومن ثم، قامت الشركة بتعيين السفير الأمريكى السابق سيوفورد مندوباً دائماً لها فى واشنطن مهمته إمداد الحكومة الأمريكية بالمعلومات عن قناة السويس، وإثارة إهتمامها بضرورة الدخول فى مفاوضات دولية حول مستقبل القناة، ويضيف جورج بيكو أنه قد إتصل بجون فوستر دلاس وزير الخارجية الأمريكية وتحدث معه في هذا الموضوع في خريف سنة ١٩٥١، لكن دلاس لم يبد حماساً للفكرة[٣].

وكانت أهم نتيجة توصلت لها الشركة تكوين مجموعة من الشخصيات البريطانية، تضم أعضاء فى مجلس العموم، ومجلس اللوردات أطلقت على نفسها اسم "جماعة السويس" وتعهدت الشركة بتمويلها. وراحت هذه الجماعة تشن حملة واسعة ضد مصر لصالح شركة قناة السويس، وتنوعت مجالات هذه الحملة وتراوحت من الضغط المباشر إلى النشر فى الصحف إلى إصدار البيانات وطرح الاقتراحات على مجلس العموم واللوردات. وكانت الشركة تحاول إثارة المخاوف من أن تأميم الشركة قد يعقبه كما حدث فى حالة شركة البترول الإيرانية - البريطانية فى عبدان انسحاب لكل الخبراء الأوربيين وبخاصة المرشدين. إن أقل من ثلث المرشدين فى الوقت الحالى هم من المصريين، ومعنى ذلك أن القناة فى حالة تأميمها سوف تتوقف عن العمل، وهذا لن يؤدى فقط إلى اضرار بسلامة المواصلات فى العالم وإنما سوف يؤدى إلى عملية فوران وطنى

بين كل شعوب الشرق الأوسط، وربما أيضاً بين بعض شعوب الكومنولث"(٤).

فى مايو ١٩٥٤ قامت شركة قناة السويس بحملة إعلامية واسعة فى الولايات المتحدة لحث المسئولين الأمريكيين على تبنى فكرة المفاوضات الدولية حول مستقبل القناة ويظهر من تتبع مناقشات مديرى الشركة مع الأمريكيين أن الشركة كانت تريد إما مد فترة امتيازها بعد سنة ١٩٦٨ أو تدويل القناة، بمعنى إنشاء سلطة دولية غربية تشرف عليها. وباختصار، فإن الشركة لم تكن تريد بأى حال أن ترى قناة السويس وقد عادت إلى مصر.

تحدث جورج بيكو فى مايو ١٩٥٤ مع السناتور جاكوب جافيتس وألقى محاضرة أمام مجلس العلاقات الخارجية، وأخرى أمام لجنة الشرق الأوسط التابعة للمجلس القومى للتجارة الخارجية حول موضوع مد الامتياز أو التدويل. كما التقى برؤساء تحرير كبرى الجرائد والمجلات الأمريكية وحثهم على الاهتمام بمسألة التدويل. وفى واشنطن تحدث مع هنرى بايرود، مساعد وزير الخارجية الأمريكية لشؤون الشرق الأوسط آنذاك، وسفير الولايات المتحدة فى مصر فيما بعد، وتحدث مع روبرت مورفى نائب وكيل وزارة الخارجية، وآلن دلاس رئيس المخابرات المركزية الأمريكية، بيد أن المسئولين الأمريكيين لم يلتزموا بشىء مع جورج بيكو، واكتفوا بالتأكيد على ضرورة جلاء القوات البريطانية عن مصر(٥).

وكانت الحكومتان البريطانية والأمريكية قد طرحتا فيما بينهما مبكراً موضوع إنشاء هيئة للمنتفعين بقناة السويس. وتكررت الإشارات إلى هذه الهيئة فى وثائق الدولتين ابتداء من شهر يناير ١٩٥٣. ثم رأت الحكومتان بعد التوصل إلى صيغة مبدئية أن تعرضها على الحكومة الفرنسية التى كانت تعتبر نفسها حامية شركة قناة السويس، وأدخلت الحكومة الفرنسية

تعديلات على الصيغة البريطانية-الأمريكية المقترحة. فقد كان رأيها أن مجرد تشكيل هيئة من المنتفعين لقناة السويس تضم الشركات البحرية، وشركات التأمين، والبنوك المهتمة بالتجارة العابرة على قناة السويس قد يجعل من مثل هذه الهيئة فى النهاية مجرد جهة استشارية، لذلك طالبت بتقوية الصيغة بحيث تكون لهيئة المنتفعين سلطة تعوضها عن غياب القاعدة العسكرية البريطانية فى قناة السويس(٦).

ثم كررت إدارة شركة قناة السويس جهودها فى طريق مد الامتياز أو التدويل مع كل من فرنسا وبريطانيا فلجأت إلى كريستيان بينو وزير خارجية فرنسا لكى يتوسط لدى مصر لمد الامتياز. وفى ١٢ مارس سنة ١٩٥٦ اجتمع بينو بعبد الناصر فى القاهرة، وطلب منه مد امتياز الشركة وبرر طلبه بأن شركة قناة السويس تجد نفسها تحت إلحاح شديد من شركات الملاحة فى العالم لتوسيع قناة السويس، وقد أبدت بعض البنوك الأمريكية استعدادها لتقديم القروض اللازمة لعملية التوسيع، ولكن الشركة تريد أن تطمئن إلى مستقبل امتيازها فى مصر قبل الدخول فى مشروعات طموحة لتوسيع القناة. وأضاف بينو متحدثاً باسم الشركة" بأنها تفضل أن تكون الأمور واضحة فى المستقبل بما لا يدع مجالاً للشك، والتأكيد المقبول من جانبها هو أن تقوم الحكومة المصرية بمد الامتياز الرسمى لفترة أخرى منعاً لأى لبس، ولكى تستطيع شركة قناة السويس أن تقبل على نفسها التزامات جديدة وهى لا تعرف إذا كان الوقت سيتيح لها أن تسترد ما تصرفه وأن تسدد ما تقترضه"(٧). وقد رد عبد الناصر بأنه لا يقبل مد الامتياز بعد انتهائه يوماً واحداً، وأضاف أننى متحمس لضرب أى مسئول مصرى يتخذ مثل هذا القرار بالرصاص، لأنه قرار يصل إلى حد الخيانة(٨).

وسنرى بعد قليل أن ضغوط شركات البترول التى تحدث عنها كريستان بينو لم تكن فى الوقع إلا ضغوطاً من إدارة شركة قناة السويس

ذاتها على شركات البترول لكى تبدو شركة القناة، وكأنها مضطرة لطلب مد الامتياز.

أما فى بريطانيا، فقد أسفرت جهود الشركة عن حملة دبلوماسية سياسية بريطانية هدفها طرح موضوع مستقبل القناة للتفاوض الدولى. ففى مايو ١٩٥٦ صرح المتحدث الرسمى باسم وزارة الخارجية البريطانية بأننا ندرك أهمية التوصل إلى اتفاقات مرضية حول مستقبل القناة، ونحن نريد أن نناقش المسألة مع الحكومة المصرية. ولكن الخطوة الأولى هى التوصل إلى فكرة عن المشكلات التى ستنشأ سنة ١٩٦٨، وتقوم شركة القناة بدراسة متأنية فى هذا الموضوع [٩]. وكان المتحدث يشير إلى دراسة طلبتها الشركة من شركة إيباسكو، سنشير إليها فيما بعد، كذلك أثير الموضوع فى مجلس العموم البريطانى حيث طالب أحد أعضاء المجلس بضرورة تعاون بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة للتوصل إلى تسوية مرضية بشأن مستقبل القناة.[١٠]

وقد سارع عبد الناصر بالتعقيب على تلك الحملة قائلاً "إن بريطانيا تريد أن تحرمنا من حقوقنا فى أن نصبح أحراراً أقوياء. إن قناة السويس ستصبح بعد ١٢ سنة ملكاً خالصاً لمصر، ولكن إنجلترا تحاول تحطيم ذلك، وإن مصر والدول العربية لن ترضخ[١١]

وفى أعقاب تبادل الخطابات بين مصر والشركة فى ٣ مايو ١٩٥٦ جددت الشركة جهودها فى الولايات المتحدة، ذلك أن إدارة الشركة كانت قد بدأت تشك فى نوايا الحكومة المصرية بسبب الحملات الصحفية التى قادها الدكتور الحفناوى، والمقالات التى نشرتها بعض القيادات فى مجلة الهدف، والموقف المتشدد الذى أخذته الحكومة المصرية فى المفاوضات، وأخيراً، بسبب وضوح التوجه المضاد للهيمنة الغربية لدى حكومة الثورة. وعلى هذا اتصل جورج بيكو فى يونيو ١٩٥٦ بالمسئولين عن قسم الشرق الأوسط فى

وزارة الخارجية الأمريكية، ورئيس غرفة الملاحة الدولية كولن أندرسون مقترحاً تكوين لجنة دولية من ممثلي الشركات الملاحية الكبرى التي تستعمل القناة، على ان تقدم الشركة إلى اللجنة المعلومات اللازمة عن سياسات الحكومة المصرية، وفي أواخر فترة الامتياز تتولى اللجنة إثارة اهتمام الدول الكبرى بمستقبل القناة وإنشاء "تنظيم دولي" يحل محل الشركة في إدارة القناة[١٢].

اتبعت إدارة شركة قناة السويس إستراتيجية أخرى لتحقيق نفس الهدف، وهي تأليب شركات البترول الأمريكية ضد الحكومة المصرية. يقول جورج بيكو إنه في سنة ١٩٥٤ التقى بممثلي بعض الشركات البترولية في "معهد التجارة البحرية" وقدم لهم اقتراحه بتكوين لجنة دولية، كما التقى بممثلي شركات ستاندارد أويل، وحلف أوبل وتكساكو، وقدم لهم نفس الاقتراح[١٣]. وفي هذه اللقاءات طرح الرجل تصوره لمستقبل القناة فأوضح لشركات البترول أن هذه الشركات ستبدأ سنة ١٩٦٥ في استخدام ناقلات للبترول حمولة ٨٠ ألف طن، وأنه لا بد من تعميق قناة السويس وتوسيعها قبل هذا التاريخ. ولكن لما كان هذا التعميق يكلف مئات الملايين من الدولارات، ولما كان امتياز الشركة ينتهي سنة ١٩٦٨، فإنه من غير المتصور أن تنفق الشركة تلك المبالغ دون أن يتوفر لها الوقت الكافي لاستعادتها على الأقل. وخلص جورج بيكو إلى اقتراحين طلب من شركات البترول أن تساعده في الضغط على الحكومة المصرية لاختيار أحدهما: الاقتراح الأول هو مد امتياز شركة قناة السويس لمدة عشرين عاماً، والاقتراح الثاني، تكوين شركة جديدة تحصل على امتياز جديد وتدخل فيها شركة قناة السويس بنصيب.

وفي الوقت نفسه طلب من شركة إيباسكو (E.B.A.S.Co.) "Electric Board and Share Company" أن تقوم بدراسة مسحية شاملة لعملية

الملاحة فى قناة السويس حتى انتهاء فترة الامتياز، وذلك بالتعاون مع شركات البترول المذكورة. وفي هذا يقول جورج بيكو إن هدفه من طلب هذه الدراسة هو أن تكون أساساً للمفاوضات القادمة حول مستقبل القناة[١٤]. ويمكن أن نضيف أنه كان يهدف من وراء طلب تلك الدراسة مد شركات البترول بمعلومات تثير اهتمامها بموضوع مستقبل القناة، وإلى إدخال شركات البترول كطرف فى الموضوع. ويضيف جورج بيكو أنه اتصل شخصيا بعبد الناصر، وعبد اللطيف البغدادى، وعبد الجليل العمرى وزير المالية آنذاك مستفسراً منهم عن رأيهم فى مستقبل امتياز الشركة ولكن كان لهم رد واحد هو "لا يمكن عمل أى شئ مع الشركة طالما أن الاحتلال البريطانى ما زال قائما"[١٥].

من ناحية أخرى كان محمد على الغتيت، القائم بأعمال مكتب مندوب الحكومة لدى شركة قناة السويس قد كتب تقريرا سنة ١٩٥٥ بعنوان "تقرير سرى عن المشروع الثامن لتحسين الملاحة فى قناة السويس". وقد استعرض التقرير تطور حركة الملاحة فى القناة ويوضح أن الملاحة تضاعفت فى الفترة ما بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية، كما أنها زادت خمسة أضعاف فى خلال الثلاث والثلاثين سنة الأخيرة. ويتناول التقرير قوة الشركة ونفوذها وسمعتها العالمية مما يتطلب من الحكومة المصرية الاستعداد لمواجهتها. ويشير الغتيت فى تقريره إلى أن الشركة قد أبلغته قرار مجلس إدارتها الصادر فى ديسمبر سنة ١٩٥٤ بخصوص المشروع الثامن لتحسين القناة، وأن المشروع يهدف إلى إنشاء قناتين جانبيتين وتوسيع القناة ذاتها وتعميقها على طول ١٤ كيلومتراً بنفقات تبلغ ٢٠ مليون جنيه على مدى سبع سنوات. ويوضح أن المشروع لن يكون سلاحاً يمكن أن تستعمله الشركة مستقبلاً فى معركة مد الامتياز، ويشير إلى نية الشركة مد الامتياز إذ أن رئيس مجلس إدارة الشركة ومديرها العام قد أبلغاه فى باريس فى نوفمبر

سنة ١٩٥٤ بأنه عند انتهاء الامتياز ستكون مصر أمام ضغوط عالمية من أصحاب السفن والدول البحرية وإلحاق القناة بالأمم المتحدة. وحذر الغتيت فى تقريره أن الشركة قد تكون بسبيل إعداد حملة لا تثار الآن ولكن فى السنوات الأخيرة من الامتياز، حملة لا تحمل لواءها، ولكن يحملها أصحاب السفن والدول البحرية تتولى تغذيتها. وترمى هذه الحملة إلى إبراز الدور الذى قامت به الشركة، وتصويرها فى صورة المؤسسة الوحيدة التى يمكنها أن تدير هذا المرفق العالمى الإدارة المثالية التى ترضى العالم كافة".

كان رد عبد الناصر على تلك المحاولات إيهام الشركة بأن مصر ستنتظر حتى انتهاء عقد الإمتياز. فقد بادر عبد الناصر فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩٥٤، بمناسبة الذكرى الخامسة والثمانين لافتتاح قناة السويس بتوجيه رسالة إلى الشعب المصرى أكد فيها أن مصر قد بدأت فى الإعداد لتسلّم إدارة القناة حين ينتهى الامتياز سنة ١٩٦٨. وكانت تلك فى الواقع رسالة موجهة إلى الشركة ذاتها مؤداها أن حكومة الثورة لا تنوى أن تمس امتياز الشركة الراهن(١٦). قال عبد الناصر فى رسالته:

إنى أعلن باسمكم بداية الفترة التى تمهد لتتسلم مصر مرفق قناة السويس عند انتهاء مدة الامتياز، والقيام على إدارته واستغلاله، وأنه لواجب على حكومة الثورة أن تخص بعنايتها الفائقة قناة السويس، هذا الجزء الذى لا يتجزأ من بلادنا وأن تحرص كل الحرص على أن تقوم مصر بالأعباء التى تقع على عاتقها وعلى أن يظل هذا الطريق العالمى مفتوحاً صالحاً مداراً خير إدارة.

وإذ كنا نبدأ هذه الفترة من الآن فلكى نتقى الوقوع من جديد فى أخطاء الماضى عندما كانت المشاكل تفاجئنا ونحن عاجزين، وإتباعاً لمنطق التبصر والحكمة، وهما يقضيان بالتمهيد ليوم انتهاء الامتياز بإجراء الدراسات اللازمة وإعداد

العدة لمواجهة المشاكل الدقيقة التى تلازم إدارة مثل هذا المرفق ...وإننى لسعيد بأن أنوه فى هذه المناسبة بالعلاقات الودية الطيبة التى تقوم بين حكومة الجمهورية والشركة العالمية لقناة السويس البحرية(١٧).

ويضيف جورج بيكو أنه كجزء من عملية التمويه أخبره برهان سعيد مندوب الحكومة المصرية لدى شركة قناة السويس فى ١٨ نوفمبر سنة ١٩٥٥ ان لديه تعليمات صريحة بإعداد كل شيء لتسلّم الشركة بعد انتهاء الامتياز سنة ١٩٦٨(١٨). بل إن عملية التمويه وصلت إلى حد أن الدكتور محمود فوزى وزير الخارجية أخبر تشارل رو فى مقابلة معه فى ٢٢ مايو ١٩٥٦ أنه من الممكن الدخول فى مفاوضات لمد امتياز الشركة بعد سنة ١٩٦٨(١٩).

وقد نجحت عملية الخداع الإستراتيجى إلى حد أن الشركة قامت فى ٩ يوليو سنة ١٩٥٦، أى قبل التأميم بخمسة عشر يوماً بتحويل مبلغ ٨,٢ مليون جنيه إلى مصر. ويقول جورج بيكو، لم نكن نتوقع أن هذه المبالغ ستصادر، ولن تعود إلينا أبدا (٢٠). ويتضح من ذلك أن شركة قناة السويس لم تكن تنو تسليم إدارة القناة لمصر عند نهاية عقد الامتياز سنة ١٩٦٨، وأن الحكومة المصرية قد تلقت إشارات متعددة من الشركة والحكومات الغربية فى هذا الاتجاه. كذلك فقد وصلت معلومات بأن الشركة لا تقوم بعمليات الصيانة والإحلال والتجديد اللازمة لمعداتها فى القناة تحسبا لاحتمال عدم تجديد عقد الامتياز بحيث تتسلم مصر تلك المعدات وهى شبه منتهية الصلاحية مما يجعلها عاجزة عن إدارة الملاحة فى القناة. ولهذا فإن الاستيلاء على إدارة القناة قبل انتهاء عقد الامتياز كان أمراً منطقياً فى ضوء تصرفات الشركة.

(٢)

هل كان قرار التأميم مجرد رد فعل لسحب عرض تمويل مشروع السد العالى؟

يشيع فى كتابات منتقدى قرار تأميم شركة قناة السويس أن القــرار اتخذ بشكل متعجل للرد على قرار بريطانيا والولايات المتحدة والبنك الدولى بسحب عرض تمويل مشروع السد العالى، وأن القرار لم تسبقه دراســات تمهد لإتخاذه. والواقع أن وجهة النظر تلك تعود الى أنه عند اعلان القرار فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦، برر عبد الناصر القرار على أنه رد فعل للقرار الغربى، وذلك رغم الرأى الذى قدمه له فتحى رضوان قبل اعلان القــرار مباشرة. ويذهب البعض من المتعاطفين مع القرار الى أن فكــرة التــأميم نشأت كبديل يمكن التفاوض بشأنه مع الشركة على غرار التفــاوض مــع بريطانيا حول الجلاء، وذلك بعد أن بدأ يتضح فتور الغرب تجــاه تمويــل مشروع السد العالى، وأن سعى الشركة نحو مد عقد الإمتياز هو النقطة التى تحول عنها تفكير عبد الناصر نحوالتأميم، على نحومايقوله كينيث لــف[٢١]. كذلك يقول محمد حسنين هيكل أن بداية اهتمام عبد الناصر بموضوع قناة السويس يعود الى سنة ١٩٥٥، وأن تفكيره كان متجهــا قبــل ذلــك الــى الاستعداد لاستلام القناة عند انتهاء عقد امتياز الشركة[٢٢]. ومن ناحية أخرى يرى ثروت عكاشة أن عبد الناصر يعد العدة لقرار التأميم وأنه اتخــذ مــن رفض الغرب لتمويل مشروع السد العالى ذريعة لتأميم الشركة[٢٣].

وتدل الوقائع التاريخية على أن وجهة نظر ثروت عكاشة هى الأقرب الى الدقة، وأن عبد الناصر عندما ربط القرار بما فعله الغرب انما كان يريد أن يوجه رسالة الى الغرب بأنه يرد الضربة، ولم يعلن وقتهــا أنــه كــان

يحضر لهذا القرار منذ ١٩٥٢. فحينما جاء "الضباط الأحرار" إلى الحكم في يوليو سنة ١٩٥٢ كانت قضية استعادة السيطرة المصرية على قناة السويس، إحدى القضايا المطروحة فى سلم أولوياتهم. فقد تأثروا بفكر الحركة الوطنية المصرية الذى يربط بين استقلال مصر وسيطرتها على قناة السويس التي ارتبطت فى ذهنهم بالاحتلال. ففى العاشر من فبراير سنة ١٩٥٣، نشر الضباط الأحرار "مذكرة إستراتيجية " تلخص فكر جمال عبد الناصر ورفاقه ويمكن تلخيصها فى أن مصر على أتم استعداد للدفاع عن القناة، وهى لا تفكر إطلاقاً فى شراء الجلاء عن المنطقة بالانضمام إلى أى ميثاق أو معاهدة عسكرية تجعلها حليفة للغرب، وتكتفى القاهرة بالمطالبة بحقها. أما المفاوضات فيجب ألا تتعدى شكليات الجلاء وصيانة القاعدة[٢٤].

وفى سنة ١٩٥٤ طلب عبد الناصر من إدارة أنشأها حديثاً باسم "إدارة التعبئة العامة" أن تقوم بدراسة حول قناة السويس تاريخها، وعملها، وإدارتها، والعاملين فيها وقد انتهت الدراسة فى سنة ١٩٥٥، وبدأت الإدارة بعد ذلك فى نشرها فى المجلة الشهرية التى كانت تصدرها واسمها الهدف تحت عنوان "هذه القناة لنا"[٢٥]، كذلك أنشأ عبد الناصر مكتب قناة السويس كجهاز تابع لمجلس الوزراء تكون مهمته إعداد الدراسات عن القناة، كما صدرت تعليمات عبد الناصر إلى إدارة التعبئة العامة للقوات المسلحة للاهتمام بشئون القناة، وإلى المخابرات المصرية بالحصول على معلومات تثبت تدخل شركة قناة السويس فى الشؤون الداخلية لمصر مستغلة الأموال التى تتدفق عليها من عوائد المرور خاصة بعد أن تبين أن الدخل الحقيقى للشركة يفوق الدخل الذى كانت تخطر به الحكومة المصرية[٢٦].

وقد عبر عبد الناصر عن مفهومه لدور قناة السويس فى التاريخ المصرى فى رسالة وجهها إلى الشعب المصرى فى ١٧ نوفمبر ١٩٥٤ بمناسبة الذكرى الخامسة والثمانين لافتتاح القناة، فأوضح أن حفر القناة أدى

إلى احتلال مصر وإهدار حقوقها، وربط بوضوح بين اســتكمال اســتقلال مصر واستعادة مصر للقناة.

إن من يستعرض الأحداث التى عاصرت إنشاء قنــاة السويس وتلك التى تلت هذا الإنشاء لا يفوته أن يدرك مــا كان للقناة من أثر خطير فى تاريخ بلادنا، جعلت منه تاريخاً حافلاُ بالعبر مليئاً بألم الذكريات. ألم تدفع مصر فــى هــذا الطريق العالمى للملاحة ثمناً غالياً؟ ألم تهدر حقوقها فــى تلك الفترة من تاريخها؟ ألم تكن القناة من الأسباب الرئيسة التى دفعت بالاستعمار إلى احتلال بلادنا بعد أن بيعت أسهم مصر فيها بأبخس الأثمان ؟ ألم يتخذ الاستعمار من القنــاة ذريعة يسوغ بها بقاء الاحتلال ومن الدفاع عنها سبباً لربط مصر بعجلتها ؟ ذلك عهد سجلنا نهايته وانقــضاءه بحمــد اللــه باتفاق الجلاء. لقد كانت مصر للقنــاة وذلــك هــو الماضى، ولم تعد مصر للقناة، ذلك هو الحاضــر، ســوف تكون القناة لمصر ذلك هو المستقبل[٢٧].

بيد أن عبد الناصر قرر ألا يتعامل مع موضوع استعادة السيطرة علــى قناة السويس إلا بعد الانتهاء من موضوع جلاء القــوات البريطانيــة عــن قاعدتها فى القناة. فلم يكن ممكناً أن يتخذ عبد الناصر إجراءات ضد الشركة فى الوقت الذى تتركز فيه القوات البريطانية على ضفاف القناة، خاصة فــى ضوء ما هو معروف عن علاقات الشركة الوثيقة بالغرب وقدراتها الماليــة الهائلة. ومن ثم فقد تم اتخاذ قرار بعدم الاقتراب من موضوع امتياز الشركة حتى يتم البت فى موضوع الجلاء. وفى ذلك يقول مصطفى الحفناوى إنه فى أغسطس سنة ١٩٥٢ قابل جمال عبد الناصر وشرح له ضرورة إنهاء امتياز الشركة فرد عليه عبد الناصر قائلاً : " أحسن حاجة نركز دى الوقت علــى إخراج الإنجليز من القاعدة العسكرية، وأعدك بعد خروجهم هنأمم القناة"[٢٨].

وفى أغسطس سنة ١٩٥٦ كتب الحفناوي مؤكداً ذلك بقوله :

> **اتصلت بنا الثورة منذ أول عهدها، فالتقينا برجالها البواسل، وتعاهدنا على تطهير أرض الوطن من شركة قناة السويس بعد أن يتم جلاء الغاصب عن القاعدة العسكرية فى القناة[٢٩].**

ويروى الدكتور الحفناوى فى مذكراته الخاصة قصة لقائه الأول مع عبد الناصر فى أغسطس سنة ١٩٥٢ فيقول :

> **ذات مساء فى شهر أغسطس ١٩٥٢، تلقيت دعوة تليفونية للتوجه إلى مقر القيادة العامة للثورة بمنشية البكرى بالقاهرة وفى تلك الليلة حدث أول لقاء بينى وبين المغفور له جمال عبد الناصر، وكان يومئذ يشغل منصباً متواضعاً هو منصب مدير مكتب القائد العام اللواء محمد نجيب. وفى تلك الليلة سألنى جمال عبد الناصر عن سر اهتمامى بموضوع قناة السويس، وشرحت له القضية فى إيجاز، وسمع بعض زملائه الذين ترددوا على الحجرة وأذكر منهم المغفور لهما عبد الحكيم عامر، وجمال سالم طرفاً من الحديث. وقد قال عبد الناصر تعليقاً على حديثى عن قناة السويس، كلمة تقتضينى الأمانة فى سرد الذكريات أن أسجلها. قال بالحرف الواحد " اسمع يا دكتور، يجب علينا أن نركز الجهود فى إجلاء الإنجليز عن القاعدة العسكرية فى منطقة القناة دون أن نثير موضوع شركة قناة السويس حتى لا تتعقد الأمور، وأنا أعدك أنه فور جلاء الإنجليز عن القاعدة العسكرية سوف أقوم بتأميم شركة قناة السويس.**

ويضيف الحفناوى، أنه عندما التقى بعبد الناصر فى يوليو ١٩٥٥، قال عبد الناصر أنه سيؤمم الشركة سنة ١٩٦٠، ولما أعترض الدكتور الحفناوى على طول فترة الانتظار رد عبد الناصر "أنت تقول فى كتبك أنها ليست شركة، بل دولة داخل الدولة، وخلف هذه الدولة دول الاستعمار مجتمعة أمريكا، وبريطانيا، وفرنسا، ومعنى ذلك أنه قبل المساس بالشركة يجب أن

أشترى السلاح من أى مصدر، وأن أبنى الجيش المصرى استعداداً للحرب"(٣٠). من المهم أن نتذكر هذه العبارة جيداً، إذ أنها تعنى أن عبد الناصر كان يتوقع منذ البداية أن يؤدى تأميم شركة القناة الى الحرب مع القوى الغربية.

ويؤكد ذلك على صبرى (مدير مكتب عبد الناصر للشئون السياسية أثناء فترة اتخاذ قرار التأميم) أنه كان واضحاً فى تفكير الرئيس أن يبدأ التعامل مع موضوع شركة قناة السويس بمجرد توقيع اتفاقية الجلاء، وتنفيذ عملية التأميم بعد خروج القوات البريطانية وبمجرد أن يصبح واضحاً أن مصر قادرة على إدارة القناة بكفاءة (٣١). كما يؤكد عبد اللطيف البغدادى ذلك بقوله " لم يكن تفكير جمال عبد الناصر فى تأميم القناة وليد الساعة. ولكن فكرة التأميم كانت مختمرة فى أذهاننا منذ فترة طويلة من بعد قيام الثورة، ولم يكن قد حان الوقت المناسب لاتخاذ هذه الخطوة لوجود قوات بريطانية فى منطقة القناة حتى ١٣ يونيو ١٩٥٦"(٣٢).

وتأكيداً لذلك قال الرئيس اليوغوسلافى تيتو إن عبد الناصر قد أخبره أثناء لقائه معه على ظهر اليخت "غالب" فى قناة السويس فى ٥ فبراير ١٩٥٥ أنه ينوى تأميم شركة قناة السويس لأن مصر كدولة مستقلة لا يمكنها أن تتسامح مع وجود أجانب يمارسون سلطة مستقلة على أرضها(٣٣). وقد صرح عبد الناصر لكينيث لف (الذى نقل تلك الرواية) بأن تيتو ربما قد أساء فهمه لأنه لم يكن لديه فكرة واضحة عن التأميم فى هذا الوقت(٣٤). ولكننا نتشكك فى جدية هذا التصريح، وذلك فى ضوء ما ذكره عبد الناصر فى ١٢ أغسطس ١٩٥٦ من أنه ظل لمدة عامين ونصف يفكر فى تأميم الشركة قبل التأميم، أى منذ أوائل سنة ١٩٥٤. ولكنه لم يقرر التأميم إلا بعد سحب الغرب عرض تمويل مشروع السد العالى(٣٥).

لم يكن تأميم عبد الناصر لقناة السويس مجرد رد تلقائي على موقف أمريكا، وإنجلترا، بل كان أمراً حسب له عبد الناصر حسابه وقدره من قبل. كانت الدراسات بشأن وضع قناة السويس ومستقبلها معدة في مكتبه. وقد دفعت سياسة عبد الناصر شركة قناة السويس لكي توافق على استثمار عشرين مليون جنيه في مشروعات التنمية في مصر. وكان عبد الناصر يطلب لمصر نصيباً أكبر من دخل القناة يصل إلى خمسين في المائة مثلما تدفع الشركات المستغلة للبترول. ثم استقر به التفكير بعد تلاحق الحوادث التي انتهت برفض تمويل السد العالي إلى أن ما سوف تتعرض له مصر في سبيل المطالبة بنصف الدخل هو الذي سوف تتعرض له في الحصول على كل الدخل، والواقع أن السياسة الوطنية المستقلة التي رسمها جمال عبد الناصر كانت ستنتهي حتماً إلى استرداد مصر لقناة السويس، وأن سحب تمويل السد العالي يمكن اعتباره المناسبة أو السبب المباشر الذي أدى لاتخاذ عبد الناصر قرار التأميم وتنفيذه(٣٦). كذلك فالدكتور الحفناوي يقرر أنه في ٢٠ يوليو سنة ١٩٥٥ قابل عبد الناصر الذي أكد له أنه مصمم على الإجهاز على شركة قناة السويس، ولكننا لم نعرف الوقت الذي حدده لذلك(٣٧).

من الواضح ان موضوع تأميم شركة قناة السويس كان مقرراً منذ بداية الثورة. وأن القضية المطروحة كانت هي توقيت القرار وكيفية تنفيذه. أما التوقيت فكان محدداً بالفترة التالية لخروج القوات البريطانية، وبالتقريب سنة ١٩٦٠. وقد أخبر عبد الناصر بذلك الدكتور الحفناوي في أوائل سنة ١٩٥٣ بعد أن كلفه بإنشاء مكتب قناة السويس، قائلاً، أعدك أن تؤمم هذه الشركة سنة ١٩٦٠، ويبرر عبد الناصر تحديده لهذا التاريخ بأنه لا بد أن يكون لدى مصر جيش قادر على مواجهة المعركة مع الدول المسيطرة على شركة القناة(٣٨).

بمجرد أن استقرت الأمور لمجلس قيادة الثورة، شرع عبد الناصر فى إنشاء الأجهزة التى تكفل استكشاف أنشطة الشركة العالمية لقناة السويس البحرية، وزيادة قدرة مصر على إدارتها حين تجئ لحظة التأميم. وفى هذا الصدد اتبع عبد الناصر أربع إستراتيجيات هى: تعدد قنوات جمع المعلومات، وتخصص قنوات جمع المعلومات، وانفصال قنوات جمع المعلومات، والسرية والخداع التكتيكى.

لم يعتمد عبد الناصر على جهاز واحد لجمع المعلومات والتحضير لإدارة الشركة ولكنه اعتمد على عدة أجهزة أهمها مكتب شؤون قناة السويس الذى أداره الدكتور مصطفى الحفناوى، ومكتب مندوب الحكومة لدى شركه قناة السويس، الذى أداره الدكتور حلمى بهجت بدوى، والأستاذ محمد على الغتيت، والأستاذ برهان سعيد، وإدارة الأبحاث بوزارة الخارجية بإشراف السفير إبراهيم صبرى، وإدارة التعبئة بالقوات المسلحة بإشراف اللواء أنور الشريف، ثم المخابرات العامة بإشراف ثروت عكاشة، ثم أخيراً مكتب قناة السويس فى رئاسة مجلس الوزراء بإشراف السيد على صبرى. وكان كل من هذه المكاتب متخصصاً فى أحد الجوانب المتعلقة بشركة قناة السويس. فقد ركز مكتب مندوب الحكومة على الدراسات القانونية والتاريخية، بينما ركزت إدارة التعبئة على الإحصاءات عن الإمكانات الفنية للشركة. ومن الجدير بالذكر أن هذه الأجهزة كانت مستقلة عن بعضها البعض بحيث أن بعضها لم يكن يعلم بما تقوم به الأجهزة الأخرى، وذلك باستثناء التنسيق وتبادل المعلومات بين مكتب مندوب الحكومة لدى شركة قناة السويس والمخابرات العامة. بيد أن هذه المكاتب والأجهزة كانت تخضع لإشراف وتنسيق مكتب قناة السويس برئاسة الوزراء. وأخيراً، فإن معظم هذه الأجهزة كانت تعمل فى سرية كاملة وفى حرص على التمويه تحت ستار أنها تعمل لتسلّم إدارة الشركة حينما ينتهى امتيازها سنة ١٩٦٨. ولم يكن أعضاء تلك

المكاتب يعلمون بالهدف النهائى لأنشطتهم، كما أن زملاء عبد الناصر من أعضاء مجلس قيادة الثورة السابق لم يكونوا أيضاً على علم بأنشطة تلك الأجهزة ولا بوجود بعضها كمكتب قناة السويس فى رئاسة الوزراء والذى كان أكثر الأجهزة العاملة فى ميدان الدراسات التحضيرية إمعانا فى السرية. ولعل أهم قنوات جمع المعلومات عن الشركة تمثلت فى :

١ - الاستشارات التى كان يقدمها الدكتور مصطفى الحفناوى. ففى أوائل ١٩٥٣ كلفه مجلس قيادة الثورة رسمياً بإنشاء مكتب لشؤون قناة السويس يكون تابعا لرئاسة الوزراء. وقد أوضح التكليف أن مهمَة المكتب هى إعداد دراسات قانونية هدفها "تصفية شركة قناة السويس" كما يقول الدكتور الحفناوى فى مذكراته. وقد طلب مجدى حسنين، الذى نقل هذا التكليف إلى الدكتور الحفناوى، أن يكون مقر المكتب إما رئاسة مجلس الوزراء أو مبنى مجلس الشيوخ. وقد شرع الدكتور الحفناوى فى إنشاء المكتب فى مبنى مجلس الشيوخ وكان أول عمل له هو الطلب من رئاسة الوزراء أن تأمر بوضع محفوظات قصر عابدين الخاصة بقناة السويس بما فيها الأوراق التى خلفها الخديو إسماعيل باللغة التركية لترجمتها رسمياً، وذلك توطئة لإنشاء دار محفوظات رسمية خاصة بقناة السويس(٣٩). وقد استجابت رئاسة مجلس الوزراء لطلب الدكتور الحفناوى، وطلبت من المهندس محمود يونس، الذى كان يعمل آنذاك حارساً على القصور الملكية ومستشاراً فنياً بمجلس الوزراء، أن ينفذ هذا الطلب، ولكن مكتب مندوب الحكومة لدى شركة قناة السويس تولى الأمر فيما بعد .

٢ - هيئة المخابرات الحربية، فابتداء من منتصف سنة ١٩٥٥ كلفها عبد الناصر بالحصول على معلومات عن شركة قناة السويس. ففى أغسطس سنة ١٩٥٥ كلف اللواء طه فتح الدين قائد منطقة القناة وشرق

الدلتا، بالحصول على معلومات عن الدخل الحقيقى للشركة. وقد اتضح من تلك المعلومات أن الدخل الحقيقى للشركة يزيد كثيراً على دخلها المعلن. وفى مايو ١٩٥٦ طلب عبد الناصر من الصاغ فؤاد هلال قائد مخابرات القناة آنذاك، إعداد تقرير موقف عن الاحتمالات التى ستنشأ إذا تم تأميم شركة قناة السويس. وفى نفس الشهر طلب من ثروت عكاشة بصفته نائباً لمدير المخابرات العامة آنذاك، إعداد دراسات شركة قناة السويس(٤٠).

٣ – ادارة الأبحاث بوزارة الخارجية التي تم تكليفها بجمع معلومات عن الشركة، وعلاقاتها الدولية وكانت إدارة الأبحاث بإشراف السفير إبراهيم صبرى تعمل بالتنسيق مع مكتب قناة السويس برئاسة مجلس الوزراء. وقد قامت الإدارة بأبحاث سياسية وقانونية عن شركة قناة السويس.

٤ – وزارة التجارة والصناعة، وكانت تضم قسماً يسمى "مصلحة الشركات، ويختص بالتعامل مع الشركات المصرية ويتابع أنشطتها. ونظراً لأهمية الشركة العالمية لقناة السويس فقد أنشئ قسم فرعى فى إطار مصلحة الشركات يسمى "إدارة قناة السويس" وكان يتولى متابعة تنفيذ الإتفاقات المعقودة بين الحكومة المصرية والشركة ويقوم بالتفتيش على أنشطتها. وكان يرأسه برهان سعيد الذى أصبح مندوب الحكومة لدى شركة قناة السويس فيما بعد. وقد قام هذا المكتب بالعديد من المهام الرقابية على الشركة بالتنسيق مع مكتب مندوب الحكومة. فقد قام بمتابعة إتفاق مصر مع الشركة سنة ١٩٤٩ بشأن تمصير وظائف الشركة، وأوضح مدى تلاعبها فى تنفيذ الإتفاق، وأعد تقارير عديدة فى هذا الصدد رفعت إلى الأجهزة العليا المختصة.

٥ - إدارة التعبئة بالقوات المسلحة التي قامت إبتداء من أواخر سنة ١٩٥٤ بناء على طلب عبد الناصر من اللواء أنور الشريف مدير عام الإدارة جمع معلومات عن شركة قناة السويس وبالذات عن إمكانياتها الفنية ونوعيات العاملين فيها، على أن يكون ذلك تحت إشراف مكتب قناة السويس برئاسة مجلس الوزراء. وعندما شرعت الإدارة فى جمع المعلومات عن العاملين بالشركة وعن إمكانيات ورشها الفنية رفضت الشركة الإدلاء بتلك المعلومات لأنه لا يوجد ما يلزمها بالإدلاء بها نتيجة لذلك تم إصدار قانون التعبئة سنة ١٩٥٥ والذى يلزم كل الشركات العاملة فى مصر بإعطاء إدارة التعبئة المعلومات التى تطلبها. وكان الهدف من هذا القانون فى الواقع موجهاً إلى شركة قناة السويس، كما يقول على صبرى[٤١]. وفيما بعد تم إنشاء جهاز التعبئة العامة والإحصاء تحت ستار تجميع الإحصاءات العامة للدولة، لكن محمد فائق يقول إن الهدف الحقيقى منه كان جمع معلومات عن شركة قناة السويس[٤٢]. وقامت إدارة التعبئة بجمع معلومات كاملة عن القدرات الفنية للشركة، والعاملين فيها بحيث توفر لدى مكتب قناة السويس بالرئاسة معلومات كاملة عن الورش الفنية للشركة[٤٣].

٦ - مكتب مندوب الحكومة لدى شركة قناة السويس. كانت شؤون قناة السويس فى الحكومة المصرية تدار تقليدياً من وزارة التجارة والصناعة وذلك من خلال مصلحة الشركات بالوزارة، ومن خلال مكتب مندوب الحكومة لدى شركة قناة السويس. وهذا المكتب كان موجوداً منذ تأسيس شركة قناة السويس . وفى أكتوبر سنة ١٩٥٤ طلب عبد الناصر من الدكتور حلمى بهجت بدوى تطوير مكتب مندوب الحكومة بحيث يتم تطعيمه بكفاءات مختلفة تقوم بدراسة كافة أوضاع شركة قناة السويس، وذلك لكى تكون الحكومة المصرية على علم بكافة

شئون الشركة، وقادرة على اتخاذ أى قرار بشأنها. وفى ٢ نوفمبر سنة ١٩٥٥ صدر القرار الخاص بتشكيل مكتب مندوب الحكومة برئاسة الدكتور حلمى بهجت بدوى والذى أعطى صلاحيات تكوين هيئة المكتب. وقد أعطى المكتب استقلال مالى وإدارى كاملين وأعفى من كل القيود الحكومية على أعماله، كما نقلت تبعيته إلى مجلس الوزراء ونقل مقره إلى مجلس قيادة الثورة بالجزيرة. وقد عهد عبد الناصر إليه بمهمة رسمية وهى إعداد الدراسات القانونية عن شركة قناة السويس، وأوضاعها المالية والتزاماتها الدولية. ولكن المهمة الحقيقية للمكتب كما قال محمد على الغتيت، كانت دراسة أوضاع الشركة وطبيعة امتيازها استعداداً لاتخاذ قرار بإنهاء الامتياز فى أى وقت. وكان مفهوماً أن القرار سيتخذ عقب جلاء القوات البريطانية فى يونيو ١٩٥٦(٤٤). بناء على ذلك قام المكتب بمجموعة من الأنشطة التفتيشية والبحثية لجمع معلومات عن شركة قناة السويس، وللوقوف على جميع أنشطتها، وأقسامها، وأسلوب عملها ومدى التزامها بإتفاقية سنة ١٩٤٩. ويقول برهان سعيد- الذى شارك فى تلك الأنشطة بوصفه عضواً فى المكتب آنذاك- إن الأنشطة التفتيشية كانت تتم بتوجيه من الرئيس عبد الناصر وبالتنسيق معه، وأنه كان يخطر الرئيس بنتائج أنشطته. ويضيف برهان سعيد أنه أثناء لقاءاته مع ممثلى الشركة طلبوا منه تحديد أوضاع العاملين الأجانب فى الشركة بعد إنتهاء امتيازها، وأن الرئيس عبد الناصر طلب منه ألا يتحدث مع الشركة فى هذا الموضوع (٤٥). كذلك قام المكتب بإعداد سجل كامل لكل وثائق الشركة منذ عقد الامتياز الأول حتى سنة ١٩٥٥. كذلك تمت مراجعة ملفات مصلحة السكك الحديدية المتعلقة بالقناة وترجمتها إلى العربية، وكذلك حصر مواد العلاقة بين الحكومة والشركة فيما يتعلق بالعوائد على الأملاك المدنية

ورسوم الحفر، ورسوم البلديات. كذلك تم بحث الوضع القانونى للشركة بالنسبة لأحكام التشريعات الجديدة اللاحقة على إتفاقية سنة ١٩٤٩، وتصوير الوثائق المحفوظة عن النقد الأجنبى للشركة.

٧ - مكتب قناة السويس بمجلس الوزراء ويعتبر أهم المكاتب التى قامت بالتحضير لقرار التأميم لأنه أولاً كان بمثابة المكتب الرئيس المنسق لكل أعمال المكاتب الأخرى. ولأنه ثانياً كان تابعاً مباشرة لعبد الناصر وخاضعاً لإشرافه المباشر، ولأنه ثالثاً، كان يعمل على أساس واضح وهو تأميم شركة قناة السويس بمجرد جلاء القوات البريطانية، ولأنه أخيراً كان مكتباً سرياً لا يعلم أحد عنه شيئاً، بما فى ذلك أعضاء مجلس قيادة الثورة آنذاك.

فبمجرد توقيع إتفاقية الجلاء فى أكتوبر سنة ١٩٥٤ اتخذ جمال عبد الناصر قراراً سرياً بإنشاء مكتب قناة السويس تابعاً لرئاسة مجلس الوزراء وخاضعاً لإشرافه المباشر والشخصى. وكان الهدف من إنشاء المكتب هو :

أ- تجميع المعلومات عن شركة قناة السويس بهدف تبين إمكانية تأميم الشركة وإدارتها بكفاءة، وتحديد الموعد المتوقع لإمكان اتخاذ مثل هذا القرار.

ب - الإشراف على الأجهزة العاملة فى ميدان علاقة مصر بشركة القناة، والتنسيق بين تلك الأجهزة وتوجيهها نحو جمع المعلومات المطلوبة عن الشركة. ومن ثم فقد كان هذا المكتب يشرف على أعمال مكتب مندوب الحكومة، وإدارة الأبحاث بوزارة الخارجية، والمخابرات، وإدارة التعبئة بالقوات المسلحة.

ج - الإشراف غير المباشر على المفاوضات الدائرة مع الشركة.

كان مكتب قناة السويس يعمل فى سرية كاملة ولا يعلم أحد بوجوده وأهدافه سوى عبد الناصر ومدير مكتبه للشئون السياسية على صبرى الذى

كان يشرف على المكتب شخصياً ويحتفظ بدراساته. ولم يكن أعضاء المكتب يعلمون بالهدف من التكليفات التى تطلب منهم عن قناة السويس. ومن أهم الذين عملوا فى المكتب اللواء أنور الشريف مدير التعبئة بالقوات المسلحة آنذاك. والمهندس محمود يونس الذى قام بدراسات عن الجوانب الهندسية لأعمال شركة قناة السويس، والمستشار محمد فهمى السيد مستشار الرئيس للشئون القانونية(٤٦).

كان مكتب قناة السويس مكتباً سرياً إلى حد أن أعضاء مجلس قيادة الثورة لم يعرفوا بوجوده كما أن أعضاء الأجهزة والمكاتب الأخرى لم يكونوا على علم بإشرافه عليهم، وإن كان الأستاذ الغتيت قد ذكر لنا أنه كان يشعر أن هناك من يتابع أعمال مكتب مندوب الحكومة من رئاسة مجلس الوزراء. كذلك حينما أراد برهان سعيد بصفته مندوباً للحكومة أن يبلغ المسئولين عن بعض استنتاجاته عن أنشطة الشركة (وأهمها تعمد الشركة عرقلة تسليم القناة لمصر عند انتهاء الامتياز) فإنه قد أحيل إلى جمال سالم باعتبار أنه هو الذى يتولى موضوع قناة السويس فى مجلس قيادة الثورة. وكان ذلك جزءاً من محاولة تغطية الجهاز الحقيقى المختص بالموضوع. ويقول برهان سعيد أنه قد التقى بجمال سالم ونقل إليه معلوماته وأنه قد شعر أن جمال سالم ليست لديه معلومات كاملة عن الشركة(٤٧).

قام مكتب قناة السويس بأنشطة متعددة فى مجال تجميع المعلومات عن الشركة والإعداد لقرار التأميم. وكانت تلك الأنشطة تتم فى سرية كاملة تحت شعار إجراء دراسات عامة عن الإمكانيات الصناعية والبشرية لمختلف أجهزة الدولة. ومن تلك الأنشطة قيام المهندس محمود يونس بدراسة عن عملية الإرشاد البحرية فى قناة السويس شملت تحديد طبيعة عملية الإرشاد فى قناة السويس وإمكانية تيسير تلك العملية بحيث يمكن استعمال عدد أكبر من المرشدين المصريين البحريين فى عملية الإرشاد، والمؤهلات المطلوبة

فى المرشد، وعدد المصريين من أعضاء البحرية التجارية الذين تتوافر فيهم تلك المؤهلات، وانتهت الدراسة إلى وجود عجز فى عدد المصريين الممكن لهم العمل بالإرشاد، ولكن تبين أيضاً أن عملية الإرشاد يمكن تيسيرها وذلك بتقسيم القناة إلى قطاعات صعبة وأخرى سهلة، وبحيث يمكن توظيف العـــدد المحدد من المرشدين الأكفاء فى القطاعات الصعبة ثم إرشـــاد الـــسفن فـــى القطاعات السهلة بالمرشدين المصريين المبتدئين. وهذا ما تم فى إدارة القناة حين انسحب المرشدون الأجانب كما سنرى.

والخلاصة أن عبد الناصر كان يمهد منذ أوائل ١٩٥٣ لتأميم شركة قناة السويس، وأنه كان قد حدد موعداً لذلك ما بعد جلاء القـــوات البريطانيـــة، وتحقيقاً لهذا الهدف فقد شرع فى جمع المعلومات عن الشركة بحيث يتم تنفيذ التأميم متى حانت اللحظة المناسبة. وقد لجأ إلى العديد من الأجهزة العلنيـــة والسرية لجمع تلك المعلومات دون أن يعلم أى منها – ما عدا المشرف على مكتب قناة السويس – بالهدف النهائى من جمع تلك المعلومات

(٣)

هل استبعد عبد الناصر احتمال الغزو المسلح عند اتخاذ قرار التأميم؟

يشير عبد العظيم رمضان إلى أن عبد الناصر لم يتوقع بحال نشوب حرب نتيجة لقراره، وإنما كان يتوقع أن تنشب معركة سياسية واقتصادية تنتهى لصالح مصر، وبالتالى فإن القرار كان مبنيا على افتراض استبعاد الغزو العسكرى الغربى، ولما كان الغزو قد تم بالفعل فإن القرار كان مبنيا على افتراض غير صحيح[٤٨]. وقد دلل عبد العظيم رمضان على عدم توقع عبد الناصر للعدوان الثلاثى من أن مصر لم تكن مستعدة للحرب لا من حيث امتلاك القوات الكافية لمواجهتها، ولا من حيث حشد كل ما لديها من إمكانات عسكرية لهذه المواجهة فى المواطن التى يأتى منها الخطر الحقيقى على الحدود المصرية – الإسرائيلية فى قلب سيناء. بل إنه حتى عندما حذر فى سبتمبر عن خطة هجوم إسرائيلية فرنسية، استبعد هذه المعلومات باعتبارها خدعة يقصد بها إغراؤه على الإقدام على إجراء خاطئ ضد إسرائيل[٤٩]. بل إن عبد الناصر أخفى قرار التأميم عن اللواء عبد الحكيم عامر وأبلغه به وهما فى القطار إلى الإسكندرية وهو ما يشير إلى استبعاد عبد الناصر لفكرة الغزو العسكرى لمصر وبالتالى ليست هناك حاجة لاستعدادات عسكرية خاصة[٥٠]. وفى ذلك يقول البغدادى:

"كان جمال عبد الناصر يستبعد استخدامهم القوة العسكرية ضدنا، لاعتقاده أن فرنسا مشغولة بمعركتها مع الوطنيين الجزائريين داخل الجزائر، وأن انجلترا ستخشى من تدمير مصالحها فى العالم العربى، وبخاصة المنتجة منها للبترول، لو قامت بالاعتداء علينا عسكريا"[٥١].

وقد اتفق سيد مرعى مع عبد اللطيف البغدادى فى تقرير هذه الحقيقة مؤكداً على أن فكرة الحرب لم تكن تسيطر على تفكير جمال عبد الناصر، وأن الحرب ذاتها كاحتمال ليس وارداً بجدية ضمن خططه. لقد كان واضحاً أن حسابات جمال عبد الناصر مبنية على أساس أن احتمالات السلام فى حل الأزمة أكبر جداً من احتمالات الحرب[٥٢].وقد أكد ثروت عكاشة، وكان يشغل منصب الملحق العسكرى المصرى فى باريس آنذاك، أنه حصل على خطة العدوان الثلاثى يوم السبت ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٥٦ وأوفد رسولاً خاصاً للرئيس عبد الناصر ليخبره بمضمون هذه الخطة، ولكن عبد الناصر رفض تصديق تلك المعلومات، معتقداً أنه من غير المعقول أن تقوم إنجلترا، وفرنسا بهذه الخطوة بناء على تقدير معين وحسابات معينة ترسخت فى ذهنه[٥٣]. أما محمد حسنين هيكل فإنه يذهب إلى أن عبد الناصر قد انتهى فى تقدير الموقف الذى أجراه إلى أن "الحرب المسلحة ممكنة الحدوث، وأن التدخل سيحدث عاجلا أوآجلا"[٥٤].

فهل كان الغزو العسكرى الغربى مستبعدا بالفعل من حسابات اتخاذ القرار؟

ابتداء من ٢١ يوليو ، بدأ عبد الناصر فى حساب المخاطر التى قد تنشأ عن هذا التأميم، وقد ركز على ثلاثة مخاطر رئيسة: الغزو العسكرى الغربى، وتجميد الأرصدة النقدية المودعة فى الغرب، وانسحاب المرشدين الأجانب العاملين فى شركة قناة السويس. وربما كان احتمال الغزو العسكرى الغربى هو الاحتمال الأول الذى نوقش عند اتخاذ القرار وقد استغرق تحليله معظم الوقت المتاح لاتخاذ القرار، وأدت عملية حسابه إلى تأجيل إعلان القرار من ٢٣ يوليو إلى ٢٦ يوليو.

فى ٢١ يوليو كتب عبد الناصر تقدير موقف من وجهة النظر الغربية فى حالة تأميم قناة السويس. وقد نشر محمد حسنين هيكل خمس روايات لهذه الوثيقة. الأولى نشرها فى مقالة كتبها فى الأهرام فى ٧ أكتوبر عام ١٩٦٦،

والثانية نشرها فى كتابه بالإنجليزية وثائق القاهرة عام ١٩٧٢، والثالثة فى كتابه قصة السويس الذى صدر عام ١٩٧٧، والرابعة فى حديثه مع فؤاد مطر فى كتابه بصراحة عن عبد الناصر الصادر فى سنة ١٩٧٧، والخامسة فى كتابه ملفات السويس الصادر سنة ١٩٨٦. والروايات الخمس تتفاوت فى حجم المعلومات الواردة فى كل منها، وفى تقدير عدد القضايا التى غطاها عبد الناصر فى تلك الوثيقة، كما تتفاوت فى مضمون بعض المعلومات، بل تختلف فى عدد صفحات وثيقة تقدير الموقف التى كتبها عبد الناصر. فبينما يشير فى حديثه مع فؤاد مطر إلى أن عدد صفحات الوثيقة إحدى عشر صفحة، فإنه فى ملفات السويس يشير إلى أنها سبع صفحات فقط(٢١). كذلك، فقد تحدث عبد الناصر عن تلك الوثيقة إلى الصحفى كينيث لف الذي نشر حديثه فى كتابه السويس الصادر عام ١٩٦٩. وتضمن ذلك الحديث معلومات مختلفة إلى حد ما عما جاء بروايات هيكل. ولسنا هنا فى مقام مقارنة الروايات المختلفة ولكننا نستطيع من استقرائها أن نتوصل إلى أن عبد الناصر قد قدر الموقف كالتالى :

(١) الولايات المتحدة لن تقدم على عمل عسكرى ضد مصر، ولكنها ستبارك العمل العسكرى البريطانى وذلك بسبب اقتراب موعد الانتخابات الأمريكية.

(٢) فرنسا قد تشترك مع بريطانيا فى عمل عسكرى ولكنها لن تتدخل بمفردها، فضلاً عن أن انشغالها بالحرب الجزائرية سيعرقل احتمال اشتراكها. ويلاحظ أنه فى رواية لف فإن عبد الناصر استبعد فرنسا تماماً، وفى روايات هيكل فقد توقع اشتراكها مع بريطانيا فى عمل عسكرى.

(٣) احتمال اشتراك إسرائيل فى غزوعسكرى مع بريطانيا مستبعد بسبب حرص بريطانيا على أصدقائها من العرب، لأن تدخل إسرائيل -كما

يرى هيكل- سوف يجعل معركتها ضد مصر حرباً ضد الأمة العربية، وهو ما يفرض على أمريكا محاولة التدخل لفرملة إسرائيل، ثم إن إسرائيل من مصلحتها أن تنتظر لكى ترى صراعنا مع الغرب كله يشتد بعنف. هذا بالإضافة إلى أن بريطانيا ليست فى حاجة إلى إسرائيل عسكرياً. وأخيراً، فان قيام إسرائيل وحدها بغزو عسكرى مستبعد.

(٤) رد فعل بريطانيا سيكون عنيفاً، وقد قدر عبد الناصر أن احتمال لجوء بريطانيا إلى العمل العسكرى هو احتمال ٨٠% وذلك يعتمد على القوات العسكرية المتاحة لها فى الشرق الأوسط. وقد استبعد عبد الناصر مبدئياً احتمال الغزو العسكرى البريطانى الشامل، وتوقع احتمال لجوء بريطانيا إلى محاولة اقتحام القناة بالقوة، وكتب أنه فى الحالة الثانية، فانه سيغلق القناة باغراق بعض السفن فيها[٥٥].

(٥) قدر عبد الناصر أنه إذا لجأ "إيدن" إلى القوة العسكرية، فانه سيفعل ذلك فى الأسبوع التالى لإعلان قرار التأميم، وإلا فان المناخ الدولى العام الذى سيخلقه بتداعياته ضد التأميم سيتبدد يوما بعد يوم. فإذا مضت هذه الفترة الحرجة فسوف تتناقص احتمالات الخطر. وبعبارة أخرى، فإن عبد الناصر قد توقع أن هناك تناسباً عكسياً بين مرور الوقت واحتمالات الغزو العسكرى البريطانى، فكلما مر الوقت قلت احتمالات الغزو بينما قدر أن احتمالات الغزو فى الأسبوع التالى لإعلان قرار التأميم سيكون ٨٠%، فإنه توقع أن تلك النسبة ستقل تدريجياً حتى تصل فى نهاية أكتوبر إلى٢٠% وبعدها ستكون فرصة الغزو المسلح قد انتهت تماماً.

على أساس هذا التقدير بنى عبد الناصر استراتيجية لمواجهة احتمال الغزو البريطانى على أساس كسب الوقت. كذلك اتجه إلى البحث عن

معلومات عن حجم القوات البريطانية فى الشرق الأوسط ودرجة اســتعدادها وذلك لحساب احتمالات التدخل البريطانى خلال الأسبوع التالى لإعلان قرار التأميم.

كانت لدى مصر معلومات شبه وافيه عن القوات البريطانية الموجــودة فى الأردن، وليبيا. فقد كانت تتمركز فى الدولتين الفرقة المدرعة العاشــرة البريطانية، نصفها فى الأردن ونصفها فى ليبيا. لكن الفرقة كانــت خــارج حساب التوازن العسكرى لسببين، أولهما هو أنه من الــصعب أن تــستخدم بريطانيا قاعدة عربية فى غزو ضد مصر، وثانيهما هو أن بريطانيا ستحتاج هذه القوات حيث هى فى الأردن، وليبيا لحماية الوجود البريطانى فيها أمــام الاحتجاج الشعبى ضد الغزو.

وعليه فقد كلف عبد الناصر المخــابرات الحربيــة المــصرية بجمــع المعلومات عن القوات البريطانية فى القواعد القريبة وهى قبرص، ومالطة، وعدن. ولم تأت تلك المعلومات إلا يوم ٢٤ يوليو. ولعل ذلك هــو ســبب تأخير اصدار القرار حتى ٢٦ يوليو . جاءت المعلومات عن قبرص، مــن خلال قيادة منظمة أيوكا المناهضة للوجود البريطــانى، تفيــد أن القــوات البريطانية فى الجزيرة ليست على أهبة الاستعداد لعمليات هبوط بالمظلات كما أنه يوجد بالجزيرة سرب مقاتلات وسرب طــائرات نقــل. وتبــين أن القوات الموجودة فى مالطة وعدن هى حاملة طائرات فى مالطة وطرادات لأعمال الدورية وسرب مقاتلات ولواء مشاة فى عدن، وما عدا ذلــك فــإن أقرب قوات بريطانية موجودة فى بريطانيا ذاتها.

استنتج عبد الناصر من تلك المعلومات أن إيــدن لا يملك قوة عسكرية قريبة وكافية يستطيع استعمالها بسرعة وبنجاح لشن عــدوان فــورى، وأن الأمر يحتاج منه إلى شهرين على الأقل لتجميع مثل هذه القوات[٢٣]. ومن ثم فهناك ثلاثة احتمالات: الأول: أن يقرر إيــدن اللجوء إلى العمل العــسكرى

الفورى ضد مصر، وفى هذه الحالة، قدر عبد الناصر أنه يمكن التصدى للقوات الغازية ودحرها لأنها لن تكون جاهزة تماماً. والاحتمال الثانى: أن ينتظر إيدن تجهيز الحملة العسكرية ضد مصر، وذلك سيتطلب منه الانتظار فترة من الزمن ستكون كافية لتعبئة الرأى العام العالمى ضد احتمالات الغزو . أما الاحتمال الثالث: فهو أن تدفع بريطانيا، وفرنسا بإسرائيل لشن هجوم عسكرى على مصر. وكان عبد الناصر يستبعد أن تقدم إسرائيل على هجوم عسكرى على مصر بصورة منفردة بسبب تزايد قوة مصر العسكرية بعد صفقة الأسلحة التشيكية سنة ١٩٥٥، كما أنه إذا قامت إسرائيل بهذا الهجوم فإن القوات المصرية تستطيع التصدى لها. يتضح ذلك من حديث عبد الناصر مع اللواء شوكت شقير رئيس هيئة أركان حرب الجيش السورى فى ١٠ أكتوبر سنة ١٩٥٥ حين أثار اللواء شقير احتمال هجوم إسرائيل على مصر، فرد عبد الناصر، إسرائيل اليوم تفكر بدلاً من المرة عشرات المرات قبل أن تقدم على مهاجمة مصر لعلمها بقوة جيشها ومدى استعداده، وهى الآن لن تحاول أن تقامر على كيانها[٥٦]. وفى كل الحالات، فإنه سينجح فى تطبيق قرار التأميم وحمايته.

وقد تبين فيما بعد صحة تقدير عبد الناصر لقدرة بريطانيا على الغزو المسلح. فيقول سلوين لويد فى مذكراته إن بريطانيا كانت فى حاجة إلى عدة أسابيع لتجهيز حملة عسكرية ضد مصر[٥٧]، كما أن بريطانيا استغرقت ثلاثة أشهر لإعداد تلك الحملة ، بيد أن عبد الناصر أخطأ فى تصوره أن مرور الزمن من شأنه أن يقلل احتمالات الغزو، وفى استبعاده احتمال التواطؤ البريطانى الإسرائيلى، وفى تقليله من حدة مشاعر موليه ضده وأثرها على تصميمه على المشاركة فى الغزو حتى لو كانت بعض قواته مشغولة فى الجزائر.

ومن ثم فإن قراءة عبد الناصر لتوازن القوى فى المنطقة أدت به إلـــى استنتاج أن مخاطر الغزو البريطانى تكاد تكون محدودة وقد دعم مـــن هــذا الاستنتاج التصريح الذى أدلى به هارولد ماكميلان وزير المالية البريطـــانى آنذاك، والذى أشار فيه إلى قلقه بشأن قيمة الجنيه الاسترلينى. فقد استنتج عبد الناصر أن بريطانيا لن تلجأ إلى استعمال القوة العسكرية لأن ذلـــك ســيؤثر على مركز الجنيه الاسترلينى(٥٨).

والخلاصة أن المخاطر المحتمل ترتيبها على اتخاذ قرار التأميم بـــدت محدودة، ومن ثم أصبح ممكناً اتخاذ القرار. وفى ذلك يقول كينيث لف:

"بدا القرار مأمون العواقب إلى درجة كافية، ليس فقط بالنسبة لتأميم شركة القناة، وفى الانتفاع بأرباحها فى بناء السد، ولكن للقيام بانقلاب سياسى درامى يرد الإهانة التى وجهها إليه دلاس ووزارة الخارجية البريطانية"(٥٩).

إذا كان قرار التأميم قد بدا لعبد الناصر على أنه مأمون العواقب، فـــإن عبد الناصر قد افترض أن احتمال لجوء بريطانيا، وفرنـــسا إلـــى "العمـــل العسكرى الفورى" احتمال محدود. كما أنه قد استبعد احتمال لجوء الـــدولتين إلى دفع إسرائيل إلى الهجوم على مصر. وقد ظل عبد الناصر موقنـــا مـــن صحة هذا الافتراض حتى ٣١ اكتوبر سنة ١٩٥٦، أى حتى وقـــوع الغـــزو البريطانى الفرنسى الإسرائيلى.

وقد أشار عبد الناصر إلى ذلك فى حديث له فى ٥ ديسمبر سنة ١٩٥٦ حين أوضح الأسس التى رتب عليها حساباته فقال:

"كنت أحاول أن أقدر الموقف من الناحية البريطانية، بل كنت أحاول أن أضع نفسى مكان رئيس وزراء بريطانيا وأسأل نفـــسى، إذا كنت مكانه فكيف أتصرف ؟ وكان اعتقـــادى أن أيـــة عمليـــة عسكرية تقدم عليها بريطانيا ضدنا، وخصوصاً أومن باب أولـــى، إذا كانت تقدم عليها متحالفة مع فرنسا، وإسرائيل لن تكون لهـــا

نتيجة بالنسبة لبريطانيا إلا كارثة محققة، بصرف النظر عن النتيجة العسكرية البحتة التى يمكن أن يسفر عنها القتال. إن بريطانيا لها مصالح هائلة فى الشرق الأوسط، وحماقة عسكرية من هذا النوع ستقضى على هذه المصالح. كنت أتمثل مصالح بريطانيا فى المنطقة: البترول، أنابيب البترول، والتجارة، والثقافة، والنفوذ السياسى، ثم فى نهاية القائمة قناة السويس، الشريان الحيوى لبريطانيا، والتى سوف تتعطل دون شك"[٦٠].

ومن ثم، فقد استنتج عبد الناصر أنه يمكن أن يؤمم شركة القناة، وينجو فى الوقت نفسه من التدخل العسكرى البريطانى – الفرنسى. ومن المؤكد أن عبد الناصر قد توقع احتمال الغزو العسكرى كرد على القرار فى خلال شهر من إعلانه، ولكنه استبعده على أساس أنه فى خلال تلك الفترة سيستطيع حشد الرأى العام العالمى ضد التدخل العسكرى. وعنما مرت الفترة المحددة دون غزو أيقن من صحة حساباته.

(٤)

هل كان التأميم هو البديل الوحيد المتاح للرد على القرار الغربى؟

إذا كان الهدف من قرار التأميم هو الحصول على عوائد الملاحة في القناه لبناء السد العالى، فهل كان أمام عبد الناصر بديل آخر لتحقيق الهدف ذاته دون تحمل المخاطر التى قد تترتب على التأميم؟ يقول محمد على الغتيت إنه قد اقترح على عبد الناصر بديلا يحقق المعادلة الصعبة والمتمثلة فى الحصول على عوائد الملاحة دون مواجهة المخاطر السياسية والعسكرية. فهل كان هناك بالفعل بديل آخر لقرار التأميم؟

كان مكتب مندوب الحكومة لدى شركة قناة السويس قد اكتشف بعض أعمال التزوير التى قامت بها الشركة فى تحديد حصص التأسيس وذلك عندما شكل لجنة من الدكتور حامد سلطان، والدكتور توفيق شحاته، والدكتور فؤاد رياض، أنيط بها مهمة تحقيق كافة الوثائق والمستندات المتعلقة بشركة قناة السويس، ومراجعة الملفات الموجودة فى مختلف الوزارات والجهات الحكومية الخاصة بها، والقيام بالدراسات الخاصة بالمراحل التى مر بها امتياز شركة قناة السويس. وقد قام أعضاء اللجنة بحصر كافة وثائق الشركة المحفوظة فى قصر عابدين. وتفرغوا لتلك المهمة لمدة تربو على العام. وتبين للجنة حقائق لم تكن معروفة للمصريين عن الشركة من قبل. فقد اكتشفت أنه كان من حق مصر طبقاً للمادة العاشرة من فرمان ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ أن تعين وتحدد وتعتمد القائمة التى تشمل أسماء المؤسسين فى الشركة غير أن ديليسيبس ادعى أنه حينما قدم إلى الوالى محمد سعيد باشا تقريره المؤرخ فى ٣٠ أبريل ١٨٥٥، ألحق به قائمة تضمنت أسماء ٦٠

عضواً سبق أن اعتمدهم الوالى، كما زعم بأنه استأذن الوالى فى إضافة أسماء أخرى على شرط ألا يتجاوز مجموع عدد المؤسسين مائة عضو، وأن الوالى محمد سعيد قد أعتمد التقرير والقائمة بمرسوم أصدره فى ١٩ مايو ١٨٥٥. وقد ثبت أن الوالى لم يصدر مرسوماً فى هذا التاريخ، وأنه محا ختمه الذى على التقرير وقام بإبطاله وتسليمه إلى "كوينيج بك" ليتولى الاحتفاظ به على حالته الأخيرة. ولكن كوينيج بك سلم ديليسيبس فى ١٩ مايو كتاباً يفيد موافقة الوالى على التقرير دون أن يعبأ بقرار الوالى. وقد استند ديليسيبس إلى هذا الكتاب فى تعيين الأعضاء المؤسسين الذين يحق لهم الحصول على ١٠% من الأرباح. ومن ثم تصرف فى حق مصر فى تلك النسبة زاعماً أنه مفوض فى ذلك من الوالى حيث أعد قائمة سرية تتضمن ١٦٦ اسماً لم يعتمدهم الوالى. وقد أدى ذلك إلى ضياع حصة مصر فى أنصبة المؤسسين منذ تأسيس الشركة وحتى تأميمها. وقد حصلت اللجنة على النسخة الأصلية من تقرير ٣٠ أبريل ١٨٥٥.

بناء عليه، قام المكتب بإعداد دراسة شاملة عن الموضوع أثبت فيها أعمال التزوير تلك. كذلك كتب محمد الغتيت تقريرا إلى الرئيس عبد الناصر شرح فيه تلك الوقائع، أوصى فيه برفع دعوى قضائية على شركة قناة السويس لاسترداد ما ضاع على مصر نتيجة هذا التلاعب وقدر أن ما تستحقه مصر منذ سنة ١٨٦٩ حتى اليوم يعادل رأس مال الشركة بأسره. ويضيف الغتيت أن عبد الناصر قد اهتم بالتقرير، ولكن لم يرحب كثيراً بفكرة الدعوى القضائية[٦١].

وفى ٢٣ يوليو ١٩٥٦ استدعى عبد المنعم القيسونى، وزير المالية آنذاك، محمد على الغتيت، وكانت صلته بالمكتب قد انقطعت منذ ٥ نوفمبر ١٩٥٥، وأخبره أن الرئيس ينوى تأميم شركة قناة السويس ويطلب منه وضع

مشروع قانون لتأميم الشركة. لكنه اعترض على التأميم، وبنـى اعتراضـه على أساسين:

الأول: أن تأميم الشركة سيعنى دفع تعويضات للمساهمين وسيؤدى ذلك إلى ضياع حقوق مصر فى الشركة.

الثانى: أن تأميم الشركة سيعنى تعرض مصر للغزو العسكرى الغربـى فى خلال ٢٤ ساعة.

ويقول الغنيت إنه جدد اقتراحه السابق بإقامة دعوى قانونية على شركة قناة السويس أمام القضاء المصرى (باعتبار أن الشركة مصرية) لمواجهتها بمخالفتها لشروط الامتياز. وعقب إقامة الدعوى مباشرة تقوم مصر بوضـع الشركة تحت الحراسة كإجراء تحفظى لحماية حقوق مصر إلى أن يفـصل القضاء فى موضوع الدعوى. وكان رأى الغنيت أن هذا البديل الذى يـستند إلى القانون، لا يعطى مبرراً للغرب للعدوان المسلح على مصر، كمـا أنـه يحفظ لمصر حقوقها فى حصص التأسيس وهى -فى تقديره- تعـادل رأس مال الشركة، كما أنه لا يلزمها بدفع تعويضات للمساهمين، وطلب الغنيت من القيسونى إبلاغ هذا الرأى لعبد الناصر.

وقد نقل القيسونى اقتراح الغنيت إلى الرئيس، وقد أكد لنا على صـبرى أن هذا الاقتراح قد وصل فعلاً إلى الرئيس. ولكن القيسونى عاد فـى اليـوم التالى وأخبر الغنيت أن الرئيس يبلغه "جمّد قلبك وخليك مـع اللـه" وأنـه مازال يطلب منه إعداد مشروع قانون التأميم[٦٢].

ولم يحدد لنا الغنيت لماذا رفض الرئيس هذا البديل. ولكن على صبرى يقول إن وجهة نظر الرئيس كانت هى أن هذا الاقتراح سيدخل مـصر فـى نزاع قانونى طويل مع الشركة، وستؤلب الشركة الرأى العـام والـصحافة العالمية على مصر، وستكون لديها فسحة من الوقت لكى تفسد الملاحة فـى القناة ، كما أن العملية ستفقد عنصر المفاجأة[٦٣]. وربما لم يجد اقتراح الغنيت

قبولاً لدى عبد الناصر لأن بعض المساهمين كانوا قد أقاموا دعوى على الشركة عام ١٩٠٣ استناداً إلى الحجة ذاتها التى ساقها الغنتيت أمام محكمة استئناف باريس. وقد أخذت المحكمة بدفاع الشركة الذى كان منصباً على عدم توافر ركن سوء النية فى استعمال الأوراق المزورة. والأهم من ذلك أن فرض الحراسة لا يعنى بالضرورة إنهاء امتياز الشركة، وهو الهدف الحقيقى من التأميم ، وليس مجرد الحصول على عوائد الملاحة.

(٥)
هل أدى اعلان القرار بالشكل الذى تم به الى تبرير العدوان الثلاثى؟

يقول همفرى تريفليان، سفير بريطانيا لدى مصر فى تلك الفترة، إن عبد الناصر كان يستطيع "أن يستدعى ممثل الشركة فى القاهرة ويخبره بقرار التأميم، ويرتب للاستيلاء على أملاك الشركة ويقترح اللجوء إلى محكمة العدل الدولية لمناقشة التعويضات، ولكنه اختار الطريق العنيف، طريق التحدى ومهاجمة الغرب وإدارة شركة القناة"[٦٤]. ومن ناحية أخرى يرى أمين هويدى أن العدوان كان سيقع سواء اتخذ قرار التأميم أم لم يتخذ. فهو يرى أن قرار التأميم لم يكن سبباً للعدوان البريطانى –الفرنسى–الإسرائيلى على مصر فى نهاية أكتوبر سنة ١٩٥٦. ولكنه كان بمثابة الذريعة التى استعملتها الدول المعتدية لشن العدوان، وأن نذر العدوان كانت قد بدأت تتجمع فى الأفق قبل التأميم نتيجة صفقة الأسلحة التشيكية سنة ١٩٥٥ وما أدت إليه من اهتزاز توازن القوى فى الشرق الأوسط لصالح مصر. يقول هويدى:

> "كان توازن القوى قد اهتز على المستوى العالمى والمستوى الإقليمى الأمر الذى لم يكن فى استطاعة القوى الاستعمارية السكوت عليه. ولم يبق إلا إيجاد المبرر أو الذريعة لاستخدام القوة لإعادة الأمور إلى ما كانت عليه. وكان تأميم القناة هو الذريعة للعدوان أن يضرب مصر والغرض الأساسى له هو إعادة السيطرة على توازن القوى الإقليمى للمحافظة على مصالح الأطراف العالمية"[٦٥].

فهل أدى إخراج قرار التأميم بالشكل الذى تم به من خلال خطاب سياسى عام هاجم فيه عبد الناصر القوى الغربية، الى زيادة احتمال تصعيد الموقف الى حد العدوان الغربى؟ وهل كان يمكن تفادى العدوان لو أن القرار قد أخرج بالطريقة التى أشار إليها تريفيليان؟ أم أن العدوان الثلاثى كان سيقع سواء اتخذ قرار التأميم أم لم يتخذ؟

إذا تأملنا مضمون الخطاب الذى أعلن فيه عبد الناصر قرار التأميم فى مساء ٢٦ يوليو ١٩٥٦، فإننا نجده يتسم بتحدى الغرب ويتضمن العديد من الاتهامات. فقد اتهم الولايات المتحدة بحب الوصاية والتحكم والسيطرة، وخلق المنازعات فى الشرق الأوسط، واتهم أعضاء الكونجرس بالغرور ومحاولة التحكم فى الشعوب. كذلك، اتهم الحكومة البريطانية بمحاولة الوقيعة بين مصر، والسودان، واتهم الساسة الإنجليز عموما بالجنون، هذا كله بالإضافة إلى وصف الغرب بأنه حاول أن ينصب فخاً لمصر لاستنزاف أموالها من خلال العرض الذى قدمه لتمويل مشروع السد. كذلك فقد وضع عبد الناصر القرار فى سياق عام امتلأ بالتحدى للغرب من خلال استعراض النضال الوطنى المصرى منذ المعركة من أجل الجلاء حتى معركة تمويل مشروع السد. وقدم القرار باعتباره ضربة للنفوذ الغربى فى المنطقة العربية، ورداً على القرار الأمريكى – البريطانى بسحب عرض تمويل مشروع السد العالى. وقد كان هذا الأسلوب فى إعلان القرار مخالفاً للنصيحتين اللتين تقدم بهما محمد الغنتيت، وفتحى رضوان للرئيس بخصوص هذا الإعلان. فقد نصح الغنتيت بأن يربط الرئيس إعلان القرار بأعمال التزوير التى لجأت إليها شركة قناة السويس منذ أيام ديلسيبس أى يبرر القرار للعالم على أساس قانونى وهو استعادة ما ضاع على مصر من حصص التأسيس. كما أن فتحى رضوان نصح بألا يربط الرئيس بين التأميم وبين سحب العرض الأمريكى – البريطانى، وإنما يبرره على أساس حقوق السيادة المصرية على شركة قناة

السويس. ولكن عبد الناصر اختار أن يبرر للعالم القرار على أنه رد على التصرف الأمريكى – البريطانى المهين وعلى أنه ضربة للنفوذ الغربى. ويفسر محمد حسنين هيكل طريقة إخراج القرار التى وصفناها بأنها كانت مقصودة، وأن تلك الإهانات كانت محسوبة بحيث توازى الإهانة التى وجهت إليه من خلال أسلوب إعلان قرار سحب عرض التمويل:

> **أن الطريقة التى أعلن بها عبد الناصر الاستيلاء، وعنف خطابه، والإهانات التى وجهها إلى بريطانيا، والولايات المتحدة قد أدهشت إيدن. ولكن لم يكن هناك محل للدهشة، لأن الإهانات كانت قد حسبت عن عمد كرد على الطريقة المهينة التى سحب بها دلاس عرضه لتمويل مشروع السد العالى(٦٦).**

ولا شك أن تقديم عبد الناصر للقرار بهذه الصورة يعتبر مسئولاً عن المخاوف التى أثارها القرار لدى الغرب. وإلى عدم تصديق الغرب للهجة المعتدلة التى اتبعها عبد الناصر بعد تنفيذ القرار. فقد تصور قادة الغرب أن القرار ليس إلا مقدمة لوقف مرور البترول المتجه إلى الغرب عن طريق القناة (حوالى ٦٧ مليون طن من البترول سنوياً منها ٢٠,٥ مليون طن يتجه إلى بريطانيا تشكل ٧٢% من استهلاكها من البترول و١٢ مليون طن تتجه إلى فرنسا تشكل ٩٤% من البترول اللازم لاستهلاكها) ولتصفية الوجود الغربى فى المنطقة، وقد عبر إيدن عن ذلك فى حديثه فى ٨ أغسطس. ومن ثم فقد أثارت عملية إخراج القرار سلسلة من الأفعال وردود الأفعال التى انتهت بالغزو المسلح لمصر ولا شك أن الولايات المتحدة تعتبر مسئولة عن بداية تلك السلسلة بالطريقة التى أعلنت بها سحب عرض تمويل مشروع السد، ولكن من المؤكد أيضاً أن طريقة إعلان قرار التأميم قد أدت إلى تصعيد الموقف إلى مستوى كيفى جديد. فقد كان عبد الناصر يود أن يقدم القرار بشكل علني تماما مثلما قدم الغرب قراره بسحب عرض تمويل السد

العالى بشكل علنى. و لهذا فاننا رغم اتفاقنا مع همفرى تريفيليان بصفة عامة الا أننا كنا نود منه أن يقدم النصيحة ذاتها لدولته، بريطانيا، التى حرصت على اعلان قرارها بسحب المشاركة فى تمويل مشروع السد العالى بشكل علنى.

من ناحية أخرى لاشك أن بريطانيا، وفرنسا، وإسرائيل كانت تريد التخلص من عبد الناصر قبل إعلان قرار التأميم لأنه أصبح يمثل عقبة كبرى أمام سياساتهم فى الشرق الأوسط وأفريقيا. ولكن الأمر المؤكد أن بريطانيا، وفرنسا لم تكن تخططان لأية عمليات عسكرية ضد مصر، ولا يمكننا أن نقول الشئ ذاته عن إسرائيل التى كانت تخطط لفتح خليج العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية. صحيح أن المعارك السياسية التى خاضها عبد الناصر ضد الغرب قبل التأميم كان يمكن أن تشكل مبررات لاحتمال الغزو العسكرى، ولكن لم تكن هنالك خطط غربية من هذا القبيل، كما أن قرار التأميم والأسلوب الذى أعلن به قد رفع مستوى الصراع مع الغرب إلى مستوى كيفى جديد.

خاتمـــــــة:

يمكن القول إن مسئولية الجدل بين الباحثين حول الجوانب التى تناولناها يقع على جانبين: الأول هو عدم وجود نظام يتيح للباحثين الوثائق التاريخية التى تتعلق باتخاذ القرار السياسى. فقد عملنا على مدى سنوات طويلة لكـــى نعثر على الوثائق الأساسية لقرار التأميم، واطلعنا على بعضها مـــن خـــلال الاتصال الشخصى ببعض من شاركوا فى اتخاذ القرار، وأتاح لنا بعـــضهم، الاطلاع على بعض الوثائق و تصويرها. ومن لديهم الوثائق يضنون باتاحتها للباحثين وسوف يستعملونها طبقا للغرض السياسى الى يريدون الترويج لـــه فى لحظة معينة. و قد رأينا أن بعضهم قد نشر الوثيقـــة الواحـــدة بأشـــكال مختلفة. ومن يطالع كتابنا عن تأميم الشركة يجد أمثلة أخرى توثق الاستعمال الشخصى للمعلومات والوثائق. من ناحية أخرى ، فان المسئولية تقع أيـــضا على عبد الناصر ذاته، لأنه أعلن قرار التأميم بصفته رد فعل للقرار الغربى وذلك أمر مفهوم فى ضوء رغبته فى تقديم القرار بوصفه صـــفعة للغـــرب تعادل صفعة البيان الغربى بسحب عرض التمويل. و لكنه لم يعد بعد ذلـــك لايضاح الحقيقة، وهى أنه كان يخطط للاستيلاء على الشركة قبل انتهاء عقد الامتياز، وأن البيان الغربى لم يكن سوى الذريعة لاعلان القرار. ويمكن تفهم

تلك المسئولية فى ضوء أن عبد الناصر ظل فى السلطة حتى وفاته، ولم يكن ممكنا له أن يوضح الجوانب الخافية من قرار التأميم حيث سيبدو كما لو أنه كان يمارس الخداع.

من ناحية أخرى فان قرار التأميم يعد نموذجا للقرارات التى لعبت فيها العوامل السيكولوجية دورا مهما فى اتخاذ القرار من جميع الأطراف سواء فى اتخاذ قرار التأميم، أو عدم توقع العدوان الثلاثى من جانب عبد الناصر، أو تصميم بريطانيا و فرنسا على غزو مصر رغم التنازلات الى قدمها عبد الناصر للغرب بعد اعلان القرار. و هو مايطرح أهمية تفسير الوقائع التاريخية ليس فقط فى ضوء العوامل العقلانية، و لكن أيضا فى ضوء العوامل السيكولوجية.

الهوامش

(١) حديث الأستاذ نجيب محفوظ فى الأهرام ، ١٢ يوليو سنة ٢٠٠٢.

(٢) Georges-Picot, The Real Suez Crisis, The End of a Great Nineteenth Century Work, (New York, Harcourt Brace Jovanovich, 1978), p.52.

(٣) Ibid, pp. 53-54

(٤) محمد حسنين هيكل، ملفات السويس، حرب الثلاثين سنة، (القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر)، الطبعة الثانية ١٩٩٦، ص ٢٩٦.

(٥) George-Picot, p. 52.

(٦) محمد حسنين هيكل، المرجع السابق ، ص ٢٩٤.

(٧) محمد حسنين هيكل، قصة السويس، آخر المعارك في عصر العمالقة، (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٨٤، الطبعة الثانية)، ص ١١٦.

(٨) المرجع السابق ، ص ٤٤

(٩) Terence Robertson, Crisis, The Inside Story of the Suez Conspiracy, (New York: Atheneum, 1965), p. 61.

(١٠) Ibid.

(١١) الجمهورية ، ٢٦ مايو سنة ١٩٥٦.

(١٢) Georges-Picot, Op.cit, pp. 59-60.

(١٣) Ibid., p. 61.

(١٤) Ibid., p. 62.

(١٥) Ibid., p. 29.

(١٦) وقد اتفق معنا السيد/ على صبرى فى هذا التفسير لمدلول الرسالة المشار إليها حديثه مع المؤلف فى ١٩٨٤/٨/١٣.

(١٧) مجموعة خطب وبيانات وتصريحات الرئيس جمال عبد الناصر، (القاهرة : مصلحة الإستعلامات (د.ت) ، الجزء الأول) ص١٥٦.

(١٨) Georges-Picot, op.cit, p. 41.

(١٩) Ibid, p. 41.

(٢٠) Ibid, p. 46.

(٢١) Kenneth Love, Suez, the Twice Fought War, (London, Longman, 1969), P 159-160.

(٢٢) محمد حسنين هيكل، قصة السويس، المرجع السابق، ص ١١.

(٢٣) ثروت عكاشة "بين التأميم والتأمين"، مذكرات ثروت عكاشة المنشورة فى أخبار الأسبوع، ١٩٨٧/٢/٢١، الحلقة ١٥.

(٢٤) جان لاكوتير، عبد الناصر، (بيروت، دار النهار للنشر ش.م.ل، ١٩٧١)، ص ٨٥.

(٢٥) عبد الله إمام، حكايات عن عبد الناصر، (القاهرة: الوطن العربى د.ت)، ص ٨٨.

(٢٦) د. محمد السيد سليم، التحليل السياسى الناصرى، دراسة فى العقائد والسياسة الخارجية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة أطروحات الدكتوراه، ١٩٨٣)، ص ٣٢٣.

(٢٧) مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر، (القاهرة: مصلحة الاستعلامات (د.ت.)، الجزء الأول، ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢- يناير سنة ١٩٥٨)، ص ٢٥٥.

(٢٨) عبد الله إمام، مرجع سابق، ص ٩١.

(٢٩) مصطفى الحفناوى، قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة، الجزء الرابع، الطبعة الثانية، المرجع السابق، ص ٤١٨-٤١٩.

وقد أكد الدكتور الحفناوى إصرار عبد الناصر على عدم المساس بامتياز الشركة قبل جلاء القوات البريطانية فى مقابلة مع كيث هو يلك فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥٦.

Keith Wheelock, Nasser's New Egypt, A Critical Analysis, (West Port: Green woods press, 1975), pp. 278 - 316.

(٣٠) مذكرات غير منشورة للدكتور الحفناوى مكتوبة بخط اليد حصلت عليها عن طريق نجله د. على الحفناوى.

(٣١) حديث السيد/ على صبرى مع المؤلف فى ١٣ أغسطس ١٩٨٤.

(٣٢) عبد اللطيف البغدادى، مذكرات عبد اللطيف البغدادى، (القاهرة: المكتب المصرى الحديث، ١٩٧٧)، ص ٣١٨.

(٣٣) Kenneth Love, Suez, The Twice Fought War (London, Longman, 1969), p. 159 .

(٣٤) Ibid.

(٣٥) مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر، المرجع السابق، ص ٥٧٩.

(٣٦) جمال العطيفى، أيام خالدة فى حياة عبد الناصر، (القاهرة : دار المعارف، د.ت.)، ص ٥٠-٩٧.

(٣٧) د. مصطفى الحفناوى، المرجع السابق، ص ٤٢٢.

(٣٨) عبد الله إمام، المرجع السابق، ص ٩٣.

(٣٩) المذكرات الخاصة للدكتور الحفناوى.

(٤٠) أحمد حمروش، قصة ثورة يوليو : مجتمع جمال عبد الناصر (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٥، الجزء الثانى).

(٤١) مقابلة مع السيد/ على صبرى، فى ١٩٨٤/٨/١٣.

(٤٢) مقابلة مع السيد/ محمد فائق وزير الإعلام السابق، والضابط فى المخابرات العامة آنذاك مع المؤلف فى ١٩٨٤/٨/٩.

(٤٣) حديث السيد/ على صبرى مع المؤلف فى ١٩٨٤/٨/١٣.

(٤٤) الحديث السابق.

(٤٥) حديث الأستاذ/ برهان سعيد، مع المؤلف فى ١٢ أغسطس سنة ١٩٨٤.

(٤٦) ولهذا فقد ذكر لنا الأستاذ الغنيت أن أنشطة مكتب مندوب الحكومة لم تشمل النواحى الهندسية لأعمال الشركة، وعهد بها عبد الناصر إلى جهاز آخر، لا نعلم عنه شيئاً.

(٤٧) حديث السيد/ برهان سعيد مع المؤلف فى ١٩٨٤/٨/١٢.

(٤٨) د. عبد العظيم رمضان، قرار تأميم قناة السويس فى محكمة التاريخ، أكتوبر ١٥ سبتمبر سنة ١٩٨٥، العدد ٦٤، ص ص ٢٨-٣١.

(٤٩) عبد العظيم رمضان، "هل كان الجيش المصرى مستعداً وقت التأميم"؟ أكتوبر، ١٩٨٥/٩/٢٢، ص ٢٩.

(٥٠) عبد العظيم رمضان، "كان المشير عامر آخر من يعلم بقرار التأميم"، أكتوبر ١٩٨٥/٩/٢٩، ص ١٦ - ١٧.
كذلك "وأفلتت مصر من كارثة محققة"، أكتوبر، ٢٧ أكتوبر ١٩٨٥ العدد ٤٧ ، ص ٢٨.

(٥١) عبد اللطيف البغدادى، المرجع السابق، ص ٣١٩.

(٥٢) سيد مرعى، أوراق سياسية، (القاهرة: المكتب المصرى الحديث، ١٩٧٨)، الجزء الثانى ص ٣٥٢.

(٥٣) ثروت عكاشة، مذكراتى فى السياسة والثقافة، (القاهرة: مكتبة مدبولى، ١٩٧٨) . ص ص ٢٠٧ - ٢١٧.

(٥٤) فؤاد مطر، المرجع السابق، ص ٨٧.

(٥٥) محمد حسنين هيكل، قصة السويس، المرجع السابق، ص

(٥٦) عبد اللطيف البغدادى، المرجع السابق، ص ٣٠٩.

(٥٧) Selwyn Lloyed, Suez, 1956 A Personal Account, (London: Transtel Cape, 1978), p. 86.

(٥٨) Love, op.cit, p. 336.

(٥٩) Ibid, pp. 336-337.

(٦٠) مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر، مرجع سابق ص ٦٢٦ .

(٦١) تفاصيل هذه الدراسة فى كتابنا تأميم شركة قناة السويس: دراسة فى عملية اتخاذ القرار، (القاهرة : دار الفجر للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢) ، ص ٢٧٧-٣٠٩.

(٦٢) حديث محمد على الغتيت مع المؤلف فى ٦ أغسطس عام ١٩٨٤ وحديثه مع المؤلف فى ٢٩ أغسطس سنة ١٩٨٥.

(٦٣) حديث السيد/ على صبرى مع المؤلف فى ١٣ أغسطس عام١٩٨٤

(٦٤) Trevelyan, op.cit., p.٩٨..

(٦٥) أمين هويدى، "أزمة السويس واستخدام القوة"، العربى، مارس ١٩٧٨، العدد ٢٧-(٣٤٠)، ص ٢٣

(٦٦) Heikal, op.cit., p. 93 .

أثر تأميم قناة السويس وحرب ١٩٥٦على الأوضاع والاتجاهات الاقتصادية في مصر

أ.د . شريف حسن قاسم

تستند محاور الدراسة على مبحثين أساسيين، المبحث الأول: "أهم معالم الاوضاع والاتجاهات الاقتصادية السائدة فى مصر قبيل عام ١٩٥٦"، ونتناول فيه مجموعة السياسات العامة التى أقرتها حكومة الثورة ؛ ومجموعة الاجراءات التشريعية والتنظيمية التى إتخذت لتشجيع الاستثمار المحلى والأجنبى؛ وتقاعس رأس المال المحلى عن القيام بدوره فى التنمية الاقتصادية؛ ثم ندرة رؤوس الأموال الأجنبية فى الاقتصاد المصري قبيل عام ١٩٥٦. والمبحث الثانى نتناول فيه "أثر تأميم القناة وحرب ١٩٥٦ على الأوضاع والاتجاهات الاقتصادية فى مصر".

أولا: مجموعة السياسات العامة التى أقرتها حكومة الثورة

- علاج التفاوت فى توزيع الثروة بين المواطنين بغرض تحقيق العدالة الاجتماعية واذابة الفوارق بين الطبقات والقضاء على الظلم الاجتماعى كأمر يسبق جهود التنمية. وكان من أهم خطوات حكومة الثورة فى هذا الشأن اصدار قانون الاصلاح الزراعى فى ٩ سبتمبر ١٩٥٢ لعلاج سوء توزيع الأراضى الزراعية وتنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر.
- تشجيع الإنتاج الصناعى.
- زيادة الانفاق الحكومى بقصد التخفيف من حدة الموجه الانكماشية .
- التعاون مع القطاع الخاص الوطنى، وتشجيع جذب رؤوس الأموال الاجنبية من الخارج .

الاجراءات التشريعية التى اتخذت لتشجيع الاستثمار المحلى والأجنبى:

وتتلخص في التأكيد على إلتزام حكومة الثورة بتشجيع رأس المال الخاص سواء كان محليا أو أجنبيا على المشاركة بنصيب كبير فى عمليات التنمية الاقتصادية، ومن ثم صدرت مجموعة من الاجراءات التشريعية بغرض تهيئة المنـــاخ القانونى لجذب مــزيــد من رؤوس الأمـــوال الأجنبية للعمل فى مـــصر كان منها:

- قانون المناجم والمحاجر الذى صدر فى فبراير ١٩٥٣ ليحل مــحل القانون(١٣٦) لسنة ١٩٤٨ والذى كانت له أثار مشجعة على المستثمرين الأجانب .
- قانون استثمار رؤوس الأموال الأجنبية فى مصر رقم ١٥٦ لسنة ١٩٥٣ وتعديلاته التى عملت على جذب رؤوس الأموال الأجنبية للعمل فى مصر.
- استخدام الاعفـــــاءات الضريبية لتشجيع رأس المال المحلى على الاستثمار خاصة فى مجال التصنيع .

أهم الاجراءات التنظيمية لتشجيع الاستثمار المحلي والأجنبي:

وتتلخص في أن حكومة الثورة انشئت تلك بعض الأجهزة القومية للإشراف على مشروعات التنمية وتهيئة المناخ المناسب لتشجيع الاستثمارات الخاصة المحلية والأجنبية، ومن أهم هذه اللأجهزة ما يلى :-

- المجلس الدائم لتنمية الانتاج القومى وانشئ عام ١٩٥٢.
- المجلس الدائم للخدمات العامة.
- لجنة التخطيط القومى.

تقاعس دور رأس المال المحلى فى التنمية الاقتصادية خلال الفترة:

على الرغم من كل وسائل الاغراء المباشر وغير المباشر التى مارستها حكومة الثورة منذ قيامها وحتى عام ١٩٥٦، فإن جهودها لم تفلح فى إحداث زيادة ذات بال فى معدلات استثمار القطاع الخاص المحلى. ففى الوقت الذى كانت فيه مساهمة رأس المال الوطني الخاص فى تكوين رأس المال الثابت بكافة صوره قد بلغ متوسطا سـنويا ١١٣ مليون جنيه فى السنوات الأخيرة قبل الثورة ١٩٤٨، ١٩٤٩، ١٩٥٠، ١٩٥١، فقد تدهور هذا المتوسط ليصل الى ٧٧ مليون جنيه سنويا فى السنوات التالية للثورة ١٩٥٣، ١٩٥٤، ١٩٥٥، ١٩٥٦.

المهم هنا أن نشير الى أن تقاعس الاستثمارات عن التجاوب بالشكل المناسب مع إهتمامات حكومة الثورة بأمور التنمية الجادة كان من العوامل الهامة التى أدت إلى تدهور معدلات الزيادة السنوية لإجمالى الناتج القومى للاقتصاد المصرى، فبينما سجل هذا المعدل ٣,٥% فى المتوسط بين عامى ١٩٤٥-١٩٥٢، هبط الى ٢,٦ % بين عامى ١٩٥٣-١٩٥٧، الأمر الذى أدى الى تدهور معدل دخل الفرد بين عامى ١٩٥٣- ١٩٥٧.

ندرة رؤوس الأموال الاجنبية فى الاقتصاد المصرى :

على الرغم من أن تلك الفترة قد تميزت بضعف انسياب رؤوس الأموال الأجنبية الى البلدان النامية بشكل عام، نظراً لأن الإتجاهات الرئيسية بالنسبة لحركة رأس المال الدولى كانت تتجه نحو إعادة تعمير أوروبا الغربية بعد الحرب من ناحية، فضلا عن عدم ترحيب البلدان النامية حديثة الاستقـــــلال بالتعامل مجدداً مع رؤوس الاموال الاجنبية، فـــإن تدفق الاستثمارات الأجنبية الى مصر قد أظهر انخفاضا بالغا منذ عام ١٩٣٣ حيث بلغ اجمالى الاستثمارات الأجنبية المباشرة حوالى ٨١ مليون جنيها أخذت فى الانخفاض حتى وصلت الى ٣٠ مليون جنيه فى عام ١٩٥٥.

أهم مجالات الاستثمار التقليدية لرؤوس الأموال الأجنبية:

ويلاحظ على الاستثمار الأجنبى المباشر فى مصر أنه كان يركز على المجالات التقليدية خــــلال الفتـــرة قبيـــل ١٩٥٦، حيث تركز الجانب الأكبر منه فى مجال الزراعة ولم يكن فى اطار الانتاج الزراعى المباشر، حيث وجهت النسبة الأكبر من هذه الاستثمارات إلى إنشاء البنوك العقارية التى اقتصر دورها على تقديم القروض لملاك الاراضى.

وبشكل عام فقد تركزت أهم مجالات الاستثمار الأجنبى فى بنوك الاقراض العقارية بالاضافة الى بنوك الودائع التى ركزت معظم أعمالها في تلك الأنشطة التى تضمن أكبر نسبة ربح ممكنه فاتجهــت لتمويل عمليـــــات التجارة الخارجية دون تمويل الاستثمارات الصناعية والزراعية الجادة.

خطورة الاستثمار الأجنبي فى مجال البنوك :

والحقيقة فإن السيطرة الأجنبية التى كانت سائدة فى هذا القطاع شكلت منفذا واسعا للسيطرة على النشاط الاقتصادى القومى بصفة عامة بحيث كانت عملية النشاط الاقتصادى المصرى تدار من خارج مصر، لذا فكثيرا ما كانت هذه البنوك تستخدم كأده من أدوات الضغط الاقتصادى على مصر.

مجالات استثمار أخرى ذات أرباح وفيرة:

ويضاف الى ما سبق تركيز رأس المال الأجنبى على الاستثمار فى مجال شركات البناء، والمرافق العامة نظراً لضخامة الأرباح المرتبطة بحصول هذه الشركات على إمتيازات احتكارية كبيرة. كذلك إتجه الاستثمار الأجنبى الى نوع جديد – بمقايس ذلك الزمن – هو الاستثمار البترولى فى مجالات البحث والتنقيب والتوزيع .

الندرة الواضحة فى الاستثمار الأجنبى:

على الرغم من صدور قانون الاستثمار الأجنبي رقـــم ١٥٦ لسنة ١٩٥٣ وما تضمنه من إمتيازات وتسهيلات وإعفاءات متعددة بغرض جذب الاستثمار الأجنبى المباشر للعمل فى مصر، إلا أن واقع التجربة خلال الفترة ١٩٥٣- ١٩٥٦ جاء مخيبا للآمال سواء على المستوى الكمي أو الكيفي .

وفي هذا الخصوص يلاحظ أن عدد مشروعات الاستثمار الأجنبى التى قدمت لتتمتع بمزايا القانون المـــشار اليه لم يتجاوز عددها ١٣ مشروعا استثماريا بإجمالى رؤوس أموال بلغت ١,١ مليون جنيها مصريا، كذلك فإن جملة رؤوس الأموال الأجنبية التى دخلت مصر سواء التى خضعت لقانون الاستثمار أو غير الخاضعة له خلال الفترة ١٩٥٣- ١٩٥٦ بلغت ٤,٢ مليون جنيه مصرى فقط – خص قطاع البترول منها وحده ٣,٢ مليون جنيه مصري – كما بلغ نصيب قطاع السياحة والفنادق ٣٢٤ ألف جنيه مصري ، وبحيث استأثر هذين القطاعين على ٨٤% من إجمالى تلك الاستثمارات، على حين اتجهت البقية الباقية للقطاع الصناعى للتركيز بشكل كلي على الصناعات الاستهلاكية الخفيفة.

شركة قناة السويس واستنزاف الاقتصاد المصرى:

وبالنسبة لدور شركة قناة السويس العالمية فى التنمية الاقتصادية فى مصر قبيل عام ١٩٥٦ فإنه بالنظر الى توزيع استثمارات هذه الشركة بين مصر والخارج نجد ان ميزانيتها فى نهاية ١٩٥٥ كانت تشير إلى وجود أكثر من ٩٥% من استثماراتها خارج مصر بما يشير بوضوح لمدى الإستنزاف الذى سببه هذا المشروع لموارد الاقتصاد المصرى ذلك ان النسبة العظمى من الأرباح التى حققتها هذه الشركة بفضل إدارة مورد مصري لم تستثمر إلا فى خارج مصر.

والخلاصة ان رأس المال الاجنبى كان شحيحاً برغم كل الاغراءات التشريعية والتنظيمية، مستنزفا لموارد مصر الى الخارج ، برغم وجود مجالات رحبه للاستثمارات بالداخل ، لا يعمل الا فى القطاعات المتصله بالانتاج الأولى حيث العائد كبير وسريع .

ثانيا: أثر تأميم القناة وحرب ١٩٥٦ على الأوضاع والاتجاهات الاقتصادية فى مصر

بدأ التفكير في تأميم قناة السويس بعد إعلان البنك الدولي سحب تمويل مشروع السد العالي، بعد أن أثبتت كل الدراسات الفنية والهندسية الفائدة الاقتصادية للمشروع، وذلك كعقاب لسياسة التحرر الاقتصادي والسياسي من التبعية التي اتبعتها الحكومة المصرية. وجاء رد جمال عبد الناصر قويا ومفاجئا بإعلانه تأميم شـــركة قناة السويس العالمية في ٢٦ يـــوليو ١٩٥٦.

وعلى هذا كان التآمر الثلاثي بين فرنسا وانجلترا واسرائيل لشن عدوان ثلاثي مسلح على مصر، بغرض تأديب ثورتها، وتدمير هذا النموذج الخطر، والحيلولة دون استشرائه، وأتبعت ذلك بفرض حصار اقتصادي على مصر من الخارج عن طريق تجميد أرصدتها المودعة فى انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة، ورفضت الحكومة الأمريكية بيع فائض حاصلاتها الزراعية التى كانت تعتمد عليه مصر في إستكمال حاجتها من المواد الغذائية، كما فرضت حصاراً إقتصاديا آخر من الداخل من خلال إستخدام البنوك الأجنبية فى مصر والتى كانت تسيطر حينئذ على النسبة العظمى من عمليات الائتمان، وحيث عمدت القوى الاستعمارية – التى كانت هذه البنوك تعمل وفقاً لما تمليه عليها إرادتها – للإيعاز لها بعدم تمويل محصول القطن الرئيسي الذى كان يعتمد عليه الاقتصاد المصري. وذلك على الرغم من أن معظم أنشطة هذه البنوك كانت تعتمد على أموال المصريين المودعة لديها – الأمر الذى سبب

هزة اقتصادية عنيفة للاقتصاد المصرى، ومن ثم فقد كان لا بد من مواجهة حازمة للموقف، فلم تجد حكومة الثورة حرجا من فرض الحراسة فى نوفمبر ١٩٥٦على الممتلكات البريطانية والفرنسية إثر عدوانها المسلح في ١٩٥٦ ، وغير ذلك من نتائج هامة أثرت على أوضاع واتجاهات مصر الاقتصادية فيما بعد .

أهم النتائج التى ترتبت على تأميم قناة السويس وحرب ١٩٥٦ على الأوضاع والإتجاهات الاقتصادية

ويأتي على رأس هذه النتائج ما يلي :

النتيجة الأولى : إتباع حكومة الثورة لسياسة تمصير الممتلكات البريطانية والفرنسية بالإضافة إلى جميع البنوك وشركات التأمين والوكالات التجارية.

النتيجة الثانية : تأكيد الإهتمام بضرورة تحقيق مستوى طموح من التنمية الاقتصادية من خلال تشجيع الإستثمار الصناعي.

وكانت سياسة الحكومة تعمل في هذا الصدد على ما يلي:

- الإسهام الحكومي المباشر في رأس مال الصناعات.
- تقديم القروض للمشروعات الصناعية الجديدة.
- منح تصاريح الاستيراد وتوفير العملات الأجنبية الضرورية لإستيراد المعدات من الخارج.
- حظر استيراد السلع الأجنبية المنافسة للصناعات المحلية ..... الأخيرة في الإنتاج.

كذلك أكدت الحكومة إهتمامها بالتصنيع عن طريق القيام بإنشاء بعض الأجهزة وبإتخاذ بعض الإجراءات من أهمها:

- إنشاء المؤسسة الاقتصادية كنواه لقيام القطاع العام.
- تنظيم التخطيط القومي.
- إنشاء وزارة الصناعة وصدور قانون تنظيم الصناعة.
- قيام الدولة بالاستثمار في مجال التصنيع الثقيل.

النتيجة الثالثة : ندرة تدفق رأس المال الأجنبي منذ فترة الحرب واتجاه أغلبيته إلى الاستثمار فى قطاع البترول .

النتيجة الرابعة : زيادة تدفق المنح والقروض بشروط ميسرة في ظل التأييد العالمي الـــذي اكتسبته مصر بـــعد إنتصارها [أ] السياسي في معركة ١٩٥٦ .

النتيجة الخامسة : استمرار تخاذل رأس المال المحلي عن المشاركة في التنمية الاقتصادية.

النتيجة السادسة : لجوء حكومة الثورة لسياسة التأميم والتحول الإشتراكي لتحقيق أهداف التنمية الاقتصادية.



ملاحظات ختامية

يمكن أن نشير إلى مجموعة من الملاحظات الأساسية التى خلصنا إليها وذلك على الوجه التالى : -

١) أن الأهـداف السياسة لثورة يوليو ١٩٥٢ قد تـداخلت مـع أهـدافها الاقتصادية ، ذلك أن أهداف الاستقلال والتحرر السياسى لم تكن تتأكد دون الاهتمام بأهداف التحرر الاقتصادي وتحقيق مستوى طموح مـن التنمية الاقتصادية .

٢) إن قوى الاستعمار العالمية القديمة كانت تفطن هى الأخرى إلى طبيعة العلاقة الأبدية التى تربط بين الاستقلال والتحرر السياسى من ناحيـة وبين التحرر الاقتصادي والتنمية الاقتصادية من ناحية اخـرى، لـذا فكان قرارها ضرب الثورة الوليدة من خلال سحب تمويـل مـشروع السد العالى.

٣) إن القرار التاريخى لتأميم شركة قناة السويس العالمية كان ردا طبيعيا على هذه المؤامرة، وكان إعلانا واضحا عن تفهم قيادة ثـورة يوليـو لمدى الارتباط بين الأهداف السياسية والأهداف الاقتصادية .

٤) إن مؤامرة العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦، وما واكبها مـن محاولات للحصار الاقتصادى الذى شاركت فيه المؤسسات الاقتصادية الأجنبية العاملة فى مصر والمرتبطة عضويا بالدول المـشاركة فـى العدوان قد ترتب عليه إقدام حكومة الثـورة علـى إتـباع سياسـة التمصير .

٥) كذلك ترتب على خروج مصر منتصرة سياسيا على قوى العدوان أن أعلنت إصرارها على تحقيق مستوى طموح من التنمية الاقتصادية من خلال تشجيع الاستثمار الصناعى .

٦) كما ترتب على أحداث عام ١٩٥٦ ندرة تدفق الاســتثمارات الغربيــة المباشرة الى مصر.

٧) كذلك فقد كان للتأييد العالمى الذى اكتسبته حكومة الثورة بعد الانتصار السياسى الذى تحقق فى معركة تأميم القناة أكبر الأثر فى تدفق المــنح والقروض الى مصر بشكل كبير وبشروط ميسرة.

٨) أن إحجام رؤوس الأموال المحلية عن القيام بدور مناسب فى التنميــة الاقتصادية على الرغم من الجهود التى بذلتها حكومة الثورة وتشجيعها على قيادة التنمية الاقتصادية قد دفع حكومة الثــورة لاتبــاع سياســة التأميم وحتمية الحل الاشتراكي كطريق للتنمية الاقتصادية.



خمسون عاماً على العدوان الثلاثي ١٩٥٦

د. جمال شقــرة

إذا كان القرن التاسع عشر قد شهد أقصى مدى لتوسع الإمبراطوريـــة البريطانيـــة فإن القرن العشرين قد شهد ذبولها وتراجعها ثم إنهيارها، حيث قُدر للإمبراطورية التي فرضت هيمنتها على ربع مساحة الكرة الأرضية ـ حتى استحقت بجدارة لقب الإمبراطورية التي لاتغيب عنها الشمس ـ قُــدر لها أن تتخلى عن مكانها ومكانتها لإمبراطورية "غربية" جديدة صاعدة ، هي الإمبراطورية الأمريكية، وليصبح بعد ذلك تاريخها الإستعماري مجرد قصة من قصص قيام وسقوط الإمبراطوريات.

وإن كانت عوامل تفكيك وهدم الإمبراطورية البريطانية [1] قد بدأت منذ أواخر القرن التاسع عشر، إلا أن معاناة بريطانيا من نتائج دخولها حــربين عالميتين في النصف الأول من القرن العشرين ، كانت من العوامــل التــي أثرت كثيراً على حركتها التاريخية ومستقبلها في النصف الأخير من نفــس القرن.

وتجدر الإشارة إلى أنه بالإضافة لتأثير الحروب، فــإن الإمبراطوريـــة عانت من تصاعد النزعة القومية، وإنطلاق حركات وثورات التحرر الوطني في مستعمراتها في آسيا وأفريقيا، حيث هبت شعوبها لمواجهـــة إســتمرار النهب الاقتصادي الإستعماري لمواردهم الطبيعية، خاصة بعــد أن تفاقمــت الأزمة الاقتصادية الاجتماعية وأخذت تفتك بهم، وكذلك دفعهم إلى الثــورة إنتهاك المستعمرين لخصوصيتهم والإعتداء المستمر على ثقافتهم.

على أية حال لم يكن النصر الذي حققته بريطانيا في الحرب العالميــة الثانية مرادفــاً للإحتفــاظ بنفوذهــا الإمبراطوري علــى حــد تعبيـــر

توريليه بارينت Torele Barent صحيح أن ألمانيا الهتلرية هُزِمت هزيمة ساحقة، لكن النصر في حد ذاته لم يكن هو المهم بل الظروف التي واكبت إحرازه، والنتائج التي أعقبت ذلك [٢].

ولقد كان من أبرز هذه النتائج إشتداد منافسة الولايات المتحدة الأمريكية ليس لبريطانيا وحدها، بل لبريطانيا وفرنسا ولأوروبا كلها.

واللافت للنظر أن الإمبراطورية البريطانية في سبيل ضمان الفوز بصورة المنتصر، كلفت نفسها مالا تطيق، فانخفض احتياطيها من الذهب، وأجهضت بنيتها وقدرتها الإقتصادية، وزاد اعتمادها على الواردات والمساعدات الأمريكية.

وفي يوليو ١٩٤٥ ووُجهت حكومة العمال بمذكرة الاقتصادي الشهير كينز KINZ التي شخصت "الهاوية الاقتصادية " التي كانت تواجهها بريطانيا، وهو ماكان يعني الخضوع البائس للمساعدات الأمريكية [٣].

وعلى الطرف الآخر ، انطلقت الولايات المتحدة الأمريكية لتحقق معجزة إقتصادية، حيث قفز الرقم القياسي للإنتاج إلى الضعف ، من ١٠٠ مليار دولارعام ١٩٤٠ إلى ٢٠٠ مليار دولار عام ١٩٤٥، وأصبحت تنتج بعد الحرب ٥٠% من الإنتاج العالمي للسلع والخدمات، وزاد الإنتاج الزراعي بنسبة ٣٣% عام ١٩٤٥ مقارنة بسنوات ماقبل الحرب، كما زاد إنتاج القوى المحركة بجميع أنواعها زيادة غير مسبوقة، وهبط عدد العاطلين إلى ١,١ مليون متعطل بنسبة ١,٩ % عام ١٩٤٥ مقابل ١٦,٥ % قبل الحرب، وزاد أيضاً إحتياطي رأس المال من ٤٥ مليار دولار عام ١٩٤٠ إلى ٨٩,٥ مليار دولار عام ١٩٥٠ [٤] .

لقد إستحوذت الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية، على ثروة ضخمة، وامتلكت مصادر " القوة الطاغية " على حد تعبير "ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا أثناء الحرب [٥] وتجاوزت

مصالحها حدودها الإقليمية إلى كل مكان في الكرة الأرضية، وأصبح الدولار الأمريكي مقياساً للعملات العالميـة وانتـشرت البنـوك ورؤوس الأمـوال الأمريكية، وكذلك السلع والمنتجات المختلفة إنتـشاراً واضـحاً. وحمايـة لمصالحها هذه زادت النفقات المخصصة للدفاع، فأنفقت عام ١٩٥٠ حوالي ١٤,٥٠ مليار دولار على شئون الدفاع (١) .

وبديهي كان لا بد أن يتطابق التوزيع العالمي للموارد الإقتـصادية مـع توزيع القوة العسكرية، ومناطق النفوذ في العالم، وهو الأمر الذي اسـتغرق عدة سنوات بعد إنقشاع غيوم الحرب ؛ حاولت الامبراطورية البريطانيـة ـ والفرنسية ـ أن تتشبث خلالها، بوهم الانتصار الزائف وعاشـت صـحوة الموت بكل ماتحمله صحوة الموت أو المراهقة المتأخرة من مظاهر، بينمـا كان القطب الغربي الجديد الذي بزغ في سـماء النظـام العـالمي وسـاحة العلاقات الدولية، ينافس ويزاحم وأحياناً يضغط ويصارع حليفته العجـوز، ليوقظها من أحلام اليقظة، ويكرهها على الإعتراف بالأمر الواقـع، وبـأن دورها كإمبراطورية قد إنتهى، وأن عليها أن تترك مكـان الـصدارة لمـن يستحقه ولمن أحرز النصر الحقيقي.

ولقد بدأت المساومة والمنافسة والمزاحمة قبـل الحـرب، وتـصاعدت حدتها مع تصاعد حدة المعارك، وتأزم وضـع الإمبراطوريـات القديمـة، وأصبح "الصـــراع بين الحلفاء" من حقائق الأمور بعد أن صممت المدافع وخمدت النيران .

كان صناع القرار في الولايات المتحدة الأمريكية قد توقعـوا تـورط أوروبـا في حرب عالمية ثانية، وقدروا إنها ستكون فرصتهم الذهبية لتحقيق الحلم الأمريكي، لذلك قرروا المشاركة فيهـا والـسعي لـسحق ألمانيـا وإيطاليـا حتى لا تُضطر إمبراطـوريتهم الوليـدة إلـى مواجهـة إمبراطوريـات جديدة فتيـة، سيكون الصراع معها عنيفاً مجهداً ومكلفاً. أما

الإمبرطوريات القديمة "بريطانيا وفرنسا" فإنه من الأفضل أن تخرج سالمة من الحرب، وفي الوقت نفسه ضعيفة منهكة بائسة غير قادرة على الاحتفاظ بمستعمراتها (٧).

وتتعدد الأدلة على تخطيط الولايات المتحدة الأمريكية لوراثة الإمبراطوريات القديمة ، كما يمكن بيسر رصد السياسات والإجراءات التي نفذتها الإدارة الأمريكية أثناء الحرب وبعدها من ذلك : ــ

– إنه عندما طلب رئيس وزراء بريطانيا ونستون تشرشل من الولايات المتحدة الأمريكية، بعض القطع البحرية، بمقتضى قانون "الإعارة والتأجير" حتى يتمكن من تعويض النقص الذي أحدثته الغواصات الألمانية في الأسطول البريطاني، طلب الرئيس الأمريكي روزفلت في المقابل ، أن تتنازل بريطانيا للولايات المتحدة عن مجموعة الجزر التابعة لها ، والواقعة قرب الشواطيء الأمريكية (٨) .

– وعندما طلب " تشرشل " كذلك من الرئيس الأمريكي ، زيادة المساعدات حتى تتمكن من تحمل المجهود الحربي ، طلب زوزفلت في المقابل تسهيلات مرور لبلاده في جميع أنحاء الإمبراطورية البريطانية (٩).

– وكذلك عندما طلب تشرشل أن يعتمد الحلفاء ، إستراتيجية تقضي بالإنتهاء من ألمانيا أولاً ، ثم التفرغ بعد ذلك لليابان ، كان المقابل هذه المرة، طلب روزفلت بإعادة إقتسام بترول الشرق الأوسط الذي كانت تسيطر على معظمه ، الإمبراطورية البريطانية (١٠) .

– ومن الوقائع ذات الدلالة ، إنه لما طلبت بريطانيا تزويدها بمدرعات أمريكية جديدة، لكي تستكمل إستعدادها للمعركة الفاصلة التي كانت تخطط لها والتي وقعت فعلاً في العلمين أغسطس ١٩٤٢ استجابت الإدارة الأمريكية على الفور ، وشحنت فرقة دبابات قوامها ثلاثمائة دبابة حديثة من طراز " جرانت " ولكن معها أطقم من العسكريين الأمريكيين

بحجة أن نقل هذه الدبابات يتطلب وجود هذه الأطقم بصورة مباشــرة فـــي الشرق الأوسط (١١) .

– كما سعت الولايــات المتحدة الأمريكيـــــة إلـــى إنـشاء القواعــد العسكرية في المملكـــة العربيـــة السعوديـــة "قاعدة الظهران"، وفي الخلـــيج العربي "مطار البحرين" وفي مصر قاعــدة " الهايكستب" البرية والبحرية ، وكذلك مطار "باين"(١٢)، وكان يقع في نفس المكان الذي يقع فيه الآن مطـــار القاهرة ؛ هذا بالإضافة إلى المشاركة الأمريكية الفعليـــة بحملـــة "تــورش" TORCH التي نزلت بها القوات الأمريكيـــة تحت قيادة دوايت أيزنهاور في شمال إفريقيا ؛ ومن المغرب بدأ الإستعداد للقفز نحو صقليـــــة (١٣). كــذلك أصرت الولايــات المتحدة على إطـــلاق "ميثـــاق الأطلنطي" كشرط أساسي لتكثيـــف مساعدتهـــا ضد هتلر وبالطبع لم يكن إصرارها صادر عن مثالية مبرأة من المطامع إنما كان هدفها تـــشجيع شـــعوب المـــستعمرات وأشـــباه المستعمرات ضد الإستعمار القديم حتى ينفتح الباب أمامها لتحقق أهدافها(١٤).

ولقد استشعر ونستون تشرشل مغزى السياسات الأمريكيـــة وخطـــورة ودلالة الإجراءات التي ينفذها الأمريكان، كما أدرك أن "الدور في إبـــتلاع الإمبرطوريـــات واصل حتماً إلى الإمبراطوريـــة البريطانيـــة "(١٥). كمـــا إعترض بعض وزرائه على الأسلوب الذي يتعامل به تيـــودور روزفلت مع رئيـــس وزراء الإمبراطوريـــة البريطانية، وهو ما عبر عنه ذلك الـــوزير إرنست بيفن بقوله "إن روزفلت يتعامل مع تشرشل بأسلوب المُرابي شيلوك مع مدينيه في مسرحية شكسبير ، تاجر البندقية "(١٦)

وتجدر الإشارة إلى أن الجنرال شارل ديجول استشعر هو الآخر المنافسة والمزاحمة والضغوط الأمريكية، وأدرك حقيقة دوافـــع الولايـــات المتحـــدة الأمريكية من وراء مشاركتها في الحرب، وتيقن من سعيها لإقصاء فرنـــسا بعيداً في الظل وسجل مخاوفه هذه في مذكراته، حيث أشار إلى أنه "أمـــام

ضخامة الموارد الأمريكية وطموح تيودور روزفلت كنت أشعر أن استقلال فرنسا على المحك .. "[١٧] وتعرض ديجول أثناء الحرب وبعدها لخصومة روزفلت بسبب معارضته الصريحة للمخططات الأمريكية[١٨] .

لقد عاند تشرشل وقاوم وكان يردد إنه : " لم يصبح رئيساً لوزراء ملك بريطانيا حتى يقوم على تصفية إمبراطوريته .. "[١٩]. كما قاوم الجنرال ديجول ولكن روزفلت كان في عجلة من أمره ، وكان واعياً إلى أنه إن كان عليه أن يجرد بريطانيا من ممتلكاتها، ويُقصي فرنسا بعيداً، فإن عليه أن يفعل ذلك أثناء الحرب وليس بعدها [٢٠] .

لذلك إندفع ليُلقي بأوروبا في الظل الأمريكي على حد تعبير أرنولد توينبي مؤكداً أن القرن العشرين هو القرن الأمريكي [٢١] كما إندفع نحو الشرق الأوسط وعينه على البترول الذي يتدفق بغزارة ملفتة للنظر من باطن أراضيه ؛ وتشير واحدة من الوثائق الأمريكية إلى أن روزفلت كتب توجيهاً رئاسياً بتاريخ ٨ مارس١٩٤٣ إلى جيمس لانديس مدير العمليات الاقتصادية في الشرق الأوسط ، أشار فيه إلى أهمية بترول المنطقة ، وخطورة موقعه الإستراتيجي فالشرق الأوسط منطقة للولايات المتحدة مصالح حيوية فيها، ولذلك فالحرص على هذه المنطقة وتجنيبها شرور قلاقل الماضي أمر له أهمية متزايدة.."[٢٢].

ورغم ما ورد في الوثيقة من أن الولايات المتحدة لا تنوي التدخل في الشؤون الداخلية لبلدان الشرق الأوسط، وإنها ستحرص على أن يكون موقع وموارد هذه المنطقة في خدمة كل الأمم دون تمييز، وإنها ستعمل كذلك على صيانة مصالح كل الأطراف، ورغم ماورد من إنها ستوقف الميزات التي يختص بها طرف ــ المقصود الإمبراطورية البريطانية ــ على حساب باقي الأطراف. فإن الأيام القليلة التي أعقبت صدور هذا التوجيه وطوال

الخمسينيات أخذت الولايات المتحدة تعمل على الإستحواذ على نصيب الأسد من الثّروات النفطية للمنطقة، كما اختصت نفسها بالمواقع الإستراتيجية المهمة فيها [٢٣] .

كانت مصر من أبرز وأهم المواقع الإستراتيجية التي اتجهت إليها الولايات المتحدة الأمريكية، لا لتوقف الميزات التي سلبتها بريطانيا واختصت نفسها بها، بل لتزاحمها وتوسع نطاق نفوذها الإقتصادي والسياسي في بلد توقعت الإدارة الأمريكية أن يتحول بعد الحرب إلى بؤرة من أخطر بؤر الحرب الباردة.

وإن كانت الرغبة في الحفاظ على روح التعاون والإنسجام الشامل داخل التحالف الغربي في الدفاع عن مصر ، خلال سنوات الحرب العالمية الثانية ، قد خففت روح العداء في المستويات العليا من مؤسسة السياسة الخارجية الأمريكية تجاه الهيمنة البريطانية في مصر [٢٤] إلا أن هذا لم يمنع من إقتناص الفرص والإستفادة من مشكلات البريطانيين في مصر لصالح الأمريكيين[٢٥]. كان لوى هندرسون الذي أصبح رئيساً لإدارة الشرق الأدنى (NEA) بالخارجية الأمريكية عام ١٩٤٧ متيقظاً جداً لذلك [٢٦] فعلى الرغم من أنه كان يوافق على أن إستمرار إحتفاظ بريطانيا بقاعدة عمليات إستراتيجية في شرق البحر المتوسط إلا أنه كان يرى أن وجود القوات البريطانية في مصر ، أصبح يُشكل عبئاً ليس فقط على بريطانيا وحدها وإنما أيضاً على الولايات المتحدة الأمريكية والعالم الغربي بوجه عام " فوجود هذه القوات بات يُسمم الجو في أنحاء الشرق الأدنى والأوسط بسرعة وإلى درجة أنه ما لم يتوفر في المستقبل القريب مؤشراً ما على أنه سيتم سحب القوات البريطانية من مصر إنسحاباً غير مشروط ، وفي موعد محدد يكون أقرب ما يمكن من الناحية العملية، فإن علاقات الغرب مع العالم العربي قد تُضار بصورة خطيرة ولسنوات عديدة قادمة "[٢٧] .

وكان هندرسون يردد إعتقاده بأنه من الأهمية القُصوى أن تحاول الولايات المتحدة بشكل سري أن تجد وسيلة ما لإقناع بريطانيا العُظمى بأن تعلن إنها تعتزم سحب قواتها من مصر إنسحاباً غير مشروط وفي موعد غير محدد [٢٨] كما كان يرى أن جلاء القوات البريطانية عن قاعدة قناة السويس لا يُمثل مشكلة خطيرة، رغم ما يتردد من أن عدد هذه القوات يصل إلى ٩٠,٠٠٠ جندي، وأن هناك كميات هائلة من العتاد البريطاني المخزون، تصل قيمتها وفقاً لتقديرات البريطانيين إلى حوالي مليار دولار[٢٩].

غير أنه ونتيجة لبزوغ الحرب الباردة أُسكت ولو مؤقتاً صوت هندرسون والذين حذوا حذوه ، وحل اتجاهاً جديداً في السياسة الأمريكية يهدف إلى تدعيم التعاون الأنجلو ـ أمريكي وقبول استمرار الوجود البريطاني في المنطقة ، بل إن وزارتي الخارجية والدفاع كانتا حريصتين على أن تتحمل بريطانيا مسؤليتها كاملة في الدفاع عن السويس [٣٠] وفي نفس الوقت تسعى الولايات المتحدة مستفيدة من الإستقرار والإنفتاح فتوسع من أنشطتها الإقتصادية في مصر .

ولعل منح بنك التصدير والإستيراد الأمريكي أول قرض لمصر وكان قدره (٧,٢٥ مليون دولار) وذلك في ١٦ يوليو١٩٤٧، وكذلك تعيين س.بنكس تاك السفير الأمريكي السابق في مصر كأول أمريكي في مجلس إدارة شركة قناة السويس، كان بمثابة مؤشرات دالة على تزايد النشاط الإقتصادي الأمريكي في مصر [٣١] وهو نشاط لم يكن ليُسعد البريطانيين الذين كانوا يرتابون من تزايد التسلل الأمريكي على مستوى الأفراد والنشاط الإقتصادي في مصر .

وعندما جرت مباحثات البنتاجون في واشنطن في الفترة ما بين ١٦ أكتوبر و٧ نوفمبر١٩٤٧، وكان هدفها تنسيق الإستراتيجية السياسية

والإقتصادية في الشرق الأوسط وشرق البحر المتوسط بين بريطانيا والولايات المتحدة ، أتفق على الإدماج الرسمي للشرق الأوسط في نطاق دفاعي أمريكي آخذ في الإتساع، مع تسليم وموافقة أمريكية على المسئولية الخاصة لبريطانيا في الدفاع عن المنطقة (٣٢) .

وبالطبع يسهل رفع التناقض الذي يلمسه البعض في القرارات السابقة، أقصد التناقض بين رغبة الولايات المتحدة الأمريكية في التسلل إلى الشرق الأوسط في القلب منه ، وتغيير سياستها والموافقة على إبقاء القوات البريطانية في قناة السويس ، لدرجة تجاهل مطالبة مصر بالجلاء ، الذي تقدمت به في يوليو ١٩٤٧ إلى هيئة الأمم المتحدة .

على أية حال لم يكن المقصود أن تُصبح الولايات المتحدة ، الشريك الصغير للبريطانيين في الشرق الأوسط ، ولا أن تُصبح في الوضع الذي يجعلها تتبع خُطى البريطانيين بصورة عمياء (٣٣) بل إن المقصود أن تستمر بريطانيا في تحمل مسئولية الدفاع عن الشرق الأوسط كجزء من مفهوم شامل لمقاومة محاولات التسلل السوفيتي إلى المنطقة (٣٤) .

وإذا كان البريطانيون قد ظفروا من محادثات " البنتاجون " هذه بموافقة أمريكية على إستمرار وجود قواتهم في قناة السويس ، فإنهم قد أقروا بتوسيع نطاق النشاط الإقتصادي الأمريكي في الشرق الأوسط ، ولم ينجح هذا اللقاء في إزالة مشاعر الريبة والشك بين الطرفين ، وهي مشاعر كانت محسوسة بشدة خاصة بين موظفي المستويات الدُنيا الذين كانوا يتنافسون نيابة عن حكومتيهما على النفوذ والسلطة خاصة في مصر (٣٥) .

وتجدر الإشارة إلى أن إقامة حلف شمال الأطلنطي "الناتو" NATO في ربيع ١٩٤٩ كان إلتزاماً أمريكياً بمفاهيم الأمن الجماعي والإحتواء ، كما كان بمثابة إشارة ذات دلالة على إتساع نطاق الأمن القومي الأمريكي (٣٦) . ولعل هذا يفسر ماورد بوثيقة مجلس الأمن القومي الأمريكي رقم ١/٤٥ التي

أقرها الرئيس الأمريكي " ترومان " يوم ١٨ أبريل ١٩٤٩ بإقامة قاعدة جوية أمريكية في " أبو صوير " بمصر ، وكانت وثيقة الأمن القومي الأمريكي رقم ٤/٢٠ قد قالت بإمكانية نجاح الجيش الأحمر " السوفيتي " في الوصول إلى القاهرة ، وتهديد إمدادات النفط والقضاء على أكبر قاعدة غربية في الشرق الأوسط " قاعدة قناة السويس "(٣٧) وأشارت الوثيقة الأولى إلى أن خطط الطوارئ الحربية الراهنة تتطلب توفير هجوم استراتيجي نووي قوي بأسرع مايمكن عقب بدء الإشتباكات (٣٨) .

وفي عام ١٩٤٩ رفضت الولايات المتحدة الأميركية ربط خطط الدفاع عن مصر بخطط الدفاع العالمي ، وكانت وزراة الخارجية البريطانية تسعى إلى تحقيق ذلك ولم يكن موقف الولايات المتحدة هذا يعني مساندة للمطالب المصرية ، كما لم يكن يعني ترددها في إدخال مصر في نطاق أمني أمريكي ، بل العكس هو الصحيح تماماً (٣٩) .

لقد كان الميل للتصدي للإتحاد السوفيتي بترتيبات دفاع جماعية تقوم فيها الولايات المتحدة بدور رئيسي ، مبدأ مقرراً ثابتاً في الإستراتيجية الأمريكية إبان الحرب الباردة (٤٠) ، وعلى الطرف الآخر كان البريطانيون مترددين في إقامة أحلاف مشتركة حيث كانوا يفضلون إلتزاماً أمريكياً بسيطاً بالتعاون ، وهي الإستراتيجية التي كان من شأنها أن تسمح باستمرار " الهيمنة العسكرية البريطانية " في مصر ؛ كانوا في الواقع يفضلون أن يعملوا في مصر " كوكلاء" للأمريكين أكثر من أن يسلبهم الأمريكيون فرصة الظهور في صدارة المسرح " على حد تعبير " جيفري أرونسن "(٤١) .

وسعياً وراء المزيد من التغلغل الأمريكي داخل مصر والشرق الأوسط فقد قررت الولايات المتحدة توسيع نطاق المساعدات الاقتصادية المحددة الأطراف والثنائية الأطراف للعالم العربي ولإسرائيل كذلك ، وذلك بهدف مقاومة الثورات المُعادية للغرب (٤٢) .

وفي أواخر عام ١٩٤٩ شعرت الإدارة الأمريكية إنها في حاجة إلى سياسة أكثر نشاطاً في مصر ، ولقد برز ذلك بوضوح في المحادثات الأنجلو – أمريكية التي أجراها مسئولون متوسطو المستوى في واشنطن يوم ١٤ نوفمبر ١٩٤٩ (٤٣) .

ومع أن الذين شاركوا في هذه المباحثات من الطرفين أنكروا أية نية للتنافس أو عرقلة أحدهما جهود الأخرى في شؤون الشرق الأوسط (٤٤) ، إلا أن التنافس والتزاحم والضغط للإزاحة استمر على أرض مصر وفي غيرها من بلدان الشرق الأوسط .

وخلال عام ١٩٥٠ ظل الموقف الأمريكي من الوجود العسكري في مصر كما هو رغم بروز الفكرة القائلة بأن بقايا الإمبريالية تضر برؤيتها الجديدة للعلاقات الدولية . غير أنه في أواخر نفس العام بدا الخلاف واضحاً بين بريطانيا والولايات المتحدة خلال المباحثات العسكرية المشتركة التي جرت بينهما في نوفمبر ١٩٥٠، حيث اتضح أثناء هذه المباحثات الإختلاف الكبير بين الاهتمامات والمبادىء الإستراتيجية لكل منهما ، فبينما كانت بريطانيا مهتمة "بالحلقة الداخلية " للشرق الأوسط ومصر على وجه الخصوص ، كان يُحرك الولايات المتحدة "هوس" إحتواء الإتحاد السوفيتي والقلق على النفط(٤٥).

وفي عام ١٩٥١ وبعد حرب كوريا ، كانت الولايات المتحدة لا تزال تعتقد أن الوجود البريطاني في قناة السويس هو رمز لقوة الغرب، ومن المفترض أن يحقق درجة من الإستقرار في المنطقة ، لكنها كانت تدرك المأزق الحاد الذي يمثله ضعف بريطانيا فيما يتعلق بسياسة الإحتواء (٤٦) .

وتجدر الإشارة إلى أنه في الوقت الذي كانت فيه القوة البريطانية تتراجع، كانت بعض حكومات الشرق الأوسط تعرض على الولايات المتحدة مقترحات إيجابية تستهدف دعم الوجود الأمريكي في بلدانهم،

فالملك سعود والأتراك كانوا يطلبون معاهدات تحالف، وبعض المصريين كانوا يطلبون مساعدة الولايات المتحدة لهم بالقوات والأسلحة للتخلص من الإستعمار البريطاني البغيض (٤٧) .

وهكذا .. فبينما كانت قوة الإمبراطورية البريطانية في الشرق الأوسط تتراجع، وبينما كانت تندفع حكوماته نحو الإمبراطورية الجديدة ، كان الإهتمام الأمريكي يتزايد يوماً بعد يوم بهذه المنطقة الحيوية ، وبدأت المساعدات الأمريكية تهطل على اليونان وتركيا والدول العربية. كما بدأ تنفيذ برنامج الأمن المتبادل الأمريكي MSP (٤٨) وبرنامج مساعدات الدفاع المتبادلة MDAP (٤٩) .

عند هذا الحد بدأت الولايات المتحدة تشعر أن المشكلات السياسية التي تعاني منها مصر نتيجة لبقاء الإستعمار البريطاني على أرضها تدفع حتماً إلى نظام جديد يحل محل القوة البريطانية الآخذة في الإضمحلال ٠

وجاء قرار " أوتاوا " والإقتراح بقيادة الشرق الأوسط في أعقاب الإتفاق البريطاني ـ الأمريكي الذي تم في الثامن من سبتمبر ١٩٥٠ حول قيادة الشرق الأوسط (٥٠) إلا أن هذا الإقتراح كان مجرد إجراء لوقف تآكل النفوذ البريطاني والمعروف أن مصر لم توافق عليه ، وأن الولايات المتحدة رغم موافقتها كانت مدركة أن الهيمنة البريطانية باتت أثراً من الماضي يعتمد عليها (٥١).

وعندما أُلغيت معاهدة ١٩٣٦ ، نُظر إليها من جانب الولايات المتحدة على إنها مؤشراً على " تدهور وضع الغرب في الشرق الأوسط كله وليس في مصر وحدها٠٠"(٥٢) ، وإن كان إلغاء المعاهدة ، والإجهاض السياسي لقيادة الشرق الأوسط قد أدى إلى نوع من تطابق الآراء ـ ولو بصفة مؤقتة ـ بين الولايات المتحدة وبريطانيا إلا أن الخلافات في الرؤية الإستراتيجية إستمرت وزادت بشكل لافت للنظر ، وكانت زيارة رئيس الوزراء

البريــطاني " ونستون تشرشل " إلى واشنطن يناير ١٩٥٢ بهدف تضييــق دائــرة الخلاف وإجــراء تقويــم على مستوى عال للسياسيــة البريطانية ــ الأمريكية (٥٣) .

وفي هذا اللقاء اتضح لصناع القرار في الولايات المتحدة أن مــسألة السويس بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦ مسألة ملحة للجانب البريطــاني ، وإنهــا مثلت لهم تهديداً من حيث إعتبارات الامبراطورية والمكانة بنفس القدر الذي هي به من حيث إعتبارات الجغرافيا السياسية (٥٤) .

وفي نفس الوقت الذي كانت تدور فيه المنافسات ، كانــت الولايــات المتحدة تطور إستراتيجيتها العسكرية الإقليمية الخاصة بها ، بعد أن أرهقها عجز بريطانيا عن تسوية الصراع على مصر ، وكان قوام هذه الإستراتيجية إقناع الإدارة الأمريكية إنه في حالة نشوب حرب عامــة ، فــإن المــصالح السياسيــة والعسكرية للولايــات المتحدة في منطقة الشرق الأوسط وتــشمل إيران ، والمملكة العربية السعودية ، وغيرهما ، لن تقتصر على أمن قنــاة السويس ، والقواعد المجاورة لها ، ولذلك تبلورت قناعةُ الولايات المتحــدة بأن أفضل التدابير تأثيراً في هذه الحالة هي الدفاع عن منطقة الشرق الأوسط ككل ، وأن التدابير التي تهدف إلى الإحتفاظ بمناطق نفوذ في تركيا والخليج العربي ستكون مفتاح الدفاع عن منطقة السويس (٥٥) .

على أية حال شهدت بداية الخمسينيات تحول الوجود البريطاني في مصر من قوة إمبريالية إلى وكيل للقوة الأمريكية ، وكان البريطانيون يدركون ذلك جيداً ويشعرون بالإستياء ، إلا أنهم كانوا مضطرين لبذل جهــود مــستمرة لضمان قدر أكبر من التعاون الأمريكي معهم ، لكي يحتفظوا " بهيمنتهم " و" هيبتهم " (٥٦) .

ولقد رفضت الولايات المتحدة قبيل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إخضاع أولوياتها الإستراتيجية الخاصة لأولويات بريطانيا مما أدى إلى تصاعد التباعد والتنافر بينهما .

فبينما كانت القاهرة تحترق ، وصل رجل المخابرات المركزية الأمريكية الشهير " كيرميت روزفلت " في مهمة عاجلة ، واتسمت زيارته بأهمية بالغة من عدة جوانب لعل أهمها :ـ

أولاً : أن إيفاد واشنطن مبعوث أمريكي ليشارك في تعويم سفينة الدولة المصرية الغارقة مثل تحولاً خطيراً في السياسة الأمريكية تجاه مصر .

ثانياً : أن يكون هذا المبعوث هو " كيرميت روزفلت " فإن معنى ذلك تزايد دور وكالة المخارات المركزية في تنفيذ سياسة الولايات المتحدة الأمريكية .

ثالثاً : الأهم أن هذا الإهتمام والإنهماك الأمريكي في الشؤون المصرية كان يقابله تدهوراً مماثلاً في النفوذ البريطاني في مصر [٥٧] .

وفي مارس ١٩٥٢ وصل غضب وكراهية البريطانيين من التدخل الأمريكي في شئون مصر مداه ، وذلك حينما نقل السفير الأمريكي في لندن إقتراحاً أمريكياً يتضمن إعترافاً بريطانياً بفاروق ملك لمصر والسودان، ويتضمن كذلك ضرورة الإنسحاب الفوري لكل القوات البريطانية من مصر [٥٨] . كما استفزتهم وضايقتهم الرحلة التي قام بها " هنري بايرود " رئيس إدارة الشرق الأدنى بوزارة الخارجية الأمريكية إلى الشرق الأوسط ، خلال شهري مايو ويونية ١٩٥٢ [٥٩] .

على أية حال بحلول أواخر يونية ١٩٥٢ كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد نجحت في أن تقوض تماماً تأثير البريطانيين على الملك الذي أخذ يتطلع إليها لتأييده ، بعد إقناعه بقدرته على تجاهل البريطانيين ، كما

نجحت في أن تصبح وسيطاً بين الملك والباشوات ، فضلاً عن نجاحها في تقدير خطورة الأوضاع في مصر ودراستها لإحتمالات التغيير (٦٠) .

ومع أن الولايات المتحدة الأمريكية ، لم تعرف القائد الحقيقي لثورة يوليو ١٩٥٢ ولم تعرف الكثير عن أهداف التنظيم الذي قلب الأوضاع في مصر رأساً على عقب فإنها أيدت الضباط ، وحالت دون تحرك بريطانيا ضدهم ومنعتهم من تنفيذ الخطة RODYO وفضلت أن يُنظر إلى ماحدث على أنه أمر داخلي • وعن طريق السفير الأمريكي في مصر " جيفرسون كافري " ضغطت على الملك " فاروق وأقنعته بالموافقة على طلبات الضباط الشبان ، والخروج من مصر بدلاً من تعريض نفسه لخطر جسيم ، ثم بدأت تنسج علاقاتها مع النظام الجديد ، بإعتبارها زعيمة العالم الحر ، وراهنت على إرتمائه بسرعة في أحضان الغرب (٦١)•

وإذا كان موقف الولايات المتحدة من الضباط الأحرار قد أزعج بريطانيا ، فإن الولايات المتحدة ، بدأت تشعر أن بريطانيا هي العقبة الوحيدة التي تقف أمام ارتباط مصر " اللواء نجيب " بعجلة السياسة الغربية ، وبدأ يتردد في أوساط دوائر صُنع القرار في الولايات المتحدة ـــ على سبيل التهكم والسخرية ـــ أن القوات البريطانية في قناة السويس تشبه إلى حد كبير " المرتزقة " ذوي المعاطف الحمراء في الثورة الأمريكية (٦٢) .

ولعل مما له دلالة بشأن التنافس الأنجلو ـــ أمريكي على مصر ، إعتراض بريطانيا على مشروع الولايات المتحدة لبيع الأسلحة للضباط ، فبمجرد أن علمت بزيارة " علي صبري " إلى واشنطن للإتفاق على صفقة أسلحة ، إنزعجت بشدة وعارضت بشكل قاطع أن تبيع الولايات المتحدة السلاح لمصر ، ورددت الدوائر البريطانية إنه : " جرى العُرف أن نبيع نحن لمصر •• إنها سوقنا •• "(٦٣) .

على أية حال ، تزخر وثائق الأمن القومي الأمريكي NSC ووثائق الخارجية الأمريكية FRUS بالكثير من الأدلة التي تثبت تبدل التصورات والرؤى الإستراتيجية الأمريكية ، ونزوعها إلى الإستقلال عن الإستراتيجية البريطانية ، حيث بدأت الولايات المتحدة تخطط لدور مصري كجزء من التخطيط الدفاعي الغربي ، وذلك بصورة مستقلة عن التوجهات والسياسات البريطانية[١٤] .

جاء في تقرير لوزارة الخارجية في شهر أكتوبر١٩٥٢ أن " تعاون مصر مع الغرب في ظل توجيه بريطاني هو شيء غير مرجح ، بفعل القوة القاهرة في حال نشوب حرب مع الإتحاد السوفيتي.. "[١٥]. لذلك مارست الولايات المتحدة ضغوطاً شديدة على بريطانيا أثناء المفاوضات الخاصة بالسودان ، ولقد أغنانا " كافري " البحث عن أدلة لإثبات ذلك ، حيث أشار في واحد من تقاريره إلى أنه رغم مقاومة المفاوض البريطاني فإن بريطانيا حتما ستستسلم ، أي تُنهي المفاوضات وتخرج من السودان " ونحن ندفعها إلى ذلك.. "[١٦]. ورداً على ماكان يردده البريطانيون من أنهم أنجزوا أعمالاً طيبة في السودان، وإنها تمثل مفخرة للإمبراطورية البريطانية ، كان " كافري " يؤكد، أن ذلك ليس بالشيء المهم ، وأنه سيظل إستعماراً ، والإستعمار أمر عفا عليه الزمن ولن يساعد مصر أو السودانيين أو بريطانيا نفسها.. "[١٧] .

يهمنا أن إتفاق ١٢ فبراير١٩٥٣ الخاص بالسودان قد أدى إلى دعم الدبلوماسية الأمريكية الصاعدة في الشرق الأوسط ، ويهمنا أن هذا الإتفاق كان دليلاً على تنامي الدور الأمريكي في مواجهة تراجع الدور البريطاني .

وعندما بدأت المفاوضات المصرية البريطانية يوم ٢٧ إبريل١٩٥٣ ، اتجهت الولايات المتحدة ، رغم رفضها الدخول كطرف في المفاوضات ، إلى دعم الضباط، وكان يحركها طوال فترة المفاوضات رغبتها في إزاحة

بريطانيا من مصر لإعتقادها أن هذه الخطوة ستدفع الضباط إلى الإرتباط بالغرب[٦٨]. وبالطبع كان تأييد واشنطن للنظام الجديد في مصر وشروعها في دعمه مادياً ومعنوياً متسقاً مع أهدافها ومصالحها في الشرق الأوسط والتي يمكن إجمالها حسبما ورد صراحة في الوثائق الأمريكية فيما يلي : ــ

أولاً : تحقيق الإستقرار في مصر والشرق الأوسط .

ثانياً: إيجاد حل للخلاف المصري ــ البريطاني .

ثالثاً: السعي لإشراك مصر في ترتيبات الدفاع المشترك عن الشرق الأوسط .

رابعاً: تحقيق تسوية سلمية بين مصر وإسرائيل [٦٩].

لذلك ظلت الولايات المتحدة تضغط على بريطانيا بهدف إنهاء المفاوضات وحل مشكلة قاعدة القناة [٧٠].

ولقد عبر " إيدن " عن ضيقه من موقف الولايات المتحدة من المفاوضات المصرية البريطانية ، في رسالة أرسلها إلى " إيزنهاور " أول إبريل ١٩٥٣، حذره فيها من أنه " لايمكن السماح لمصر بأن تكرر أسلوب " مُصدق " في تأليب الولايات المتحدة على بريطانيا.."[٧١] وطلب منه ضرورة إشعار المصريين :" بأن ثمن المعونة الأمريكية هو التوصل ، إلى إتفاق مع بريطانيا ، يكفل إستمرار إستخدام قاعدة قناة السويس.. "[٧٢] .

وتُشير الأدبيات البريطانية ، وكذلك وثائق الخارجية البريطانية F.O إلى حنق المفاوض البريطاني من الضغوط الأمريكية التي دفعت ببريطانيا ، إلى تقديم التنازل تلو الآخر[٧٣] .

<u>على أية حال تأكد لبريطانيا ، أثناء المفاوضات وبعدها :</u>

أولاً : أن الولايات المتحدة الأمريكية ، باتت أكثر إنشغالاً بالشؤون الداخلية لمصر.

ثانياً: أنها باتت مصممة على الإضطلاع بدور قيادي في تنظيم نطـاق من نطاقات الحرب الباردة في الشرق الأوسط .

ثالثاً: أن المرونـة الأمريكيـة أغرت المصريين بـأن الولايـات المتحدة " وحدها " قادرة علـى تقـديم المعونـات الإقتـصادية والعسكرية لمصر[٧٤] .

ومن ناحية أخرى ، انهمكت دوائر صُنع القرار في الولايـات المتحـدة الأمريكية قبل زيارة وزير الخارجية الأمريكية لمصر في مـايو١٩٥٣ فـي مراجعة شاملة للسياسة الأمريكيـة في الشرق الأوسط ، وهي العمليـة التي نتج عنها تزايد فقدان الثقة في البريطانيين ، والإتجاه إلـى توسـيع النفـوذ الأمريكي في المنطقة لوقف تدهور العلاقات الأمريكية ــ العربية[٧٥] .

وفي السادس من مايو ١٩٥٣ قدم " هارولد ستاسـن " مـدير الأمـن المتبادل والمسئول عن برامج المعونـات العـسكريـة والإقتـصاديـة ، تقريراً إلى لجنة العلاقات الخارجيـة بمجلس الـشيـوخ ، تنـاول فيـه الوضـع في الشرق الأوسـط لعل أهم ماجاء فيه :ــ

أولاً: أن مكانة الغرب في الدول العربيـة تدهورت بصورة مطردة منذ الحرب العالمية الثانية .

ثانياً: أن هناك حاجة ملحة لإجراءات عاجلة وحاسمة .

ثالثاً: نتيجة للخوف من قوى التخريب الداخليـة ، والضغوط المعاديـة للغرب الخارج فإن الأهداف الأمريكية فـي المنطقـة ينبغـي أن تهدف إلى : ــ

- العمل على تشجيع الحكومات المستقرة والعلاقات السلمية .
- توسيع التجارة والتنمية الإقتصادية .
- بذل المساعدات للإقتصاديات المكتفية بذاتها .
- تشجيع العلاقات الودية مع الغرب .

- التطلع إلى مشاركــة أكبر من جانب شعوب الشرق الأوسط في الدفـــاع عن العالم الحر وعن بلدانهم بوجه خاص ٠
- التعاون النشط والفعال من جانب دول المنطقة في حال نـــشوب حرب شاملة [٧٦] .

ويستمر تقرير" ستاسن " ليؤكد على أنه مـــع تنـــامي إدراك الولايـــات المتحدة لمسؤليتهـــا في الشرق الأوســـط ، فقد أصبـــح من الضروري لهـــا أن تتبنى رؤيـــــة أكثر تحديداً لما هي مستعدة لعمله ، ولما هي مستعدة له٠ وبالطبع فإن هذه الرؤية تستند على وتخدم المصالح القومية الأمريكية وليس البريطانية[٧٧] .

وبعد عودة " دالاس " من زيارته لمصر ، أخذت نغمـــة الفـــصل بـــين السياسة الأمريكية والبريطانية تعلو وتتردد بكثرة في أروقة وزارة الخارجية الأمريكية "فالولايات المتحدة الأمريكية وإن كانت لا تخجـــل مـــن صـــلاتها الوثيقة ببريطانيا ، إلا أنها لا تقبل السياسة البريطانية بصورة آلية ٠٠" يقول دالاس: "إننا نشارك المملكة المتحدة البريطانية تراثاً ثقافياً ودينياً ، وهو مـــا يعطينا وجهة نظر مماثلة إزاء معظم المشكلات ، وذلك في الوقـــت الـــذي تحتفظ فيه بحق ممارسة التقرير المستقل تماماً في كل الحـــالات ٠٠ ومـــن الخطأ أن يقول أحد أن المملكـــة المتحـــدة تقـــود الولايـــات المتحـــدة مـــن أنفها ٠ ٠"[٧٨].

والأهم من ذلك أن " دالاس " اقتـــرح بوضـــوح إســـتبعاد النفـــوذ والجيوش الإستعمارية من الشرق الأوسط ، على أن يتواكب ذلك مـــع دور أكبر للسياسة الأمريكيـــة [٧٩]٠ كما أكد علـــى أن اســـتمرار بقـــاء القـــوات البريطانية في الشرق الأوسط يؤدي إلى عدم الإســـتقرار ، وأن الولايـــات المتحدة ترتكب خطأ كبيراً إذا ما ارتبطت بالسياسات الإستعمارية [٨٠] .

هكذا اتجهت سياسة الولايات المتحدة الأمريكية بعد عـودة " دالاس " مـن منطقة الشرق الأوسط ، إلى انتهاج خط مستقل عن البريطانيين، إن لم يكـن متناقضاً معهم. كما تقرر الإستمرار في سياسة الإحتواء ، بحيث يـتم مـلء الفراغات الإستراتيجية في الشـرق الأوسط وجنوب شرق آسـيا بتحالفـات إستراتيجية جديدة [٨١].

لذلك تحركت الإدارة الأمريكية لتوسع نطاق نفوذها ولتحقق فكرة الحزام الشمالي(باكستان ـ إيـران ـ تركيا ـ العراق) ، وكـان البريطـانيون ينظرون إلى التحركات الأمريكية بإعتبارها سياسة أمريكية مستقلة لن تضر فحسب بما تبقى من نفوذ بريطانيا في المنطقة بل وتتعـارض أيـضاً مـع إستراتيجيتها الدفاعية التي ترتكز على قاعدة قناة السويس [٨٢] .

ولقد فشلت مباحثات الثلاثـة الكبار في" برمودا " أوائـل ديسمبر١٩٥٣، ولم يقتنع "إيدن " بالتصور الأمريكي الخاص بأهميـة الوصول إلى إتفـاق مصري ـ بريطاني[٨٣]. ونفس المصير كان من نصيب مباحثات " تشرشل وإيدن " مع " إيزنهاور ودالاس " في يونيـة ١٩٥٤، بل وصـل الأمـر إلى حد تهديد الرئيس الأمريكي بأن الولايات المتحدة ستنفصل عن لنـدن ، وتتبع سياسة مستقلة عن التوجهات والإهتمامات البريطانية [٨٤]. وإن كـان البعض قد لاحظ حدة التنافس وتسارعه بين الإمبراطورية الآيلـة للـسقوط والإمبراطورية الجديدة الصاعدة ، بعد صعود " أنتوني إيدن " إلـى رئاسـة الوزراء في أبريـل ١٩٥٥ ، وفسر ذلك بالنفور وعدم القبول الذي وقـع بين " إيدن " وبين الرئيس الأمريكي دوايت أيزنهاور ووزير خارجيته جون فوستر دالاس، إلا أنه بدراسة الوقائع التي سيطر فيها ما هو شخصي على ما هو موضوعي ، اتضح أن نسبة تأثير موضوعات وجوهر الخلاف أعلى بكثير من تأثير العامـل الشخـصي ، فالخلافـات كانـت جميعهـا حـول

الإستراتيجيات والسياسات التي حاولت كل دولة تطبيقها بغض النظر عن مشاعر الحب والكراهية .

وجدير بالذكر أن هذا النفور والتباعد الشخصي يعود إلى ماقبل رئاسة أنتوني إيدن عندما كان وزيراً للخارجية ، ففي أول لقاء جمع بينه وبين جون فوستر دالاس في يوليو ١٩٤٢ ، كان إنطباع " إيدن " غير جيد ليس عن دالاس وحده بل عن الأمريكيين بصفة عامة "فهم لايعرفون سوى القليل جداً عن أوروبا ومن عبث الأقدار بالنسبة لمستقبل العالم ، أن تقرر آراء الولايات المتحدة غير المدروسة مستقبل القارة الأوروبية.. "(٨٥) .

ونتيجة لهذا الحكم ، كان " إيدن " يرى ضرورة أن ترتقي الدبلوماسية البريطانية بنفسها ، وتكون كفؤة للتعامل مع الوضع الجديد (٨٦) ولم يختلف رأي ألكسندر جادوجان (٨٧) الذي حضر هذا اللقاء ، عن رأي " إيدن " حيث كتب في مذكراته حول هذا اللقاء : " تناولت الغذاء في شقة "أنتوني إيدن " مع " جون فوستر دالاس " وكان " دالاس " من النوع الأكثر تشوشاً من الأمريكيين الذين يتصورون أنهم يفهمون في كل شيء والذين لا طائل منهم.. " (٨٨). وعندما التقى إيدن بـ " دالاس " في إجتماع سان فرانسيسكو يوم الإعلان عن إنشاء هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٥، لم تتغير ملاحظاته حول " دالاس " ولم تكن بأي حال من الأحوال جيدة (٨٩) .

وقد بلغت كراهية " إيدن " لـ " دالاس " ذروتها ، خلال النزاع حول معاهدة السلام اليابانية التي تم التوصل إليها أواخر عام١٩٥٢ ، وكان الخلاف بين الولايات المتحدة وبريطانيا حول موقف طوكيو من الصين الشعبية قد تسبب في تأجيل المعاهدة أكثر من مرة ، فبينما كانت الولايات المتحدة تعارض بشدة إعتراف اليابان بالنظام الشيوعي في الصين ، وبالتالي تعارض إقامة علاقات تجارية بين البلدين ، كانت بريطانيا ترى أن يكون لليابان علاقات تجارية مع الصين لأن ذلك سيعزز التجارة البريطانية في

المنطقة ، وأثناء الاجتماعات الأولية اتفق " دالاس " مع الجانب البريطاني ، على أن الطريقة الوحيدة للتوصل إلى إتفاق مقبول بين بلديهما تكمن في "الوعد " بألا يمارس الجانبان أي ضغوط على اليابان ، فيما يتعلق بموضوع الصين قبل توقيع المعاهدة .." [٩٠] . ولكن " دالاس " أضطر تحت الضغط الشديد الذي تعرض له في مجلس الشيوخ الأمريكي لخداع البريطانيين ، فلكي يربح المعاهدة سمح بنشر رسالة " يوشيدا" الشهيرة يوم ١٦يناير١٩٥٢، مع بداية مناقشة مجلس الشيوخ للقضية ، وهي الرسالة التي دعمت موقف الولايات المتحدة الأمريكية ، وتم التصديق على المعاهدة وبالطبع غضب الطرف البريطاني بشدة وشعروا أن " دالاس" ضللهم وعرضهم لسخط أعضاء البرلمان البريطاني ، وبدأ ينتشر إحساس داخل أروقة وزارة الخارجية البريطانية بأن " دالاس " شخصية لا يمكن الوثوق بها [٩١] .

وتجدر الإشارة إلى أن " إيدن " إلتقى بـ " أيزنهاور " في لندن ، عقب نشر رسالة " يوشيدا " بوقت قصير ، وكان " أيزنهاور " في طريقه إلى واشنطن ليصبح مرشح الحزب الجمهوري للرئاسة ، بعد أن استقال من قيادة حلف الناتو NATO . وسأله " إيدن " : على من يا ترى سيقع إختياره لمنصب وزير الخارجية ؟ وبالطبع لم يكن هذا السؤال من الأسئلة التي يمكن توجيهها لمرشح للرئاسة الأمريكية ، وحاول "أيزنهاور" الهروب من الإجابة ، لكن " إيدن " واصل ضغطه وبإصرار ، ثم باغته بأنه يأمل ألا يقع إختياره على "جون فوستر دالاس " لأنه لايستطيع العمل معه [٩٢].

يعلق " دونالد نيف " على تصرف " إيدن " بقوله : " بغض النظر عن الغطرسة التي اتسمت بها ملاحظة " إيدن " فقد أرتكب حماقة دبلوماسية وخطأ يتنافى مع أبسط قواعد العرف الدبلوماسية .. "[٩٣] ومع أن " أيزنهاور " ذكر في مذكراته إنه غفرها له ، واعتبرها من قبيل الإهتمام الودي بسبب

الصداقة القديمة بينهما ، إلا أن مجرد ذكره لها في مذكراته يدل على مدى تأثيرها في علاقته بـ " إيدن " فيما بعد (٩٤) .

وبالطبع تدهورت علاقات إيدن و دالاس بعد إختيار أيزنهاور لدالاس وزيراً للخارجية ، ولعل الإختيار في حد ذاته كان بمثابة لفت نظر لـ" إيدن" وتحذيره من أن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الجديد ، لايؤمن بتجاوز أصدقائه للحدود ، لدرجة " تعيين بريطانيا أي من أعضاء الوزارة الأمريكية .. أو أن تؤثر الصداقة على المصالح القومية لبلاده.."(٩٥).

وعلى الطرف الآخر كان بعض رجال الإدارة الأمريكية يعبرون عن كراهيتهم للبريطانيين صراحة ، ولعل أبرز مثال على ذلك ماذكره "جون و.هايتس" أحد العاملين بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية CIA والذي أصبح فيما بعد أحد المساعدين الشباب لـ " جون فوستر دالاس " حيث لخص موقف وزارة الخارجية الأمريكية من البريطانيين بقوله : " لا يمكنك الإعتماد على البريطانيين في تنفيذ أي خطة مسئولة .. " لقد كان وزير الخارجية يتجاهلهم إذ كان يشعر بأنهم حمقى وثقلاء .. وفي واقع الأمر لم يكن لهم دالاس أي إعجاب .. " (٩٦). كما عبر "رودريك أوكونور " مساعد " دالاس " أيضاً وأحد رجال وكالة المخابرات الأمريكية عن التناقض بين " دالاس وإيدن " فلقد كانا " مختلفين تماماً ، وفي كل مرة كنت أرى فيها " إيدن " ، كنت أشعر دائماً إنه يسيطر عليه إحساس غامر بالخيلاء والغرور الشخصي ، وكان " دالاس " على النقيض من ذلك تماماً.. قد يكون لدى " دالاس " إحساس بالغرور الفكري أما الغرور الشخصي فهو شيء لم يعرفه على الإطلاق.."(٩٧).

ولقد اتضح بجلاء أثر الشكوك المتبادلة وطبيعة العلاقات السيئة في أول إجتماع جمعهما منذ تعيين " دالاس " وزيراً للخارجية حيث جاءت كلمة "

إيدن " حافلة بالإيحاءات الورديــة، على حين قدم " دالاس " كلمتة بأســلوب المحامين ، ولقد ضايق هذا الأسلوب " إيدن " لدرجة أنه لــم يبــد الإهتمــام المناسب لأسلوب " دالاس " ومنطقه المجهد (٩٨) ، كان الموضوع الرئيــسي للإجتماع هو سحب بريطانيا من قاعدة قناة السويس العــسكرية الــضخمة ، ولقد أبدى " دالاس " إندهاشه من عدم إلمام " إيدن " بالتفاصيل بينما امتعض " إيدن " من أسلوب " دالاس " القــانوني الفظ ، واعتبر أن تركيزه علــى التفاصيل أمر تافه وغير لائق (٩٩) .

وانفجر الخلاف مرة ثانية حول الموقف من الشيوعية في الهند الصينية، فقد كان إهتمام " دالاس " منصباً على الوضع الخطر للقوات الفرنسية هناك ، رغم أنه لم يكن بالطبــع معني بدعم الإستعمار الفرنسي ، بل ربما العكــس هو الصحيح ، إلا أنه كان يخشــــى من أن تؤدي هزيمة الفرنــسيين إلــى سقوط الأنظمة الموالية للغرب في المنطقة " كقطع الدومينو " الواحــدة تلــو الأخرى في يد الشيوعيين (١٠٠) .

ولقد أعد دالاس وآرثر و٠رادفورد رئيس الأركان المشتركة خطة أُطلق عليها " عملية النسر " لإنقاذ " ديان بيان فو" كان قوامها توجيه ضربات جوية من حاملات الطائرات الأمريكية الموجودة في خليج "تونكين " وبعد وضــع الخطة ، غادر " دالاس وآرثر " الولايات المتحدة في طريقهما إلــى لنــدن وباريس يوم ١٠ إبريــل ١٩٥٤ لمناقــشتها ، واشــترط " دالاس " دخــول بريطانيا والكومنولث وعلى نحو خاص إستراليا ونيوزيلندا جنباً إلى جنب مع الولايات المتحدة الحرب٠٠ وبعد إنتهاء الإجتماعات تصور " دالاس " أنه قد حصل على تأييد " إيدن" ولكن " إيدن " أنكر إنه وعده بشيء ، لذلك لما دعا " إيزنهاور " في نهاية إبريل ١٩٥٤ إلى إجتماع يضم سفراء دول الكومنولث البريطاني وفرنسا والعديد من دول شرق آسيا ، أعطى " إيدن " تعليماتــــه للسفيــر البريطاني بعدم الحضور ، وبينما أخذ "إيدن " يــردد أن " دالاس "

بهذه الدعوة يريد أن يزيحه عن الطريق ، كان "دالاس " يردد هو الآخر أن " إيدن " كذب عليه وسقطت " ديان بيان فو " وأعقب ذلك خروج الفرنسيين من الهند الصينية ، واعتبرت هذه الهزيمة إنتكاسة حقيقية للجيوش الأوروبية في آسيا ، وسيظل " دالاس " يردد أن رفض " إيدن " الإنضمام لعمل موحد هو السبب في هذه الهزيمة (١٠١) .

وبعد سقوط " ديان بيان فو " بدأ الأمريكان يسخرون من " إيدن " ويقرنون اسمه بالكثير من النعوت اللاذعة ، فهو " المتملص " وهو الذي يفتقر إلى الإعتبارات الأخلاقية وفي مجلس الشيوخ وصف " وليام كنولاند " بريطانيا نفسها بأنها : " حليف لايعتمد عليه "(١٠٢)، لكن الأهم من ذلك أن " دالاس " أعلن في يونيو ١٩٥٤ خلال اللقاء الذي عقده مع بعض الصحفيين الأمريكيين أن السياسة الخارجية للولايات المتحدة قد عانت كثيراً من نزوعها إلى السياسات الإستعمارية لبريطانيا وفرنسا ، وأكد أن هذه الإتجاه سيتم تغييره (١٠٣) .

وعندما انعقد مؤتمر قمة جينيف ١٩٥٥ كانت العلاقات بين " إيدن " و " دالاس " قد وصلت إلى حافة الهاوية ، ولقد زاد هذا المؤتمر من تمزقها . ولقد بدأت إجتماعات هذه القمة التي ضمت الدول الأربع الكبرى يوم ١٨ نوفمبر ١٩٥٥ واستمرت لمدة خمسة أيام ، كانت توقعات " إيدن " إنه سيكون المهيمن على هذا المؤتمر وأن دوره سيفوق أدوار " خروشوف " و" أيزنهاو " و"إدجار فور " والحقيقة أن " إيدن " كان هو الوحيد الذي خبر مثل هذه الإجتماعات الدولية أما الثلاثة الآخرون فكان الإجتماع بالنسبة لهم هو أول إجتماع يحضرونه بهذا المستوى ، وفضلاً عن ذلك كان " إيدن "يرى أنه الوحيد الذي يمتلك الخلفية السياسية ، ويعرف أصول اللعبة الدبلوماسية ، ولذلك كان يتوقع أن يكون نجم هذا المؤتمر والمتحدث الرئيسي بلسان الغرب ، لكن الأمور سارت في عكس الإتجاه وعلى غير

هواه ، إذ سرعان ما برز " أيزنهاور " وخطف الأضواء من الجميع وانزوى " إيدن " ولم يعره الروس أدنى إهتمام بل تجاهلوه تماماً ولذلك ووفقاً لشهادة "رودريك أوكونور " خرج " إيدن " من هذا الإجتماع محبطاً بشدة ، ورد ذلك إلى وجود " أيزنهاور " [١٠٤] .

ولقد عبر " سلوين لويد " وزير خارجية بريطانيا عن كراهيته للأمريكان وإتهمهم بالنفاق فهم " يبدون في الظاهر حلفاء مخلصين وجديرين بالثقة ، ووراء هذا المظهر الخارجي يخفي العديد منهم كراهية كبيرة للنزعة الإستعمارية وإستياءاً من أي سلطة تبقت لنا من الأيام العظيمة لإمبراطوريتنا وإبتسامة سعادة يخفون نصفها فحسب، وهم يرون زوال مجدنا "[١٠٥] .

على أية حال ، عندما انعقدت القمة الأنجلو ــ أمريكية ٣٠ يناير ــ فبراير ١٩٥٦ ورغم المجاملات الدبلوماسية ، فقد فشلت فشلاً ذريعاً في علاج أي خلاف حول أي موضوع من الموضوعات التي طُرحت على بساط البحث في هذه القمة ولم تنجح القمة في رفع أي تناقض بين سياسة بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية.

كان جدول أعمال القمة إيشتمل على موضوعين رئيسيين هما :

- الإتحاد السوفيتي في ظل رئاسة " خروشوف " .
- والشرق الأوسط [١٠٦].

كما وقع الخلاف حول مسألة الإعتراف بالنظام الشيوعي في الصين ، لكن الخلاف الأكثر خطورة كان حول الشرق الأوسط ، فكان رأي " أيزنهاور" و " دالاس " إنه قد يلتهب في أي لحظة "[١٠٧]. وكان إقتراح " إيدن " أن تمنح القوى الأوروبية الثلاث المزيد من القوة والدعم للإعلان الثلاثي الصادر عام١٩٥٠ ، وعلى حد تعبيره أن " يمنح الإعلان أسناناً " وذلك بتحويله إلى تحالف عسكري ، وكان "إيدن" يتصور أن هذا الدعم

سيكون فعالاً للحفاظ على النفوذ الغربي ، لكن إقتراح " إيدن" سقط ، ولم يمنح الإعلان الثلاثي أسناناً(١٠٨) الأمر الذي أدى إلى سخط رئيس الوزراء البريطاني .

وحول " واحة البوريمي " وقع الخلاف أيضاً ، حيث كان من البديهي أن يدافع "دالاس " عن المملكة العربية السعودية في نزاعها مع سلطنة عُمان التي كانت تقبع تحت الحماية البريطانية وكانت القوات السعودية قد احتلت الواحة عام١٩٥٢ وادعت المملكة العربية السعودية ، ملكيتها لها ، وأيدتها الولايات المتحدة لأنها كانت أكبر منتج للنفط في الخليج ، كما أن " كونسرتيوم آرامكو " الأمريكي القوي كان هو المسيطر على ثرواتها ، وكانت الدراسات والتوقعات قد أشارت إلى أن الواحة تحتوي على مخزون هائل من البترول ، وبالتالي كانت " آرامكو " تقف خلف المزاعم السعودية وتسعى لإنجاحها ، وإلا فإن شركات البترول البريطانية التي وقعت العقود مع السلطان ستحصل على حقوق التنقيب ، وقد فشلت كل محاولات التحكيم، ورفض " دالاس " التضحية بمصالح بلاده من أجل حليفته المتداعية بريطانيا بل أنه كان صريحاً وواضحاً فيما قاله لـ " إيدن " " فالولايات المتحدة لها مصالح مهمة في المملكة العربية السعودية ، هناك منابع البترول الواسعة ، ذات الأهمية البالغة ولنا أيضاً قاعدة جوية سينتهي عقدها هذا العام ، والولايات المتحدة لا تريد أن توضع في موقف ممكن أن تخسر فيه كل تلك المصالح .. "(١٠٩) .

ولم ينجح المؤتمر كذلك في علاج الخلاف والتناقض الذي وقع بين الولايات المتحدة وبريطانيا حول حلف بغداد، وكان " دالاس "هو الذي إقترح إنشاء الحلف ، باعتباره أحد حلقات التحالفات التي كانت تستهدف تطويق الإتحاد السوفيتي ، وكان الحلف يمتد من باكستان إلى إيران والعراق وتركيا ، ولقد تحمس " إيدن "لهذا الحلف وفي إبريل ١٩٥٥

أعلن توقيع بريطانيا عليه، إلا أنه سرعان ماصدمها رفض الولايات المتحدة الإنضمام إليه [١١٠].

وعلى الرغم من أن رفض الولايات المتحدة كان لأسباب وإعتبارات منطقية لعل أهمها معارضة مصر وإسرائيل للحلف [١١١] إلا أن الموقف الأمريكي استفز بريطانيا ، وتسبب في توتر " إيدن " بشكل لافت للنظر ، خاصة وأنه كان يدرك أنه في حاجة ملحة إلى الإستحكامات الحيوية للحلف ضد الإتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط ، والحقيقة أن " إيدن " قدم لها دون أن يدري حلاً مثالياً، بإندفاعه للقيام بالدور الرئيسي في تشجيع حلف بغداد ، فلم يعد هناك مايدفعها إلى الدخول فيه والإضرار بعلاقاتها مع مصر وإسرائيل[١١٢].

هكذا فشل المؤتمر ، ولم تحل زيارة " إيدن " لواشنطن خلافاً واحداً ، ولعل أهم أسباب فشل المؤتمر أن " إيدن " لم يدرك أن بلاده هي التي كانت تحتاج الولايات المتحدة أكثر من حاجة الولايات المتحدة لها ، إذ كان الإقتصاد البريطاني يمر بأزمة عنيفة ، ولقد عرض " إيدن " مشكلة بلاده ، حيث أشار إلى أن إحتياطي بريطانيا من الذهب والدولارات لا يكفي تغطية مواردها إلا لثلاثة أشهر فقط، وأن بلاده تحولت بسبب الحرب العالمية الثانية من أكبر دائني العالم إلى أكبر مديني العالم.. "[١١٣].

ويبدو أن " إيدن " تصور إنه بعرضه لظروف بلاده سيؤثر على " أيزنهاور ودالاس " لكن العكس كان الصحيح تماماً ، إذ قوبل ذلك ببرود من الإثنين ، ولم يدفعهما إلى الموافقة على أو تقديم أي شيء لايخدم المصالح الذاتية للولايات المتحدة الأمريكية [١١٤].

لقد كان على رئيس الوزراء البريطاني أن يفهم أن الإمبراطورية تنحسر ، وأنه لم يكن منطقياً أن تعمل الولايات المتحدة من أجل خدمة دولة أخرى، حتى لو كانت هذه الدولة هي حليفتها [١١٥]. كما كان عليه أن يفهم أن

الخلاف بين واشنطن وبريطانيا هو خلاف إستراتيجي في المقام الأول ، محكوم بالتنافس الطبيعي بينهما على النفوذ والسيطرة في عالم مابعد الحرب العالمية الثانية[١١٦].

وعلى الطرف الآخر ، لم يكن " أيزنهاور " أسيراً لأوهام أو أساطير تحركه أو تؤثر في إختياراته ، بل كان مدركاً لقوة بلاده وللتناقضات والمتناقضات العديدة القائمة على أرض الواقع ، وكان عليه أن يتفاعل مع هذه التناقضات ويسبر غورها وفي حالة المفاضلة بين الأهداف القومية لبلاده، كان عليه أن يُضحي بحلفائه .

ولعل موقف " دالاس " أثناء إجتماع وزراء حلف السيتو SEATO الذي بدأ في كراتشي يوم ٦ مارس ١٩٥٦، أفضل دليل على ذلك ، حيث أكد لـ " لويد " أن الولايات المتحدة ستقوم بدور أكثر فعالية في الشرق الأوسط ، ولما ألح " لويد " على ضرورة إنضمام الولايات المتحدة إلى حلف بغداد ، أكد له " دالاس" أن هذا الأمر لايتفق مع مصالح بلاده وأنه أمر مستحيل تماماً[١١٧]. ورغم إنتقادات وزير خاريجية فرنسا " كريستيان بينو " لسياسة الولايات المتحدة إلا أن إجتماع السيتو إنتهى بإنتصار رؤية " دالاس " [١١٨] .

ولم تلتفت الولايات المتحدة للهجة المعادية لها التي بدأت تظهر في البرلمان البريطاني ، والتي وصلت ذروتها في أبريل ومايو ١٩٥٦ [١١٩] .

على أية حال أُضيف إلى نقاط الخلاف بين بريطانيا والولايات المتحدة رفض إدارة " أيزنهاور" في أبريل ١٩٥٦، القيام بعمل عنيف ضد جمال عبد الناصر [١٢٠].

هكذا بقي التنافس داخل المعسكر الغربي ، وظلت الخلافات والتناقضات بين الإمبراطورية البريطانية ــ والفرنسية من ناحية ، والولايات المتحدة الأمريكية ، من ناحية أخرى ، معلقة دون حل ، حتى انفجرت على أثر تصاعد الصراع بين مصر والغرب ، وهو الصراع الذي بلغ ذروته

في صيف ١٩٥٦ عندما اعتدت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مصر بهدف إسقاط النظام الجديد ، والقضاء على جمال عبد الناصر •

ويكاد ينعقد الإجماع على أن أزمة السويس كانت بمثابة المسمار الأخير في نعش الإمبراطورية البريطانية ، وعلى أن التواطؤ والعدوان الثلاثي فجر التناقضات وأيقظ الخلافات المعلقة داخل المعسكر الغربي ، وأعطى فرصة ذهبية للإمبراطورية الصاعدة لتدشن صعودها إلى القمة ، ولتفرض السلام الأمريكي PAX AMERICANA ولتجعل من شعار القرن الأمريكي ، حقيقة مؤكدة بعد تراجع الإمبراطوريتين الإستعماريتين ، البريطانية والفرنسية •

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا ، هل صنعت الولايات المتحدة الأمريكية الأزمة أو خططت لإستغلالها على الأقل ودفعت بحليفتها إلى حافة الهاوية ؟ وضغطت عليها لتعترف بحقائق الأمور ، وتترك لها زعامة وقيادة المعسكر الغربي ؟ •

كان التناقض بين سياسات " عبد الناصر " قد أصبح واضحاً بعد عقد إتفاقية الجلاء فبينما كان " عبد الناصر " يسعى إلى دعم إستقلال بلاده ، ومساعدة حركات التحرر في الوطن العربي ، كان الغرب يسعى إلى تكبيل هذه الدول بقيود الإتفاقيات والمعاهدات ، حتى يضمن سيطرته على مواردها وأسواقها فضلاً عن إرادتها ، وفي الوقت الذي كان فيه " عبد الناصر " يفكر في تكوين حزام من الدول العربية المحررة حول إسرائيل ، كان الغرب يحاول عزله داخل حدوده ليواجه إسرائيل منفرداً في حالة وقوع الحرب بينهما • لذلك شارك " عبد الناصر " في مؤتمر باندونج ١٨ـــ٢٤ أبريل ١٩٥٥ وعقد صفقة الأسلحة التشيكية يوم٢٧ سبتمبر ١٩٥٥، واستمرت مهاجمته لحلف بغداد ، ثم اعترفت مصر بالصين الشعبية يوم ١٩مايو١٩٥٦، وإن كانت قرارات " عبد الناصر " السابقة التي جاءت كرد

فعل لسياسات الغرب المعادية لمصر ، قد أزعجت الدوائر الغربية بشدة ، إلا أن قرار تأميم قناة السويس في ٢٦ يوليو ١٩٥٦ كان أكبر لطمة وجهت إلى الغرب ، وأزعجت بشدة بريطانيا وفرنسا .

ومع أن القرار جاء كرد فعل على إعلان الولايات المتحدة سحب مساهمتها في تمويل مشروع السد العالي بطريقة مهينة يوم ١٩ يوليو ١٩٥٦ إلا أنه كان من القرارات التي دُرست وتم تأجيلها إنتظاراً للحظة مناسبة[١٢١].

واللافت للنظر ، أن بريطانيا ، كانت حريصة على دعم فكرة المشاركة في بناء السد العالي ، خاصة بعد أن شعر " إيدن " بالصدمة من جراء إختراق السوفيت للشرق الأوسط ، وكانت قناعته أن المشاركة في بناء السد العالي قد تكون أحد الوسائل المهمة التي تستعيد بها بريطانيا نفوذها ، الذي كان يتناقص تدريجياً ، وكما قال لأحد مساعديه : "ينبغي علينا ألا نسمح للسوفيت بالوصول إلى وادي النيل مهما كان الثمن .."[١٢٢]. لذلك فقد أعرب عن ضيقه من تصميم الولايات المتحدة على الإعلان عن رفض تمويل المشروع ، وبالطريقة المهينة التي تم بها ثم أخذ يصب جام غضبه على "جمال عبد الناصر" [١٢٣].

ويبدو من ظاهر الحوادث أنه قتنع بأنه إذا كانت فرصة البقاء في مصر والشرق الأوسط بواسطة المشاركة في تمويل هذا المشروع الكبير الذي سيستمر بناؤه سنوات قد ضاعت من بريطانيا، فلعل عقاب " عبد الناصر" قد يوصل إلى نفس النتيجة ويمنحها فرصة أخيرة ، لذلك أعلن إيدن بعد التأميم مباشرة أن "عبد الناصر" قد قبض على قصبتنا الهوائية وإنه لن يفلت من العقاب [١٢٤] .

كانت الولايات المتحدة الأمريكية ترقب ردود الفعل ، لذلك لفت نظر الإدارة الأمريكية ما سجله القائم بعمل السفير الأمريكي في لندن " فوستر " عن إجتماع مجلس الوزراء والذي عقده " إيدن " منتصف ليل ٢٦ يوليو

١٩٥٦، أي نفس اليوم الذي أعلن فيه " عبد الناصر " قـرار التـأميم [١٢٥] وأدرك " أيزنهاور " أن مجلس الوزراء البريطاني يتساءل حول " المدى الذي يمكن أن تذهب إليه الولايات المتحدة في تأييد والإشتراك في موقف حـازم ضد " عبد الناصر " سواء كان ذلـك فـي شـكل عقوبـات إقتـصادية أو عسكرية.. "[١٢٦] وأن " إيدن " حانق فعلاً ، وإنه وجد أخيراً المبـرر لـشن حملة شاملة ضد " مصر " ولتدمير صورة عبد الناصر " إلى الأبد كـزعيم للقومية العربية [١٢٧] .

وفي اليوم التالي أرسل " إيدن " برقية إلى " أيزنهاور " يهمنا ما جاء فيها إلحاحه على " التحرك الفوري ": " إذا قمنا بعمل حازم الآن ، فسنحظى بدعم كل الحلفاء .. " وتحذيره من ضياع الفرصة .. " وإذا لم نفعل ذلك الآن ، فإننا مقتنعون بأنه سيتم تدمير نفوذنا ونفوذكم تمامـاً في سائر أنحاء الشرق الأوسط.. إنني وزملائي مقتنعون بأنه يتعين علينـا الإسـتعداد لإسـتخدام القوة.. لإعادة ناصر إلى رشده ، ونحن مستعدون من جانبنا للقيام بذلك.. وقد أصدرت أوامري هذا الصباح لرؤساء الأركان لإعداد خطـة عـسكرية تتفق مع هذا التصور "[١٢٨] .

هكذا طالب " إيدن " بالتحرك الفـوري ، وحـذر مـن تـدمير نفـوذ الإمبراطورية البريطانية وكذلك نفوذ الولايات المتحدة في الشرق الأوسط .

فهل حقاً كان التحرك الفوري ضروري ؟ وهل حقاً كان نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الأوسط في خطر ؟ الإجابة على السؤال الأول ، بنعم ، فالضربة العسكرية الفورية نتائجها أخطر علـى مـصر ، وربمـا أعادت لبريطانيا نفوذها في المنطقة .. أما كون نفوذ الولايات المتحدة فـي الشرق الأوسط في خطر ، فهو تقدير خاطيء من " إيدن " ربما قُصد به دفع "أيزنهاور" للإسراع بالتحرك ومساندته قبل أن تضيع فرصته هو ، خاصـة وأنه كان يرى أن التأميم رد فعل على إجراء قامت به حكومـة الولايـات

المتحدة ــ يقصد إلغاء تمويل السد العالي ــ فهي المسئولة عنه وعن تبعاته[١٢٩].

ويلفت الإنتباه هنا ، أنه بينما كانت لندن " تغلي " وإيدن استشاط غضباً ، كانت واشنطن " باردة " و" أيزنهاور" يفكر بهدوء وببطء ، ولا يهمه أن تضيع الفرصة التي أراد " إيدن " أن يغتنمها ، بل إنه سعى بعمد إلى تفويتها كما سنرى.

تمثل أول رد فعل لـ " أيزنهاور " بعد التأميم ، وقبل أن يتلقى برقية " إيدن" في عقد إجتماع لمناقشة المسألة ، وتبلورت أفكاره فيما أعلنه ويمكن إختصاره على النحو التالي : ــ

- أن خطاب التأميم مليء بالإفتراءات على الولايات المتحدة .
- أن الولايات المتحدة قلقة بسبب قرار " عبد الناصر ".
- أنها مهتمة بقناة السويس لأنها ممر عالمي للتجارة بين الشرق والغرب.
- أنها ستجري مشاورات مع الدول التي يعنيها أمر القناة .

وهكذا رفض " أيزنهاور " من البداية المشاركة في عمل عسكري ضد " عبد الناصر " حتى بعد أن وصلته برقية " إيدن " الغاضبة [١٣٠] .

على أية حال إندفعت بريطانيا لتنسق مع فرنسا ، من أجل خوض الحرب ضد "عبد الناصر " واعتزم " كرستيان بينو " الذهاب إلى لندن في عطلة نهاية الأسبوع لمناقشة ذلك ، وطلب " إيدن " من " أيزنهاور " أن يبعث بممثل أمريكي ليحضر الإجتماع حتى يتسنى للدول الغربية الثلاث الكبيرة أن تنسق تحركاتها .

ومع أن " أيزنهاور " إستجاب ، وأناب "روبرت مورفي " للقيام بهذه المهمة ، إلا أن التعليمات التي أعطاها لـ"مورفي" يجب أن تستوقفنا بعض الوقت :

أولاً: كان الهدف الأول من تكليف " مورفي " هو أن يستطلع الأمر ويعرف مايجري في لندن ٠

ثانياً: كان على" مورفي " أن يبلغ "إيدن وبينو" أن يتعاملاً مع الموضوع بشكل أهدأ٠

ثالثاً: كما كان عليه إحباط أي عمل عسكري طائش ٠

رابعاً: حتى في حالة إذا ما أصرا على القيام بعمل عسكري ضد " عبد الناصر " فينبغي ألا يبدو وكأنه عمل من أعمال نادي الثلاثة الكبار٠

وأخيراً على" مورفي " أن ينبههما " الي عدم الربط بين ماقام به " عبد الناصر" والصراع العربي الإسرائيلي (١٣١) .

ومن المفارقات ذات الدلالة هنا إنه بينما كان " إيدن " لاينام ستقل " أيزنهاور " بعد إجتماعه بـ " مورفي "الطائرة في طريقه إلى مزرعة " جيتسبرج " ليستريح لمدة ثلاثة أيام (١٣٢) .

ولعل هذا يدفعنا إلى التساؤل ، لماذا اتسم الموقف الأمريكي بالهدوء ؟

لقد كفانا " أيزنهاور " نفسه مشقة البحث عن الإجابة فأشار إلى عدة أسباب تفسر هدوء الموقف الأمريكي منها :

أولاً: قلة المصالح الأمريكية في قناة السويس ، إذ أن ٢,٧ % فقط من إجمالي السفن التي كانت تستخدم القناة وقتئذ كانت مسجلة في الولايات المتحدة ٠

ثانياً: أنه لم يكن للحكومة الأمريكية حصة في شركة القناة ٠

ثالثاً: استقلال الولايات المتحدة فيما يتعلق بحاجتها البترولية

رابعاً: تمركز الإستثمارات الرئيسية لها في دول الخليج ٠

وبالطبع على النقيض من ذلك كان الوضع بالنسبة لبريطانيا وفرنسا (١٣٣).

على أية حال ، نقل " مورفي " إنطباعه لــ " أيزنهاور" بعد مقابلته لـــ" إيدن " و"سلوين لويد " و " كريستيان بينو " مؤكداً لـــه تـصميم بريطانيـــا وفرنسا على القيام بعمل عسكري يزيل " جمال عبد الناصر " من الوجــود ، لذلك طلب " أيزنهاور " من " دالاس " بعد عودته من بيرو ، أن يتوجه إلـــى لندن ، لكن " دالاس" وصل واشنطن أولاً ، وصرح للصحفيين بأن :

- تأميم قناة السويس قد وجه ضربة خطيرة للثقة الدولية .
- وإنه سيؤثر ليس فقط علـــى حـــاملي الأســـهم ــ وهـم ليـســـوا أمريكييـــن ــ بل على تشغيل القنـــاة نفسها ، وهو مايـــسبب قلقـــاً بالغـــاً للولايات المتحدة بوصفها إحدى الدول البحرية .

كما صرح لنائب الرئيس " ريتشارد نيكسون " بأنه سيبذل قصارى جهده لإقناع البريطانيين والفرنسيين بعدم شن الحرب ، أما إذا فعلوا فيجب علـــيهم أن يدركوا إنـــه سيتعين عليهم خوضها وحدهم (١٣٤).

ولكن اللافت للنظر هنا ، إنه رغم رفض الولايات المتحدة للمشاركة في عمل عسكري ضد " عبد الناصر " إلا أن الإدارة والصحافة الأمريكيـــة لم تخف بغضها له ولم تكن تتـــورع عن وصفه بأقذع الـــصفـــــات فهـــو ديكتاتـــور متقلب ، وهو هتلر الشرق إلخ .

على أية حال ، حسم " إيدن " أمره على ضرورة إستخدام القوة العسكرية، ضد "عبد الناصر" ، وبعث هو و" ماكميلان " يوم الإثنين ٣٠ يوليو ١٩٥٦، برسالتين سريتين للغاية ، إلى " أيزنهاور" أكدا فيهمـــا علـــى أن الحكومـــة البريطانية، قد إتخذت قراراً حازماً ، لا رجعة فيه بتحطيم " عبد الناصر " .. وأنها ستبدأ العمليات الحربية بأسرع ما يمكن ، وعلى الأرجح فـــي ظـــرف ستة أســـابيع ، دون إعطـــاء الفرصـــة لأي وســـاطة أو إجـــراءات أقـــل عنفا .. "(١٣٥).

وعلى أثر ذلك ، عقد "أيزنهاور " إجتماعاً صباح الثلاثاء ٣١ يوليو ١٩٥٦ تمت فيه دراسة ما جاء في رسالة " إيدن " ، وتقرر سفر " دالاس " إلى لندن ، حاملاً رسالة شخصية من " أيزنهاور " لـ " إيدن " اتسمت بشيء من الخشونة ولعل أهم ما ورد فيها :

- ضرورة عقد إجتماع للدول الموقعة على إتفاقية القسطنطنية ١٨٨٨ قبل القيام بعمل عسكري .
- إن الرأي العام الأمريكي والرأي العام العالمي سيشعر بالسخط إذا لم نحاول بالطرق السلمية .
- قد تكون النجاحات العسكرية الأولى سهلة ، لكن الثمن قد يكون فادحاً .

والأهم تأكيد " أيزنهاور " على إنه إذا ما قامت بريطانيا بعمل عسكري ضد مصر ، فيستحسن ألا تعتمد بشكل أوتوماتيكي على إنضمام القوات الأمريكية وبرر ذلك ، بأنه يتعين على الكونجرس الأمريكي إقرار مثل هذا العمل ، وهو الآن في أجازة (١٣٦). وإن كان من الممكن دعوته لجلسة طارئة ، لكنه على الأرجح سيرفض إستخدام القوة ، إلا إذا كان هناك دليل على إستنفاد كل السبل السلمية لحل الأزمة ، أما إذا لم يُقدم الدليل على ذلك ، قد يكون هناك رد فعل يؤثر بشكل خطير على مشاعر شعبنا تجاه حلفائنا الغربيين (١٣٧). ثم طلب في نهاية الرسالة من " إيدن " مراجعة قرار إستخدام القوة (١٣٨) .

على أية حال ، لم يصدر عن الولايات المتحدة أي عمل عنيف ضد مصر خلال الأيام الأولى التي أعقبت قرار التأميم ، إلا أنها سرعان ما إنضمت إلى لندن وباريس وجمدت الودائع المصرية ، وكان هذا الإجراء أقصى مايمكن أن يقبله "أيزنهاور" (١٣٩) .

وعلى الرغم من أن تأخير الحرب التي شرعت فيها بريطانيا وفرنسا كان يعود أساساً إلى عدم إستعداد القوات العسكرية البريطانية والفرنسية ، إلا أن " إيدن " إعتبر موقف الولايات المتحدة بمثابة العقبة الكؤود التي حالت دون الإنتقام من " عبد الناصر" (١٤٠) .

المثير للدهشة كما لاحظ " دونالد نيف " أن " دالاس "رجل حافة الحرب، إنقلب أثناء مباحثاته مع " إيدن ولويد وبينو " إلى داعية يبشر بالسلام ، وإنقلب " إيدن " رجل الحلول الوسط والمفاوضات ، إلى داعية للحرب والقتال (١٤١) ، ولعل هذا التحول يعكس عمق التناقضات التي كانت بين الشخصين والبلدين في آن واحد.

وأثناء وجود " دالاس " في لندن خيم جو عدائي ضد الولايات المتحدة عكسته عناوين الصحف ، وحذر " ماكميلان " من أن بريطانيا ستنتهي كقوة عظمى إذا أنتصر ناصر. ومع ذلك أكد " دالاس " على أهمية تعبئة الرأي العام قبل القيام بأي عمل عسكري ، ونصح بالتأني ، لكن الأهم إنه إقترح ، إشتراك بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة في توجيه الدعوة لعقد مؤتمر دولي للدول البحرية ، لمناقشة المشكلة وإيجاد حل لها (١٤٢). وتجدر الإشارة هنا ، إلى أنه رغم تحذيره من مغبة شن الحرب ، إلا أنه أبدى شيئاً من التعاطف مع الموقف البريطاني والفرنسي ، لدرجة أنه قال: " يجب إيجاد طريقة لجعل ناصر يتقيء مايحاول إبتلاعه "(١٤٣) .

ولقد نسي " إيدن " كل تحذيرات " أيزنهاور " وتعلق نتيجة لسعيه المحموم نحو الحرب ، وكراهيته الشديدة لـ " عبد الناصر " بالعبارة العنيفة السابقة واعتبرها إقراراً من " دالاس " لخطط الحرب الأنجلو ـ فرنسية ، وذكر إيدن بعد ذلك ، إن عبارة إيدن كانت في غاية الصراحة وظلت تتردد في أذني لشهور عديدة "(١٤٤). لكن " مورفي " الذي عرف " دالاس " جيداً ،

أكد أن " إيدن " بالغ كثيراً في تقدير أهميتها ، وأن " دالاس " لم يكن يقصد الموافقة على العمل العسكري (١٤٥).

على أية حال ، بينما إستمر " إيدن " و" موليه " في الإستعداد للحرب ، إستمر "أيزنهاور "و " دالاس " في تطبيق إستراتيجية كان هدفها تحويل نظر بريطانيا وفرنسا عن الحرب (١٤٦) ولقد مثل مؤتمر لندن أبرز الجهود التي بذلتها الولايات المتحدة لكبح الإندفاع نحو الحرب ولو مؤقتاً (١٤٧) إلا أن فشل المؤتمر بعد أن تجاهلته مصر وضع الغرب كله في مأزق تخلص منه " دالاس " وقدم إقتراحاً جديداً بتشكيل لجنة تمثل المؤتمر ، لكي تلتقي بـ " عبد الناصر " وتعرض عليه وجهة نظر الأغلبية وتم إختيار " روبرت منزيس " رئيس وزراء أستراليا رئيساً لها (١٤٨) ولم يكن هذا الإقتراح إلا مناورة أخرى من " دالاس " لإستهلاك الوقت (١٤٩) .

لقد إستبد شبح " ناصر " وهو يحطم الإمبراطورية بـ " إيدن " لكن موقف أيزنهاور و دالاس باعد بينه وبين الإنتقام الفوري وأضاعا عليه فرصة حقيقية ـ لو شاركاه ـ للإنتقام من " عبد الناصر " ، وإستعادة ولو جزء من هيبة الإمبراطورية. كما أقنعاه بأهمية إيجاد مبرر مقبول دولياً لإعلان الحرب على مصر.

وفي الوقت الذي كان يبحث فيه " إيدن " و " موليه " بحثاً محموماً عن المبرر المقبول ، استخدم " دالاس " كل طاقاته ومناوراته القانونية ليبدد محاولتهما ، فعندما فشلت بعثة " منزيس " إقترح " دالاس " فكرة إنشاء منظمة أو جمعية للمنتفعين من القناة ، تتكون بشكل مبدئي من الدول الثمان عشرة الأعضاء في التكتل الغربي في مؤتمر لندن (١٥٠) .

ولقد أكد " دالاس " على الأهداف السلمية لمشروعه ، وصرح بأنه حتى لو رفض " عبد الناصر " التعاون معها ، فإننا لا ننوي أن نشق طريقنا بالقوة إلى القناة وسنرسل سفننا عبر طريق رأس الرجاء الصالح (١٥١) .

لقد وجه دالاس ضربة قاصمة لإيدن بتصريحاته التي أدت إلى مزيد من تدهور العلاقات بينهما ، وإن شئنا الدقة بين الدولتين الحليفتين ، بريطانيا والولايات المتحدة ، لدرجة أن " إيدن " فسر تصريحات " دالاس" حول هيئة المنتفعين ، بأنها " دعوة لناصر لكي يرفض المشروع دون خوف من العواقب ، ومن شأن هذا المنطق النفعي تجاه الحلفاء أن يدمر أي مشاركة حقيقية (١٥٢).

يرى " دونالد نيف " أن رد فعل " إيدن " العنيف على ملاحظات " دالاس " لا يفسره المأزق العنيف الذي تعرض له أمام البرلمان ، بل يعود إلى أن دالاس

بمناوراته هذه ، خدعه مرة ثانية ، ودمر خطة أخرى من خططه لشن الحرب وتركه يبحث مرة ثانية عن الذريعة (١٥٣) .

وتجدر الإشارة إلى أنه بعد مرور ستة أسابيع تحول موقف الرأي العام ضد فكرة الحرب ، وساعد على ذلك :

- عدم وقوع أي حادث خطير ٠
- تحرك " عبد الناصر " بحرص شديد٠
- إستمرار القناة مفتوحة أمام الملاحة وإستمرار الحركة التجارية دون أي عوائق ٠
- عدم حدوث أي نقص في إمدادات البترول (١٥٤) .

هكذا تلقت الإمبراطورية البريطانية – والفرنسية لطمة عنيفة من " عبد الناصر" ولم تتمكن رغم مرور ستة أسابيع على ردها بسبب موقف حليفتها الكبرى الولايات المتحدة. وإذا كانت هذه اللطمة قد أفقدتها صوابها فإن موقف حليفتها دفعها للبحث عن ذريعة لن تُجدي وحتى لو وجدتها فبعد مرور ستة أسابيع كان اللجوء إلى الحرب سيبدو حتماً عملاً مثيراً للسخرية، على حد تعبير "أيزنهاور "(١٥٥) ٠

والمثير للدهشة أن " دالاس " صاحب إقتراح هيئة المنتفعين هو نفسه الذي تسبب في فشلها وذلك عندما تخلى عنها ووأدها حيث أعلن أمام الجلسة الإفتتاحية :

- أن عضوية الرابطة لن تضمن فرض أي إلتزامات على أعضائها.
- أن تسديد الأعضاء رسوم المرور للرابطة عمل إختياري بحت.
- أنه في حالة إصرار مصر على إستخدام مرشديها فلن يكون أمام مرشدي الرابطة مايفعلونه.

وكان تصريح " دالاس " هذا معناه ، أن الرابطة أو الهيئة لن تتمتع بأي سلطة ذات شأن (١٥٦) بل عندما سأله أحد الصحفيين في نفس اليوم الذي أعلن فيه عن تأسيس الهيئة (٢ أكتوبر ١٩٥٦) عما إذا كانت الرابطة الجديدة سيكون لها "أسنان أم لا" كانت الإجابة صدمة لـ " إيدن " حين أجاب "هناك من يبحث عن تسنينها.. لكن لن يكون لها أبداً أسنان، إذا كانت الأسنان تعني إستخدام القوة"(١٥٧) .

ولقد تسببت تصريحات " دالاس " في توسيع هوة الخلاف بينه وبين " إيدن" لكن الأهم أن هيئة المنتفعين فشلت نتيجة عدم مساندة الولايات المتحدة لها. السؤال لماذا ؟ خاصة أن " إيدن " وصل بعد فشلها إلى نقطة اللاعودة!!

هل كان " دالاس " يقصد ذلك ؟! ثم أليست الملاحظة الخاصة بالمكسب والخسارة جديرة بالإهتمام ؟ فخلال الستة أسابيع التي تلت قرار التأميم ، لوحظ أنه كلما كسب " أيزنهاور " و " دالاس" خطوة وتقدمت الولايات المتحدة في إدارة الأزمة خطوة ، كلما خسر " إيدن " خطوة وتراجعت الإمبراطورية البريطانية. وفي هذا الصدد ليس بعيداً عن الصحة القول بأن الولايات المتحدة أضاعت الفرصة على" إيدن " ليوجه ضربته بالتعاون معها في الأسبوع الأول أو الثاني بعد التأميم، ثم تسببت التصريحات والقرارات في تهدئة الرأي العام الغربي ، لدرجة أنه لم يُعد هناك من يؤيد

الحرب إذا ما أعلنها إيدن لكن اللافت للنظر أن " دالاس " كان يدفع " إيدن " في نهاية السنة أسابيع إلى الحافة مرة ثانية فـ " عبد الناصر " يجب أن يتقيأ القناة " وهيئة المنتفعين لا قيمة حقيقية لها.

على أيه حال ، إستمرت مناورات " أيزنهاور " و " دالاس " فلما تقرر عرض النزاع الخاص بقناة السويس على هيئة الأمـم المتحـدة ، عـارض دالاس وكان رأيه أن الغرب لايملك مبررات ذات قيمة ، وكـان المنـدوب الأمريكي الدائم في الأمم المتحدة " كابوت لودج " يعتقـد أنهـا حيلـة مـن بريطانيا وفرنسا لإسترضاء الرأي العام العـالمي وأنهـم عـازمون علـى الحرب[١٥٨]. وفي هذا بلغت كراهية " إيدن " لـــ " أيزنهـاور ودالاس " أقصى مدى، أثناء عرض القضية على هيئة الأمم المتحدة ، ومن ثم أوقـف المسئولون البريطانيون والفرنسيون كل أشكال التشاور مع واشنطن [١٥٩] .

وجدير بالذكر أن " دالاس " لم يُعر كراهية " إيدن " أي إهتمام ، ومضى في طريقه يفعل كل ما يؤمن به من أجل مصلحة بلاده ، ووصل الأمر إلـى أنه طلب من " لودج " تأييد أي قرار يدين إستخدام القوة ، حتى ولو أدى هذا إلى تصدع التحالف الغربي [١٦٠] وبالفعل كان " دالاس " حازماً في مجلـس الأمن ، ضد إستخدام القوة ونجح في إفشال خطط بريطانيا وفرنسا [١٦١] .

ولعل هذا يفسر الهجوم العنيف الذي صبه إيدن والصحافة البريطانية على دالاس، ففي إفتتاحية صحيفة " الديلي تلجراف " يوم١٩ أكتوبر ١٩٥٦ جاء "إننا لا نطلب من الأمريكيين أن يقولوا أو يفعلوا شيئاً قد يكون مستحيلاً بالنسبة لهم في عام إنتخابات الرئاسة .. بل إننا لا نطلب منهم أن يتخـذوا موقفاً نحذو حذوهم فيه ، إذ أننا قادرون على الدعوة لموقفنا الخاص ..إنما نطلب منهم الكف عن التأرجح في قضايا نعتقد أنها تتعلق بوجودنـا ذاتـه ، وتتعلق بوجودهم أيضاً إن هم أمعنوا النظر "[١٦٢] . وفي نفس العدد نـشرت الصحيفة مقال جاء فيه "هناك شعور سائد في بريطانيا بأن الولايات المتحدة

خانتنا فيما يتعلق بقناة السويس ٠٠ "(١٦٣) . بل وصل الأمر إلى تصوير " الديلي إكسبريس " لـ " دالاس " على أنه " مجنون أو محامي مختل العقل٠٠ يعرف جيداً كيف يخون بريطانيا ؟ " (١٦٤) لكن الأهم ماجاء في " النيويورك تايمز " من أن " الإحباط المرتبط بقناة السويس يجسد ، كما لم يجسد شيء من قبل ، الإنحدار السريع لنفوذ الإمبراطورية البريطانية (١٦٥)٠

على أية حال ، تم التواطؤ الثلاثي في سيفر ، وشُنت الحرب على مصر يوم ٢٩ أكتوبر١٩٥٦ وحملت الأيام التي تلت الهجوم الكثير من المفاجآت ، إلا أن أكثر هذه المفاجآت صدمة للإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية ، كان الإنذار عنيف اللهجة الذي صدر عن الولايات المتحدة ضد حلفائها٠ وقبل الإنذار كان " أيزنهاور " يردد " إنهم حلفاؤنا وأصدقاؤنا ، ولكنهم وضعونا في حفرة ، ويريدون أن ننقذهم " .. فهل أنقذهم " أيزنهاور" ؟٠ الإجابة تأتي من إجابة على سؤال آخر ، من الذي إستفاد من أزمة السويس ؟

صحيح أن " عبد الناصر " حقق إنتصاراً سياسياً ، وتحول إلى بطل أسطوري وزعيم ترفعه الجماهير على أعناقها ليس في مصر وحدها وإنما في كل بلد عربي٠٠ لكن المنتصر الحقيقي كان " أيزنهاور " الذي أدخل الولايات المتحدة عصرها الجديد بعد أن قُص ذيل الأسد البريطاني على أرض مصر ٠

لقد فجرت أزمة السويس التناقضات الأنجلو ـ أمريكية ، وانتصرت الدبلوماسية الأمريكية ، ولعل النظرة المتفحصة لتصريحات " أيزنهاور" بعد العدوان الثلاثي مباشرة ، تؤكد أن " أيزنهاور" كان يخطط لإقتناص الفرصة ليعلن سقوط الإمبراطوريتين الإستعماريتين ٠ ولقد بلغت صراحته إبان العدوان إلى حد القول " إنني أؤمن إيماناً راسخاً بأن مصير هاتين القوتين إلى زوال وأفول ، طالما تنتهجان هذه السياسات ، وكيف يمكن لنا أن

ندعم بريطانيا وفرنسا ، إذا كنا سنخسر العالم العربي بأسره بدعمنا إياهم؟!"(١٦٦) .

وبدلاً من خسارته للعالم العربي ، أرسل له السفير الأمريكي في القاهرة "ريموند هير " برقية أكد فيها أن فرصة فريدة سنحت الآن للولايات المتحدة ، وأن الولايات المتحدة ، قد بدت فجأة كمدافع أصيل عن الحق ، وأن هناك مزاجاً موالياً لأمريكا في المنطقة ، وهو ما يقدم فرصة إضافية لإعادة تدعيم مركز واشنطن على نحو كان يبدو مستحيلاً منذ أسبوع .. " (١٦٧). ولقد ابتهج أيزنهاور " أيما إبتهاج برسالة " ريموند هير " هذه لأنها لمست وتراً حساساً عنده (١٦٨) .

ولم يضيع آيزنهاور في الحقيقة وقته ، وبدأ يضع الإستراتيجية الأمريكية الجديدة ، وهي الإستراتيجية التي أزاحت الدول الإستعمارية من الشرق الأوسط، لتحل الولايات المتحدة محلها. ولقد استخدم بمهارة حطام السويس كنقطة إنطلاق نحو البداية الجديدة فقدم الإغراءات لدول الشرق الأوسط ، وفي نفس الوقت نفذ سلسلة من الإجراءات العنيفة ضد حلفاء الأمس.

ولقد عبر " دالاس " في حديثه مع سفير إسرائيل في واشنطن " أبا إيبان " عن تطلعات بلاده وسياستها الجديدة ، فبعد أن أنتهت بريطانيا حسب رأيه في الشرق الأوسط ، أصبح حلف بغداد واحداً من مخلفات التاريخ ، وجاء الوقت الآن لكي تتقدم الولايات المتحدة ، وتقيم نظاماً جديداً في المنطقة ، تتحمل فيه المسئولية وحدها ومباشرة ، إن الولايات المتحدة لم تعد في حاجة إلى أن تتواري وراء أصدقائها القدامى ، فلقد لعبوا أوراقهم بحماقة وخسروا، وتركوا وراءهم في الشرق الأوسط فراغاً على الولايات المتحدة أن تملأه .. إن لدى الرئيس خطة كاملة لمستقبل الشرق الأوسط وهي تتضمن ترتيبات سياسية وعسكرية ، ومساعدات إقتصادية واسعة "(١٦٩).

ومما له دلالة تصريح " أيزنهاور" يوم ٩ نوفمبر ١٩٥٦ بعد إنتخابه رئيساً للولايات المتحدة لمدة جديدة ، بأنه سيعمل على " لم القطع والشظايا المتبقية من الشرق الأوسط بعد أزمة السويس [١٧٠] . We have to pick the bits, pieces in the Middle East

لذلك أعلن وحتى قبل إتمام القوات المعتدية لإنسحابها ، أن الولايات المتحدة على إستعداد ، لتقديم المساعدات من خلال معاهدات ثنائية ، وإنها على إستعداد لتقدم قرضاً لمصر بـ ٧٥ مليون دولار ، وإنها ستقدم كميات محدودة من الأسلحة والمساعدات الإقتصادية وبعثات التدريب ، كما أنها على إستعداد لتمويل السد العالي ويمكن أن تتفاوض من أجل معاهدات أمنية مع إسرائيل والدول العربية ..إلخ [١٧١]، وهذه التصريحات هي التي ستتبلور فيما بعد في نظرية ملء الفراغ في الشرق الأوسط .

وفيما يتعلق بالحلفاء ، رفض" أيزنهاور" مقابلة " إيدن " و " موليه " قبل إنسحاب القوات البريطانية والفرنسية من مصر ، ووصل الأمر إلى حد تسول " إيدن " لهذه المقابلة ، دون جدوى [١٧٢].

واللافت للنظر أن " إيدن " وربما للمرة الأولى قد فهم وشخص موقف "أيزنهاور " منذ إنفجار أزمة السويس ، حيث أقتنع بأن: " الولايات المتحدة الأمريكية قد وقعت تحت سيطرة فكرة واحدة ، هي إضطهاد حلفائها.. إذ كانت كل إجراءات الحكومة الأمريكية تتجه إلى تحقيق عكس ما يريدون " [١٧٣] . ولعل هذه العبارة هي ما دفعت البعض إلى صك مصطلح "صراع الحلفاء" على علاقات وسياسات الولايات المتحدة الأمريكية ، إبان وبعد الحرب العالمية الثانية من جهة ، وتراجع بريطانيا وفرنسا من جهة أخرى أمام طغيان القوة الأمريكية .

على أية حال ، بدأ " أيزنهاور " يستغل " الورقة البترولية " إذ أن إصلاح القناة كان سيستغرق ثلاثة أشهر وربما أكثر ، ولم يكن أمام أوروبا إلا المساعدة الأمريكية حيث كان بإمكان الناقلات الأمريكية نقل خمسمائة ألف برميل يومياً من جنوب أمريكا بالإضافة إلى تحويل ٣٥٠ ألف برميل أخرى كان يتم إستيرادها من المنطقة في الأحوال العادية ، وكانت هذه الكمية تكفي لسد ١٥ أو ٢٠% من حاجات أوروبا البترولية ، والباقي يمكن تغطيته بترشيد وتقييد الإستهلاك (١٧٤).

ولم يُفوت " أيزنهاور " الفرصة التي سنحت له ، حيث كان في يده إنقاذ أوروبا بإمدادها بالبترول (١٧٥) وكان هذا يتسق مع رغبته في الضغط على بريطانيا وفرنسا ليتركوا للولايات المتحدة مكان الصدارة في الشرق الأوسط ، دون أن " يجردهم تماماً من ملابسهم " لذلك قدم كل ما كان يستطيعه من " أوراق التوت " ليستر حلفائه طالما قبلوا أن يعترفوا له بالصدارة . ومن ذلك :

- أنه أصدر أوامره يوم ٣٠ نوفمبر ١٩٥٦ بالبدء في إرسال شحنات البترول العاجلة إلى بريطانيا .
- البدء في المفاوضات حول تقديم المساعدات المالية التي تحتاجها بريطانيا بصورة عاجلة.

ومع ذلك بدأت بريطانيا تعاني من أزمة إقتصادية ، كانت في مُجملها واحدة من أهم مؤشرات نهاية دورها الإمبراطوري ، حيث بدأ ترشيد إستخدام الجازولين وشوهدت السيارات تصطف في طوابير إنتظار طويلة أمام محطات الوقود ، وقفزت أسعار الصلب بنسبة ٦% (١٧٦) .

وعلى أثر الأزمة الإقتصادية ، وإعتماد بريطانيا على الولايات المتحدة ، إنعقد مؤتمر " برمودا " في مارس ١٩٥٧ ــ بعد إستقالة " إيدن " ــ وانتهى بإكراه الحكومة البريطانية على تخفيض إلتزاماتها ، ولعل ماجرى في هذا

المؤتمر يُعد الأغرب من نوعه في تاريخ الإمبراطوريات ، فقد ظهرت فيه إمبراطورية قديمة تُسلم ممتلكاتها لإمبراطورية جديدة ، وتوقع صكاً بعملية التسليم والتسلم وكأن الأقاليم والدول أشبه بالبضائع في الأسواق والمخازن ، أو على ظهور السفن ، كان عنوان الوثيقة التي خرجت عن المؤتمر: " إتفاق على تخفيض الإلتزامات البريطانية وراء البحار "ولعل أهم ماجاء فيها :

أولاً : أن الرئيس الأمريكي يعبر لرئيس الوزراء البريطاني ـ هارولد ماكميلان عن فهمه للضرورات التي تدعو الحكومة البريطانية إلى تخفيف أعبائها في الشرق الأوسط ، وهو يتعاطف مع رغبة هذه الحكومة في جعل إلتزاماتها في المنطقة متوازنة مع مواردها الإقتصادية والعسكرية .

ثانياً: أن الرئيس ـ الأمريكي ـ أخطر رئيس الوزراء البريطاني أن الولايات المتحدة الأمريكية لن تستطيع تحمل كل الأعباء البريطانية التي ترى الحكومة البريطانية أنها مضطرة إلى التخلي عنها ، ولهذا فإن الولايات المتحدة تأمل في أن تواصل الحكومة البريطانية إخطار الحكومة الأمريكية بخططها في المستقبل .

ثالثاً : أن الرئيس سوف يتخذ الترتيبات التي تكفل إستمرار التشاور مع الحكومة البريطانية في المسائل والحالات التي يتعين فيها إستطلاع الرأى ، وسوف يكون ذلك موضع الإعتبار .

رابعاً: أن الرئيس ـ الأمريكي ـ يعرب عن أمله في أن الحكومة البريطانية سوف تقوم بتخفيضات تدريجية ومنتقاه ، بما يناسب المصالح الغربية بصفة عامة ، ويتفق مع مطالب الأمن الضرورية للسلامة المشتركة.

خامساً: أن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية سوف تقدم للحكومة البريطانية دعماً مالياً فورياً مقداره أربعمائة مليون دولار[١٧٧].

واعتقد أن الوثيقة لا تحتاج إلى تعليق ، أبلغ من أنها شاهد على غروب شمس الإمبراطورية البريطانية ، وتسليم زمام الأمور فيما يتعلق بالعلاقات الدولية سياسية كانت أم إقتصادية أم عسكرية للإمبراطورية الجديدة •

أما رئيس الوزراء " أنتوني إيدن " الذي كان على موعد مع سنوات امبراطوريته الأخيرة ، فقد إستقال من رئاسة الوزراء في التاسع من يناير ١٩٥٧ ، وعندما رحل عن الدنيا عام ١٩٧٧ كتبت جريدة " التايمز اللندنية " وهي تنعيه : " مات آخر رئيس وزراء بريطاني آمن بأن بريطانيا ماتزال قوة عظمى وأول من واجه أزمة أثبتت أنها لم تعد كذلك "[١٧٨] •ورغم دقة ما ورد في هذا النعي، إلا أنه تجاهل دور التناقضات التي إستعرت بينه وبين حليفته الولايات المتحدة الأمريكية في إنهاء مستقبله السياسي وحياة الإمبراطورية في آن واحد •

الهوامش

(١) لمزيد من التفاصيل حول سقوط الإمبراطورية ، أنظر ، إدريس كوكس سقوط الإمبراطورية (ترجمة : محمد رشاد ، دار التحرير ، القاهرة ١٩٦٤) ص ص ١٢ــ ٢٥ .

(٢) بول كيندي ، القوى العظمى (ترجمة : عبد الوهاب علوب ، مركز إبن خلدون ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ١٩٩٣) ص ٥١٠ .

(٣) نفس المرجع ، ص ص٥١٠ــ ٥١١ .

(٤) مجموعة من المفكرين ، الإمبراطورية الأمريكية (تحرير : رضا هلال الجزء الأول ، مكتبة الشروق ، القاهرة ، ٢٠٠١) ص٨ ؛١٥٦ ؛ بول كيندي ، المرجع السابق ، ص٥١٢ ؛ أنظر أيضاً

Donald, W.White, theAmerican Century: The Rise and Decline of the university Pren a world Power (Yale University Pren 1977).

(٥) بول كيندي ، المرجع السابق ، ص٤٨٥ .

(٦) نفس المرجع ، ص٥١٢ ، لكن البعض يشير إلى أن ميزانية الدفاع الأمريكية زادت من مليار دولار عام١٩٤٠ إلى ٨١مليار دولار عام ١٩٤٥ مجموعة من المفكرين ، الإمبراطورية ، جـ١ ، ص٨ .

(٧) لمزيد من التفاصيل ، أنظر ، محمد حسنين هيكل ، الإمبراطورية الأمريكية (دار الشروق ، القاهرة ، ٢٠٠٣) ص٨٥ . ؛ ميشال بوغنون ، وآخر أمريكا التوتاليتارية (ترجمة : خليل أحمد خليل ، دار الشافي ، بيروت ٢٠٠٢) ص١٠٥ .

(٨) حول قانون الإعارة والتأجير ، أنظر ، تشرشل ، مذكرات (ترجمة ، إخترنا لك ، جـ٣ ، القاهرة ، بدون) ص ص٦١ــ ٦٢ . أنظر ، هيكل الإمبراطورية ، ص٩٨ .

(٩) نفس المرجع ؛ وله أيضاً ، ملفات السويس.. حرب الثلاثين عاماً (الأهرام القاهرة ، ١٩٨٦) ص ص٣٨ــ٣٩ .

(١٠) نفس المرجع ، ص٨٥ . نفس المرجع .

(١١) كان مطار " باين " يقع في نفس المكان الذي يقع فيه الآن مطار القاهرة.

(١٢) هيكل ، الإمبراطورية ، ص٨٥ • ؛ انظر مذكرات تشرشل ، جـ ٥ ص٢٩ ؛ ٣١ •

(١٤) نفس المرجع ، ص٩٢ •

(١٥) هيكل ، ملفات السويس ، ص٤٠ •

(١٦) نفس المرجع ، ص٣٨ ؛ ولمزيد من التفاصيل حول علاقة تشرشل وروزفلت أنظر ، مذكرات ونستون تشرشل ، المصدر السابق ، جـ٣، ص ص٥٦ـ٥٩

جـ٤ ، ص٢١؛ ١٣٨ •

(١٧) ميشال بوغنون ، المرجع السابق ، ص ص٩٦ـ٩٧ ؛ أنظر أيضاً مذكرات الجنرال ديجول (ترجمة : د• سموحي فوق العادة ، منشورات عويدات القاهرة ، ١٩٧١) ؛

Nikolai Molchanov, De Gaulle: his life and work (Progress publisher, Mosco, 1980).

(١٨) فضلاً عما ورد في مذكرات ديجول نفسه عن موقف روزفلت ورجال الإدارة الأمريكية منه ، فقد أورد تشرشل في مذكراته الكثير من ذلك أنظر ، مذكرات تشرشل، المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ص١٣٨ـ ١٤٣ •

(١٩) هيكل ، الإمبراطورية ، ص٩٢ •

(٢٠) نفس المرجع •

(٢١) تعبير القرن الأمريكي صكه " هنري لوس " ناشر مجلة " تايم " و " لايف " وذلك في فبراير ١٩٤١ ، ثم شاع إستخدامه بعد ذلك •

(٢٢) راجع نص الوثيقة ، هيكل ، الإمبراطورية ، ص ص٩٣ـ٩٤ ؛ مجموعة من الكتاب والمفكرين ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص٢٧٣ •

(٢٣) نفس المرجع ، ص٩٣ • ؛ أنظر أيضاً :

Glen, Balfour, Paul, The End of Empire in the Middle East (Cambridge University press, USA, 1993) pp, 18- 15.

(٢٤) جيفري أرونسن ، أمريكا تخرج من الظل (ترجمة : سامي الرزاز ، دار البيادر ، القاهرة ، ١٩٨٧) ص ص ٢١ـ ٢٢ •

(٢٥) وكذلك الإستفادة من المشاكل التي يطرحها وجود الصهاينة في فلسطين أرونسن ، المرجع السابق ، ص٢٢ ٠

(٢٦) أندرسون ، المرجع السابق ، ص ص٢٢ـــ٢٣ ٠

(٢٧) نفس المرجع ، ص ٢٣ ؛ أنظر أيضاً

FRUS 1947 Vol.1x, Henderson to Lovett, 28Augs, 1947.

(٢٨) نفس المرجع ، ص٢٣ ٠

(٢٩) نفس المرجع ، ص ص٢٣ـــ٢٤ ٠

(٣٠) نفس المرجع ،ص٢٣ ٠

(٣١) لمزيد من التفاصيل ، نفس المرجع ، ص ص٢٣ـــ ٢٧ ٠

(٣٢) نفس المرجع ، ص٢٧ ٠

(٣٣) نفس المكان ٠

(٣٤) نفس المكان ٠

(٣٥) لمزيد من التفاصيل ، نفس المرجع ، ص ص٢٧ـــ ٢٩ ٠

(٣٦) نفس المرجع ، ص٢٩ ٠

(٣٧) نفس المرجع ، ص ص٣١ـــ ٣٢ ؛ وأنظر نص وثيقة الخارجية الأمريكية في المجلد التالي :

FRUS 1948, Vol.1, pp.665 .

(٣٨) FRUS 1949 Vol.1,p.286 .

(٣٩) نفس المرجع ، ص٣٠ ؛ أنظر أيضاً

New York Times March, 7, 1949, p.3.

(٤٠) راجع قرار مجلس الشيوخ رقم٢٣٩ الذي أقر يوم ١١نوفمبر١٩٤٨ ؛

FRUS 1949, Vol.6, p.33.

(٤١) أرونسن ، المرجع السابق ، ص٣٢ ؛

FRUS 1949, Vol.6, p.32.

(٤٢) نفس المرجع ، ص٣٤ ٠

(٤٣) نفس المرجع ، ص٣٥ ٠

(٤٤) نفس المكان ٠

(٤٥) نفس المرجع ، ص ص٥٤ـــ ٥٥ ٠

(٤٦) نفس المرجع ، ص٥٧ ٠

(٤٧) نفس المرجع ، ص٥٩ ٠

(٤٨) كان الرئيس الأمريكي ترومان قد أعلن برنـامج الأمن المتبادل MSP فـي مايـو ١٩٥٠ كأداة في الصراع ضد الذين ينـادون الحيـاد أو الـذين يفجرون الثورات الإشتراكية ، وكان البرنامج يهدف إلى تـدعيم العناصـر الموالية للغرب داخل الدول المتلقية للمعونة الأمريكية .

(٤٩) مما له دلالة أن الجيش الأمريكي كان واثقاً من أن قبول العـرب للـشروط الواردة في برنامج الأمن المتبادل من شأنه أن يتيح دوراً نـشطاً للولايـات المتحدة في الوطن العربي ، لذلك أُلحق ثلاثون ضابطاً أمريكيـاً بالجامعـة الأمريكية في بيروت لحضور دورة دراسية مكثفة في التـاريخ والـسياسة والثقافة العربيـة .

(٥٠) أرونسن ، المرجع السابق ، ص٥٩ .

(٥١) نفس المرجع ، ص٦٥ .

(٥٢) نفس المرجع ،ص٦٩ .

(٥٣) نفس المرجع ،ص ص٧١ ــ ٧٢ .

(٥٤) نفس المرجع ، ص٧٢ .

(٥٥) نفس المرجع ، ص٧٥ .

(٥٦) نفس المرجع ، ص٧٦ .

(٥٧) نفس المرجع ، ص ص٧٧ ــ ٧٨ .

(٥٨) نفس المرجع ، ص٨٥ .

(٥٩) نفس المرجع ، ص٨٦ .

(٦٠) مايلز كوبلاند ، لعبة الأمم (ترجمة : مروان خير ، بيروت ،١٩٧٠) ص ص٨٠ ــ ٩٤ ، ولمزيد من التفاصيل ، أنظر ، جمال شقرة ، الحركة السياسية في مصر١٩٥٤ــ١٩٦١ (رسالة دكتوراة ، غيـر منـشورة ، القاهرة ١٩٩٣) ص ص١٣ــ ١٤ .

(٦١)

FRUS 1952-1954 Vol.1x the charge in the United Kingdom (Holmes) to the Department of state (London, July, 23, 1952). ,

وحول خطة التدخل RODEO أنظر ، هيكل ، ملفات الـسويس (الأهـرام ١٩٨٦) ص ص ١٤٦ــ١٤٩ . ؛

New York Time,(July,24,28,29,1952)pp.26,14,20 .

(٦٢)

A cheson ,D .Present at the creation (New York,1969),
FRUS 1953- 1954 Vol.4 the Ambassador in Egypt
(caffery)to the Department of state (Cairo,Augu,7,20,1952) .

(٦٣) أرونسن ، المرجع السابق ، ص١٠٢ ٠

(٦٤) نفس المكان ٠

(٦٥) نفس المكان ٠

(٦٦) نفس المرجع ،ص١٠١ ٠

(٦٧)

FRUS, 1952-1954, Vol.4 the Acting Secretary of state to
The Embassy in Egypt (Washingtion, Jan, 21, 1954).

وانظر أيضاً

Balfour, op.cit, pp.37-48.

(٦٨) أرونسن ، المرجع السابق ، ص١١٠ ٠

(٦٩) جمال شقرة ، المرجع السابق ، ص ص٣٣٣ ـــ ٣٤١ ٠

(٧٠)

FRUS 1952-1954 Vol.4 the Secretary of State to the Embasy
In Egypt (Washington,Sept,30,1952) New York Times,Augu,8,1952 P 1.

(٧١)

NSC Memorandum of Discussion of the 147 meeting,june
1,1953 PP 1-2.

(٧٢) أرونسن ، المرجع السابق ، ص ١٢٠ .

(٧٣) نفس المرجع ، ص ص١١٩ـــ ١٢٠ ٠

(٧٤)

New York Times, Dec.30, 1953, p.3.

(٧٥) أرونسن ، المرجع السابق ، ص١٢١ ٠

(٧٦) نفس المرجع ، ص١٢٢ ٠

(٧٧) نفس المرجع ، ص ص١٢١ـــ ١٢٣ ٠

(٧٨) أنظر نــص تقريـر جـون فوستـــر دالاس ، أرونـسن ، المرجـع السابـــق ص ص ١٢٣ـــ ١٢٤ ٠

(٧٩) نفس المرجع ، ص ص١٣٠ ـ ١٣٣ ٠

(٨٠) نفس المرجع ، ص١٣٣ ٠

(٨١) نفس المرجع ، ص ص١٣٧ ـ ١٣٨ ٠

(٨٢) نفس المرجع ، ص ص ١٤٩ــــ ١٥٠ ٠

(٨٣) نفس المرجع ، ص١٤٣ ٠

(٨٤) لمزيد من التفاصيل أنظر ، نفس المرجع ، ص ص١٥٣ــــ ١٦٠ ٠

(٨٥) دونالدنيف ، حرب السويس (ترجمة : أحمد خضر ، عبد السلام رضوان مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩٠) ص١٩١ ٠

(٨٦) نفس المرجع ، ص ص١٩١ــــ ١٩٢ ٠

(٨٧) أصبح فيما بعد مندوب بريطانيا في الأمم المتحدة ٠

(٨٨) دونالدنيف ، المرجع السابق ، ص١٩٢ ٠

(٨٩) نفس المرجع ، ص١٩٣ ٠

(٩٠) نفس المرجع ، ص١٩٢ ٠

(٩١) زاد من حنق إيدن أنه تردد أن دالاس هو الذي كتب الرسالة وأرسلها إلـى رئيس وزراء اليابان سيجور يوشيدا ، ليوقعها ٠

(٩٢) نفس المرجع ، ص١٩٣ ٠

(٩٣) نفس المكان ٠

(٩٤) نفس المرجع ، ص ص١٩٣ــــ ١٩٤ ٠

(٩٥) نفس المرجع ، ص ١٩٣ ٠

(٩٦) نفس المرجع ، ص١٩٤ ٠

(٩٧) نفس المكان ٠

(٩٨) نفس المكان ٠

(٩٩) نفس المرجع ، ص١٩٥ ٠

(١٠٠) لمزيد من التفاصيل ، أنظر ، دونالـدنيف ، المرجـع الـسابـق ، ص ١٩٥ــــ١٩٧ ٠

(١٠١) نفس المرجع ، ص١٩٦ ٠

(١٠٢) نفس المرجع ، ص١٩٧ ٠

(١٠٣) نفس المرجع ، ص١٩٨ ٠

(١٠٤) دونالدنيف ، المرجع السابق ، ص١٩٩ ٠

(١٠٥) نفس المرجع ، ص١٩ ٠

(١٠٦) لمزيد من التفاصيل أنظر ، نفس المرجع ،ص ص١٨٥ ـــ ٢٠٩ ؛ أرونسن ، المرجع السابق ، ص٢٦٧ ؛ أنظر ، دار في إجتماع مجلس الأمن القومي الأمريكي قبل زيارة إيدن ، هيكل ، ملفات السويس ص ص٣٩٥ ـــ ٣٩٩ .

(١٠٧) دونالدنيف ، المرجع السابق ، ص٢٠٠ .

(١٠٨) نفس المرجع ، ص ٢٠٠ .

(١٠٩)

FRUS 1955- 1957 Vol.15 Memorandum from the Secretary Of State to the President (Washington, Marc, 1956),

أنتوني إيدن ، مذكرات (ترجمة : دار ومكتبة الحياة ، القسم الثاني ، بيروت بدون) ص١١٠ .

(١١٠) دونالدنيف ، المرجع السابق ، ص٢٠٥ .

(١١١) نفس المرجع ، ص٢٠٦ .

(١١٢) نفس المرجع ، ص ص٢٠٦ـــ ٢٠٧ .

(١١٣) نفس المرجع ، ص٢٠٧ .

(١١٤) نفس المرجع ، ص٢٤١ .

(١١٥) نفس المرجع ، ص ص٢٧٣ـــ ٢٧٤ .

(١١٦) نفس المرجع ، ص٢٧٥ .

(١١٧) أعرب إيدن في مذكراته عن ضيقه الشديد من موقف الولايات المتحدة الأمريكية من حلف بغداد ، وتهكم على دبلوماسيتها في الخمسينيات عندما أطلق عليها مصطلح الدبلوماسية الرجراجة التي تسعى لإكتساب ود حلفائها. أنظر إيدن المصدر السابق ، ص ص١١٢ـــ ١١٣ .

(١١٨) دونالدنيف ، المرجع السابق ، ص٢٧٥ .

(١١٩) بدأت تظهر لهجة معادية لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية في البرلمان البريطاني ، حتى أن " إيرل آتلي " رئيس الوزراء العمالي السابق أعرب عن غضبه إزاء ذلك الأسلوب العتيق ، الذي تمارسه أمريكا في مناهضة الإستعمار ، أنظر نماذج لنصوص الإنتقادات : دونالدنيف ، المرجع السابق ص ص٢٨٦ـــ٢٨٧ .

(١٢٠) نفس المرجع ، ص٢٩٧ ٠

(١٢١) أنتوني ناتنج ، ناصر (ترجمة : شاكر إبراهيم سعيد ، دار ومكتبة الهلال بيروت ، ١٩٨٥) ص١٧٤ ٠ ؛ أنظر أيضاً ستيفن جرين ، حكومة أيزنهاور والعدوان الثلاثي على مصر (وثائق ندوة السويس الدولية دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٩) ص ص٩٧ ــ ٩٨؛ محمود رياض البحث عن السلام والصراع في الشرق الأوسط (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، القاهرة ، ١٩٨١) ص ص١٣١ــ١٣٢ ٠

(١٢٢) دونالدنيف ، المرجع السابق ، ص١٧١ ٠

(١٢٣) عبر إيدن في مذكراته عن ضيقه الشديد من قرار الولايات المتحدة بإلغاء تمويل السد العالي دون أن يُستشار مسبقاً ، وحمّل الولايات المتحدة مسئولية استفزاز عبد الناصر " لقد أسفنا لأن هذا الإجراء تم بهذه الصورة المباغتة ولم يعط بلدينا الفرصة للتوفيق بين أسلوب التنفيذ وتوقيعه ، وكان عبد الناصر وقتئذ في بريوني مجتمعاً مع تيتو ونهرو فأحس أن هذا القرار قد جرح كبرياؤه ؛ أنظر إيدن ، المصدر السابق ص٢٣١ ٠

(١٢٤) إيدن ، المصدر السابق ، ص ص٢٣٤ــ ٢٣٧ ٠

(١٢٥) دونالدنيف ، المرجع السابق ، ص٣٧٧ ٠

(١٢٦) هيكل ، ملفات السويس ، ص٤٧١ ٠

(١٢٧) نفس المرجع ، ص ٣٧٧.

(١٢٨) إيدن ، المصدر السابق ، ص ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩.

(١٢٩) نفس المصدر ، ص٢٣٤، ٢٣٧، ٠

(١٣٠) دنالدنيف ، المرجع السابق ، ص٣٧٨ ؛ أنظر نص رسالة أيزنهاور لأيدن : إيدن ، المصدر السابق ، ص٢٤٦

(١٣١) لمزيد من التفاصيل أنظر ، دونالدنيف ، المرجع السابق ، ص ص ٣٨٢ــ ٣٨٣ ٠؛ هيكل ، ملفات السويس ، ص٤٧٦ ٠

(١٣٢) أنظر مذكرات أيزنهاور (ترجمة : هيوبرتيونغمان ، بيروت ، ١٩٦٩) ص ص٦٤ ــ ٧٧ ؛ هيكل ، ملفات السويس ، ص ص٤٧٦ــ ٤٧٨ ٠

(١٣٣) دونالدنيف ، المرجع السابق ، ص ص٣٨٤ ــ ٣٨٥ ؛ هيكل ، ملفات السويس ، ص ص٤٧٩ــ ٤٨٠ ٠

(١٣٤) نفس المرجع ، ص٣٨٩ ؛ إيدن ، المصدر السابق ، ص٢٤٨ .

(١٣٥) نفس المرجع ، ص ٣٩٠ .

(١٣٦) نفس المرجع ، ص ص٣٩٢ـ ٣٩٣ .

(١٣٧) إيدن ، المصدر السابق ، ص٢٤٩ .

(١٣٨) راجع نص رسالة أيزنهاور : إيدن ن المصدر السابق ، ص ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ .

(١٣٩) دونالدنيف ، المرجع السابق ، ص٣٩٣ .

(١٤٠) نفس المكان .

(١٤١) لمزيد من التفاصيل ، نفس المرجع ،ص ص٣٩٣ـ٣٩٤ .

(١٤٢) نفس المرجع ،ص٣٩٥ .

(١٤٣) أكد إيدن في مذكراته أن دالاس لم يستبعد إستخدام القوة ، بشرط إستنفاد جميع الوسائل الأخرى ، وأن العبارة التي جاءت على لسانه " أن يجعل عبد الناصر يتقيأ القناة " لا يمكن أن تفهم على عكس مافهمه هو وقتها بل أنه فهم أن دالاس سيلقن عبد الناصر درساً في ضرورة إحترام المعاهدات الدولية ، راجع ، إيدن ، المصدر السابق ، ص٢٥٣ .

(١٤٤) دونالدنيف ، المرجع السابق ، ص٣٩٦ .

(١٤٥) لمزيد من التفاصيل ، أنظر ، نفس المرجع ، ص ص٣٩٧ـ ٣٩٨ .

(١٤٦) نفس المرجع ، ص ٣٩٨ .

(١٤٧) نفس المرجع ، ص ص٤٠٤ـ٤٠٧ .

(١٤٨) إيدن ، المصدر السابق ، ص ص٢٧٧ـ ٢٧٨ ؛ دونالدنيف ، المرجع السابق ، ص٤٠٨ .

(١٤٩) دونالدنيف ، المرجع السابق ، ص٤٠٩ .

(١٥٠) نفس المرجع ، ص ص٤١٥ ـ ٤١٨ .

(١٥١) نفس المرجع ، ص ٤١٩ .

(١٥٢) لمزيد من التفاصيل ، أنظر ، إيدن ، المصدر السابق ، ص ص٢٧٨ ـ ٢٨٩ .

(١٥٣) دونالدنيف ، المرجع السابق ، ص٤٢٠ .

(١٥٤) نفس المرجع ، ص٤٢١ .



(١٥٥) نفس المكان ٠

(١٥٦) إيدن ، المصدر السابق ،ص ص٢٦٩ــ ٢٧٣ ٠ ؛ دونالــدنيف ، المرجــع السابق ، ص ص٤٣٦ ــ ٤٣٧ ٠

(١٥٧) راجع نص التصريح في المصدر السابق ، ص٢٧١ ٠

(١٥٨) دونالدنيف ، المرجع السابق ، ص٤٣٩ ٠؛ إيدن ،المصدر السابق ص ص ٢٧٠ــ ٢٧٣ ٠

(١٥٩) أنظر نص خطاب أيزنهــاور لأيدن ، وهو الخطــــاب الذي أسماه إيــدن بالخطاب المزعج ، وأن أيزنهاور تراجع فيه عن إستخدام القوة ضد عبــد الناصر ، إيدن ، المصدر ، ص٢٩٠ ؛ وأنظر أيضاً إشارته إلى وصــول التناقض والخلاف بينه وبين أيزنهاور إلى منتهاه ، ص٣٠٥ ٠

(١٦٠) يمكن رصد تصاعد غضب إيدن في مذكراتــه ، حيث سيتهم الولايــات المتحدة بأنها أنانية ، وأنها تمتلك طريقة أمريكية في التفكير ، لاتخدم بهــا إلا مصالحها ، راجع ، إيدن ،ص ص٢٨٠ــ٢٨٦ ؛ ٣٩٥ــ٣٩٧ ٠

(١٦١) دونالدنيف ، المرجع السابق ، ص٤٥٠ ٠

(١٦٢) نفس المرجع ،ص ص٤٥٠ ــ ٤٥١ ٠

(١٦٣) نفس المرجع ، ص٤٥١ ٠

(١٦٤) إن كان إيدن لم يستعمل تعبير الخيانة الأمريكية ، لكنه ذكــر أن الولايــات المتحدة " عملت ضدنا ، ومن أجل مصالحها ، وأنها سعت من أجل تــدمير الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية ، وأنها وقفت ضــد بريطانيــا فــي الجمعيــة العموميــة ، وأنها خذلتنا ٠٠ " أنظر إيدن ، المصدر السابق ص ص٣٨٢ــ ٣٨٥ ؛ ٣٩٥ــ٣٩٧ ؛ حول هجوم الــصحافة البريطانيــةعلى الولايات المتحدة البريطانية ، أنظر، دونالدنيف ، المرجــع الــسابق ، ص ص٤٥١ــ٤٥٢ ٠

(١٦٥) دونالدنيف ، المرجع السابق ، ص٤٥١ ٠

(١٦٦) نفس المرجع ، ص٥٣٥ ٠

(١٦٧) نفس المرجع ، ص٥٧١ ٠

(١٦٨) نفس المكان ٠

(١٦٩) هيكل ، ملفات السويس ، ص٥٨٦ ٠

(١٧٠) أنظــر نص التصريح ، هيكــل ، ملفــات السويس ، ص٥٧٥ .

(١٧١) دونالدنيف ، المرجع السابق ، ص٥٧٢ .

(١٧٢) إيدن ، المصدر السابق ، ص٤٣٣ .

(١٧٣) نفس المصدر ، ص ص٤٣٣ــ٤٣٤ ؛ راجع رأي إيدن في الإتجاه الجديــد الذي سيطر على السياسة والتفكير الأمريكي ، المصدر الــسابق ، ص ص ٤٢٤ ، ٤٣١، ٤٢٧، ٤٢٦ .

(١٧٤) حول تقرير آرثر فيلمنج ، أنظــر ، دونالدنيــف ، المرجع الــسابــق ص ص٥٧٥ــ٥٧٦ .

(١٧٥) نفس المرجع ، ص٥٧٦ .

(١٧٦) حول مظاهر الأزمة الإقتصادية في بريطانيا بعد انتهاء العدوان الثلاثي أنظر ، إيــدن ، المــصدر الــسابق ، ص٤١٨؛ دونالــدنيف ، المــصدر ص ص٥٩٧ــ٧٩٩ .

(١٧٧) أنظر نص الوثيقة ، هيكل ، الإمبراطورية ، ص ص ٩٤ــــ٩٥ ؛ أنظــــر رواية أيزنهاور حول مقابلته وحديثه مع رئيس الوزراء الجديــد ، هارولــد ماكميلان ، أينهاور ، المصدر السابق ، ص ص٧٥ــ ٧٧ .

(١٧٨) دونالدنيف ، المرجع السابق ، ص٥٩٨ .

الموقف السعودى تجاه
العدوان الثلاثى على مصر ١٩٥٦

د. فوزى أسعد نقيطى

تُجمع الآراء على إن علاقات مصر بالحجاز هى علاقات قديمة، تاريخها يضرب بجذور عميقة فى أعماق الزمن إلى ما قبل الإسلام. ولقد ذكر "هيرودوت" أثناء زيارته لمصر (٤٤٨-٤٤٥ ق. م) أن الهجرات العربية تتابعت إلى مصر واستقر معظمها فى الوجه القبلى[١] وهو ما أكده جمال حمدان[٢] و"ماك مايكل" الذى أحصى عدد القبائل العربية التى وفدت إلى مصر، فى القرن الأول للإسلام بنحو ٢٢ قبيلة ما بين عدنانية وقحطانية[٣]

وجاء فى الحديث الشريف: "استوصوا بأهل مصر خيرا فإن لهم ذمة ورحما" وفى رواية "ذمة وصهرا". والمراد بالرحم، أنهم أخوال إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليهما السلام. وإسماعيل هو والد عرب الحجاز، الذين ينتسب إليهم النبى صلى الله عليه وسلم، الذى تزوج "مارية القبطية" والدة إبنه "إبراهيم". ولقد وصف شاعر حجازى الإرتباط العضوى بين مصر والحجاز بقوله:

ما مصر إلا بلاد العرب قاطبة ... وما الحجاز سوى أم لها وأب

ومن الناحية السياسية، فقد ارتبط الحجاز رسمياً بمصر منذ عهد الدولة الطولونية (٨٦٨م) بصرف النظر عن الحكومة، أو الدولة القائمة فيها، ونشأ ما يمكن تسميته "بالتبعية التلقائية" وإن كانت بعيدة كل البُعد عن أن تكون نوعاً من السيطرة المفروضة، وكل ما هنالك أن الدولة القائمة فى مصر كانت حريصة

أشد الحرص على هذه السيادة من أجل اكتساب مكانة خاصة فى نظـر العـالم الإسلامى[٤] رغم أن تلك السيادة كانت تكلفها أكثر بكثير مما تُكلـف الحجـاز. والظاهرة التى تستحق التسجيل هى تدفق أهل بيت الرسول، صـلى الله عليـه وسلم، على مصر، وأن أضرحة أهل البيت تمتد من الإسكندرية إلى أسوان، وأنه لا تخلو محافظة فى مصر من ضريح لواحد، أو واحدة من آل البيت[٥]

وبالمقابل، فإن هناك عائلات مصرية كثيرة استقرت فى الحجـاز، ولا تـزال تحمل اسم محافظاتها، أو مدنها، أو قراها، مثل: "عائلة الـصعيدى، والمـصرى، والإسكندرانى، والبحيرى، والدمياطى، والمنصوري، والزقـزوق، والبـسيونى، والنبراوى، والشبراويشى، والدمنهورى، والنقيطى ... إلخ.

ولعل ذلك يفسر قول المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى من "أن الحجازيين لمـا علموا بأخبار الحملة الفرنسية، انزعجوا، وبذلوا أموالهم، وأنفسهم، وركبوا البحر إلى القصير"[٦]. وفى تقدير "كرستوفر هيرولد" كان عددهم يربو علـى ٧,٠٠٠ مقاتل[٧] ، الأمر الذى أغرى السعوديين الوهابيين بالهجوم على الحجاز، واحتلال مكة والمدينة، كما يذكر "ديكسون" الوكيل البريطانى فى الكويت[٨]. وكان مـن شأن ذلك، أن يزلزل هيبة تركيا، ويوقع الشك فى مقدرة السلطان العثمانى على الاضطلاع بمهمة حامى الحرمين الشريفين[٩].

وعلى هذه الخلفية، طلب الباب العالى من محمد على باشا والي مصر يـوم ٩ سبتمبر ١٨٠٧ أن يقوم "بقطع دابر الوهابيين وإزالة فسادهم إزالة تامة"[١٠] وبعيداً عن تفاصيل المعارك، فلقد تمكن إبراهيم باشا من احتلال الدرعية، وتدميرها بناءً على طلب السلطان العثمانى، وليس بأمر والده "محمد على"[١١] ، إلا أن حـافظ

وهبه، مستشار الملك عبد العزيز، يؤكد بأن السعوديين يحملون مصر والمصريين تبعة حملة إبراهيم باشا وتدمير الدرعية[12]

وعلى ذلك، فإنه يتعين عند بحث تاريخ العلاقات المصرية – السعودية، فى العصر الحديث والمعاصر، مراعاة الملاحظات التالية:

الملاحظة الأولى: أن كارثة الدرعية عام ١٨١٨ لازالت ماثلة فى أذهان أفراد الأسرة السعودية، بعد أن تحولت إلى عقدة نفسية، بالإمكان تسميتها بـ "عقدة محمد على باشا"[13] وتحت تأثيرها أقاموا علاقاتهم مع القوة الأعظم السائدة (بريطانيا، ثم الولايات المتحدة) على أساس الالتصاق التام، حتى لا تتكرر التجربة[14] ، فكانت معاهدة ١٩١٥، التى وقعها "ابن سعود"[15] مع السير "بيرسى كوكس" Percy Cox نيابة عن حكومة الهند البريطانية، التى التزمت بحمايته بشرط "ألا يقيم علاقات مع دولة أخرى، وألا يعطى امتيازات لدولة أخرى، وألا يبيع أو يرهن شيئاً إلا بموافقتها"[16] وفى ظل هذه المعاهدة تمكن من القضاء على كل خصومه، وخصوم بريطانيا فى الجزيرة العربية[17].

وبعد إزاحتها لبريطانيا، أثناء الحرب العالمية الثانية، أعلنت الولايات المتحدة، على لسان رئيسها روزفلت: "أن الدفاع عن المملكة السعودية أمر حيوى، بالنسبة للولايات المتحدة"[18] ثم تطور الإعلان فى عهد خلفائه، ليؤكد مسئولية الولايات المتحدة عن أمن واستقلال المملكة السعودية[19] فى مقابل النفط[20] الذى كانت فى أمس الحاجة إليه، كما أخبرنا بذلك المستر "كورديل هل" Hull، وزير الخارجية[21] الذى وصف البترول السعودى "بأنه أكبر غنيمة فى تاريخ العالم"[22] إذ أن كمياته تعادل ٣ أضعاف كميات بترول الولايات المتحدة، ذاتها، حسب تقدير "تيرى ديوس" Duce نائب رئيس شركة أرامكو ARAMCO[23]

الملاحظة الثانية: إن "أرامكو" التى تتكون من أربع شركات كبرى[٢٤] قد شكلت فى مجموعها حكومة مستقلة ذات سيادة، لديها من القوة والفاعلية ما يجعلها تتصرف فى بعض الحالات، وكأنها السلطة الوحيدة فى المملكة السعودية، على حد تعبير عبد الله الطريقى، أول وزير للبترول السعودى[٢٥] ، على حين أشار إليها الرئيس روزفلت بقوله: "لا يمكنك أن تكسب انتخابات، أو ممارسة الحكم دون دعم كتلة بترولية"[٢٦]. وفى تحليل أعدته الخارجية الأمريكية جاء "أن شركة أرامكو تشبه، إلى حد كبير، شركة الهند البريطانية التى ذهبت إلى الهند لأغراض تجارية بحتة، ثم راحت تطالب الحكومة البريطانية بإدارة الهند ذاتها"[٢٧]

واستطراداً لهذه الحقيقة، فإن "قاعدة الظهران" كانت فى الأساس فكرة تقدمت بها شركة أرامكو "لحماية آبار البترول ومنشئاتها" [٢٨] وأنها أخذت تضغط بكل ثقلها على الحكومة الأمريكية والكونجرس لاعتماد المبالغ اللازمة لبناء تلك القاعدة، وتزويدها بالأسلحة والمعدات المطلوبة[٢٩] تحت شعار "أن ما يصلح لشركة أرامكو يصلح للحكومة الأمريكية"[٣٠] ولم يمض وقت طويل، حتى برزت فكرة إقامة قاعدة جوية أخرى فى "أبو صوير" بمصر، لتعزيز قاعدة الظهران"[٣١].

الملاحظة الثالثة: أنه كلما زاد الطلب على البترول السعودى، كلما زاد النفوذ السياسى والعسكرى الأمريكى فى المملكة، وزاد الاهتمام بمصر، التى كانت تنظر إليها الشركة على أنها مصب "أو منطقة خروج البترول السعودى إلى البحر المتوسط ومنه إلى العالم الغربى"[٣٢]. ومما يقال فى هذا الشأن، أن الشركة كانت وراء قرار الرئيس روزفلت بالتوقف فى البحيرات المرة كى يلتقى

على ظهر الطراد "كوينسى" Quincy بكل من الملكين: فاروق، وعبد العزيز آل سعود يومى: ١٣، ١٤ فبراير ١٩٤٥[٣٣] بهدف إيجاد الانسجام السياسى فى منطقة جيوبوليتيكة، أوجدها البترول تشمل "دولة المنبع" و"دولة المصب" كما تشمل كل خطوط المواصلات فيما بينها، إذ أن أى تهديد فى منطقة "عبور البترول" فيه تهديد مباشر على إنتاج النفط وآباره"[٣٤]. وكانت مجلة آخر ساعة أول من تنبه إلى هذا الوضع الاستراتيجى الجديد، فقالت فى حينه "إن قناة السويس أصبحت لا تقل أهمية عن البترول السعودى"[٣٥].

ومما يذكر فى هذا المقام، أن الملك عبد العزيز قد حاول فى هذا اللقاء الالتصاق بالرئيس الأمريكى، بأن راح يناديه بإسم "شقيقى التوءم"[٣٦]. وأخذ يُلح على الوزير الأمريكى المفوض فى جدة العمل على إقامة علاقات عسكرية واقتصادية أوثق مع الولايات المتحدة.

King Ibn Saud has repeatedly asked for closer military, and economic ties with U.S. [٣٧]

وفى أحد المشاهد، راح يوسف ياسين، مستشار الملك، ورئيس الشعبة السياسية، يطلب من قائد قاعدة الظهران، ومساعديه، فى حضور الملك "أن يضع القادة الأمريكيون فى حسبانهم، عندما يقومون بتطوير خططهم الدفاعية، أن المملكة السعودية جزء من أرضهم"[٣٨] "you should think of Saudi Arabia as your own territory in elaborating your defense plans" ولدى لقائه مع ماكجى McGhee مساعد وزير الخارجة، فى شهر مارس ١٩٥٠ نبهه الملك إلى "أن يضع فى حسبانه أن الولايات المتحدة والمملكة السعودية دولة واحدة". He considered U.S. and S.A. as one state[٣٩]. مما يعنى أن الملك قد قرر، من

تلقاء نفسه، أن يلعب دوراً تابعاً للولايات المتحدة، والتصرف ضمن استراتيجيتها.

الملاحظة الرابعة: أن السياسة الأمريكية تجاه المنطقة، خلال الفترة موضوع الدراسة وكما حددها وزير الخارجية، دالاس، أمام لجنة من الكونجرس، كانت تقوم على أساس "الحفاظ على إسرائيل وإقامة علاقات طيبة مع العرب من أجل ضمان تدفق البترول"[٤٠].

الملاحظة الخامسة: هناك فترات شهدت تقارباً خادعاً، إما بسبب الخوف من الهاشميين لاسترداد الحجاز[٤١] أو لمواجهة العدو المشترك، بريطانيا، التى شنت عدوانها المسلح على واحة البريمى، يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٥٥، حيث سافر الأمير فيصل إلى القاهرة، فى اليوم التالى، لعقد اتفاقية دفاعية مع النظام الثورى فى مصر[٤٢] بعد أن رفضت الولايات المتحدة الاستجابة للمطلب السعودى بالتصدى لبريطانيا، واستخلاص البريمى منها[٤٣]. وعليه يمكن القول إجمالاً، أن العامل الخارجى قد لعب دوراً أساسياً فى تقارب السعوديين من مصر، أو إبعادهم عنها. وحسبما شهد عام ١٩٣٦[٤٤] فإن بريطانيا هى التى أقامت، ولا نقول أعادت العلاقات، بين الحكومتين لمواجهة الخطر الإيطالى فى منطقة القرن الأفريقى. وأن الرئيس "روزفلت" هو الذى أنشأ محور القاهرة – الرياض، على نحو ما ذكرنا.

أما الرئيس "أيزنهاور" فهو الذى أصدر توجيهاته "بفصل السعوديين عن المصريين" عقب قيام الرئيس جمال عبد الناصر بعقد صفقة الأسلحة التشيكية، فى شهر سبتمبر ١٩٥٥، على حد ما ذكره فى يومياته"[٤٥] بل لقد قرر فى اجتماع آخر، عقده يوم ٢٨ مارس ١٩٥٦، حضره وزير الخارجية، والدفاع،

ومساعدو وزير الخارجية: "إعداد الملك سعود، وتأهيله لمنازلة الـرئيس عبـد الناصر، وليقود العالم العربى بدلاً منه" قائلاً: "لقد وقع اختيارى على الملك سعود ليكون الشخص المنافس له، ومع أنى لا أعرف الرجل إلا أن المملكة السعودية، وما تحويه من أماكن مقدسة لدى العالم الإسلامى، سوف تمكنه من الاضـطلاع بدوره القيادى"(٤٦)

وكان وزير الخارجية، وشقيقه "آلان" Allen رئيس المخابرات، جـاهزين بالخطة "أوميجا" Omega(٤٧) التى كانت تتكون من جزئين:

الجزء الأول: لمعالجة الأسباب التى دفعت الملك سعود إلى الاقتراب من النظام الثورى فى مصر. وتمثلت الخطوة الأولى فى استدعاء السفير البريطانى فى واشنطون إلى وزارة الخارجية، لبحث إيجاد تسوية لمسألة البريمى، وبكلمات دالاس: "فإن حلها سوف يمكننا من كسب السعوديين إلى جانبنا وإبعادهم عن مصر"(٤٨).

وكان قد أوفد مساعده "جورج آلن" George Allen إلى لندن، كى يقترح على "كيرك باتريك" Kirkpatrick، مساعد وزير الخارجية البريطانى أن يقوم كل من ملك العراق، فيصل، وملك الأردن، حسين، ومعهما شيخ الكويت، سالم الصباح، بأداء فريضة الحج هذا العام، وليؤكد له: "أن خطوة كهذه سوف تكون محل ترحيب الملك سعود"(٤٩). كما كتب لسفيره فى بغداد، "جالمان" Gallman لحث رئيس الوزارة، نورى السعيد، على إنهاء حالة العداء بين الأسرتين(٥٠). كما حاول السفير الأمريكى فى جدة، بناءً على تعليمات "دالاس" إقناع الملك سعود "بأن عبد الناصر أكثر خطراً على العرش السعودى من الهاشميين"(٥١) أى أن التناقض

الاجتماعى بين الثروة والثورة، حسب تقديرهم، أخطر وأعمق من العداء القبلى القديم[٥٢]

أما الجزء الثانى، فقد تضمن الأعمال السرية الكيدية التى ترمى إلى إبعاد الملك سعود عن الرئيس عبد الناصر، وإضعاف النفوذ المصرى داخل المملكة السعودية، وذلك بالإيحاء للملك "بأن هدف مصر النهائى هو الإطاحة به، وفرض سيطرتها على المملكة السعودية"[٥٣]

ولقد مهد دالاس لذلك، بأن أثار مخاوف الملك، بواسطة سفيره فى جدة، من "أن عبد الناصر بعقده صفقة الأسلحة قد سمح للشيوعية الملحدة Godless Communism بالتغلغل فى مصر، الأمر الذى يتطلب من الملك التصدى لها، حسبما يمليه عليه مركزه الخاص فى العالم الإسلامى". وكذلك تنبيهه إلى "خطورة المستشارين العسكريين المصريين الذين يقومون بالدعاية فى بلاده للأسلحة السوفيتية، بهدف الترويج للشيوعية"[٥٤]، مع أن الرئيس عبد الناصر، وبشهادة السفير الأمريكى فى القاهرة، قد نصح السعوديين بألا يحذو حذوه وأن يستمروا فى محاولاتهم مع الولايات المتحدة للحصول منها على ما يحتاجونه من سلاح.[٥٥]

والحق، فإن السفير المصرى فى واشنطون كان واعياً لما كان يجرى فى الدوائر الأمريكية وكتب للرئيس عبد الناصر مذكرة يوم ١٢ أبريل قال فيها: "إن هناك محاولة خطيرة للتفريق بينه -جمال عبد الناصر- والملك سعود، وتقوم هذه المحاولة على أساس تخويف الملك سعود من الرئيس عبد الناصر، وأن الأمريكيين يقولون للملك سعود أن جمال عبد الناصر الثائر المتطرف أخطر عليه من النفوذ البريطانى أو من الشيوعيين، وأن أراء جمال عبد الناصر تتسرب إلى الضباط

السعوديين عن طريق البعثة العسكرية المصرية فى الرياض، وأنه بعد زمن قصير سيصبح جمال عبد الناصر قادراً على عمل انقلاب عسكرى فى المملكة السعودية على طريقة الانقلاب المصرى، وأن من مصلحة الملك سعود، ومن أجل المحافظة على عرشه وعائلته وسلطانه أن يبتعد عن جمال عبد الناصر، وأن يقيم حاجزاً قوياً فيما بين مصر والمملكة السعودية".

وأضاف السفير إلى ذلك: "أن صحيفة نيويورك تايمز قد ذكرت ثلاث مرات فى الأسبوع الماضى بأن البعثة العسكرية المصرية فى الرياض تعمل على بث أفكار جمال عبد الناصر بين القوات السعودية"(٥٦) ، الأمر الذى دعا الرئيس عبد الناصر إلى طلب عقد اجتماع عاجل بينه وبين الملك سعود وتمت هذه الزيارة بالفعل يوم ٢٠ أبريل(٥٧).

وفى لقطة من الحديث قال جمال عبد الناصر للملك: "إننى أرجوك أن تعتبر نفسك قائداً أعلى لكل عسكرى مصرى يعمل فى السعودية، وإذا بلغك من أحدهم شئ ولو بمجرد الظن لك أن تصدر أمراً بعودته إلى مصر، وثق أن ذلك لن يؤثر على علاقاتنا" ثم قال جمال عبد الناصر: "إن كل التقارير التى تصلنى تؤكد لى أن خطة الغرب الآن هى التفريق بيننا وعلينا ألا نعطيهم فرصة مهما كان الثمن"(٥٨) . وتأكيداً لحرصه على تقوية العلاقات مع المملكة السعودية، فإنه عقد مع الملك سعود معاهدة جديدة سميت "بمعاهدة جدة" فى ٢١ أبريل، وهى لا تختلف فى مضمونها عن معاهدة أكتوبر ١٩٥٥ التى وقعت فى القاهرة، حيث نص بيانها "على إنشاء مجلس أعلى، ومجلس حربى، وقيادة مشتركة"(٥٩) .

وفى تقديرنا أن تلك الزيارة قد أدت إلى نتائج عكسية، إذ أن الآلاف من سكان العاصمة المقدسة أخذت تهتف له: "يا ناصر الإسلام يا ناصر" وتحولت

مكة إلى مظاهرة استقبال للرئيس المصرى: على الجبال وفى الشعاب، وفوق البيوت"[٦٠]. وهكذا، لم تجد حرب الدهاء التى كانت تشنها المخابرات الأمريكية أى صعوبة فى إشعال النفوس بالغيرة، والحقد، والخوف[٦١] من عبد الناصر الذى استهدفته الخطة أوميجا بالعديد من الإجراءات الانتقامية، مثل: [٦٢]

١- تأجيل بحث إرسال الأسلحة إلى مصر.

٢- وقف تصدير كافة المواد التى تم الاتفاق على شرائها.

٣- وقف إرسال معونات القمح (٢٠٠,٠٠٠ طن).

٤- وقف العمل ببرنامج المساعدات الأمريكية CARE[٦٣]

٥- الاتصال ببعض الدول المحيطة بمصر لإقامة محطات تشويش على الإذاعة المصرية.

٦- إعادة النظر فى المبالغ المخصصة لإقامة مشروع السد العالى.

٧- التنسيق مع الحكومة البريطانية لاتخاذ إجراءات مماثلة.

وجاء فى تبرير دالاس لسفيره فى القاهرة: "إن عبد الناصر، قد حاول، بكل الوسائل، إرباك علاقات الولايات المتحدة بدول المنطقة، خاصة المملكة السعودية، كما أنه بعقده صفقة الأسلحة، قد أفقدنا الثقة فيه لقيادة المنطقة نحو تحقيق التسوية الشاملة مع إسرائيل". وتطرق إلى المساعدات، وقال بأسلوب يفتقر إلى الكياسة: "نحن نريد أن نبرهن للمصريين بأن الحصول على صدقات الأوقاف من الولايات المتحدة يقتضى التعاون مع الولايات المتحدة" وأنه سوف يجرى تقليص المساعدات تدريجياً، مع إطالة أمد المباحثات حول مشروع السد العالى"[٦٤]

وإمعاناً فى الانتقام، أعلن دالاس فى مؤتمر صحفى، يوم ١٩ يوليو، سحب العرض الأمريكى لتمويل السد العالى (٥٤ مليون دولار) بحجة أن الاقتصاد

المصرى لا يستطيع تحمل عبء إقامة المشروع، وبعد ٢٤ ساعة أعلن إيدن أن بريطانيا بدورها، قد سحبت مساهمتها (١٦ مليون دولار) ثم تبعه البنك الدولى (٢٠٠ مليون دولار)[٦٥]

والمثير، أن دالاس لم يستشر أحداً على الإطلاق، قبل إعلانه القرار[٦٦] بهدف إحداث المفاجأة. ومما قاله إيدن، رئيس الوزارة البريطانية، فى هذا الصدد "لقد أبلغنا دالاس بالقرار دون تشاور مسبق .. ولقد أسفنا لهذا الإجراء الذى تم بهذه الصورة المفاجئة، دون أن تتاح لنا الفرصة لنقده أو مناقشته[٦٧]

وكان بإمكان دالاس أن يسحب العرض بطريقة لا تسيئ إلى سمعة مصر واقتصادها ولكنه، حسب تعبير هيكل، تعمد أن تكون الطريقة التى يتم بها سحب العرض الأمريكى "صفعة مدوية وعلنية على وجه نظام الحكم القائم فى مصر، حتى تضيع هيبته ويتلاشى اعتباره فى المنطقة، وأن تكون ضربة اقتصادية توجه إلى هذا النظام، وتقرر مصيره المحتوم، الذى لا مهرب منه ولا فكاك"[٦٨] وهو المطلوب طبقاً لتوجيهات الرئيس إيزنهاور، وتنفيذاً للخطة Omega. والأخطر من ذلك، أن دالاس تعمد الإعلان عن قراره بينما كان عبد الناصر مجتمعاً مع الرئيس اليوغوسلافى "تيتو" ورئيس الوزارة الهندية "نهرو" فى جزيرة "بريونى" مما جعله "يشعر أن كرامته قد جرحت" على حد تعبير إيدن[٦٩]

وهكذا كان قرار دالاس بمثابة التحدى، وأخذ العالم كله يتساءل، وقتها، عن كيفية الاستجابة المصرية له، ولم يتأخر الرد كثيراً على هذا التساؤل، إذ أعلن الرئيس جمال عبد الناصر من الإسكندرية، يوم ٢٦ يوليو، قراره التاريخى "بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس لتصبح شركة مساهمة مصرية، وعودة ملكيتها

ومسئولية إدارتها إلى السيادة المصرية، لكى يستخدم عائدها، الذى يبلغ ٣٥ مليــون سنوياً (ما يعادل ١٠٠ مليون دولار) فى بناء السد[٧٠] .

والواقع، فإن قرار الرئيس لم يكن المفاجأة الوحيدة، بل أن المفاجــأة الأخــرى، التى أثارت غيظ "هوفر" Hoover، نائب وزير الخارجية، ورئيسه إيزنهاور "أن عبد الناصر قد أحكم سيطرته على الشركة أثناء إلقائه لخطابه".

Nasser had taken control of Canal Company of the time of his speech [٧١]

وفى تعليقه على قرار التأميم، قال "أنتونى نانتج" وزير الدولة للشئون الخارجية البريطانية: "إن دالاس لم يفطن إلى أن مبدأ الكرامة هو الموضوع الأساسى فــى تفكير عبد الناصر"[٧٢] . أما رئيس المخابرات الأمريكية، فإنه، وبعــد رصــده لتداعيات القرار محلياً، وإقليمياً ودولياً، خلص إلى "أن مكانة عبد الناصر قــد ارتفعت إلى درجة غير مسبوقة، خاصة بين الشعوب العربية، ومجموعــة دول باندونج"[٧٣]

والواقع، فإن تأييد الشعوب العربية للرئيس عبد الناصــر، كــان "صــاخباً وعاصفاً"[٧٤] الأمر الذى جعل إيزنهاور يصف قرار التأميم "بأنه التطور الأكثر تعقيداً بالنسبة للعالم الغربى"[٧٥] . ولهذا، فقد عقد ثلاث اجتماعات فــى البيــت الأبيض يومى ٢٧، ٢٨ يوليو، لمحاصرة تداعيات القرار ولتقدير مدى تــأثيره على معدلات تدفق البترول[٧٦] ولعلها المناسبة الأولى التى أثبتت عملياً أن قناة السويس هى جزء من مجمع بترول الشرق الأوسط[٧٧] الذى يمر ثلثاه عبرها[٧٨]

أما وزير الخارجية "دالاس" الذى هدم المعبد على الغرب، فقد نبه مجلــس الأمن القومى رقم 299d إلى "أن قرار التأميم الذى اتخذه عبد الناصر ليس عملاً مفرداً، ولكنه جزء من مخطط أشار إليه فى كتاب ألفه (يقصد فلسفة الثورة) بأن

مصادر القوة العربية تتكون من: الوحدة العربية، والموقع الاستراتيجى للعالم العربى، والبترول، مؤكداً على أن هدف عبد الناصر النهائى هو "بناء قوة عربية تقف على قدم المساواة أمام القوة الغربية، وأن استيلاءه على القناة ما هو إلا الخطوة الأولى نحو تحقيق ذلك الهدف"[٧٩]

وكان شقيقه، رئيس المخابرات، قد ردد نفس النغمة فى اجتماع عقده الرئيس، فى البيت الأبيض، قائلاً: "إن عبد الناصر ينوى تأميم صناعة البترول فى العالم العربى، وإنهاء سيطرة الغرب على خطوط الأنابيب التى تنقل البترول من المملكة السعودية، والعراق إلى البحر الأبيض المتوسط، وكذلك إضعاف مركز شركات البترول العاملة هناك بخلق حالة من الفوضى والاضطرابات بين عمالها بواسطة العناصر المعادية للغرب" وطالب بسرعة التحرك قائلاً: "علينا أن نفكر جدياً فيما يجب عمله لحماية البترول فى المملكة السعودية، والكويت". ورداً على سؤال الرئيس، قال الأدميرال "بوركى" Burke، رئيس عمليات البحرية، وعضو هيئة الأركان المشتركة، والذى أبدى تحمساً شديداً لسحق "عبد الناصر وفصل المصريين عن العرب والمسلمين"[٨٠] قال: "إن هناك أربع مدمرات فى الخليج الفارسى (العربى) على أهبة الاستعداد"[٨١] . أما رئيس هيئة الأركان المشتركة، الجنرال "ماكسويل تايلور" Maxwell Taylor، الذى حذر من "أن نجاح عبد الناصر قد يغرى دولاً أخرى بتأميم المصالح، والشركات الأمريكية الغربية" فقد هدد هو الآخر، باستخدام القوة العسكرية لاسترداد القناة[٨٢]

وبالفعل فلقد أصدر الرئيس الأمريكي أمراً يوم ١٥ أغسطس إلى الجنرال "بونى" Boone قائد منطقة شرق الأطلنطى والبحر المتوسط، بالاستعداد لنقل لواء من القوات الخاصة RCT[٨٣] من أوروبا إلى قاعدة الظهران[٨٤] مع أن الوحدات،

والتشكيلات الأمريكية الموجودة فى تلك القاعدة كانت قادرة، بكل ما تملكه من أسلحة تقليدية وغير تقليدية، على الدفاع عن نفسها، وعما حولها من آبار ومنشآت بترولية(٨٥) ، كما طلب وزير الخارجية من سفيره فى جدة إبلاغ الحكومة السعودية بموافقته على رفع إيجار قاعدة الظهران، وتزويدها ببعض الأسلحة(٨٦) التى طالما ألحت الحكومة على تزويدها بها قبل التأميم.

ولا يحتاج الأمر إلى نظرة خبير ليدرك أن الدافع لاتخاذ مثل تلك الإجراءات هو التصدى للقوى الوطنية، خاصة بعد أن حذر ماريون بوجز" Marion Boggs، نائب سكرتير مجلس الأمن القومى من "أن ظهور عبد الناصر كمنتصر على الغرب من شأنه أن يفقد الغرب هيبته، وأن يضعف وضع الحكومات الموالية للولايات المتحدة، مطالباً بتقديم المساعدات الأكثر فاعلية لمحاصرة مد القومية العربية"(٨٧) . وعلى هذا، قام الجنرال "توينتج" Twining أحد أعضاء هيئة الأركان المشتركة بإرسال كتيبة مشاة بحرية إلى قاعدة الظهران، كما وضعت ترتيبات أخرى لنقل بعض القوات من جزيرة "أوكيناوا" مخافة حدوث انقلاب فى المملكة السعودية(٨٨) التى تعالت فيها أصوات العناصر الوطنية مطالبة بإعادة النظر فى كافة الاتفاقيات مع الشركة المذكورة(٨٩) بل أن هناك عناصر أخرى طالبت الحكومة بأن تحذو حذو مصر، بأن تؤمم الشركة، وكذلك مناجم الذهب، وجميع موارد الشعب(٩٠)

وفى ذلك، قال الشاعر إبراهيم الفلالى:(٩١)

سر يا جمال وأمم ما تشاء لنـــا | فالعرب جندك من فيضى إلى حلـــب
خلص لنا القوت من أيد ملوثـــة | أمم لنا (الزيت) أمم (منجم الذهب)[٩٢]
أنقذ لنا الكنز من قوم به لعبـــوا | وضاع معظمه فـــى شـــهوة اللعـــب

وفى سياق متصل، قال عبد الله عبد الجبار، رئـــيس البعثـــات العلميـــة السعودية فى القاهرة آنذاك، إنه بعد جولة قام بها فى منطقة البترول، وجـــد أن القصائد الوطنية الملتهبة تنتشر بين عمال الشركة، منها هذه القصيدة التى وجهها أحدهم لرئيس شركة أرامكو:[٩٣]

إلى حضرة سمو الـــشيخ "ديفـــز" | وآلائـــــه وكـــــل التابعينـــــا
نـــذكركم بـــأن لنـــا حقوقـــاً | ولـــو كنـــتم لهـــا مـــستنكرينا
تلومنـــا ولجنتنـــا جميعـــاً | لأنـــا بـــالحقوق مطالبينـــا
وأمـــا الغاصـــبون فـــلا يلامـــوا | لأنهـــم لحقـــى غاصـــبينا

أما عبد الله الطريقى (خريج كلية العلوم جامعة القاهرة) وأول وزيـــر للبتـــرول، والذى كان يشغل وقتها منصب "مدير عام إدارة شئون الزيت والمعادن"[٩٤] فقد أشـــاد بقرار الرئيس جمال عبد الناصر "الذى أثبت للعالم بأن المصريين مـــصممون علـــى استرجاع حقوقهم المغتصبة" مضيفاً أن قرار تأميم شركة قنـــاة الـــسويس "قـــد هـــز الأوساط البترولية فى العالم بشدة"[٩٥] . أما بالنسبة لموقفه من شركة أرامكو فإنـــه أشار إليها بقوله: "لقد عقدت اتفاقيات البترول بواسطة خبرائهـــا الأقويـــاء مـــع آخرين ضعفاء، لم تكن لديهم الخبرة لتقدير قيمة مـــا ســـيمنحون"[٩٦] . واتهـــم الشركة "بأنها تتحكم فى مقدرات الشعب السعودى وتحقق من الثروات الوطنيـــة

أرباحاً لا مثيل لها (٢٢٤%، بينما متوسط أرباح الشركات فى أوروبا ١٠%، وفى أمريكا ٧%) تصدرها خارج البلاد فى محاولات لاكتشاف رواسب بترولية فى مناطق أخرى من العالم، لتصبح هذه المناطق منافسة للبلاد السعودية، وبالتالى تضعف القوة التفاوضية لها، وترغمها على الموافقة على تخفيض الأسعار"[٩٧].

وقد خلص الطريقى، الذى وُصِف بأنه "سابق لعصره"[٩٨] إلى "أن إصلاح الحالة لن يتم إلا بتأميم إنتاج النفط، وهو تصرف قانونى، ومنطقى، ومشروع، ولا يحق لأحد أن يجادلنا فيه، حتى نضع مصيرنا فى أيدينا"[٩٩]. وبتعبير السفير الأمريكى "فإن الطريقى كان يطالب بتعريب أو تأميم البترول السعودى" Arabization or Nationlization oil in Saudi Arabia[١٠٠]

أما فيما يتعلق بالملك، والأمراء السعوديين، فإن موقفهم كان مختلفاً تماماً، إذ أنهم ينظرون إلى رجال الشركة، وموظفيها على أنهم شركاء[١٠١] وأن كل ما يهمهم هو الحصول على عوائد البترول "التى يعتمدون عليها اعتماداً خطيراً critical dependence" على حد تعبير إحدى الوثائق[١٠٢] وطبقاً لتقرير صادر عن الخارجية الأمريكية بتاريخ ٢٥ يوليو ١٩٥٦ "فإن الاقتصاد السعودى يعتمد على عوائد النفط بنسبة ٨٥%"[١٠٣] والأخطر من ذلك أن الأسرة السعودية الحاكمة، ومستشاريها يستهلكون أكثر من ٥٠% من تلك العوائد[١٠٤] وهذا ما شهد به الأمير طلال، شقيق الملك، والذى كان يشغل منصب وزارة المالية وقتها[١٠٥]

وكان طبيعياً أن يستبد القلق بالملك بعد صدور قرار التأميم، وتأييد الرأى العام له، وذلك طبقاً لما جاء فى برقية كاريجان Carrigan القنصل الأمريكى فى الظهران[١٠٦] . كما أن الصحافة الأمريكية، من ناحيتها، أخذت تتحدث، فى

تلك الفترة عن "مطامع مصر الاستعمارية" كما زُيّفت على مصلحة الاستعلامات المصرية وثيقة تبدو فيها مصر وكأنها تطالب بتأميم البترول العربى كله[١٠٧]

وربما كانت تلك العوامل مجتمعة هى التى جعلت الملك يقول للقنصل الأمريكى، فى حديث خاص معه: "إنه، وبالرغم من انتهاء اتفاقية قاعدة الظهران إلا أنه لم يطالبنا بإخلائها، لأن ذلك لن يكون فى مصلحتى ولا فى مصلحتكم" وأنه، كما أضاف القنصل "فى حاجة إلى المساعدة فى هذا الوقت الحرج"[١٠٨]

وفى الوقت ذاته، توجه السفير السعودى فى واشنطون، عبد الله الخيال، إلى وزارة الخارجية كى يوضح لها "ما يعانيه الملك من قلق شديد" مؤكداً على "رغبة الملك فى التعاون مع الولايات المتحدة لمواجهة هذا الموقف الخطير" ثم سأل الخيال "عما إذا كان باستطاعة الملك إرسال وفد برئاسة أمير سعودى فوراً إلى واشنطون " إلا أن المستر "هوفر" لم يحبذ القيام بمثل هذه الزيارة فى هذا التوقيت تحسباً للتأويلات الصحفية" واقترح بدلاً من ذلك إرسال وفد أمريكى إلى الرياض برئاسة أندرسون Robert Anderson المبعوث الشخصى للرئيس أيزنهاور[١٠٩] الذى توجه إلى العاصمة السعودية تحت ستار كثيف من السرية حتى لا يعلم الرئيس عبد الناصر عنه شيئاً[١١٠]

ولهذا، سلك طريقاً غير مباشر، فاتجه أولاً إلى نيويورك، يوم ٢١ أغسطس، ومنها إلى لندن، فى نفس اليوم، ثم توقف فى روما يوم ٢٢، ومنها إلى قاعدة الظهران، التى وصلها صباح يوم ٢٣[١١١] حيث كان فى استقباله "تيرى ديوس" على أنه أحد ضيوف شركة أرامكو[١١٢] مما يؤكد على الدور السياسى الذى تلعبه تلك الشركة فى علاقات الولايات المتحدة بالمملكة العربية السعودية، بل والسياسة الأمريكية فى المنطقة بوجه عام. وكما تقول إحدى الوثائق، فإن "تيرى ديوس" هو

الذى قام بتأمين سفر "أندرسون" من قاعدة الظهران إلى الرياض، حيث أقام، ومن معه فى قصر الملك[١١٣] إمعاناً فى السرية.

وعلى حسب السيناريو الذى أعده ديوس، فإن أندرسون حاول أن يدخل فى روع الملك أن قرار التأميم الذى اتخذه عبد الناصر سوف يعود بكارثة اقتصادية تحيق بالمملكة السعودية، وذلك بالعزف على المثل الشعبى النجدى القائل: "قطع الورايد ولا قطع العوايد" أو "قطع الخشوم ولا قطع الرسوم"[١١٤]. وانتهز فرصة "حالة القلق الشديد التى كانت تستبد بالملك" كما ذكر هو[١١٥] كى يؤكد له: "أن ما فعله عبد الناصر قد يدفع الدول الغربية للبحث عن بديل للطاقة أفضل وأرخص من البترول السعودى تحسباً لارتباك حركة الملاحة فى القنال، وما قد يترتب على ذلك من نشوب حرب فى المنطقة"[١١٦]

ويقول "إيفلاند" Eveland رجل المخابرات الأمريكى المعروف، والذى كان يرافق أندرسون: "ما أن سمع الملك هذا الكلام حتى أصيب بالفزع الشديد، ثم راح يستفسر عن ماهية تلك البدائل وكان أندرسون جاهزاً بالرد، فقال على الفور: "الطاقة الذرية"[١١٧] ، وصدق الملك .. بدليل إشادة الرئيس أيزنهاور بما حققه مبعوثه من نجاح فى الرياض[١١٨]

وغني عن القول، أن الفضل لا يعود لذكائه ولكن لقصور الإدراك لدى كل من تعامل معهم فى قصر الناصرية، حيث ظهر مستشارو الملك وكأنهم يعملون لصالح الولايات المتحدة ضد مصالح مصر، ومصالح الأمة العربية، بوجه عام. من ذلك، سفر عبد الرحمن عزام إلى لندن، للقاء "هوفر" ليزف إليه البشرى "بأن الملك سعود بات يشعر باستياء شديد تجاه عبد الناصر، ولكنه متردد فى مهاجمته

علانية فى الوقت الراهن"، وعلق "هوفر" على ذلك بقوله لوزير الخارجية: "إن الموقف قد يتمخض عن حدوث القطيعة التى طالما انتظرناها".

The situation may ultimately prove to be the break we have looking for [١١٩]

وليس من تفسير لما حدث سوى أن عبد الرحمن عزام، أمين عام الجامعة العربية الأسبق والذى أصبح أحد مستشارى الملك سعود، بعد خروجه من مصر فى أعقاب ثورة ٢٣ يوليو[١٢٠] والذى حامت حوله الشبهات فى أحداث أكتوبر ١٩٥٤[١٢١] والذى وصف بأنه "رجل أمريكانى"[١٢٢] كان طرفاً مشاركاً فى تلغيم علاقات الملك سعود بالرئيس جمال عبد الناصر.

ومن ذلك أيضاً، قيام أندرسون بتكليف يوسف ياسين بالسفر إلى القاهرة لإقناع الرئيس عبد الناصر بقبول فكرة "الإشراف الدولى على القناة". وحتى لا يشعر عبد الناصر بأنها محاولة أمريكية، فقد طلب من يوسف ياسين ألا ينكر عن مهمته شيئاً[١٢٣] وأن يفاتح عبد الناصر بهذه الصيغة: "إننا، وبعد اتصالنا بالولايات المتحدة عبر قنواتنا الخاصة تبين لنا أنها تعمل بكل إخلاص لإيجاد تسوية سلمية، وأن المقترحات التى قدمتها فى مؤتمر لندن تدل على مدى حرصها على تحقيق مصلحة مصر، ومصلحة المنطقة، بل والعالم بأسره"[١٢٤].

وكان السفير الأمريكى فى جدة قد مهد لمهمة يوسف ياسين، بأن أجرى اتصالاً بنظيره فى القاهرة ليخبره بما تم الاتفاق عليه، وعن طبيعة مهمة المذكور، الذى سيقوم بمراجعته قبل لقائه مع عبد الناصر"[١٢٥]. وبالفعل، وصل يوسف ياسين إلى القاهرة، كمبعوث أمريكى يرتدى الملابس السعودية، يوم ٢٦ أغسطس[١٢٦] (بينما كان أندرسون فى الرياض) والتقى بالسفير الأمريكى بايرود، ثم ذهب

لمقابلة الرئيس عبد الناصر، وعاد إلى السفير ثانية، ليروى له ما دار بينه وبين الرئيس وكيف "أنه حاول إقناعه باستقبال "اللجنة الخماسية" بحرارة وذهن متفتح، وأن يعمل على تهدئة الوضع بأن يطلب من الصحافة والإذاعة المصرية الكف عن مهاجمة الغرب"[١٢٧].

وفى حديثه مع أحد موظفى السفارة الأمريكية، يوم الأول من سبتمبر، قال الملك سعود، مفاخراً: "إنه لولا يوسف ياسين لما قبل جمال عبد الناصر استقبال لجنة منزيس، ولما استجاب لوقف أجهزة الإعلام المصرية من الاستمرار فى مهاجمة الولايات المتحدة، أما عن رفض عبد الناصر لاقتراح الإشراف الدولى على قناة السويس، فإنه –الملك– سيواصل مساعيه للتأثير عليه[١٢٨]، إلا أن الأسلوب الذى كتب به الملك برقيته إلى الرئيس عبد الناصر، يوم ٧ سبتمبر بواسطة سفيره فى القاهرة[١٢٩] قد أثار قلقه لدرجة أنه قترح عليه ضرورة عقد اجتماع بينهما[١٣٠].

وتعمد الملك، فى هذه المرة، اختيار مدينة "الدمام" فى المنطقة الشرقية، لتكون مكاناً للإجتماع، بعيداً عن المدن الكبرى كجدة، والرياض، أو غيرهما من مواقع التجمعات السكانية الكبيرة، حتى لا تتحول زيارة جمال عبد الناصر إلى مظاهرة جماهيرية كبرى، فى مناخ الحماسة والتعبئة المسيطرة، وقتها، على العالم العربى كله[١٣١] ومع ذلك، فلقد فجر "وصول الرئيس جمال عبد الناصر، يوم ٢٢ سبتمبر طوفاناً شعبياً لم تشاهد له الجزيرة العربية مثيلاً[١٣٢]، فلقد زحف إلى الدمام ما يربو على ١٠٠,٠٠٠ من سكان المنطقة[١٣٣] للترحيب برجل أصبح رمزاً لنضال أمة بأسرها[١٣٤].

وأحس جمال عبد الناصر بالحرج، فقد وقعت مشاهد إنسانية يمكن أن تؤدى إلـــى حساسيات إنسانية لا سبيل إلى دفعها .. ففى لحظة من اللحظات كان على الملك سعود، وولى عهده الأمير فيصل أن يشتركا مع الحرس بأيديهما فى صد الجماهير التى كانت تتدفع كالسيل، تريد أن تلمس جمال عبد الناصر شخصياً[١٣٥] . وحسب شهود عيان، فإن الجماهير همت بحمل السيارة لولا قوات الأمن التى عجزت عن تفـــريقهم، الأمر الذى أجبر الملك على نقل المحادثات إلى داخل قصره فى الرياض[١٣٦]

وليس من المستبعد أن يكون "تيرى ديوس" نائب رئيس شـــركة أرامكـــو "عدو عبد الناصر اللدود"[١٣٧] هو الذى طلب من الملك الـــذهاب بـــضيفه إلـــى الرياض كحل لإنهاء تلك المظاهرة الشعبية الضخمة التى كان بإمكانه أن يسمع هتافاتها المدوية من مقره فى الظهران[١٣٨]

ومن ناحيته، فإن الرئيس عبد الناصر، وقد فطن إلى ذلـــك، راح يقـــول للملك خلال مباحثاته معه: "إنه يعرف، مع الأسف، أن هناك بعض الجهات فـــى السعودية لها مصالح مع الولايات المتحدة وأنها تستمع كثيراً إلى رجال من أمثال "تيرى ديوس" ومن أمثال "كيرمت روزفلت" الذى نعرفه جيداً فى مصر".

موضحاً "أن الهدف الثابت للولايات المتحدة هـــو الوقيعـــة بـــين مـــصر والسعودية، وبينه وبين الملك" مقترحاً "ضرورة إيجاد تنسيق أكبر بينـــه وبـــين الملك، وتشاور مبكر، فى كل الأمور، ومصارحة مستمرة تكـــشف محـــاولات الوقيعة أول بأول".

وبعد تلعثم، وعبارات تبدأ ثم لا تكتمل، أو يستهلها الملك سعود، ويستكملها الأمير فيصل، إستطاع جمال عبد الناصر أن يفهم، بطريق غير مباشر أحيانـــاً، والاستنتاج أحياناً أخرى، أن الملك عاتب "لأنه فوجئ بقرار التأميم، وكان مـــن

حقه أن يعرف مسبقاً قبل إعلان القرار، وأنه قلق من أن تأميم قناة السويس قد يطرح فى أذهان الناس فكرة تأميم البترول، وهذا فوق طاقتنا واحتمالنا، وأن عملية التأميم وما صاحبها من التعبئة النفسية فى العالم العربى قد خلقت جواً مشحوناً لدى العامة والبسطاء من الناس وهذا مصدر خطر"(١٣٩)

والحقيقة فإن كل محاولات الرئيس عبد الناصر التى بذلها لتبديد مخاوف الملك وشكوكه لم تجد نفعاً، بل إن زيارته زادت الطين بلة، ويكفى القول أن الصحافة الأمريكية استغلت الزيارة لتعميق الحقد والنقمة لدى الملك وأسرته الحاكمة ضده، إذ أصرت على أن تبرز "أن الهتاف كله كان لجمال عبد الناصر، وأن التصفيق كان من أجله، وأن اتجاه الجماهير كان إليه"(١٤٠)

ثم لم تنس الصحف الأمريكية أن تقول: "أن الملك سعود ضايقه أن يشعر أن زائراً له قد حظى من اهتمام شعبه بأكثر مما يحظى هو .. وأن جلالته رأى فيما حدث فى الدمام بادرة خطر"(١٤١)

والواقع، فإن ما رآه الملك، ولمسه بنفسه من شأنه أن يجعله يصدق تلك الدسائس المسمومة.

ومما ضاعف من إحساسه، بالمرارة، أن الكاريزما التى اكتسبها عبد الناصر، حسب تصوره، قد أجهضت المشروع الذى أعده الرئيس الأمريكى "لبنائه" كى يحل محله.

والواقع، فإنها ليست المرة الأولى التى يبدد فيها الرئيس عبد الناصر، أحلام الملك، إذ أنه، وكما تذكر إحدى الوثائق، أن الدوائر البريطانية قد رشحت الملك سعود فى أواخر فبراير ١٩٥٤ ليكون ملكاً على مصر(١٤٢) .

وبالفعل، فلقد حضر الملك إليها يوم ٢٠ مارس، في نفس العام، مصطحباً معه ١٩ أمير سعودى ومكث بها حتى نهاية ذلك الشهر، منتظراً ما سوف تسفر عنه الأحداث، التى انتهت بانتصار منافسه[١٤٣]

ومع ذلك، فإن الرئيس عبد الناصر، الذى كان يجهل حقيقة هذا الترشيح، لم يفقد الثقة بالملك سعود[١٤٤] على حين أن سعود لم يكن يبادله نفس الثقة، وإنما كان يتظاهر بصداقته له[١٤٥] . وأكثر من هذا أن سعود كان يحاول أن يظهر أمام شعبه بمظهر "الحليف لعبد الناصر، الزعيم العنيد الذى يقاوم الاستعمار"[١٤٦] شأنه فى ذلك شأن باقى الحكام ممن قال فيهم دالاس: "إنهم يدركون أن عبد الناصر شخص خطير جداً ولكنهم لا يجرأون على الإعلان عن آرائهم فيه"[١٤٧] بل أنهم كانوا يتظاهرون بتأييده مسايرة للتيار الشعبى الجارف.

وفى هذا الإطار، حرص الملك، بعد التأميم، على أن تنشر وسائل الإعلام برقيته إلى الرئيس جمال عبد الناصر، والتى قال فيها لسفيره فى القاهرة: "أبلغوا الرئيس تأييدنا الكامل للخطوة التى خطاها فى تأميم شركة قناة السويس .. نحن واثقون أن الرئيس يعرف موقفنا واتجاهنا وتأييدنا المطلق لـه"[١٤٨] . وحينما تعرضت مصر للعدوان يوم ٢٩ أكتوبر، سارع الملك إلى إعلان الحرب على الدول المعتدية فى الإذاعة، بلهجة حماسية، لكن الحصيلة لا شيء، من الناحية العملية.

ومصداق ذلك، أنه أصدر بياناً رسمياً يوم ٤ نوفمبر، أعلن فيه "التعبئة العامة، ووضع الجيش على أهبة الاستعداد للقيام بواجبه فى دفع العدوان، وأنه قد أبلغ ذلك إلى الرئيس جمال عبد الناصر"[١٤٩] الذى كرر، بدوره، على مسامع الملايين، فى مصر، وفى المملكة السعودية، وفى البلاد العربية وباقى أقطار

العالم كله، ذلك البيان، فى خطابه الذى ألقاه يوم ٩ نوفمبر قائلاً: "إن الملك سعود اتصل بى تليفونياً، وقال لى: إن جيش المملكة السعودية تحت تصرفنا، وأموال المملكة السعودية تحت تصرفنا، وأن المملكة السعودية مستعدة لعمل أى شئ نطلبه" مشدداً على "أن الملك سعود يعنى كل كلمة"(١٥٠) .

غير أن الملك، فى حقيقة الأمر، لم يكن يعني ما يقول، لأن المملكة السعودية لم يكن لديها جيش بالمعنى المفهوم، فقد ذكر سفير المملكة فى واشنطون لوزير الخارجية الأمريكى: "إن المملكة السعودية، بالرغم من ثرائها، إلا أنها الأفقر تسليحاً بين كافة أقطار المنطقة"(١٥١) ، وطبقاً لوثيقة أخرى، صادرة عن السفارة البريطانية فى القاهرة "فإن القوات السعودية ليس لها أى شأن يذكر"

The military value of the Saudi Arabian forces is virtually nil.

ولقد تجسد ذلك عملياً، لما أُرسلت القوات السعودية، بناءً على اقتراح الرئيس جمال عبد الناصر(١٥٢) إلى الأردن، حيث وصفها اللواء "على أبو نوار" قائد الجيش "بأنها لا تصلح للقتال". ولهذا فقد اضطر إلى وضعها فى غور الأردن "لأنه لم يكن مستعداً للتضحية بأفرادها فى معارك لا يتكافأون فيها مع العدو من حيث التنظيم والتسليح" على حد تعبيره(١٥٣) .

وهذا الذى ذكره قائد الجيش الأردنى قد أكده الملك سعود بقوله للسفير الأمريكى فى جدة "وادزوارث" Wadsworth: "إنى أشعر بالخجل من حالة جيشى بالمقارنة بجيوش البلاد العربية والإسلامية الأخرى".

I am ashamed of how my army compares with those of other Arab and Moslem countries" (١٥٤)

وحتى لو كان الملك يمتلك جيشاً، فإنه لم يكن فى نيته مساعدة عبـد الناصـر عسكرياً كما نقل عنه "عبد المنعم الرفاعى"[١٥٥] لوزير الخارجيـة دالاس يـوم ٢٨ سبتمبر"[١٥٦] .

وكما تتحدث الوقائع، فإن المتطوعين السعوديين، لما ذهبوا إلى دار السفارة المصرية فى جدة، لإعلان استعدادهم للقتال مع إخوانهم المـصريين[١٥٧] فـإن السلطات السعودية، منعاً للحرج وتخفيفاً لضغط الجماهير المتصاعد، سمحت لهم بالتطوع، ثم ما لبثت أن أصدرت توجيهاتها بتضييق القبول، وإشغال المقبـولين بأمور ليس لها علاقة بما جاءوا من أجله[١٥٨] .

وهنا نتساءل، كيف خُفيت على الرئيس عبد الناصر تلك الحقائق، خاصة وأن هناك بعثة عسكرية مصرية برئاسة العقيد أمين عمر توزع ضباطها علـى الكلية الحربية فى الرياض، وكل مدارس أسلحة الجيش السعودى فى الطائف؟ ثم أن عبد الحكيم عامر كان على علم بحالة الجيش السعودى[١٥٩] . ومن ناحيـة ثالثة، فإن الملك سعود، لم يشترك فى الاتفاقية الثلاثية التى وقعت فى عمان يوم ٢٤ أكتوبر ١٩٥٦، بين الأردن، ومصر، وسوريا، والتى بمقتضاها تشكلت قيادة موحدة لتنسيق الخطط بين الدول الثلاث[١٦٠] .

وبصرف النظر عن دوافع الرئيس عبد الناصر، إلا أنه بإعلانه أن الملك سعود "يعنى كل كلمة" قد أعطى انطباعاً زائفاً عن حقيقة الموقـف الـسعودى، وجعل الجماهير العربية تصدق ما قيل عن المملكة السعودية "بأنها وقفـت فـى حرب ١٩٥٦ إلى جانب مصر وقفة تاريخية حيث وضعت مطاراتهـا المدنيـة والعسكرية تحت تصرف مصر، وأصدرت أوامرها لشركة أرامكو بوقف تصدير البترول لفرنسا وبريطانيا"[١٦١]

ولقد عقب الكاتب البريطانى "لاسى" Lacey على قرار وقف شحن البترول بقوله: "بأن الملك سعود اضطر لإعلان ذلك حماية لخط "التابلاين" الذى ينقل البترول السعودى إلى البحر المتوسط، عبر سوريا، التى نُسف فيها خط أنابيب البترول العراقى[١٦٢] التابع لشركة IPC يوم ٣ نوفمبر[١٦٣] بواسطة مجموعة من الوطنيين السوريين بتوجيه من المقدم "عبد الحميد السراج" رئيس الشعبة الثانية[١٦٤] .

ولإدراك مدى خطورة الموقف بالنسبة لكافة الأطراف، فلابد من الإشارة إلى أن قناة السويس قد سُدت تماماً وتعطلت حركة الملاحة فيها منذ الأول من نوفمبر، بسبب تدمير الطائرات البريطانية لكوبرى "الفردان" وإغراقها لبعض السفن وسط المجرى الملاحى[١٦٥] مما أثار الرئيس أيزنهاور، لخشيته من فشل "خطة الطوارئ" التى يعتمد نجاحها على الإمداد بما مقداره ٨٠٠,٠٠٠ برميل يومياً، وكان آندرسون أكثر تحديداً بقوله: "إن العرب لو غضبوا منا فسوف نفقد ما تحصل عليه من بترول التابلاين الخاص بشركة أرامكو"[١٦٦]

والعرب، الذين أشار إليهم آندرسون، ربما كانوا سوريين، أو أردنيين، أو عمال شركة أرامكو من السعوديين، الذين شكلوا "لجنة" بمثابة نقابة، تمكنت من تنظيم إضراب عام فى شهر يوليو وسط تأييد سكان المنطقة الشرقية ضد الشركة[١٦٧] التى ضاعفت من ضخ بترولها عبر أنابيب التابلاين لدرجة أن البترول قد تسرب منها فى بعض الأراضى السورية[١٦٨] .

وكما لاحظت جريدة الجمهورية، فى حينه "فإن السفير السعودى فى واشنطون، وبعد اجتماع دام ٤٥ دقيقة مع راونترى مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط صرح: "بأنه لن تذهب قطرة من البترول السعودى إلى

بريطانيا أو فرنسا"[١٦٩] . ولو أن ذلك كان بإيعاز من الحكومة الأمريكية كما صرح بذلك الدكتور محمود فوزى[١٧٠] ، ذلك أن استمرار شحن البترول إلى أوروبا، والكلام على لسان روبرت أندرسون أمام مجلس الأمن القومى رقم ٣٠٣ "سوف يحمل الرأى العام العربى على الاعتقاد بأن الولايات المتحدة تشجع العدوان على مصر"[١٧١] .

ولتأكيد الدور الأمريكى، فإنا نشير إلى هذه البرقية التى بعث بها القنصل الأمريكى فى الظهران، للخارجية، بتاريخ ٢٦ نوفمبر، والتى ذكر فيها "أن الملك سعود، ترك للولايات المتحدة قرار استئناف شحن البترول، بعد أن عبّر عن ثقته الكبيرة فى حكومتها"[١٧٢] . ومما قاله "شيرمان آدامز" Shrman Adams، مساعد الرئيس أيزنهاور أنه حينما بحث هوفر مسألة تزويد بريطانيا بالبترول السعودى، يوم ٢٩ نوفمبر، وأبدى الأدميرال "رادفورد" Radford رئيس هيئة الأركان المشتركة، اعتراضه، مخافة أن يثير هذا الإجراء غضب العرب طمأنه "بأن الملك سعود لن يعترض على ذلك"[١٧٣] .

ويمكن القول بيقين، أن قرار وقف شحن البترول، إلى كل من بريطانيا وفرنسا لم يكن فى الحقيقة، من أجل مصر، وكذلك الحال بالنسبة لقرار قطع العلاقات الدبلوماسية، الذى جاء متسقاً مع موقف الولايات المتحدة التى أدانت العدوان، لم يكن بدافع الحرص على مصر، وإنما لأنها كانت لا تريد أن تحقق كسباً للإنجليز، بل أرادت أن تحل مكانهم فى الشرق الأوسط[١٧٤] . ثم أن الأمير فيصل الذى أعلن قرار قطع العلاقات، كان يعارض لجوء الطائرات المصرية إلى المطارات السعودية، طبقاً لاعتراف أخيه الملك سعود[١٧٥] .

وحسب سير الأحداث، فإن قطع العلاقات الدبلوماسية مع لندن، كان بمثابة انتقام منها لاعتداء قواتها على البريمى، واحتلالها[١٧٦] وهو ذات السبب الذى دفع الأمراء السعوديين إلى التوجه إلى الكلية الحربية فى الرياض من أجل التدريب العسكرى، أثناء العدوان، بطريقة استعراضية وتعمدهم الظهور بملابس الميدان (الأفرول) لإيهام الناس هناك بأنهم يستعدون للقتال دفاعاً عن مصر[١٧٧]. لكن أخاهم فيصل بدد هذا الوهم لما أبدى استعداده، فيما بعد، لاستئناف العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا، شريطة تسوية مشكلة البريمى[١٧٨]

وكان عبد الرحمن عزام هو الشخص المكلف بالاتصال بوزارة الخارجية البريطانية وذلك كما ظهر من حديث خاص أجراه مع رئيس المخابرات، آلان دالاس[١٧٩] مما يعنى أن الأمر بات مرهوناً بمشيئة الولايات المتحدة، التى أصبحت بعد وقف إطلاق النار على جبهات القتال (فى نهاية الأسبوع الأول من شهر نوفمبر، وفق قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة[١٨٠]) هى اللاعب الدولى الأساسى فى الساحة[١٨١] التى أشار إليها الرئيس الأمريكى بقوله: "ليس هناك قوة تستطيع الآن الاضطلاع بدور بناء فى منطقة الشرق الأوسط سوى الولايات المتحدة، بعد أن تدهور وضع بريطانيا، وفرنسا، لسنين عديدة قادمة، إن لم يكن إلى الأبد"[١٨٢]

وهكذا، حققت نتائج الحرب، الأهداف الأمريكية، بعد سلسلة من عمليات الخداع المركبة نفذت بإحكام شديد، بعد تنسيق تام ما بين الأخوين: "جون" و"آلان" حيث لم يعد هناك خط يفصل ما بين العمل السياسى والتآمر ضد كافة الأطراف، بدون استثناء.

ولقد كان "عبد الحميد أبو بكر"(١٨٣) على حق لما وصف العدوان على مصر يوم ٢٩ أكتوبر "بأنه عدوان رباعى وليس ثلاثياً"(١٨٤) خلافاً لما هو شـائع، علـى اعتبار أن الولايات المتحدة هى التى كانت وراء كل تلك التطورات والتداعيات(١٨٥) وأنها، بإشعالها فتيل الأزمة(١٨٦) تُعد البادئة بتوجيه الضربة الأولى على حد ما عبّر به الكاتب الصحفى الهندى "كارانجيا"(١٨٧)

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل أن وزير خارجيتهـا، أخـذ يحـرض الإنجليز والفرنسيين بترديده مقولة: "إنه يتعين الآن على الدول الغربية أن تخرج جمال عبد الناصر من الشرق الأوسـط، أو تخـرج هـى مـن هـذا الـشرق الأوسط(١٨٨) ، وقوله: "يجب علينا أن نرغم ناصر على إعادة ما سرقه"(١٨٩) ، أو تكريره لعبارة: "ينبغى علينا البحث عن طريقة تجعل عبد الناصـر يتقيـأ مـا ابتلعه"(١٩٠) سواءً داخل بلاده أو في مؤتمر لندن، حيث قال إيدن: "لقد ظلت هذه العبارة تدوى فى أذنى عدة أشهر .. خاصة وأن دالاس كان يحرص على إبلاغنا بأن الولايات المتحدة لا تستبعد استخدام القوة، بل أن الملحق البحرى كان مـن جانبه يطلب منا معلومات عن استعداداتنا العسكرية"(١٩١) .

ويستشف أيضاً مما كتبه إيدن، فى مذكراته، أن دالاس كان يتعمد تقديم مقترحات للإنجليز يعلم سلفاً أن عبد الناصر سوف يرفضها، لأنها تمس السيادة المصرية، ثم يوظف هذا الرفض لشحنهم ضد عبد الناصر. وضرب إيدن مثلاً على ذلك، بتكوين "هيئة المنتفعين بالقناة" التى اقترحها دالاس، كوسيلة "لحرمان مصر من أى ربح تجنيه من وراء تأميمها القناة، وذلك بأن تُدفع رسوم المرور إلى تلك الهيئة حتى يتم التوصل معها إلى تسوية"(١٩٢)

أما الرئيس أيزنهاور، فقد شارك، هو الآخر، فى عمليات الدس، والتحريض، والخداع. من ذلك، رسالته التى بعث بها مع وزير خارجيته لدى سفره لحضور مؤتمر لندن، والتى أكد فيها لإيدن: "أنه لن يستبعد استخدام القوة قط، وأن استخدامه للقوة قد يصبح ضرورة لحماية الحقوق الدولية".ليس هذا فقط، والكلام لا يزال على لسان إيدن، بل أنه قد تردد فى واشنطون "عن دعوة الكونجرس إلى دورة طارئة لتخويل الرئيس صلاحيات استثنائية"[١٩٣]

وبعيداً عن الاستغراق فى المقولات الرائجة، فإن الدوائر الأمريكية لم تفاجأ بالهجوم يوم ٢٩ أكتوبر[١٩٤] وأن دالاس، كما ذكر صاحب كتاب "فخ السويس" قد أعطى تعهداً بأن يغمض عينيه عما يمكن أن يفعله الإنجليز والفرنسيين"[١٩٥] . وفى هذا الصدد، قال الدكتور أحمد حسين، سفير مصر فى واشنطون آنذاك، فى مذكرة بعث بها إلى الخارجية فى مصر "إن أحد كبار دبلوماسيي السفارة المصرية كان يتحدث مع مسئول من وزارة الخارجية الأمريكية .. وبعد حديث ممتد عن آخر التطورات، قال الدبلوماسى المصرى: لننتظر ما تجئ به الأحداث فى الأسبوع القادم .. وكان رد المسئول الأمريكى عليه هو قوله: "فى الأسبوع القادم لن توجد مصر"[١٩٦] .

وتقول وثيقة صادرة عن الخارجية الأمريكية، ذاتها، أنه حينما قام سلوين لويد بزيارة دالاس، فى مستشفى "والتر ريد" Walter Reed بواشنطون، يوم ١٧ نوفمبر (١٩٥٦) بادره بقوله: "لماذا توقفتم يا سلوين..؟ لماذا لم تواصلوا وتقبضوا على ناصر".

"Sylwyn why did you stop? Why didn't you go through with it and get Nasser?" [١٩٧]

وهذا الاستنكار الذى أبداه دالاس إنما ينطوى على إقرار ضمنى بالمشاركة بوسائل لا تثير السوفيت، أو الرأى العام العربى، ضد الولايات المتحدة، وهو ما كان يحرص عليه دالاس(١٩٨) . من ذلك مثلاً، السماح لأفراد الجيش الأمريكى، من اليهود، بالتطوع للقتال مع الإسرائيليين(١٩٩) ، وإرسال ضابط اتصال أمريكى إلى فرنسا، أثناء العدوان، لبحث إمكانية تزويد سلاح الطيران الفرنسى بطائرات F 84 مع قطع الغيار والمعدات، والأسلحة الخاصة بها(٢٠٠) . وكذلك اتفاق بريطانيا مع الولايات المتحدة على أن يكون أسطولها السادس، فى البحر المتوسط مستعداً للمشاركة إذا حدثت تطورات تدعو لذلك(٢٠١)

لكن الأخطر من كل ذلك، على الإطلاق، هو فرض الحصار الاقتصادى على مصر(٢٠٢) . ووفقاً لشهادة محمود يونس، وهيكل "فإن الولايات المتحدة حاولت تجويع الشعب المصرى بعد أن جمدت أرصدة مصر، وأوقفت تجارتها معها، وتحريضها للدول الغربية على عدم التعامل مع مصر، وبيعها لكميات كبيرة من أقطانها، بأسعار منخفضة، وبعملات البلاد المشترية، وقبلت آجالاً طويلة للسداد، بل وأعطت كميات كبيرة من القطن لبعض البلاد تحت نظام المعونة وقانون الفائض، بل إن الولايات المتحدة رفضت تزويد مصر بالأدوية، رغم تأزم الحالة، كما رفضت بيعها القمح، ولم يكن رصيدها فيه يكفى لسد حاجتها لأكثر من شهر واحد، وحينما طلبت هيئة قناة السويس، من الشركات الأوروبية، فى الخامس من أكتوبر، التقدم بعطاءاتها لإنجاز بعض أجزاء برنامج التحسين، استمراراً للعمليات التى كانت قائمة، فإنها اعتذرت بحجة "غموض الحالة السياسية الراهنة"(٢٠٣) .. أى أن دالاس، ترتيباً على ما سبق، كان يرى

أن ضرب مصر خطأ، وأن الأصوب خنقها وأن استعمال الرصاص تهور، وأن التجويع حتى الموت طريقة عاقلة رزينة[٢٠٤]

وفى هذا السياق، أشارت إحدى الوثائق إلى أن دالاس أفضى لسفيره فى عمان، مالورى Mallory، لما زاره فى مقر الوزارة، يوم ١٠ سبتمبر، بأن هناك خطة أخرى تقوم على أساس إثارة أحقاد القادة العرب ضد عبد الناصر بهدف عزله، وإسقاطه، بعد أن أوجز له خطة الحصار الاقتصادى[٢٠٥] . وحينما التقى بنظيريه: البريطانى، والفرنسى، فى فندق "والدورف استوريا، بمدينة نيويورك، يوم ٥ أكتوبر، راح يدافع عن خطته "بأنها وإن كانت ذات مفعول بطئ، إلا أن نتائجها سوف تكون مؤكدة، خاصة إذا ما اقترنت بالعمل علىٰ عزل عبد الناصر، وخلخلة الصف العربى" مشيراً إلى أن الرئيس أيزنهاور "بحكم خبرته العسكرية، لا يفضل اللجوء إلى القوة العسكرية حتى لا يثير شعوب الشرق الأوسط، وأفريقيا، وآسيا ضد الغرب، ويتحول تأييدها بشكل آلى إلى الاتحاد السوفيتى"[٢٠٦]

وكان الرئيس أيزنهاور، قد أبلغ وجهة نظره لإيدن في رسالتين بعث بهما إليه: يوم ٣١ يوليو، ٢ سبتمبر (١٩٥٦) أكد فيهما "إن أفضل وسيلة للقضاء على عبد الناصر هى استنزافه شيئاً .. فشيئاً حتى يسقط وحده، بلا أى مشاهد درامية، ودون أن تسقط معه مصالحنا فى العالم العربى، المتمثلة فى البترول وأنك باستخدامك القوة العسكرية سوف تجعل منه بطلاً لكل العرب"[٢٠٧] .

وهذا ما تحقق بالفعل، إذ تحولت الشعوب العربية، أثناء العدوان على مصر، إلى كتلة واحدة تمتد من الخليج العربى إلى المحيط الأطلسى، تجمعت حول زعيم واحد، هو لها بمثابة المركز[٢٠٨] وجاء فى تحليل لوكالة رويتر البريطانية:

"أن هزيمة فرنسا وبريطانيا فى هذه المعركة كانت إيذاناً بتدمير نفوذ القوى الأوروبية فى المنطقة، وانتصار القومية العربية"[٢٠٩].

أما "جوزيف السوب" Joseph Al Sop المعلق الأمريكى الشهير، فقد كتب فى صحيفة "نيويورك هيرالد تريبيون "New York Heral Tribune" إن الخطر الذى يواجهنا فى الشرق الأوسط لا يماثل أبداً الخطر الذى أخذنا على عاتقنا القضاء عليه فى أوروبا والشرق الأقصى ففى تجربتينا السابقتين، فى وقت التقدم الشيوعى، كان من الممكن تلخيص الخطر الذى يواجهنا فى كلمة واحدة هى "الشيوعية" ولكن الخطر فى الشرق الأوسط أكثر تعقيداً فى صفاته .. إن مصدر الخطر الحقيقى هو الحركة التى يسيطر عليها ويقودها جمال عبد الناصر، والتى تتخذ اسم القومية العربية[٢١٠] .

وفى ظل حالة القلق المسيطرة، حذر "بن جوريون" السفير الأمريكى فى "تل أبيب" من "أن عبد الناصر قد فتح منطقة الشرق الأوسط وأفريقيا أمام السوفيت وأنه ليس هناك سوى الولايات المتحدة، الآن، للتصدى لمحاولات ناصر التخريبية"[٢١١]. وهى النغمة ذاتها، التى رددها اللورد "سالزبرى" Salisbury، رئيس مجلس اللوردات بقوله: "أن ثمة اتفاق بين عبد الناصر، الذى نصّب نفسه زعيماً على العالم العربى، وبين روسيا على اقتسام منطقة الشرق الأوسط وبترولها"[٢١٢] . وكذلك موليه Molet، رئيس وزراء فرنسا، الذى حذر من "أن عبد الناصر بات يعمل لحساب الاتحاد السوفيتى، ويأتمر بأمره، مما يتوجب على الرئيس أيزنهاور، وعلينا جميعاً التصدى له، وللحيلولة دون خضوع مصر، وسوريا، والمملكة السعودية للسيطرة السوفيتية"[٢١٣] .

أما عن وجهة نظر الحكومة السعودية، فقد عبر عنهـا أحـد الأكـاديميين السعوديين بقوله "إن الرئيس عبد الناصر، الذى ظهر على المسرح السياسى بعد العدوان الثلاثى العربى كممثل للحركة القومية العربية، هو الذى سمح للاتحـاد السوفيتى بالدخول للمنطقة، منذ عقده صفقة الأسلحة التشيكية" وجادل: "بأن تزايد الاهتمام الأمريكى بالمنطقة إنما جاء نتيجة لانحسار النفوذ البريطانى، واحتمال نشوء فراغ سياسى قد يملأه الاتحاد السوفيتى، وهو ما لا تسمح بـه الولايـات المتحدة الأمريكية"[٢١٤]

والملاحظ، أن هذا الكلام لا يختلف كثيراً عما قاله رئيس المخابرات، آلان دالاس، فى تقريره الصادر يوم ١٠ نوفمبر، والذى حذر فيـه مـن "أن انـسحاب الإنجليز، والفرنسيين، والإسرائيليين سوف يترك فراغاً للقوى Vacuum of Power لن يملأه إلا عبد الناصر، الذى لايزال يحتفظ بقوات قوامها ٩٠,٠٠٠ مقاتل، مزودة بمعدات وأسلحة ضخمة، بالإضافة إلى بعض الطائرات التى تم إنقاذها من التدمير" مشيراً إلى "أن عبد الناصر لا يزال يسيطر على الحكومة المصرية وعلى القـوات المسلحة، وأنه يتمتع بنفوذ داخل المملكة السعودية، وسوريا، والأردن عبر القـوات المسلحة لتلك البلدان ومجموعات التخريب[٢١٥] المصرية.

وفى السياق نفسه، طلب وزير الدفاع "ويلسون" Charles Wilson، من الرئيس: "ملء الفراغ السياسى، والعسكرى الذى نجم عن تدهور وضع بريطانيا فى المنطقة، لضمان تدفق بترول الشرق الأوسط إلى أوروبا، ولتقوية الأوضاع الاستراتيجية، بما يتلاءم ومصالح الولايات المتحدة وكذلك إنشاء القيادة العسكرية فـى المنطقـة U.S Command" وانتهى إلى "أن ملء الفراغ سياسياً وعسكرياً سوف يمكننا من "فطـم Wean الدول العربية الصديقة للولايات المتحدة، مثل المملكـة الـسعودية والأردن،

ولبنان بعيداً عن عبد الناصر"[٢١٦] . وما يثير الانتباه، أن "حكومة النفط" التى ترأسها شركة أرامكو، كانت قد طالبت الحكومة الأمريكية، من قبل، بملء الفراغ، وتكثيف الوجود العسكرى الأمريكى فى المنطقة، وإقامة الأحلاف، وهو ما كشفت عن بعض جوانبه صحيفة "صن داى تايمز"[٢١٧]

وهنا لابد من الإشارة إلى أن الاحتكارات البترولية، كما ذكر المعلق الأمريكى "دريو بيرسون" فى صحية "كابيتال تايم" كانت هى التى تسيطر على وزارة الخارجية إبان العدوان الثلاثى، وهى التى كانت تسير سياستها[٢١٨] . فالمستر "هوفر" Hover نائب وزير الخارجية دالاس والذى يدعى "بدبلوماسى البترول" وتربطه "بملوك البترول" صلات عائلية وثيقة، كان، فى نفس الوقت، بالإضافة إلى منصبه، مديراً لشركة "يونيون أويل كومبانى أوف كاليفورنيا Union Oil Company of California المندمجة فى شركة "جولف أويل كوربوريشن" Gulf Oil Corporation التى تنتج ٩٢% من مجموع إنتاجها فى مناطق الشرق الأوسط. وخلفه فى منصبه "كريستيان هيرتر" Herter[٢١٩] الذى يرتبط ارتباطاً مباشراً بشركة "إستاندارد أويل كومبانى أوف نيوجرسى" Standard Oil Company of New Jersey التى تمتلك ٣٠% من أسهم شركة أرامكو[٢٢٠] .

وكان هوفر، بصفة خاصة، هو الذى يتزعم النضال، نيابة عن شركات البترول، لمقاومة الرئيس عبد الناصر، وكتب عدة مذكرات للرئيس أيزنهاور مباشرة، كان أهمها تلك المذكرة التى كتبها يوم ٢١ نوفمبر ١٩٥٦، تحت عنوان: "خطة الولايات المتحدة العاجلة فى الشرق الأوسط" طالب فيها "باستغلال الملك سعود من أجل السيطرة على العناصر الوطنية، أو الموالية للسوفيت حتى

تتجه نحو "الاعتدال" والعمل على تغليب وجهة النظر الأمريكية فى المنطقة، وانتهاز كل الفرص المتاحة، للتقليل من هيبة ونفوذ عبد الناصر [سطر محذوف] وعزل مصر، وذلك بالعمل على تقوية المملكة السعودية وإقامة اتحاد يضمها مع العراق، وسوريا، والأردن [سطر محذوف] وتشجيع إقامة اتحاد فيدرالى بين دول شمال أفريقيا، من ليبيا حتى المغرب"(٢٢١)

وما أن غادر دالاس المستشفى، حتى عقد اجتماعاً يوم ٣ ديسمبر، اشترك فيه ١٤ عضو من وزارته، بالإضافة إلى مستشار وزارة الدفاع لبحث "إمكانية إنشاء حلف إسلامى بزعامة المملكة السعودية تحت اسم "ميثاق الشرق الأوسط" Middle East Charter يضم كلاً من تركيا، وإيران والباكستان، على أن تتولى تركيا ربطه بحلف الأطلنطى NATO، وأن تكون للباكستان حلقة الوصل مع حلف جنوب شرق آسيا SEATO(٢٢٢) ، إلا أن مورفى Murphy مساعد الوزير للشؤون السياسية، بالاشتراك مع بيرنز Barnes، السكرتير التنفيذى، وماك أرثر Douglas MacArthur(٢٢٣) مستشار الوزارة، وهندرسون Henderson نائب الوزير للشؤون الإدارية، بعد مناقشتهم لمشروع دالاس، اقترحوا إنشاء حلف آخر، باسم "التجمع الجديد لدول الشرق الأوسط" يضم كلاً من تركيا والباكستان، وإيران، والعراق، والمملكة السعودية، ولبنان، والأردن، واليمن، مع فتح باب العضوية أمام كل الدول العربية، والإسلامية من الباكستان شرقاً حتى مراكش فى أقصى الغرب، مؤكداً على "أن نجاح هذا التجمع الجديد يتوقف على الدور الذى سيلعبه الملك سعود"(٢٢٤)

وعلى هذا، اجتمع هوفر مع كل من مورفى، وراونترى، وماك آرثر يوم ٨ نوفمبر، لبحث إمكانية دعوة الملك سعود لزيارة واشنطون(٢٢٥) بينما كان غبار

المعارك لم ينقشع بعد. والواقع فإن عقد الاجتماع برئاسة هوفر يجعلنا نشك فى أن شركة أرامكو كانت وراء الدعوة، خاصة بعد أن رأينا الملك وهو يوجه الشكر لرئيس الشركة على تلقيه الدعوة[٢٢٦] .

ومما قاله الصحفى البريطانى "إرسكين تشايلدز" المتخصص فى الشئون الأفرو-آسيوية، فى هذا الصدد، أنه حينما التقى، فى بيروت، مع أحد كبار شركة أرامكو، أخبره، بأن الشركة هى التى قامت بالترتيب لتلك الزيارة، من أجل تأهيل الملك سعود حتى يتمكن من التصدى للقوى الناصرية فى المنطقة[٢٢٧] ، وهو ما يتوافق مع ما قاله الرئيس الأمريكى، بعد أن وجه الدعوة رسمياً للملك سعود[٢٢٨] يوم ١٦ نوفمبر: "إن سبب دعوتى للملك سعود لزيارة واشنطون، هو أن عبد الناصر كان يتوق إلى أن يصبح زعيماً للعالم العربى، لتحقيق مطامعه الخاصة، فأردنا استكشاف إمكانية إعداد الملك سعود وتأهيله للقضاء على زعامة عبد الناصر مشيراً إلى "أن اختيار الملك هو اختيار منطقى للقيام بهذا الدور فهو ضد الشيوعية، ويتمتع – على المستوى الدينى– بمركز عال فى كل الدول الإسلامية وهكذا لم تصدر دعوتى إلى الملك عن مجرد الرغبة فى مجاملته، بل كانت لها أهداف هامة وخطيرة استقر رأيى على متابعتها بإصرار"[٢٢٩]

وعليه فقد عقد الرئيس أيزنهاور اجتماعاً موسعاً، حضره وزير المالية، ونائب وزير الدفاع ومدير التعبئة العامة، ورئيس المخابرات، ورئيس هيئة الأركان المشتركة، وسكرتير مجلس الأمن القومى، وسكرتير الرئيس، وحضر عن وزارة الخارجية، نائب الوزير، ومساعدو وزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط، ومستشار وزارة الخارجية، وسكرتير وزير الخارجية ومدير إدارة التعاون الدولى، وافتتح الرئيس الاجتماع بقوله: "علينا أن نقوم بإعداد الملك سعود وتأهيله ليكون

أعظم شخصية فى الشرق الأوسط، وعلينا إبلاغ كل من إيران، والعراق، والمملكة السعودية، ليكون الجميع على علم بما نحن عازمون عليه، وإذا كانت هناك عوائق، مثل مسألة البريمى، فإنه يتعين علينا إقناع الإنجليز بالعمل على إيجاد حل لها"[٢٣٠] .

وكان الرئيس قد كلف هوفر بدراسة ما يجب عمله نحو كافة الدول العربية على قاعدة الجزرة والعصا carrot and stick[٢٣١] . وبعد دراسة استغرقت ستة أسابيع[٢٣٢] تقدم الرئيس إلى الكونجرس بمشروعه، المسمى بإسمه[٢٣٣] ثم تقدم بثلاث مطالب أساسية[٢٣٤] :

١- تفويضه باستخدام كل وسائل القوة الأمريكية، بما فى ذلك القوات المسلحة، دون الرجوع إلى الكونجرس ضد أى عدوان على أى دولة تتعرض فى المنطقة من طرف آخر تحت السيطرة السوفيتية.

٢- تقديم المساعدات لأى دولة، أو مجموعة من دول الشرق الأوسط، تطلب مساعدات الولايات المتحدة، بما فى ذلك المساعدات المالية والعسكرية، لحماية استقلالها.

٣- تخصيص مبلغ ٢٠٠ مليون دولار لعام ١٩٥٧، ومثله لعام ١٩٥٨، تبقى تحت تصرفه لمساعدة أى دولة تكون على استعداد للتعاون مع الولايات المتحدة.

وما يلفت الانتباه بشدة، ذلك النفوذ الطاغى لشركة أرامكو، وباقى شركات النفط داخل الكونجرس، الذى دافع عن المشروع، بنسبة ٧٥ صوتاً مقابل ١٩ صوتاً[٢٣٥] . ولقد كشف أيزنهاور عن نواياه الحقيقية، لما كتب فى يومياته فى نفس ذلك اليوم ما نصه "على أى دكتاتور فى الشرق الأوسط (إشارة إلى عبد الناصر) أن يحسب منذ الآن حساب أى خطوة يتخذها "وأشار إلى الملك سعود

قائلاً: "إنه الشخص الوحيد، الذى يستطيع بنجاح، أن يتحدى عبد الناصر فى قيادة العالم العربى"[٢٣٦]

وللمحافظة على حرارة الموقف السعودى، بعث أيزنهاور بروبرت أندرسون، ثانية، إلى الرياض يوم ٢٠ نوفمبر، ليكرر نغمته السابقة "بأن طموحات عبد الناصر المفرطة، قد تعرض الاقتصاد السعودى للخطر"، موضحاً "أنه إذا ما استمر الوضع على ما هو عليه، وظل عبد الناصر يتحكم فى تدفق البترول عبر القناة، ويفرض هيمنته على سوريا (التابلاين) فإنه لا مناص من مضاعفة إنتاج بترول تكساس، وزيادة الاعتماد على بترول فينزويلا، وكندا" وليؤكد للملك مجدداً "أهميته كزعيم روحى باعتباره حامى الأماكن المقدسة"[٢٣٧] .

أما وزير الخارجية دالاس، فإنه راح يهيئ الأوضاع للملك، بأن طلب منه "أن يساند العراق، وحلف بغداد، والابتعاد عن عبد الناصر" وذلك طبقاً لما أخبر به نظيره الفرنسى بينو" Pineau على هامش اجتماعات حلف شمال الأطلنطى فى باريس[٢٣٨] . وحث نظيره البريطانى، سلوين لويد، على حل مسألة البريمى، مؤكداً له "أنه إذا ما تم تأهيل المملكة السعودية فإنها ستكون أفضل من يحاصر عبد الناصر (ثلاثة أسطر ونصف محذوفة)[٢٣٩]. وفي الوقت نفسه أبرق نائبه هوفر إلى السفير فى جدة، يطلب منه التنبيه على الملك سعود كى يحتاط من النشاط التخريبى الذى قد يمارسه الملحق العسكرى المصرى هناك[٢٤٠].

أما بالنسبة لموقف الرئيس عبد الناصر، فإنه كان يشعر بأن الولايات المتحدة على وشك أن تدخل المنطقة بخطة جديدة، واسعة النطاق[٢٤١] وكان من رأيه أن هذا الوقت لا ينبغى لمصر أن تحول أنظارها عن موضوع واحد وهو الضغط بكل الوسائل لتحقيق انسحاب قوات العدوان من مصر[٢٤٢]. وفى حديث أجراه

معه محمد حسنين هيكل، حول مشروع أيزنهاور، عقب صدوره، قال عبد الناصر: "إنى أتحاشى بحث الموضوع فى هذا الوقت.. ولكنى قلت للدكتور فوزى (وزير الخارجية) إن سياستنا الآن هى الصمت .. نحن نحتاج إلى وقت كى نهضم كل تجارب المعركة. خير ما نفعله الآن أن نعد قوانا وأن ننتظر. والحقيقة أنه ليست لدى شكوك فى أن مبدأ أيزنهاور هو أول محاولة عملية لعزل مصر. يأخذون العالم العربى كله إذا استطاعوا معهم، ثم يتركون مصر وحدها، إن إيزنهاور، بالطبع، يستعمل حكاية الخطر السوفيتى والشيوعى، لأنه يريد غطاء مقبولاً فى أمريكا. لا يستطيع أن يقول لهم أنه يريد محاربة القومية العربية، يريد محاربة مصر، وسوريا، وشعوب بلاد عربية أخرى لا تريد الخضوع والسيطرة"[٢٤٣] ، بل أن الرئيس، فى حديث مع مراسل مجلة "النيوزويك" وصف مشروع أيزنهاور "بأنه يرمى إلى نفس الأهداف التى كانت ترمى إليها بريطانيا من وراء عدوانها على مصر"[٢٤٤].

وعلى هذا دعا جمال عبد الناصر إلى عقد اجتماع فى القاهرة يوم ١٨ يناير ١٩٥٧ حضره الملك سعود، والملك حسين، والرئيس السورى شكرى القوتلى[٢٤٥] .

وكان الهدف، كما قالت مجلة روزاليوسف "أن تكون مفاوضات الملك سعود، مع المسئولين الأمريكيين حول المشروع مدعومة بتكتل عربى" [٢٤٦]. والواقع، فإن ما قالته المجلة، قد شكل غطاء لرحلة الملك سعود، مثلها فى ذلك صحيفة الأهرام، التى قالت بعنوان بارز: "أقطاب العرب يرفضون نظرية الفراغ، ويرفضون أن تكون دولهم منطقة نفوذ لأى دولة"[٢٤٧]. وقالت أيضاً: "قلق أمريكا

من اتفاق التضامن العربى"[٢٤٨] وأضافت عنواناً آخر يقول: "اتفاق الدول العربية الأربع يؤثر تأثيراً ضاراً فى مبدأ أيزنهاور"[٢٤٩].

مع أن الملك فى حقيقة الأمر، لم يكن هدفه من الزيارة، التى امتدت من ٢٩ يناير حتى ٨ فبراير[٢٥٠] بحث مشروع يحظى بموافقته، وإنما لبحث تأهيله شخصياً لمنازلة الرئيس عبد الناصر[٢٥١] وهذا ما أعلنه الرئيس أيزنهاور، أمام مجلس الأمن القومى رقم ٣١٠، قبيل وصول الملك سعود[٢٥٢] الذى استقبله أيزنهاور فى مطار العاصمة الأمريكية، واشنطون[٢٥٣] وهو ما لم يحدث من قبل، إذ أن العادة المتبعة، أن يستقبل الرئيس الأمريكى ضيفه فى البيت الأبيض[٢٥٤]. وحسب تفسير عبد الله الطريقى، فإن ما حدث هو تطبيق للأسلوب الأمريكى فى الدعاية وتسليط الأضواء .. حتى يفهم العرب بأن سعود هو القائد الطبيعى لهم، باعتباره حامى الحرمين الشريفين وإقناعهم بأنهم لا يحتاجون لقائد، مثل عبد الناصر، يتصل بالروس الكفرة، ويعترف بالصين الملحدة"[٢٥٥]

والواقع فإن ذهاب الرئيس إلى المطار لم يكن حباً فى الملك سعود، بدليل ما قاله، قبيل الزيارة بلحظات، لكل من دالاس، وهوفر، راونترى، والجنرال "جودباستر" Goodpaster، ضابط الاتصال بوزارة الدفاع: "بأن على الولايات المتحدة ألا تذهب بعيداً فى صداقتها مع السعوديين". United States should not be "over friendly" with the Saudis والأقواس في صلب النص[٢٥٦]. ونقل عنه مساعده، شيرمان آدمز، قوله لزعيم الجمهوريين فى الكونجرس: "إن هدفه الأول من التعامل مع الملك سعود هو تقويته حتى يتوازن counterpoise مع عبد الناصر فى العالم العربى"[٢٥٧]. ولدى اجتماعه بالسفير البريطانى فى البيت الأبيض، في الأول من فبراير، قال أيزنهاور: "إن الملك هو الحجر stone الذى

بإمكاننا البناء فوقه لمقاومة عبد الناصر، واستعادة سوريا وضمها إلى الغرب"[٢٥٨]

ولهذا، انصب حديث الرئيس ووزير خارجيته مع الملك على "أن نفوذ الاتحاد السوفيتى قد أخذ يتزايد فى كل من مصر وسوريا، بعد عقد صفقة الأسلحة، وأن الملك، كما هو معروف عنه، يرفض الشيوعية، غير أن الولايات المتحدة لا تريد فرض وجهة نظرها على قادة المنطقة فى تحديد كيفية التصدى للشيوعية فى ظل زعيم قوى مثل جلالته". وبلغة خالية من الذكاء، قال دالاس: "إن الولايات المتحدة لا تفكر فى فرض هيمنتها على دول المنطقة، بل إنها تسعى إلى مساعدتها على الاحتفاظ باستقلالها، وسيادتها، وتمكينها من التعبير عن إرادتها الحرة، وتأمين مكاسبها الاقتصادية، وذلك على العكس من الشيوعية، التى لم تخف أطماعها فى الاستيلاء على البترول، فضلاً عن أنها ضد القيم الاجتماعية والأديان"[٢٥٩]. ومما اقترحه دالاس فى هذا الصدد، تنصيب الملك سعود "بابا للإسلام" وأن تكون مكة "فاتيكان المسلمين"[٢٦٠].

وحسب توضيح الوزير البريطانى، أنتونى ناتينج "فإن دالاس كان يهدف إلى إيجاد خصم لعبد الناصر يختلف عن كل الخصوم الذين تعود أن يصطدم بهم ويحطمهم خلافهم معه، خصم من نوع لا يقاوم وذلك بوضع الدين الإسلامى ذاته أمام عبد الناصر متجسداً فى الملك سعود"[٢٦١]. ويقيناً، فإن الملك سعود قد رحب بهذا الاقتراح، خاصة بعد أن عبّر للرئيس أيزنهاور عن استيائه من عبد الناصر "بسبب سيطرته على الرأى العام العربى"[٢٦٢]. وأضاف دالاس عاملاً آخر، أكثر إثارة وهو العزف على الوتر بطريقة مملة والذى طالما عزف عليه أندرسون من قبل، وبكلمات دالاس: "فإن قناة السويس ما هى إلا أنبوب ينقل البترول إلى

الأسواق فى أوروبا، وأنه لا بد وأن تكون ممراً دولياً، حتـــى لا تظــل الـــدول المستخدمة للقناة خاضعة لرحمة مصر ومشيئتها فى غلقها أو فتحها" مؤكداً للملك "بأن دول العالم إذا لم تطمئن بأن سفنها تستطيع المرور عبر القناة بكل حريـــة، وأن إمداداتها تسير بطريقة منتظمة وآمنة، فإنها قد تضطر إلى تطوير طاقاتهـــا النووية عوضاً عن البترول، وأن هذا لو حدث، فلن يكون فى مصلحة بلاد مثل السعودية، التى يعتمد اقتصادها، كلياً، على الصادرات البترولية"(٢٦٣).

وفى اجتماع تالٍ تعمد دالاس الإشارة إلى "أن الولايات المتحدة هـــى التـــى حققت للمملكة السعودية ثروتها، فالبترول، كما قال، لم يستخرجه أحد من باطن الأرض سوى الشركات الأمريكية، التى تسعى إلى البحث عن أسواق لـــه"(٢٦٤). بينما لمح الرئيس، من جانبه، إلى أن المشروع المسمى باسمه، إنما هو "من أجل مساعدة دول المنطقة على الانتفاع بمصادرها الطبيعية"(٢٦٥) .

ويلاحظ أن الملك سعود بدا مستسلماً، يحاول استيعاب ما يقولـــه محـــدثوه، الذين لم يبحث معهم ما كُلف به من مواضيع مثل: مستقبل العلاقات الأمريكيـــة العربية، والحرب الاقتصادية ضد مـــصر، ومـــشكلة اللاجئـــين الفلـــسطينيين، وتوضيح الفوارق بين الاتجاهات القومية والشيوعية(٢٦٦) وكلما ذكره "أنهم (القادة العرب الذين اجتمع بهم فى القاهرة) يتطلعون إلى تحسين علاقاتهم بالغرب"(٢٦٧). بل إن الملك حاول فى بعض الأوقات أن يكسب ثقة الرئيس الأمريكـــى علـــى حسابهم، بترديد العبارة التالية مرتين: "لقد قلت لهم بكل صراحة ووضوح: أنـــا معكم فى التصدى لإسرائيل ولكننى لن أتقدم خطوة واحدة معكم نحو التعامل مع الاتحاد السوفيتى .. وطلبت منهم تأمل الجهود الكبيرة التـــى تبـــذلها الولايـــات

المتحدة لصالح المنطقة، بدافع الصداقة، والرغبة فى المساعدة، ولـيس بهـدف التسلط والهيمنة"[٢٦٨]

ولما تطرق إلى صفقة الأسلحة التشيكية، تعمد القول: "إنـه رفـض العـرض السوفيتى بتزويده بالسلاح بأقل الأسعار، لأنه قد أعطى كلمة للولايات المتحدة، بأنه لن يأخذ أسلحة من الروس وأنه لن يفعل شيئاً من وراء ظهرها" مؤكداً على "أن قوة المملكة السعودية من قوة الولايات المتحدة .. نحن أصدقاؤكم، ونرغب فى أن نكون أفضل الأصدقاء"[٢٦٩]. ثم قال فى مناسبة أخرى : "إننى، والوفـد المرافـق لـى، نعرف معنى الصداقة والشرف، وأن المملكة محسودة دائماً من جيرانهـا بـسبب صداقتها مع الولايات المتحدة، والمطلوب الآن حماية هذه الصداقة مـن الأعـداء الذين يسعون إلى تدميرها"[٢٧٠].

أما فيما يتعلق بوجهة نظر الملك فى مشروع أيزنهاور أثناء مناقـشته فـي المؤتمر الذي عقد في القاهرة لاتخاذ موقف موحد حياله، فقد حرص الملك على أن يوضح للرئيس الأمريكي أنه أشاد بالمشروع وقال: "إن فوائده عظيمة بالنسبة لأقطار الشرق الأوسط، ولكن الشيوعيين يعملون كل ما فـى وسـعهم لوضـع العقبات بين الشرق الأوسط والغرب، وإن كثيراً من الناس الجهلة يقعون ضحية دعاية الشيوعيين والمتطرفين" مؤكداً على "أنه إذا ما تـم توضـيح المـشروع لشعوب المنطقة، فإن أى معارضة له ستتلاشى وأن كل واحد سوف يكون على استعداد للتعاون مع الولايات المتحدة". ورد الرئيس: "بأن أى محاولة تهدف إلى تفسير المشروع على نحو سيئ، إنما تعنى إلحاق الـضرر البـالغ بالمـصالح الأمريكية والسعودية، على حد سواء"[٢٧١]. ولقد بلغ الحماس بالملك درجة عالية حتى لقد قال للرئيس فى حفل عشاء رسمية: "إننى ممنون لفخامـة الـرئيس أن

شرح لى مشروعه الجليل لحماية العالم العربى والإسلامى من خطر الشيوعية"[٢٧٢].

وأكثر من هذا أن الملك اشترك مع جيمس ريتشارد"[٢٧٣] فى مهمة التسويق للمشروع حيث سافر إلى أسبانيا (للتمويه) ومنها انطلق إلى بلاد المغرب العربي[٢٧٤] في طريقه إلى القاهرة، التى كانت فى انتظاره[٢٧٥] وعقدت، من أجل الاستماع إليه، مؤتمراً حضره الملك حسين، وشكرى القوتلى فى الفترة من ٢٥ حتى ٢٧ فبراير[٢٧٦].

ومن المحقق أن الملك لم يطلع المؤتمرين على حقيقة ما جرى أثناء زيارته، ولا عن لقائه مع آلان دالاس، رئيس المخابرات[٢٧٧]، ولا عن احتشاد رؤساء مجالس إدارات شركات البترول حوله[٢٧٨] ولا عن لقائه بالوصى على عرش العراق "عبد الإله" ووزير خارجية لبنان "شارل مالك"[٢٧٩] بهدف تشكيل كتلة من "الحكام العرب الأخيار" ضد جمال عبد الناصر، على حد تعبير إرسكين تشايلدرز[٢٨٠]. ويبدو محتملا أن الغرض من لقاء عبد الإله بالملك سعود كان لتصفية الخلافات القائمة بين الهاشميين والسعوديين بهدف عزل عبد الناصر، ومحاصرة سياسته فى المنطقة[٢٨١]. وكان دالاس قد طلب من الملك، أثناء الزيارة، الانضمام لحلف بغداد، قائلاً: "إنه يعلم أن الملك كان يعارض الحلف لأن الولايات المتحدة لم تنضم له لكن الموقف قد تغير الآن، وأنها سوف تعمل على دعمه" وطالبه "ببذل المزيد من الجهد لتحسين علاقاته مع العراق[٢٨٢].

والحقيقة إن عبد الناصر كما أثبتت الوقائع لم يكن على علم بما جرى خلال الأيام العشرة التى استغرقتها زيارة الملك سعود للولايت المتحدة الأمريكية لسببين:

السبب الأول، أن الطرف السعودى قد تفنن فى إتقان التصريحات العكسية وإجادة عمليات الإخفاء والتمويه بدأها يوسف ياسين، وهو فى واشنطون، بأن طلب من دالاس، ومورى "بألا يتضمن البيان أية عبارات من شأنها تعريض البلدين للدعاية المعادية adverse propaganda"[٢٨٣] . أما عبد الرحمن عزام، مستشار الملك، فقال رداً على سؤال: "إن الملك سعود لا يتردد لحظة فى الوقوف بجانب مصر ضد أمريكا"[٢٨٤] . كما أعلن الأمير فيصل: "أن سياسة المملكة العربية السعودية لم تتغير بعد رحلة جلالة الملك سعود إلى أمريكا عما كانت عليه قبل الزيارة، وأن وجهة نظر المملكة السعودية تتفق تماماً مع وجهة نظر مصر فى جميع المسائل"[٢٨٥] . وأطلق الأمير فهد بن سعود، وزير الدفاع تصريحاً عكسياً آخر أكد فيه: "أن زيارة جلالة الملك سعود للولايات المتحدة قد تركت آثاراً إيجابية فى قضايا العرب، وستكشف الأيام المقبلة عن نتائج هذه الجهود بما يحفظ لنا قوميتنا وعروبتنا"[٢٨٦] .

أما السبب الثانى، فهو يتعلق بموقف القيادة المصرية التى كانت تبالغ فى ثقتها بالملك، لدرجة أنها كانت تريد أن تصدقه، من ذلك مثلاً ما قاله السادات، الذى وصف الملك سعود "بأنه يسير على نهج "الخلفاء الراشدين"[٢٨٧] وأن الملك "قد أوضح للرئيس الأمريكى حقوق العرب وقضاياهم، وأن أقطاب العرب وجهوا الشكر لأخيهم سعود على ما قام به من جهود خلال زيارته للولايات المتحدة، وما أوضحه جلالته للمسئولين عن وجهات النظر العربية" مضيفاً: "إن ما تحسه الشعوب العربية نحو سعود فهو شئ أكثر من الشكر وأروع من الامتنان .. وإنه لفخر بهذا العاهل العربى الذى حمل الأمانة عن العرب جميعاً"، وانتهى إلى القول: "لقد عاد إلينا سعود بعد أن أدى واجبه وأرضى ربه وضميره وأمته .. لقد

قال كلمة الحق واضحة عالية فسعدنا به نحن العرب وقد عرفناه دائماً حريصاً على العهد ثابتاً على المبدأ، أخاً للعرب فى السراء والضراء"[٢٨٨] .

وباستعراض الصحافة المصرية نجد أنها عكست توجهات القيادة خلال تلك الفترة إذ قالت جريدة الأهرام بعنوان رئيسى يوم ٢ فبراير: "أمريكا تغير نظرتها لمصر .. الملك سعود قام بدور هام فى سبيل استرداد الثقة المفقودة". وقالت جريدة الأخبار فى ذات اليوم "أيزنهاور يطلب من سعود إزالة الخلاف بين القاهرة وبغداد". وعادت الأهرام يوم ٤ فبراير لتقول "سعود يرفض عقد حلف دفاعى مع أمريكا" مع أن الملك جدد أثناء الزيارة عقد قاعدة الظهران لمدة خمس سنوات أخرى، ومما قاله دالاس: "إن قاعدة الظهران هى الإثبات العملى للتحالف القائم بين المملكة السعودية والولايات المتحدة، وسيكون من الخطأ الفادح مهاجمتها"[٢٨٩] . وهكذا نافست الأهرام الأمراء السعوديين فى تصريحاتهم بقولها، بعنوان ضخم على صدر صفحتها الأولى: "نتائج زيارة سعود نصر للعرب"[٢٩٠] ، مع أن الملك سعود، بزيارته لبغداد فى الفترة من ١١ إلى ١٨ مايو ١٩٥٧، وانضمامه إلى حلف بغداد[٢٩١] قد حطم تحالفاً رباعياً كان قائماً مكوناً من مصر، والسعودية، وسوريا، والأردن [٢٩٢] .

وخلاصة القول، أن الخطة الأمريكية اعتمدت أساساً على الحصار الاقتصادى لخنق عبد الناصر، وتصفية الوضع الثورى، وعزل مصر عن محيطها العربى، والقضاء على حركة القومية العربية التى وصفها دالاس "بأنها أخطر من الشيوعية"[٢٩٣] وذلك بتذويبها فى كيان فضفاض، وإخضاع المنطقة العربية، بحجة شغل الفراغ بالهيمنة الأمريكية، اعتماداً على الملك سعود[٢٩٤] الذى كان يتطلع بلهفة لاحتلال مكان الزعيم عبد الناصر بكافة الوسائل،

المشروعة وغير المشروعة. وخلال الفترة من سبتمبر ١٩٥٧ إلى فبراير ١٩٥٨ دبر سعود مؤامرتين للتخلص من عبد الناصر، كشف الأولى العقيد طيار "عصام الدين خليل"[٢٩٥] وفضح الثانية "عبد الحميد السراج"[٢٩٦] وذلك تمشياً مع توجهات الرئيس أيزنهاور، الذى قال لماكميلان رئيس الحكومة البريطانية أثناء مؤتمر برمودة (٢١-٢٤ مارس ١٩٥٧) "يجب أن نعمل بكل طاقاتنا العلانية والسرية overtly and covertly للتخلص من عبد الناصر"[٢٩٧] ، وهو ما بات يُعرف "بالغزو من الداخل". وبه تحقق الانفصال السورى، فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١، والذى موله الملك سعود بمبلغ ١٢ مليون جنيه استرلينى[٢٩٨] وهو الانفصال الذى فتح الطريق أمام الهزائم العربية المتلاحقة.

الهوامش

(١) د. ممدوح عبد الرحمن الريطى، دور القبائل العربية فى صعيد مصر، ص ٢٧.

(٢) جمال حمدان، نحن وأبعادنا الأربعة، ص ٨ (القاهرة ١٩٦٢).

(٣) Michael Mac. M.A. A History of the Arabs in the Sudan, PP. 17 . (N.Y. 1967)

(٤) د. محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربى، ص ١٢٧ (القاهرة ١٩٨٤).

(٥) جريدة الأخبار، عدد ١٩٩٦/١/٢١.

(٦) عبد الرحمن الجبرتى، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، جـ٣، ص ٦١.

(٧) كرستوفر هيرولد، بونابرت فى مصر، عرض جريدة الأهرام، عدد ١٩٩٤/٣/٣.

(٨) Dickson, H.R.P., Kuwait and her Nighbours, PP. 117. (London 1956).

(٩) عبد الرحمن الرافعى، عصر محمد على، ص٩٦ (القاهرة ١٩٤٧) .

(١٠) وثيقة رقم (٥) دفتر (١) معية تركى، دار الوثائق بالقاهرة.

(١١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الدولة السعودية الأولى، ص٣٣١-٣٣٢ (معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٩).

(١٢) حافظ وهبه، خمسون عاماً فى جزيرة العرب، ص ١٣٠-١٣١ (القاهرة ١٩٦٠)

(١٣) فوزى أسعد نقيطى، العلاقات المصرية – السعودية ١٩٣٧- ١٩٦٧ (رسالة دكتوراه، معهد البحوث والدراسات العربية ٢٠٠٠) ص ٩.

(١٤) نفس المرجع، ص ٩-١١.

(١٥) هكذا كان يدعى الملك عبد العزيز وقتها، ولم يلقب بالملك إلا بعد احتلاله الحجاز.

(١٦) حافظ وهبة، جزيرة العرب فى القرن العشرين، ص ٣٠٦-٣٠٧.

(-) FO. 371/2479 (11837)

(-) الجزيرة العربية فى الوثائق البريطانية، المجلد الأول ١٩١٤- ١٩١٥، ص ٤٠٤ – ٤٠٥

(١٧) ظهر ذلك بوضوح عندما ذهب فيلبى إلى الرياض عام ١٩١٧ من أجل تحفيز الأمير النجدى على محاربة ابن الرشيد

L/P & S /10/390, Nov. 12, 1918.

وعندما طلب لورانس من حكومته في يوم ١١ سبتمبر ١٩٢١ إطلاق
سلطان نجد ضد الشريف حسين لرفض الأخير الترتيبات البريطانية
في فلسطين، واتفاقية سايكس بيكو

FO. 686/93, PP. 16

(١٨) FRUS, 1943, Vol. IV, P. 854, Feb. 18, 1943.

(١٩) Ibid, 1946, Vol. VII, No. 711, 90F / 1-1946, P. 738, Jan. 19, 1946.

(-) Ibid, 1950, Vol. V, No. 711, 56386 A / 10-3050, Oct. 31, 1950.

(-) Ibid, 1952-1954, Vol. IX, No. 1517, P. 2541, June. 15, 1953.

(٢٠) فوزى أسعد نقيطى، نفس المرجع، ص ١١٩-١٢٠.

(٢١) The Memoirs of Cordell Hull, Vol. 2, PP. 1518-1519. (London 1948)

(٢٢) Ibid, P. 1521.

(-) FRUS, 1945, Vol. V, No. 890. 50/10-945, P. 415 (Undated)

(٢٣) Ibid, 1952-1954, Vol. IX, No. 265, P. 611, Sept, 19, 1952.

(-) Arabian - American Oil Company.

(٢٤) اندمجت أربع شركات بترولية أمريكية كبرى، واختارت لنفسها هذا الاسم عام ١٩٤٨، وهي:

1-	Standard Oil of California (Socal).	30 per cent
2-	Standard Oil of New Jersy (Exxon).	30 per cent

3- Standard Oil of New York (Socony Vacuum). 10 per cent
تحولت إلى (Mobil)

4- Texaco. 30 per cent

ARAMCO Handbook, PP. 135-136.

(٢٥) عبد الله الطريقى، الأعمال الكاملة، ص ٤٤٣ – ٤٤٤ .

(٢٦) Sampson, Anthony, The Seven Sisters; The great Oil Companies, pp. 104. (N.Y. 1975)

(٢٧) FRUS, 1955 - 1957, Vol. XII, No. 91, P. 223, Jan. 13, 1955.

(٢٨) Ibid__, 1942, Vol. IV, No. 890 F. 6363, P. 576, April 16, 1942

(٢٩) جان جاك بيربى، الخليج العربى، ص ١٥١ .

(٣٠) Jeffrey, Robinson, Yamani, PP. 219 (London, 1988).

(٣١) Aronson, Geoffrey, U. S. Policy toward Egypt, PP. 9 (Colorado, 1968)

(٣٢) FRUS, 1944, Vol. V, No. 890 F. 6363, P. 8, Dec. 27, 1944.

(-) Ibid, 1943, Vol. IV, P. 921 FF.

(٣٣) جزيرة العرب، ترجمة نجدة هاجر، سعيد الغز، ص ١١٥ (بيروت ١٩٦٠).

(-) Ibid, 1945, Vol. VIII, No. 711 - 90F / 2-445, P. 1-3, Feb. 14, 1945.

(٣٤) أمين هويدى، لعبة الأمم فى الشرق الأوسط، ص ٦٣ – ٦٦ (القاهرة ١٩٨٤)

(-) ــــــــــ، مع عبد الناصر، ص ٢٣٤ (القاهرة ١٩٨٥)

(٣٥) مجلة آخر ساعة، عدد ١٩٤٥/٤/١٥، مركز الأهرام للتنظيم والميكروفيلم، الملف الوثائقى للمغفور له، الملك عبد العزيز آل سعود جـ ٧، ص ٧٩٤-٧٩٥.

(٣٦) Ibid________________________________, P. 7, March 3, 1945.

(٣٧) Ibid, 1948, Vol. V, No. 741. 90F/1-2648, P. 218, Jan. 26, 1948.

(٣٨) Ibid, __________, No. 890F- 7962/4-2448, P. 237, April 24, 1948.

(٣٩) Ibid, 1950, _____, No. 611. 86A/8-2850, P. 1152, March 23, 1950.

(٤٠) Ibid, 1955-1957, Vol. XV, No. 265, P. 504-511, April 10, 1956.

(٤١) فوزى أسعد نقيطى، نفس المرجع، ص ١٢٦-١٢٨.

(٤٢) __________، ص ٢٩٢-٢٩٦.

(٤٣) FO. 371/11019-ES11345/1, July 11, 1954.

(٤٤) __________، ص ٦٩-٧٥.

(٤٥) The Eisenhower Diaries, PP. 318. (N.Y. 1981)

(-) FRUS, 1955-1957, Vol. XV, No. 177, P. 327, March 8, 1956.

(٤٦) Ibid_________________, No. 226, P. 425, March 28, 1956.

(٤٧) Ibid_________________, No. 232, P. 435-441, April 1. 1956.

(٤٨) Ibid_________________, No. 194, P. 366, March 15, 1956.

(٤٩) Ibid_________________, No. 198, _________________.

(٥٠) Ibid__________, Vol. XIII, No. 220, P. 349-350, March 9, 1956.

(٥١) Ibid__________________, No. 326, P. 572, June 7, 1956.

(٥٢) محمد حسنين هيكل، سنوات الغليان، ص ٧٣ (القاهرة ١٩٨٨).

(٥٣) Ibid________, Vol. XV, No. 222, P. 417, March 28, 1956.

(٥٤) Ibid__________, Vol. XIII, No. 178, P. 273-274, Sept. 30, 1956.

(٥٥) Ibid__________, Vol. XIV, No. 379, P. 695, Nov. 2, 1955.

(٥٦) وثيقة رقم (١٢٤) فى كتاب محمد حسنين هيكل، ملفات السويس، ص ٧٩٠-٧٩١ (القاهرة ١٩٨٦).

(٥٧) محمد حسنين هيكل، نفس المرجع، ص ٣٩٣

(٥٨) ________ ، نفس المرجع، ص ٤٣٩ .

(٥٩) جريدة الأخبار، وباقى الصحف القومية، عدد ١٩٥٦/٤/٢٢.

(٦٠) ________________، عدد ١٩٥٦/٤/٢٣.

(٦١) فوزى أسعد نقيطى، نفس المرجع، ص ٤٠١

(٦٢) FRUS, 1955-1957, Vol. XV, No. 223, P. 419-421, March 28, 1956.

(٦٣) Cooperative for American Remittance to Everywhere.

(٦٤) FRUS, 1955-1957, Vol. XV, No. 238, P. 453-455.

(٦٥) Congress and the Nation (1945-1964) Congressional Qarterly Service, PP. 22.

(-) أنتونى ناتنج، ناصر، ترجمة شاكر إبراهيم سيد، ص ١٧٦ (بيروت ١٩٨٥)

(٦٦) Flower, Raymond, Napoleon to Nasser, PP. 203. (London 1972)

(-) هنرى أزو، فخ السويس، London 1972، ترجمة محمود حسن إبراهيم، ص ١٣٨ (القاهرة ١٩٦٦)

(٦٧) The Memoirs of Sir Anthony Edan, PP. 422 (London 1960).

(٦٨) محمد حسنين هيكل، العقد النفسية التى تحكم الشرق الأوسط، ص ٣٦ (القاهرة ١٩٥٨).
(-) مذكرات المهندس عبد الحميد أبو بكر، ص ٥ (القاهرة ١٩٨٧).
(٦٩) Ibid

(٧٠) خطاب الرئيس جمال عبد الناصر، يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦، مجموعة خطب وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر القسم الأول ٢٣ يوليو ١٩٥٢ - يناير ١٩٥٨، ص ٥٦١-٥٦٣. (وزارة الإرشاد القومى)
(٧١) FRUS, 1955-1957, Vol. XVI, No. 3, P. 6, July 27, 1956.

(٧٢) أنتونى ناتنج، نفس المرجع، ص ٣١.
(٧٣) Ibid____________________, No. 40, P. 78-93, July 31, 1956.

(٧٤) Vatickiotis, P. J., Conflict in The Middle East PP. 18 (London, 1971)
(٧٥) FRUS, Ibid______________, No. 3, P. 6, July 27, 1956.

(٧٦) Ibid____________________, No. 3, 6, 16, P. 5-28, July 27-28, 1956.

(٧٧) محمد حسنين هيكل، ملفات السويس، ص ٤٥٥.
(٧٨) Ibid __________________________, P. 6, July 27. 1956.

(٧٩) Ibid ____________________, No. 72, P. 167-169, Aug. 9, 1956.

(٨٠) Ibid ____________________, No. 34, P. 64, July 31, 1956.

(٨١) Ibid___________________________, P. 65-66, __________

(٨٢) Ibid____________________, No. 68, P. 154-155, Aug. 7, 1956.

(٨٣) Regimental Combat Team

(٨٤) FRUS, Ibid______________, No. 82, P. 200, Aug. 15, 1956.

(٨٥) مجلة صوت الطليعة، عدد ديسمبر ١٩٧٤، ص ٢٧- ٤٢.

(٨٦) Ibid_____________, Vol. XIII, No. 246, P. 398, Aug. 31, 1956.

(٨٧) Ibid____________, Vol. XVI, No. 118, P. 263-266, Aug. 22, 1956.

(٨٨) Ibid, 1958-1960, Vol. XII, No. 22, P. 75, July 16, 1958.

(٨٩) عبد الكريم الجهيمان، آراء فرد من الشعب، ص ٤٠ (بيروت).

(٩٠) عبد الله عبد الجبار، التيارات الأدبية الحديثة فى قلب الجزيرة العربية، ص ٣٥٠ (القاهرة ١٩٥٩).

(٩١) فى كتاب عبد الله عبد الجبار، نفس المرجع، ص ٣٥٠.

(٩٢) إشارة إلى منجم "مهد الذهب" بالقرب من المدينة المنورة والذى تتولى شركة أمريكية استخراج الذهب منه.

(٩٣) عبد الله عبد الجبار، نفس المرجع، ص ٣١٣.

(٩٤) Rand, Christopher, Oil; PP. 85 (Canada. 1975)

(٩٥) عبد الله الطريقى، الأعمال الكاملة، ص ٢٧٨، ٢٨٨.

(٩٦) نفس المرجع، ص ١٥٩.

(٩٧) نفس المرجع، ص ١٥٨، ١٧٦-١٧٧.

(٩٨) Robinson, Jeffrey, Op. Cit., P. 49.

(٩٩) عبد الله الطريقى، نفس المرجع، ص ٤٤٣-٤٤٤.

(١٠٠) FRUS, 1958-1960, Vol. XII, No. 332, P. 750, Nov. 26, 1959.

(١٠١) Lenczowsky, George, The Middle East in World Affairs, PP. 452. (Cornell Univ. Press, 1956)

(١٠٢) FRUS, 1955- 1957, ______, No. 78, P. 190, Nov. 8, 1955.

(١٠٣) Ibid__________________, No. 133, P. 311, July 25, 1956.

(١٠٤) Lipsky, A. George, Saudi Arabia, PP. 59. (Washington 1959).

(-) Philby, H. St. J. B., Forty Years in the Wilderness, PP. 39 (London 1957).

(١٠٥) طلال بن عبد العزيز، رسالة إلى مواطن، ص ٣٦.

(١٠٦) FRUS, Ibid______, Vol. XVI, No. 121, P. 273, Aug. 23, 1956.

(١٠٧) محمد حسنين هيكل، نفس المرجع، ص ٨٩

(١٠٨) Ibid____________________, No. 247, P. 401, Sept. 13, 1956.

(١٠٩) Ibid____________________, No. 92, P. 220n, Aug. 10, 1956.

(١١٠) Ibid__________________, No. 132, P. 296, Aug. 24, 1956.

(١١١) Ibid__________________, No. 96, P. 230, Aug. 18, 1956.

(-) Ibid_________, No. 106, P. 246-247 (Report of Special Mission to Saudi Arabia August 20-27, 1950)



(١١٢) Ibid__________________, No. 106, P. 246-247.

(Report of Special Mission to Saudi Arabia August 20-27, 1950)

(١١٣) ولبر كرين إيفلاند، حبال من رمل، ترجمة د. سهيل نكار. ص ٣٢٣ (دمشق ١٩٨٩).

(١١٤) محمد العبودى، الأمثال العامية فى نجد، القسم الأول، ص ٢٢٢.

(١١٥) Ibid__________________, No. 121, P. 275, Aug. 23, 1956.

(١١٦) ولبر كرين إيفلاند، نفس المرجع، ص ٣٢٤-٣٢٥.

(١١٧) نفس المرجع.

(١١٨) Ibid.

(١١٩) Ibid__________________, No. 92, P. 220, 220n, Aug. 17, 1956.

(١٢٠) محمد حسنين هيكل، سنوات الغليان، ص ٩١ – ٩٢ .

(١٢١) فوزى أسعد نقيطى، نفس المرجع، ص ٣٤٥-٣٥٤.

(١٢٢) وحيد الدالى، أسرار الجامعة العربيـــة وعبـــد الـــرحمن عـــزام، ص ٨٠ (مطبعـــة روزاليوسف ١٩٨٢)

(١٢٣) Ibid__________________, No. 132, P. 297n, Aug. 25, 1956.

(–) ولبر كرين إيفلاند، نفس المرجع، ص ٣٢٥.

(١٢٤) Ibid__________________________, P. 296-297.

(١٢٥) Ibid__________________, No.134, P. 299, Aug. 26, 1956.

(١٢٦) جريدة الجمهورية، عدد ١٩٥٦/٨/٢٧.

(١٢٧) Ibid________________, No.141, P. 310- 311, Aug. 28, 1956.

(١٢٨) Ibid________________, No. 178, P. 395, Sept. 1, 1956.

(١٢٩) نص البرقية فى كتاب محمد حسنين هيكل، ملفات السويس، فى الملحق الوثائقى تحت رقم (١٣٩) ص ٨٢٠-٨٢١.

(١٣٠) محمد حسنين هيكل، نفس المرجع، ص ٥٠٨.

(١٣١) نفس المرجع.

(١٣٢) مذكرات أكرم الحورانى، ص ٢١٣٢ (القاهرة ٢٠٠٠).

(-) مجلة صوت الطليعة، عدد مارس ١٩٧٣، ص ٢٥ - ٢٦.

(-) Lacey, Robert, The Kingdom, PP. 314. (London 1969)

(١٣٣) وفق تقدير صلاح البيطار، وكان يرافق الرئيس شكرى القوتلى، الذى حضر مع الرئيس عبد الناصر

(مذكرات أكرم الحورانى، ص ١١٣٢).

(١٣٤) محمد حسنين هيكل، نفس المرجع، ص ٥٠٩.

(١٣٥) نفس المرجع.

(١٣٦) نفس المرجع ص ٥١٠.

(١٣٧) Sampson Anthony, Op. Cit., P. 189-190

(١٣٨) المسافة بين الظهران والدمام لا تتعدى ١٠ كيلو مترات.

(١٣٩) نفس المرجع.

(١٤٠) __________، العقد النفسية التى تحكم الشرق الأوسط، ص ٨٨.

(١٤١) نفس المرجع، ص ٨٩.

(١٤٢) FO. 371/108579-E19422/1/26, Feb. 26, 1956.

(١٤٣) فوزى أسعد نقيطى، نفس المرجع، ص ٣٤٥.

FRUS, Ibid___________, No. 639, P. 1320, Dec. 16, 1956. (١٤٤)

Ibid___________, Vol. XII, No. 178, P. 421, Dec. 22, 1956. (١٤٥)

(May 18 – Dec. 22, 1956)

(١٤٦) توفيق الشيخ، البترول والسياسة فى المملكة العربية السعودية، ص ٣٥١ (لندن ١٩٨٨).

Ibid_____________Vol. XIII, No. 34, P. 49, Sept. 10, 1956. (١٤٧)

(١٤٨) إبراهيم المسلم، العلاقات السعودية – المصرية، ص ٥١-٥٢ (القاهرة ١٩٨٩).

(١٤٩) أمين سعيد، العدوان، ص ١٢٤-١٢٥ (القاهرة ١٩٥٨).

(-) إبراهيم المسلم، نفس المرجع، ص ٦٥-٦٨.

(١٥٠) مجموعة خطب وتصريحات الرئيس جمال عبد الناصر، نفس المرجع، ص ٦١٤.

Ibid___________________, No. 182, P. 279, Oct. 17, 1955. (١٥١)

(١٥٢) نفس المرجع .

(١٥٣) اللواء على أبو نوار، حين تلاشت العرب، ص ٢٥٦-٢٧٢ (لندن ١٩٩٠).

FRUS, Ibid_____________, No. 252, P. 407n, Dec. 15, 1955. (١٥٤)

(١٥٥) السفير الأردنى فى واشنطون.

Ibid_____________, Vol. XVI, No. 279, P. 605, Sept. 28, 1956. (١٥٦)

(١٥٧) جريدة الجمهورية، عدد ١٩٥٦/٩/١٤.

(١٥٨) مجلة صوت الطليعة، عدد يونية ١٩٧٤، ص ١١.

FO. 371/118994, Op. Cit., (١٥٩)

(١٦٠) مذكرات أكرم الحورانى، جـ ٣، ص ٢١٥٣.

Ibid___________________, No. 372, P. 775-776, Oct. 26, 1956. (-)

(١٦١) د. سعيد محمد باديب، الصراع السعودى المصرى حول اليمن الشمالى، ١٩٦٢-١٩٧٠، ص ٣٨ (لندن ١٩٩٠).

(١٦٢) Lacey, Robert, Op. Cit., P. 604-607.

(١٦٣) FRUS, Ibid____, Vol. XIII, No. 336, Nov. 3, 1956.

(١٦٤) جاسم علوان، لقاء شخصى، يوم ٢٠٠٦/١٠/٢٣.

(-) مذكرات أكرم الحورانى، جـ٣، ص ٢١٦٦-٢١٦٧.

(١٦٥) محمود يونس، قناة السويس، ص ٢٩٥.

(-) Ibid__________________, No. 554, P. 1071, Nov. 8, 1956.

(١٦٦) جريدة أخبار اليوم، عدد ١٩٩٧/٨/٣٠.

(١٦٧) فاسيليف، تاريخ العربية السعودية، ترجمة خيرى الضامن، وجلال المشطة، ص ٤١٠-٤١٢ (القاهرة ١٩٨٢).

(١٦٨) جاسم علوان، نفس اللقاء.

(١٦٩) جريدة الجمهورية، عدد ١٩٥٦/١٢/٢.

(١٧٠) د. محمود فوزى، حرب السويس، ترجمة مختار الجمال، ص ١١٨ (القاهرة ١٩٨٧).

(١٧١) FURS, 1955-1957, Vol. XVI, No. 554, P. 1070, Nov. 8, 1956.

(١٧٢) Ibid__________________, No. 616, P. 1200, Nov. 26, 1956.

(١٧٣) Adams, Sherman, The Story of the Firsthand Report, PP. 268, (N.Y1961).

(١٧٤) جريدة الأهرام، عدد ٢٠٠٦/١٠/٢٧.

(-) مذكرات محمود رياض، جـ٢، ص ١٧٩ (القاهرة ١٩٨٦).

(١٧٥) محمد حسنين هيكل، الانفجار، ص ٣٥٦ (القاهرة ١٩٩٠).



(١٧٦) أمين شاكر، الخليج العربى، ص ٩٠ (القاهرة ١٩٧١).

(١٧٧) إبراهيم المسلم، نفس المرجع.

(١٧٨) مجلة صوت الطليعة، عدد ديسمبر ١٩٧٣، ص ٥٦.

(-) FRUS, 1958-1960, Vol. XII, No. 315, P. 727, April 1, 1958.

(١٧٩) Ibid__________________, No. 312, P. 721, March 26, 1958.

(١٨٠) Ibid, 1955-1957, Vol. XVI, No. 530, P. 1032, Nov. 6, 1956.

(١٨١) محمد حسنين هيكل، سنوات الغليان، ص ٧٢.

(١٨٢) Ibid___________________, No. 573, P. 1121, Nov. 13, 1956.

(١٨٣) أحد الثلاثة الذين كلفهم الرئيس عبد الناصر بالسيطرة على شركة قناة السويس يوم ٢٦ يوليو.

(١٨٤) مذكرات المهندس عبد الحميد أبو بكر، نفس المرجع، ص ٢٠٨.

(١٨٥) توم ليتل، السد العالى، ترجمة خيرى حماد، ص ٦٣-٦٤ (القاهرة ١٩٦٨).

(١٨٦) Flower, Raymond, Napoleon to Nasser , PP. 207. (London 1972)

(١٨٧) كارانجيا، أ. ك، كيف نجح عبد الناصر، تعريب خيرى حماد، ص ٧٨ (القاهرة، ط٣).

(١٨٨) محمد حسنين هيكل، العُقد النفسية التى تحكم الشرق الأوسط، ص ٦٨.

(١٨٩) FRUS, Ibid____________, No. 34, P. 64, July 31, 1956.

(١٩٠) Ibid__________________, No. 42, P. 95-96n, Aug. 1, 1956.

(١٩١) The Memoirs of Sir Anthony Eden, P. 437-438. (London 1960)

(١٩٢) Ibid______________________, P. 463

(١٩٣) Ibid______________________, P. 437, 446.

(١٩٤) د. محمد عبد الوهاب، عبد الناصر والسياسة الخارجية ١٩٥٢-١٩٥٦، ص ٢٠٨ (القاهرة ٢٠٠٦)

(١٩٥) هنرى أزو، فخ السويس، ترجمة محمود حسن إبراهيم، ص ١٨٦ – ١٨٧ (القاهرة ١٩٦٦).

(١٩٦) محمد حسنين هيكل، نفس المرجع، ص ٥١١.

(١٩٧) FRUS, Ibid____________, No. 582, P. 1142n, Nov. 17, 1956.

(١٩٨) Ibid________________, No. 41, P. 95, Aug. 1, 1956.

(١٩٩) التقى كاتب هذه السطور مع أحدهم، فى شهر فبراير ١٩٥٩، فى قاعدة "فورت نكس" Fort Knox بولاية "كنتكى" ويدعى الكابتن Booz .

(٢٠٠) جريدة أخبار اليوم، عدد ١٩٩٧/٨/٣٠.

(٢٠١) جريدة الأهرام، حرب السويس ٥٠ عاماً، عدد ٢٠٠٦/١٠/٢٧.

(٢٠٢) Ibid________________, No. 34, P. 66, July 31, 1956.

(٢٠٣) محمود يونس، قناة السويس، ص ١٧٨-١٧٩.

(-) محمد حسنين هيكل، العقد النفسية التى تحكم الشرق الأوسط، ص ٨٦-٨٧.

(٢٠٤) نفس المرجع ص ٧٨.

(٢٠٥) Ibid_________, Vol. XIII, No. 34, P. 50, Sept. 10, 1956.

(٢٠٦) Ibid_________, Vol. XVI, No. 300, P. 640-642, Oct. 5, 1956.

(٢٠٧) FRUS, 1955-1957, V. XVI, No. 35, P. 69-71, July 31, 1956.

(-) Ibid________________, No. 163, P. 358, Sept. 2, 1956.

(-) محمد حسنين هيكل، ملفات السويس، ص ٥٧٦-٥٧٧.

(٢٠٨) أمانى عبد الرحمن، جذور الفكرة القومية لثورة يوليو فى كتاب: المشروع القومى لثورة يوليو، جـ٣، ص ٩٤.

(٢٠٩) وكالة رويتر بمناسبة مرور ٤٠ عاماً على العدوان الثلاثى على مصر (جريدة الأهرام، عدد ١٥/١٠/١٩٩٦) .

(٢١٠) جريدة الأهرام، عدد ١٢/٧/١٩٥٧.

(٢١١) Ibid________________, No. 567, P. 1108, Nov. 11, 1956.

(٢١٢) Ibid________________, No. 571, P. 1116, Nov. 12, 1956.

(٢١٣) Ibid______________, No. 572, P. 1117 - 1118, Nov. 12, 1956.

(٢١٤) د. عبد الله سعود القباع، السياسة الخارجية السعودية، ص ٢٥٦-٢٥٧ (الرياض، ١٩٨٠).

(٢١٥) Ibid________________, No. 564, P. 1101, Nov. 10, 1956.

(٢١٦) Ibid__________, Vol. XII, No. 159, P. 373-374, Dec. 4, 1956.

(٢١٧) Sunday Times, Nov. 25, 1956.

فى كتاب: صوان الجاسر ونعمان أبو قاسم، الأردن ومؤامرات الاستعمار، ص٤٢ (القاهرة ١٩٥٧)

(٢١٨) نفس المرجع

(٢١٩) FRUS, Ibid___________, P. XXV.

(٢٢٠) نفس المرجع، ص ٤٢.

(٢٢١) Ibid__________________, No. 148, P. 344-350, Nov. 21, 1956.

(٢٢٢) Ibid__________________, No. 156, P. 366-367, Dec. 3, 1956.

(٢٢٣) ليس الجنرال "ماك أرثر".

(٢٢٤) Ibid__________________, No. 160, P. 378, Dec. 5, 1956.

(٢٢٥) Ibid__________, Vol. XIII, No. 249, P. 404, Nov. 8, 1956.

(٢٢٦) Ibid__________________, No. 251, P. 406, Nov. 26, 1956.

(٢٢٧) Childers, Erskine B., The Road to Suez, PP. 313. (London 1960)

(٢٢٨) FRUS, Ibid_____________, No. 251, P. 405, 405n, Nov. 26, 1956.

(٢٢٩) Eisenhower, Dwight, Waging Peace, PP. 115. (N.Y. 1956)

(٢٣٠) FRUS, Ibid______________, No. 250, P. 405, Nov. 21, 1956.

(-) Ibid____________, Vol. XII, No. 147, P. 340, ____________

(٢٣١) Ibid___________, Vol. XVI, No. 574, P. 1122, Nov. 13, 1956.

(٢٣٢) Ibid.

(٢٣٣) "مشروع أيزنهاور".

(٢٣٤) Ibid___________, Vol. XII, No. 183, P. 438, Jan. 5, 1957.

(٢٣٥) مذكرات أكرم الحورانى، جـ٣، ص ٢٢٢٣.

(٢٣٦) محمد حسنين هيكل، ملفات السويس، ص ٦٠٣.

(٢٣٧) Ibid__________, Vol. XVI, No. 595, P. 1165, Nov. 20, 1956.

(٢٣٨) Ibid_________________, No. 644, P. 1285, Dec. 10, 1956.

(٢٣٩) Ibid___________, Vol. XII, No. 169, P. 399, ___________

(٢٤٠) Ibid___________, Vol. XVI, No. 610, P. 1191-1192, Nov. 24, 1956.

(٢٤١) نفس المرجع، ص ٥٨٧.

(٢٤٢) نفس المرجع، ص ٥٧٦-٥٧٧.

(٢٤٣) ________، سنوات الغليان، ص ٢٠٣.

(٢٤٤) مجموعة خطب وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر، القسم الأول، ص ٧٣٣.

(٢٤٥) حضره "صبرى العسلى" رئيس الوزراء نظراً لأن الرئيس القوتلى كان فى زيارة للهند لباكستان (مذكرات أكرم الحورانى، جـ ٣، ص ٢٢٥٣).

(٢٤٦) مجلة روزاليوسف، عدد ١٩٥٧/١/٢١.

(-) أمين سعيد، نفس المرجع، ص ٢٦٤.

(٢٤٧) جريدة الأهرام، عدد ١٩٥٧/١/١٨.

(٢٤٨) ________، عدد ١٩٥٧/١/٢١.

(٢٤٩) نفس العدد.

(٢٥٠) FRUS, 1955-1957, Vol. XIII, No. 256, P. 413, Jan. 7, 1957.

(٢٥١) Lesch, David W., The Middle East and the United States, PP. 302 (Colorado, 1996).



(-) Meyer, Gail E., Egypt and the United States, PP. 184 (N. J. 1980).

(٢٥٢) FRUS, Ibid_____________, No. 256, P. 414, Jan. 24, 1957.

(٢٥٣) Eisenhower Dwight, Op. Cit., P. 115.

(-) FRUS, Ibid___________________, P. 413, Jan. 30, 1957.

(٢٥٤) Lacey, Robert, Op. Cit., P. 315.

(٢٥٥) عبد الله الطريقى، نفس المرجع، ص ٢٩٠.

(٢٥٦) FRUS, Ibid_____________, No. 237, P. 415, Jan. 29, 1957.

(٢٥٧) Adams, Sherman, Op. Cit., P. 278

(٢٥٨) FRUS, Ibid_____________, No. 262, P. 445, Feb. 1, 1957.

(٢٥٩) Ibid__________________, No. 259, P. 417-424, Jan. 30, 1957.

(-) Ibid__________________, No. 261, P. 439, Jan. 31, 1957.

(٢٦٠) محمد حسنين هيكل، حكاية قرب النهاية، مقالة، جريدة الأهرام، عدد ١٣/٥/١٩٦٦.

(٢٦١) ________، الليلة والبارحة، مقالة، ________، عدد ٢٠/٥/١٩٦٦

(٢٦٢) Ibid__________________, No. 262, P. 444, Feb. 1, 1957.

(٢٦٣) Ibid__________________, No. 259, P. 419, Jan. 30, 1957.

(٢٦٤) Ibid___________________, No. 261, P. 432, Jan. 31, 1957.

(٢٦٥) Ibid___________________, No. 259, P. 422, Jan. 30, 1957.

(٢٦٦) Ibid___________________________, P. 421n.

(٢٦٧) Ibid___________________________, P. 421, __________.

(٢٦٨) Ibid___________________________, P. 427, 340________.

(٢٦٩) Ibid___________________, No. 260, P. 424-426, _______.

(-) Ibid___________________, No. 271, P. 473, Feb. 7, 1957.

(٢٧٠) Ibid___________________, No. 273, P. 482, Feb. 8, 1957.

(٢٧١) Ibid___________________, No. 259, P. 422-423, Jan. 30, 1956.

(٢٧٢) ـــــــــــــ، الاستعمار لعبته الملك، ص ٩٨.

(٢٧٣) عيّنه الرئيس أيزنهاور مساعداً خاصاً له، بدرجة سفير، لتسويق المشروع.
Ibid_______, Vol. XII, P. 439.

(٢٧٤) Ibid________, Vol. XVIII, No. 166, P. 467, March 15, 1957.

(٢٧٥) مذكرات محمود، جـ٢، ص ١٨١.

(٢٧٦) Ibid________, Vol. XVII, _______, P. 310n, Feb. 28, 1957.

(٢٧٧) Ibid_________, Vol. XIII, No. 263, P. 447, Feb. 1, 1957.

(٢٧٨) محمد حسنين هيكل، ملفات السويس، ص ٦٠٣.

(٢٧٩) The New York Times, Feb. 7, 1957.

(٢٨٠) Childers, Erskine, Op. Cit., P. 112.

(٢٨١) ممدوح عارف الروسان، العراق والسياسة العربية ١٩٤١-١٩٥٨ (رسالة دكتوراه – جامعة القاهرة ١٩٧٧) ص ٢١٦.

(-) مذكرات أكرم الحورانى، جـ ٢، ص ٢٢٢٨.

(٢٨٢) FRUS, 1955-1957, Vol. XIII, No. 261, P. 439-440, Jan. 31, 1957.

(٢٨٣) Ibid__________________, No. 271, P. 470, Feb. 7, 1957.

(٢٨٤) وحيد الدالى، أسرار الجامعة العربية وعبد الرحمن عزام، ص ٤٤٩ (مطبعة روزاليوسف ١٩٨٢).

(٢٨٥) جريدة الأهرام، عدد ١٩٥٧/٣/٢٣.

(٢٨٦) ________، عدد ١٩٥٧/٣/٤.

(٢٨٧) الق ـقام أنور السادات، وزير الدولة، صقر الجزيرة: سعود كما رأيته، مجلة الهـلال، عدد مارس، ١٩٥٦.

(٢٨٨) أنور السادات، قصة الوحدة العربية، ص ١٨٩- ١٩٠.

(٢٨٩) Ibid__________________, No. 261, P. 435, Jan. 31, 1957.

(٢٩٠) جريدة الأهرام، عدد ١٩٥٧/٢/١٠.

(٢٩١) FRUS, 1958-1960, Vol. XII, No. 239, P. 538n, May 14, 1957.

(-) ________، عدد ١٩٥٧/٥/١٢.

(٢٩٢) Seale, Patrick, The Struggle for Syria, PP. 289 (London 1965).

(٢٩٣) Ibid__________, Vol. XVII, No. 19, P. 30, Jan. 1, 1957.

(٢٩٤) Ibid, 1955-1957, Vol. XII, No. 165, P. 394, Dec. 7, 1956.

(٢٩٥) فوزى أسعد نقيطى، نفس المرجع، ص ٤٦٣-٤٧٦.

(٢٩٦) نفس المرجع، ص ٤٧٦ - ٤٨٢.

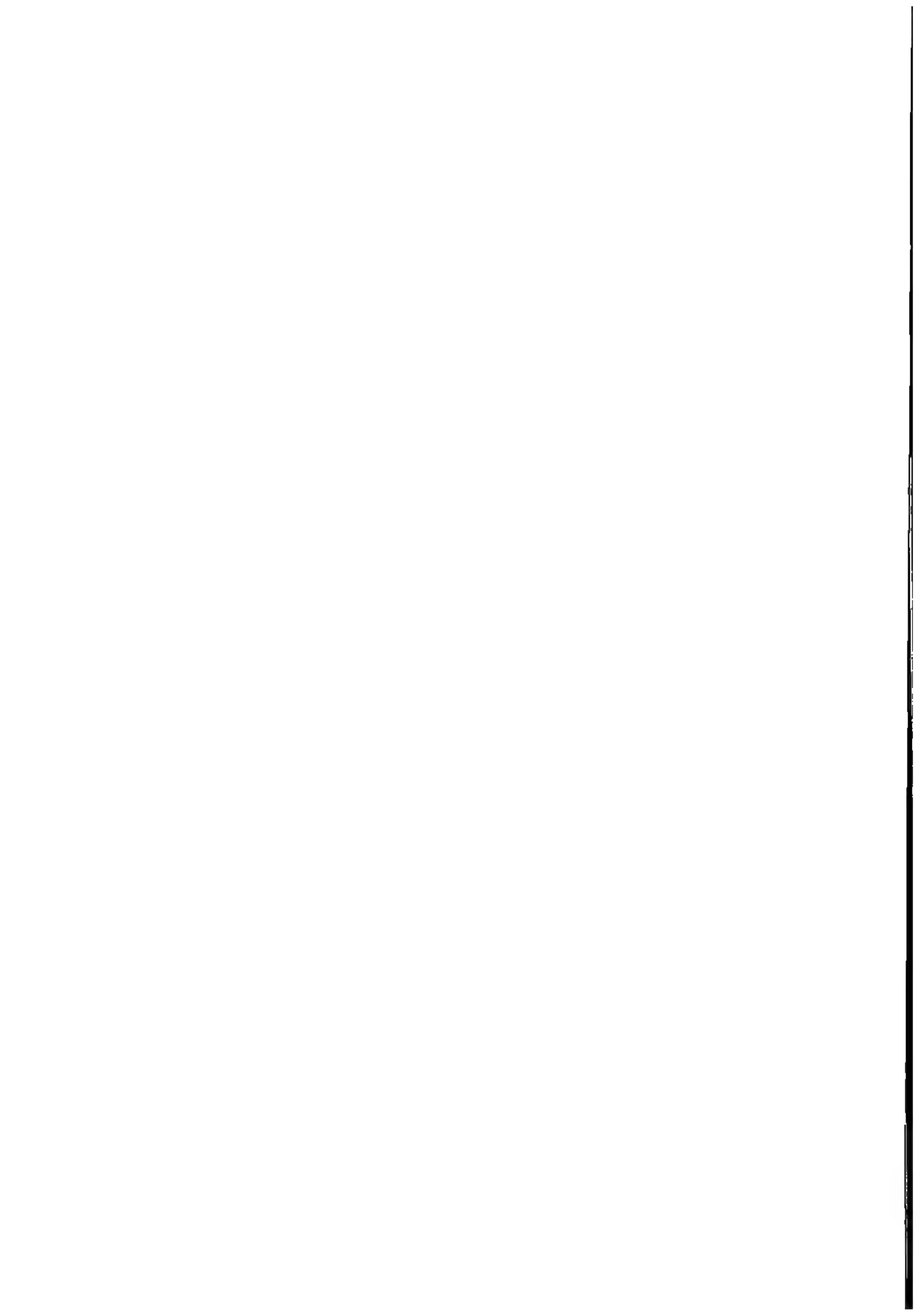
(٢٩٧) Ibid__________, Vol. XVII, No. 244, P. 462, March 21, 1957.

(٢٩٨) محمد حسنين هيكل، عبد الناصر والعالم، ص ٢٨١ (بيروت ١٩٧٢).

(-) Hirst, David and Beeson, Irene, Sadat, PP. 94. (London 1981)

(-) جاسم علوان، مقابلة فى منزله مساء ١٨/٥/١٩٨٨.

(-) سامى شرف، عبد الناصر .. كيف حكم مصر، ص ٢٧١ (القاهرة ١٩٩٦).



موقف الولايات المتحدة الأمريكية تجاه أزمة السويس١٩٥٦ في ضوء نظرية سياسة الارتباط *

د. محمد عبد الوهاب

لم تحظ إستراتيجية (الارتباط)، أي إستخدام الحوافز بجانب أدوات أخري للسياسة الخارجية لإقناع الحكومات بتغيير جانب من سياستها أو أكثر إلا بقليل من البحث، إذ تركز اهتمام الباحثين وواضعي السياسات والنقاد علي البحث عن الوسائل المعروفة للسياسة الخارجية ــ وبصفة خاصة استخدام القوة المسلحة وفرض العقوبات ــ عند التفكير في مهاجمة قدرات البلد المستهدف والاضرار بها أو تقليصها إلي غير ذلك.(١)

وقد شاع تعبير الارتباط هذا في خضم الارتباط البناء التي كثر من حولها الجدل والتي أتبعتها الولايات المتحدة في بعض الأحيان. بيد أن المصطلح نفسه ظل مصدرًا للبلبلة، فعند الصين يبدو أن الكلمة تعني ببساطة إقامة علاقات طبيعية، وفي الألمانية لا توجد لها ترجمة، وفي الانجليزية فإن المفهوم الكامن وراء الكلمة غير واضح بالنسبة لهم.

وفي الناحية التطبيقية هناك تداخل كبير في الاستراتيجيات خاصة عندما يستخدم تعبير"إنهاء أو رفع عقوبات" كحافز إيجابي. ومع ذلك فإن السمة المميزة لاستراتيجيات الارتباط هي إعتمادها علي توفير أو تقديم الحوافز لتشكيل سلوك البلدان التي لدي الولايات المتحده خلافات كبيرة معها. ففي أثناء الحرب البارده ــ وهي فترة بحثنا ١٩٥٦ ــ تغاضت الولايات المتحدة عن سلوك بعض

القيادات والزعامات لصالح ضمان تأييدهم لها ضد الشيوعية[٢] لتحقيق الأغراض التي تسعي إليها.

وقد أثيرت قضية العقوبات ومدى تأثيرها حين اتضح لـصانع القـرار الأمريكي أن العقوبات تثير عادة نتائج غير مقصودة، مثل تقوية النظم البغيضة وفي ضوء هذه النتائج حدث تسليم متزايد بـأن الاعتمـاد فقـط علـي الأدوات الجزائية والعقوبات الاقتصادية بصورة فجة، نادراً ما يمثل اسـتراتيجية فعالـة للسياسة الخارجية الناجحة. وقد كان تزايد الوعي بهذا وراء الدعوى لاستكشاف إستراتيجيات جديدة لا تعتمد كلية علي العقوبات في تحقيـق أهـداف الـسياسة الامريكية.

ومثلما تعرضت فاعلية العقوبات للمناقشة والتساؤل، فقد خـضع مبـدأ إستخدام القوة العسكرية لنفس التساؤل. ورغـم كونهـا أداة رئيـسية للـسياسة الخارجية فإن إستخدامه مكلف وليس من المؤكد بأي حال معرفـة مـاإذا كـان سيحقق أهدافه، فضلا عن قدرة النظم المعادية علي التحـدي والـصمود فـي مواجهه التفوق العسكري والتكنولوجي.[٣]

وربما أدرك صانع القرار الأمريكي تلك المحاذير في تناوله وتعامله مع أزمة السويس إذ كانت رؤيته نابعة من نظرية سياسة الارتباط التي عبر عنهـا جورج كينان أحد خبراء سياسة الحرب الباردة بقوله "إن سياسة الولايات المتحدة كانت تصاغ بأمل أن تؤدي في النهاية إلى تليين وتطريـة النظـام والمجتمـع لصالحها".[٤] كان هذا تعبيراً عن السياسة الأمريكية في ظل الحرب الباردة والتي لعب كنان دوراً في صياغتها.

ويبدو واضحا أن واشنطن أدارت أزمة السويس ١٩٥٦ من هذا المنطلق والسؤال الذي يطرح نفسه هنا ما هي المعايير التي حكمت واشنطن في إدارتها للأزمة ــ والتي لم تكن وليدة قرار عبد الناصر بتأميم القناة في ١٩٥٦ ــ بل كانت محصلة وردود أفعاله تجاه سياسات الغرب ضد مصر وخاصة منذ نهايات عام ١٩٥٥ وبدايات ١٩٥٦ ــ إن الأمور كلها كانت تشير الي مدى العداء الذي سيطر علي العلاقة بين الغرب ومصر. وكان أوضح دليل علي ذلك ما ورد في المذكرة غاية السرية والتي أرسلها سير ولتر مونكتون W-Monckton وزير الدفاع البريطاني الي وزير الخارجية الأمريكي جون فوستر دلاس والمؤرخه بتاريخ ١٠ ابريل ١٩٥٦ والتي تضمنت ستة نقاط أساسية وأوضحت أن بريطانيا كانت تدرس الموقف بعناية شديدة ذلك أن الامور كانت تسير بسرعه في خط معاكس لمصالحهم وهو ما عبر عنه وزير الدفاع البريطاني في مذكرته التي كانت أقرب ما تكون إلي رسالة تحريض ضد مصر التي تهدد "مصالحنا جميعا".

ومن الملفت للنظر أن بريطانيا قد أبدت انحيازا واضحا لإسرائيل مختلقة لها المبررات لشن حرباً وقائية ضد مصر عقاباً لها علي دورها في المنطقة العربية والذي لا يتماشي مع المصالح الغربية وخاصة البريطانية منها "واستغلالا لعقدة الخوف من إنتشار الشيوعية والتي أصبحت الهاجس المسيطر علي صانع السياسة الامريكية فإن المذكرة في الجزء(د) تذكر" بأن السبب الثاني الذي يدعونا للقلق هو النجاح الملحوظ الذي حققته الشيوعية في مصر .. فإذا لم نقم بعمل سريع لتلافي هذا الخطر فإننا سوف نجد أن الشيوعية قد حققت نجاحات منقطعة النظير علي كافة القوي الغربية المتحالفة دون استثناء". وتضرب المذكرة علي نفس الوتر في الجزء التالي، إلا أنها في الجزء المشار

إليه بحرف (E) ، فإن الجانب البريطاني فجر قضية إمكانية تحكم مصر في قناة السويس فتذكر: "أن ازدياد قوة عبد الناصر بلا شك سوف تعطيه القدرة علي التحكم دولياً في إستخدام القناة ".

وفي نهاية المذكرة يحاول الجانب البريطاني أن يستحث الجانب الأمريكي علي ضرورة تنسيق المواقف وتوحيد السياسات "لهزيمة مخططات عبد الناصر الرامية للحفاظ علي توازن القوي لصالح العرب" وأن هذا لن يتأتي إلا بأن نقوم ببناء سياسة متماسكة لتقوية أصدقاءنا في حلف بغداد وكذا أن نسعي جاهدين لإحداث شقاق بين عبد الناصر والسعوديين والسوريين، وأن ننسق في المستقبل قوتنا ومساعداتنا لمواجهة الخطر الشيوعي علي الصعيدين الداخلي والخارجي وفي النهاية فإنه علينا ان نؤمن مصالحنا البترولية في الشرق الأوسط وإبعادها عن الأخطار المحدقة بها"[٥]

وقد بدا واضحا أن طبول الحرب أخذت تدق وأن إمكانية التعاون العسكري أو مباركة أي عمل عسكري من جانب إسرائيل ضد مصر لم تعد مستبعدة بل أصبحت موضع ترحيب من جانب بريطانيا، وأصبح الخوف من إمكانية سيطرة عبد الناصر علي قناة السويس كمجري ملاحي يشكل مصدر قلق لدي بريطانيا، وسيطرت الرغبة في التنسيق مع الولايات المتحدة علي صانع السياسة في لندن. أما بالنسبة لواشنطن فإن العداء لعبد الناصر او سياسته لم يكن يختلف كثيراً عن موقف بريطانيا. وقد وضح هذا في تقرير غاية السرية عنوانه "سياسات شرق أوسطية" رفعه وزير الخارجية الأمريكي جون فوستر دلاس الي الرئيس أيزنهاور في ٢٨ مارس ١٩٥٦ في اعقاب فشل مهمة اندرسون لاقرار السلام بين مصر وإسرائيل[٦]، إلا أن واشنطن أبدت بعضاً من

التحفظ إزاء إظهار العداء التام لعبد الناصر وهو ما وضح في بداية التقرير الذي ذكر "إنه يجب علينا تجنب قطيعة علنية مع عبد الناصر مما قد يدفع بــه إلــي الارتماء في احضان السوفيت وتحويل مصر الي دولة تابعة .."، بل لقد أضاف "أنه لابد من إعطاء عبد الناصر الفرصة لتخطي هذه العقبه واســتعادة علاقتــه بالغرب بصورة طبيعية إذا رغب في ذلك" [٧]. وكما وضح مــن بــدايات هــذه المذكرة فإن الولايات المتحدة إنطلاقاً من "سياسة الارتباط" لم تغلق الباب تمامــاً أمام إمكانية إقامة نوع من التصالح مع عبد الناصر.

غير أن المذكرة اشارت إلي ضرورة تنسيق المواقف مع بريطانيــا لاتبــاع سياسات محددة تكمن في الآتي :ـ

الغاء جميع صفقات السلاح لمصر سواء علي المستوي الحكومي أو التجاري من قبل الحكومتين الأمريكية أو البريطانية، وتأجيل النظــر فــي المفاوضــات الجارية بشأن سد أسوان – العالي، وتأجيل إتخاذ أي خطــوات إيجابيــة بــشأن برامج المعونة الأمريكية لمصر والتي كان مقدرا لها مئة مليــون دولار عــام ١٩٥٦ طبقاً لبرنامج المعونة. وفي الفقرة الرابعة تشير الي نقطة هامــة وهــي الخاصة "بزيادة تأييد وتدعيم دول حلف بغداد دون الإعلان عن الانضمام إليه"[٨]

وفي الفقرة الثامنة من المذكرة فإن دلاس لم يتوان عــن توضــيح موقــف الولايات المتحدة من قضية الصراع العربي– الإسرائيلي ونادي بضرورة عــدم إقدام إسرائيل علي أي عمل عسكري ستكون نتائجه في الغالب الأعــم لــصالح الاتحاد السوفيتي. وهنا يتضح إختلاف المواقف والرؤي بين بريطانيا والولايات المتحدة فبينما بريطانيا طبقاً لمذكرة وزير دفاعها لا تجد غضاضة فــي قيــام اسرائيل بشن حرب علي جيرانها فإن الولايات المتحدة تري ضــرورة التــزام

الجانب الإسرائيلي بضبط النفس، وهو ماتردد في أكثر من موقف و مناسبه [٩]. كما يلاحظ أيضاً أن قرار عدم تمويل صفقة بناء السد العالي قد بدأ يدرس في واشنطن بصورة جادة في هذه الفترة بالذات (مارس ١٩٥٦).

ومن هنا يتضح لنا أنه رغم إتفاق واتساق المواقف ظاهرياً بين الدولتين الحليفتين قبيل أزمة السويس ١٩٥٦، إلا أنه كانت هناك فوارق جوهرية في استراتيجية ورؤية كلا منهما تجاه أحداث المنطقة [١٠]، فلقد كانت الولايات المتحدة وبالتحديد في نهاية يونيو ١٩٥٦ وطبقاً لتصريحات ريتشارد نيكسون نائب الرئيس تستبعد قيام حرب في منطقة الشرق الأوسط في المستقبل القريب[١١]، إلا أن الأمور بدأت تتأزم، ذلك أن إدارة ايزنهاور أصبحت في وضع لا تحسد عليه في عام الانتخابات، فجهودها لاتمام سلام أو تحقيق صيغه تعايش بين مصر واسرائيل لم تثمر، كما لم تنجح مجهوداتها لتكتيل الدول العربية ضد الاتحاد السوفيتي بسبب معارضة عبد الناصر الغاضبة إلى حد ما. وبدأت الادارة في الرضوخ أمام الضغوط الداخلية ولم تعد قادرة علي المقاومة خاصة بعد فقدان الأغلبية في داخل المجالس التشريعية [١٢]. ولقد بدأت الأحداث تتصاعد وبلغت ذروتها بإصدار دلاس في ١٩ يوليو ١٩٥٦ قراره بسحب عرض تمويل السد العالي. ومن الواضح وطبقاً للعديد من المصادر بأنه كان قراراً شخصياً من وزير الخارجية الامريكي وأنه لم يستشر بريطانيا أو البنك الدولي كشركاء له، وهو ما أجمعت عليه العديد من المصادر والروايات الشفهية والمقابلات [١٣]. لقد كان قرار سحب العرض بمثابة إهانة وتقليل لمصداقية النظام المصري آنذاك واعتبره عبد الناصر بمثابة نوعاً من التحريض الأمريكي للشعب المصري ضد قيادته[١٤].

كانت التوقعات الأمريكية في ٢٥ يوليو ١٩٥٦ تشير إلي أن رد فعل عبد الناصر سوف ينحصر "في انهاء العمل بمشروع النقطة الرابعة" وذلك طبقاً لتحليل الموقف الذي قامت به إدارة الشرق الادني في وزارة الخارجية الامريكية والمقدم الي القائم بعمل وزير الخارجية. وقد أوضحت إدارة الشرق الادني بأنه في حالة إقدامه علي هذه الخطوة فإن علي الولايات المتحدة "أن توقف جميع انواع المعونات الاقتصادية وتقوم بسحب جميع القائمين عليها من الفنيين" (١٥)

وكان هذا التوقع يتمشي مع واقع الاحداث فقرار سحب عرض تمويل المشروع كان أمريكيا والذي اعلنه بصورة فجة وزير خارجيتها وكأنه يوجه صفعة للنظام المصري ولم يكن أحد يدرك ان عبد الناصر وطبقاً لرؤية محمد حسنين هيكل قد اتخذ قرار تأميم شركة القناة في اليوم التالي لسحب العرض "في صبيحة يوم السبت ٢٠ يوليو ما بين الساعة العاشرة والحادية عشر" (١٦)

وكأن عبد الناصر بقراره هذا أراد ان يبدأ معركة جديدة مع الغرب وخاصة مع بريطانيا، وهنا علينا أن نطرح عدة أسئلة حول من هو المستفيد من جعل قناة السويس تحت ادارة غربية او دولية .. وهل وضع الولايات المتحدة سوف يتأثر جراء نقل ملكية الشركة من جهة الي أخري ؟ ام ان بريطانيا كانت تري في الاجواء نوعاً من التحدي الذي يتماشي مع سياسات عبد الناصر في الفترة السابقة .. وهل ارادت أجهزة صنع القرار في واشنطن ان تستثمر الموقف لصالحها وتفوت الفرصة علي الاتحاد السوفيتي بعدم الاقدام علي عمل غير مدروس .. وهل كانت هناك اسباب ودوافع جعلت واشنطن تنتهج سياسات محددة تجاه الموقف الجديد يحدوها الامل في استثمار هذه السياسات لتحقيق سياستها واستراتيجيتها علي المدي البعيد. وسوف نحاول أن نجيب علي هذه

الأسئلة وغيرها من خلال اجهزة صناعة القرار الامريكي وما يعرف بالدبلوماسية التحتية لتجنب الحرج مع حليفتها التقليدية، ورغبة في استثمار هذه الدبلوماسية لتقوية أواصر علاقتها بقوي معينة في المنطقة هادفة من ذلك إضفاء نوعاً من المكانة علي هذه الانظمة لاستثمار وضعها الجديد في الخطط المستقبلية. وهناك سؤال آخر حول تحديد القائم علي عملية صناعة القرار في واشنطن .. وهل كانت وزارة الخارجية "ملكيةخاصة" لدلاس أم انه كان اشبه بالمحامي الذي عليه ان يحقق رغبة موكله .. وما هو دور الاجهزة الاخري في إدارة الازمة.

كل هذه الافتراضات تدفعنا الي ضرورة القاء الضوء علي المحددات التي حكمت السياسة الامريكية أثناء الازمة خاصة منذ بدايتها ونراها ترتكز علي الآتي :

كان أيزنهاور علي رأس الادارة الأمريكية اثناء أزمة السويس وكان بمثابة نمطاً فريداً فهو وان لم يكن جمهورياً بحكم الانتماء الحزبي والعقائدي الا انه قد دفع به ليخوض الانتخابات الرئاسية ممثلا للحزب الجمهوري[١٧]. وأعطته تجربة أوروبا اثناء الحرب العالمية الثانية وقيادته لحلف الأطلنطي(NATO) في اعقابها وعياً تاماً بحقيقة الاوضاع في أوروبا ما بعد الحرب وأن ما كان قد أصبح ماضيا عفا عليه الزمن. وقد وضح هذا في تعامله مع بريطانيا حليفه الاول التي ارادت ان تحتفظ بمكانتها القديمة فكان قوله دائما لدلاس " انه لا يود الاستماع الي هذا الشيخ العجوز (تشرشل) الذي يردد اصداء الماضي في حجرة مغلقة وأن عليه ان يتوائم مع تطور الاحداث " [١٨]

لقد ظن البعض أن أيزنهاور كان رجلاً عسكرياً فقط ولم يدرك العديد منهم أنه كان لديه أدراكا سياسياً واسعاً لانه كان أخر الجنرالات الكبارالذين قادوا حروبا بشرية علي مستوي التعبئة الشاملة لأمم وشعوب. ولقد فرضت التجربة نفسها علي أيزنهاور فقد كان قائد اكبر جيش متحالف في التاريخ، وقد فرض عليه هذا ان يقوم الي جانب دور الجنرال بدور السياسي الذي يدير علاقات إنسانية متعددة الاطراف وتتعدد فيه الثقافات [١٩]. كما كان مدركاً ادراكاً تاماً أن أمريكا تندفع إلي الطريق الامبراطوري ، وأن عليها طبقاً لهذا أن تقود أوروبا والعالم وليس العكس، وأن عليها أن تتصدي للمنافسة عسكرياً مع الاتحاد السوفيتي وتوابعه ولذا فإن علي الجميع طبقا لمعاهدة حلف شمال الاطلنطي أن يدخلوا تحت المظلة والحماية الأمريكية وليس العكس [٢٠]. ومن هذا المنطلق ومن خلال عقليته العسكرية فإن علي القيادة أن تفرض إرادتها وطاعتها علي الآخرين وليس العكس. وعلي المستوي الداخلي ومن واقع الوثائق كان إيزنهاور هو المتحكم في الأحداث وليس تشارل سديلسون وزير دفاعه فهو يري نفسه مسؤولا عن الدفاع وصيانة الامن القومي، وكذا بالنسبة للسياسة الخارجية فقد جعلها تحت سيطرته وليس كما كان شائعاً تحت سيطرة دلاس. فايزنهاور إنطلاقاً من حقه الدستوري ومن خلال ماضيه الطويل هو الذي يسيطر علي الاحداث دون منافس وكانت علاقته بدلاس تقوم علي التعاون وكان يري فيه المعبر عن سياسته الخارجيه "بأمانة". لان هذه كانت ارادة ايزنهاور وكان دلاس من الفطنة مستثمراً طبيعة علاقته مع رأس الادارة فكان يصنع السياسة الخارجية في الخفاء " فاليد الخفية افضل من لا شيء" [٢١]. ولقد وضحت طبيعة في إدارة العلاقات مع الاتحاد

السوفيتي والتي كانت تقوم علي "أساس تجنب الحرب أفضل من الرغبة في اقامة سلام" وهو ما عرف بسياسة الحافة.

لقد كان أيزنهاور هو الذي يصنع السياسة من وراء الستار وليس دالاس[٢٢]. وفي هذا الخصوص نلاحظ أن إدارة أيزنهاور أنتجت نمطاً فريداً في العلاقة بين السلطتين التنفيذية والتشريعية كان يمثل "عصرا ذهبيا" في تلــك العلاقــة بــين السلطتين في زمن فقد الجمهوريون فيه السيطرة علي الكونجرس بمجلسية. فلقد استطاع ان يوجد نوعاً من التوازن الناجح بين جناحي السلطة غير متخلي عــن كونه القائد الاعلي الذي يجب ان يكون له الامر والقرار في النهايــة [٢٣] وقــد اتضح أن أيزنهاور نجح في ان يتخطي السلطة التشريعية بمخاطبــة الجمــاهير مباشرة من خلال وسائل الاعلام محققاً بذلك الهدف الذي كان يصبو اليه وهو ما فعله في تعامله مع ازمة السويس.[٢٤]

لقد كان أيزنهاور ــ الذي لم يكن حزبياً بحكم تكوينه ــ مدركاً في تعاملــة مع الازمات أن مكانة الاحزاب بدأت تتدهور، وأنه يمكن مخاطبــة الجمــاهير واقناعها من خلال وسائل الاعلام كما اشرنا من قبل ــ متخطياً في ذلك البنــاء الحزبي وأن الاتجاه السائد في مجال السياسة أن التصويت يتم للشخص ولــيس للحزب وهو ما أدركه أيزنهاور في إدارته للأمور. وكان الي جانبه جون فوستر دلاس وزير الخارجية (١٩٥٣ــ١٩٥٩) الذي كان يعد نفسه منذ نعومة أظــافره لان يشغل منصب وزير الخارجية فقــد كــان أبــن اخــت روبــرت لنــسينج R.Lansing وزيرخارجية الرئيس ودرو ويلسون أثناء الحرب العالمية الأولي، وكان قد صاحبه وحضر معه مؤتمر الصلح في فرساي (١٩١٩) ورأي بعينــه كيف ان منصب وزير الخارجية قد دمر بسبب أدوارد هاس مبعــوث ويلــسون

الشخصي. كانت هذه التجربة ومعايشته لما حدث للنسينج ربما سبباً في اقناعــه بإن يجعل علاقته مع رأس السلطة التنفيذية مباشرة حتى لا تكون موضع تدخل من قبل الآخرين، وأن عليه ان يكون "الوزير الاول لرئيس الجمهورية والمسئول الوحيد عن إدارة السياسة الخارجية" (٢٥) وهكذا أدرك دلاس منذ عام ١٩١٩ وما بعدها ومن خلال تجربته الشخصية ان عليه الا يدخل في أي نوع من المناقــشة أو الظهور الفج الذي قد يثير غيرة ومشاعر رأس الادارة، وكان هذا ما وقع فيه لنسينج أثناء رئاسة وفد بلاده في مؤتمر الصلح في باريس (٢٦)، وما أثار ضيق الرئيس ويلسون في الوقت نفسه. ويبدو واضحا ان هذه التجربة الشخصية املت علي دلاس ان تكون علاقته مع رأس الادارة علي شاكلة العلاقة بين المحــامي وموكله، وعلي المحامي ان يكون في خدمة موكله ويدافع عن مصالح بصورة لا تثيره أو تجعله في وضع ادني منه (٢٧)

أما فيما يتعلق بعلاقته بمرؤسيه من موظفي وزارة الخارجيه ومدى تأثيرها علي إدارته للأزمات وانتهاج السياسات، فالحاصل أن دالاس كان لايثــق فــي المؤسسة التي تولي رئاستها، ورغم قوة مكانته لدى إيزنهــاور، إلا أنــه كــان منعزلاً عن أعضاء السلك الدبلوماسي الذي كان من المفترض ان يكــون علــي رأسهم (٢٨). لقد كان يعد هو وزارة الخارجية إذ كان متحكماً بصورة قاطعة في عملية رسم السياسات، وكأن الوزارة عزبته الخاصة. وساعده علي ذلك ما أولاه أيزنهاور عبر عنها بقوله "إنني اعتبر وزير الخارجية المسئول الأول في مجلس الوزراء Cabinet الذي يقدم نصائحه ويساعدني في صياغة السياسة الخارجية وضبطها، وقناة التوصيل المسئولة عن تبليغ رسالتي الي الهيئة التنفيذية (٢٩).

إن ما وصل إليه دلاس من مكانة تؤكده المقولة التي شاعت بأنه كان نائبـاً للرئيس للشؤون الخارجية كما بدا واضحا من تقرير لجنة جاكسون (Jackson Committee) بشأن علاقته بمجلس الامن القومي الامريكي (NSC) [٣٠]، حتي ان شيرمان ادمز (Shrman Adams) كبير موظفي البيت الابيض الذي كـان بحكم صلته بايزنهاور وكذا وظيفته له الحق في مراجعة كافة الامور والسياسات علي الصعيدين الداخلي والخارجي لم يكن يمارس أي دور ملحوظ فـي مجـال السياسه الخارجيه التي ظلت أوراقها وملفاتها في نطاق المكتب البيضاوي وغير بعيدة عن أيزنهاور ودلاس، بل لقد كان أيزنهاور يصف دلاس بأنه رسول العهد القديمOld Testament Prophet [٣١]

لقد كان دلاس ــ وطبقا لما ذكره شيرمان أدمز في مذكراته ــ [٣٢] الوحيـد الذي يمكن له أن يقابل أيزنهاور مباشرة دون سابق ميعاد مختلفاً في ذلك عـن جميع المساعدين والمعاونين للرئيس، إلا أن العلاقة بين دلاس وأيزنهاور رغماً عن هذا كان يشوبها نوعاً من الخصوصية والغموض فدلاس قد اطلق عليه لقب A maximalist Secretary of state [٣٣] بمعني الاشتراكي المتطرف الذي يسعي للاستيلاء علي السلطة والاستحواذ عليها دون مواجهة. فإذا أخـذنا بهـذا التفسير اللغوي لمعني هذا اللقب لوجدنا أنفسنا أمام ظاهرة فريدة في العلاقة بين رأس السلطة ووزيره الاول أو وزير خارجيته، ذلك أن دالاس تمكـن بمهـارة ملحوظة وقدرة على أن يظهر بمظهر المحامي بالنسبه لموكله مع الاحتفاظ فـي الوقت نفسه بالحق في تنفيذ سياساته وأهدافه دون ضـجيج أو صـدام. فـرغم طبيعته المحافظة وارتباطه بفلسفة الحزب الجمهوري الا أنه كان مؤمنا بفكـرة العالمية Internationalism، وكان موقفه المعارض للشيوعية جعل منه عنصرا

مثاليا لدى لاختيار الجمهوريين الانعزاليين، فقد كان قريباً بفكره من الـسناتور فيندبرح رئيس لجنة العلاقات الخارجية لمجلس الشيوخ في الاربعينيات إذ آمـن مثله بأهمية الدور الامريكي علي المستوي العالمي ونبذ فكرة العزلة وأن علـي أمريكا ان تواجه الخطر الشيوعي [٣٤]. وكان هذا بلا شك يتماشي مـع الـنمط الامبراطوري الذي اصبح مسيطراً علي السياسة الامريكية، ونـال استحـسان الديمقراطيين من المعارضين وكذا معارضه بعض المتشددين من الجمهـوريين المحافظين [٣٥] مما جعل دلاس يصف طبيعة عمل وزيـر الخارجيـة بالعمـل المستحيل Impossible Job وقد لخص بول بنتز في مقـال لـه فـي مجلـة النيويورك تايمز انه من الصعوبة بمكان أن يحتفظ وزير الخارجية بوشائج الود مع أعضاء الكونجرس وبالصحافة ويحتفظ في الوقت نفسه بثقة واحترام الحلفاء والاصدقاء في الخارج" وهو ما كان يدركه دلاس[٣٦] .

ورغم هذه المقولة وغيرها هل استطاع دلاس أن يحقق هذا من خلال أدارته لأزمة السويس.

إن طبيعة شخصية دلاس وخبرته جعلت البعض يعتبره نمطاً فريـداً فهـو الشخص الذي يطلق عليه (One man Show) فهو لا يعطي لمساعديه الفرصة لأداء أعمالهم فكما ذكر خليفته كريستيان هيرتر **Christian Herter** والذي كان عضوا بمجلس النواب في أواخر حياته "انه من الصعوبة بمكان أن نعرف مـا كان يفكر فيه دلاس أو ماينوي القيام به " [٣٧] وكانت آخر نصائحه لخلفـه فـي أبريل ١٩٥٩ قوله "إنني حاربت كل جهود التدخل بيني وبين الرئيس وأنصحك بأن تفعل نفس الشيء **"I would advise you to do like wise"**[٣٨] وهذا يـدل علي عقليته في إدارة وزارة الخارجية وصنع القرار، ورغماً عن هذا الانطبـاع

فإن أيزنهاور من خلال موقفه وخبرته لم يترك الحبل علي الغارب لدلاس فـــي إدارة الشئون الخارجية بل كثيرًا ما كان يكبح جماح خطواته فيما يتعلق بــإدارة الصراع خاصة مع الاتحاد السوفيتي زمن الحرب الباردة (٣٩)

لقد احتفظ دلاس بمكانة خاصة لدي رأس الادارة مما جعل البعض يظن أن القرارات السياسية من صناعته غير مدركين أصابع أيزنهاور الخفية والتي كانت دائما وأبداً تضرب علي وتر خطورة إنتشار المد السوفيتي من واقع سابق الخبرة والعمل الميداني. لقد أثرت طبيعة العلاقة بين رأس الادارة وكبير مساعدية علي إدارة أزمة السويس التي طبق فيها الرجلان نظرية الارتباط بصورة أو بأخري.

وهذا يدعونا الي القاء الضوء علي فرع آخر من أفرع السلطة التنفيذيـــة ألا وهو وزارة الدفاع وهل كان لها دوراً أم أن الدور كان ينحصر فقط في مؤسسة الرئاسة (البيت الابيض ووزارة الخارجية) .

لقد كانت وزارة الدفاع أثناء الازمة ملحقة بالرئاسة حيث كـــان إيزنهـــاور يتصرف وكأنه وزير الدفاع، فقد كان رجلا عسكريا في الأصل رأى نفسه اقدر من جنرالاته علي فهم الامور العسكرية حيث كان يتفوق عليهم بنجمة* تميـــزه عن أعلاهم رتبة. وكما قال جرين شتاين Green Stein "إن أيزنهاور لم يكـــن بحاجة الي خبير عسكري لتولي مسئولية وزارة الدفاع لأنه كان يعلم عنها اكثر من غيره. ولهذا فقد كان هذا الفرع من الادارة من اكثر الافرع كفـــاءة. ولقـــد وضح هذا في رده علي مساعده للامن القومي بشأن ميزانية الوزارة بقوله "لقـــد أعطيت تعليماتي لويلسون وزير الدفاع وعليهِ ان ياخذ بها دون أدني تغيير (٤٠) وهذا يلقي الضوء علي كيفية ادارته للازمة.

أما اذا تطرقنا الي المخابرات المركزية CIA فانه يلاحظ تصاعد دورها وتناميه مع تصاعد الحرب الباردة بالاضافة الي خلفية أيزنهاور العسكرية التي ساهمت بلا شك في تعاظم دور أجهزة العمل السري في صنع السياسات، وهو ما وضح في إيران وجواتيمالا. وقد تنامي دور هذا الجهاز مع تولي آلن دلاس إدارته وهو شقيق وزير الخارجية. بالاضافة الي أن عمل هذا الجهاز لم يكن محل مراجعة من قبل الكونجرس أو من وسائل الاعلام وخاصة في المدة الاولي من رئاسة آيزنهاور وحتي منتصف الثانية (٤١). وفي هذا الخصوص يلاحظ أن آلن دلاس استخدم شقيقه أداة للتوصيل الجيد لايزنهاور(٤٢). وقد وصل الحال بهذا الجهاز انه كان يعمل منفرداً من حيث تخطيط وتنفيذ كثير من السياسات بعيداً عن وزارة الخارجية وممثليها في العواصم المختلفة وهو ماقد اوضحه السفير الامريكي في القاهرة هنري بايرود (٤٢ ينـاير -٢٠سبتمبر ١٩٥٦) (٤٣) بالاضافة الي العديد من الدراسات التي تؤكد ما سبق (٤٤). ورغم كل هذا إلا ان هذا الجهاز كان يخضع لادارة البيت الابيض خاصة في عهد آيزنهاور الجنرال السابق الذي كان صاحب القرار في النهاية(٤٥).

وهنا علينا أن نطرح هذا السؤال .. ما هي المحددات والاطر التي حكمت إدارة الولايات المتحدة للأزمة إنطلاقاً من نظرية الارتباط.

ان نظرة سريعة علي مدي تأثر الولايات المتحدة بقرار التأميم وسيطرة مصر علي مرفق قناة السويس يتضح لنا أن مصالح الولايات المتحدة لم تكن تتأثر بدرجة كبيرة بقرار التأميم ما دامت القناة مستمرة في اداء وظيفتها ، ذلك أن جملة حمولة السفن الخاصة بالولايات المتحدة لم تكن تمثل سوي ٣,١% من جملة السفن العابرة للقناة، فضلاً عن أن الحكومة الامريكية لم يكن لها مصالح

مالية في شركة قناة السويس[٤٦]. وانطلاقا من هذا فإن الحكومة الامريكية قد أقامت سياستها على أساس تجنب الانزلاق الي عمل عسكري أو التهديد به الأمر الذي كان واضحا منذ بدايات الازمة في برقيات ايزنهاور الي ايدن وبرقيات دلاس الي السفير الأمريكي في لندن [٤٧]. وأكثر من هذا فان الولايات المتحدة قد وجدت ان القيام بعمل عسكري ضد مصر يتناقض مع التصريح الثلاثي الصادر في عام ١٩٥٠ حيث أوضح أيزنهاور لايدن في أحد برقياته "أنه من الصعوبة بمكان في هذه اللحظات أن نري كيف أننا لا نحترم تعهداتنا الكلامية التي سبق وان التزمنا بها " [٤٨] وهو ما قد تردد في الاجتماعات الرسمية في داخل البيت الابيض[٤٩].

ولكن اذا كان هذا علي المستوي الرسمي في الرؤية ومحاولة ايجاد الاعذار او المبررات للاصدقاء أو للحلفاء لعدم الانغماس في عمل عسكري ضد مصر فإنه علي الجانب الآخر نجد أن أيزنهاور من خلال خبرته العسكرية الطويلة يشير الي خطوة الاقدام علي مثل هذا العمل لانه علي حسب قوله لاحد مساعديه " انه في حالة احتلال هذا البلد فانه في الغالب الأعم سوف يصعب الخروج منه " .. بل سوف تكون ضلعاً في احداث الشرق الاوسط الي جانب اسرائيل وبالتالي سوف تخلق موقفاً عدائياً مع العرب لا يمكن محوه وقد لا يجعلك تقيم نوعاً من الصداقة معهم بعد ذلك " [٥٠].

وايمانا منه بمشروعية التأميم فإنه منذ بداية الازمة قد أعطي لمصر الحق في تأميم منشاة قناة السويس لان هذا من وجهة نظره حق طبيعي لها لانها " دولة ذات سيادة **Sovereign Power** أثبتت كفاءتها في إدارة مرفق القناة أفضل

من الأوروبيين في نظره وبالتالي فإن دعوي " الحرب لا تستقيم مـــع الاســباب السالفة الذكر والتي يحاول الاوروبيون خلقها [٥١].

وهكذا حددت الادارة الامريكية موقفها من قضية التأميم ومن القيـام بعمـل عسكري عقاباً لمصر علي مااقدمت عليه. ولكن يظل الـسؤال هــل الايمــان بالمباديء والحقوق والرؤية الاستراتيجية لصانع القرار الامريكي هـي التـي حكمت مواقف الادارة أثناء الازمة ام هنالك عوامل أخري فرضت نفسها علـي الساحة .

من الواضح طبقاً لاستطلاعات الرأي والدراسات فإن الاقدام علـي عمـل عسكري ضد مصر وخاصة من جانب إسرائيل لم يكن محل ترحيب من جانب سفراء دول العالم الاسلامي والعربي بما فيهم سفراء دول حلف بغداد [٥٢] وهـو ما قد أوضحه دلاس في اجتماعاته مع أعضاء الادارة الامريكية. وعلاوة علـي ذلك فقد وضح للأمريكيين بأن الاتحاد السوفيتي سيكون وحده المستفيد في حالة انزلاق الولايات المتحدة الي تأييد العمل العسكري ضد مـصر. وقـد أوضـح الادميرال رادفور رئيس هيئة الاركان الامريكية هذا الموقف في تقرير له بأنه " سيكون من الضرر لمصالح الولايات المتحدة والغرب إذا صار الشرق الاوسط تحت الهيمنة الشيوعية أو منحازاً الي كتلة عدم الانحيـاز" [٥٣]. كمـا جـاءت تحذيرات وكالة المخابرات الامريكية لتؤكد بأنه في حالة إقدام الغرب علي القيام بعمل عسكري ضد مصر فإن الاتحاد السوفيتي لن يتوان عن التحرك صـوب إيران والضغط عليها "مما يتعارض مع استراتيجية الولايات المتحدة الرامية إلي إحتواء المد السوفيتي في منطقة الشرق الاوسط [٥٤]

وأكثر من هذا فإنه في دراسة قدمها وزير الدفاع الامريكي بتاريخ ١٣ يوليو ١٩٥٦ ، إلي رئيس هيئة الاركان المشتركة (JSC) في الملحق -B- أوضح فيها المزايا والعيوب بالنسبة لتأييد الولايات المتحدة للجوء للعمل العسكري ضد مصر حيث أفاد أنه قد يكون للتأييد أثراً عكسياً علي بعض أعضاء دول الجامعة العربية الذين سوف يدينون التدخل البريطاني ("ب" من الفقرة رقم "٩") ، وبالتالي سوف ينسحب هذا علي الولايات المتحدة في حالة تأييدها لبريطانيا وسوف تكون نتائجه وخيمة وسوف يؤدي الي أحداث نوع من الاضطرابات والانقسام لدي دول الجامعة العربية وما يترتب عليه من نتائج سيئة.

كما أشار التقرير الي أن "الولايات المتحدة لها مصالحها الحيوية سواء اقتصادية وعسكرية وسياسية في منطقة الشرق ومن الاجدي الحفاظ عليها" . كما أشار الي حجم الاستثمارات البترولية الامريكية في المنطقة في اعقاب الحرب العالمية الثانية – التي قد تجاوزت مليوني دولار تقريباً وأن ما تملكه الولايات المتحدة من حصص في شركات البترول قد بلغ نسباً عالية فهي تمتلك ١٠٠% من حصة أسهم شركة أرامكو" و٥٠% من حصة شركة البترول الكويتية. ثم ركز التقرير في نهايته علي الاضرار التي سوف تلحق بالولايات المتحدة في حالة انحيازها إلي جانب بريطانيا في القيام بعمل عسكري "لان هذا سوف يدفع دول المنطقة الي الارتباط بالكتلة الشيوعية والانضواء تحت مجموعة عدم الانحياز مما سوف يضر بالمصالح الامريكية بصفة خاصة والغربية بصفة عامة(٥٥)

إن مثل هذا النوع من الدراسات من صناع القرار الي القائمين على الامر من هيئة الاركان يدل دلالة واضحة علي خطورة الازمة، ولقد وضح من هذه

الدراسة وغيرها الرغبة الامريكية في تجنب الانزلاق الـــي العمــل العــسكري للاعتبارات السابقة ولاعتبارات اخري . ولذا فإن ايزنهاور منذ البدايـــة حـــاول إحتواء الازمة التي بدت مهددة للاستراتيجية الامريكية الساعية الي إحتواء المد السوفيتي في منطقة الشرق الاوسط ، ولذا فإنه في مشاورته مع اعضاء إدارتــه طلب "منهم ارسال مبعوث غير رسمي علي مستوي عال للتباحث معه"، وقد وقع الاختيار علي روبرت اندرسون صديقه الشخصي لسابق خبرته في المنطقة [٥٦] وسواء ذهب أندرسون في مهمته ام انه قد عدل عنها فإن هذا الطرح يمثل مدي خطورة الموقف ومحاولة التغلب عليها قبل ان يشتعل فتيل الازمة. لقــد كــان إيزنهاور يدرك ادراكاً جيداً ما أصاب الاسد العجوز من مهانة وتحــد وانهيــار لمجد امبراطورية عفا عليها الزمن وأثر هذا علي قراراته .. وجاء تولي إيــدن رئاسة حزب المحافظين ورئاسة مجلس الوزراء البريطاني بمثابة اختباراً حقيقياً لأيدن : هل هو قادر علي إدارة الازمة بما يتفق مع النمط الامبراطوري القــديم الذي كان يمثله سلفه السياسي العجوز تشرشل الذي ظل علي قيد الحياة وكأنــه أخر أشباح الامبراطورية القديمة ام أن هذا الاختبار سوف يثبت فشله في تولي اعداء الامبراطورية في هذه الفترة الحرجة من التحديات . ان قــضية الخلــف والسلف لعبت دوراً محوريا بالنسبة لايدن وتشرشل وكانت عقدة ايدن "المحافظ" بأن عليه ان يحافظ علي مجد الامبراطورية ، الا انه لم يضع في اعتباره تطور عجلة الزمن وانه من الصعوبة بمكان اعادة عقارب الساعة الي الــوراء . [٥٧] وكان ايزنهاور يدرك هذا جيداً ويري في حليفه القابع علي الشاطيء المقابل ثوراً جريحاً وجهت له ضربة التأميم دون ان يكون مسئول عنها فالولايات المتحــدة هي التي اتخذت قرار بسحب العرض لبناء مشروع السد العالي والعقوبات فــي

نظر الغرب وقعت علي بريطانيا بصفة خاصة ـ وكأنها تتويجاً للتحدي بين عبد الناصر وإيدن [٥٨] وكان هذا مفهوم إيدن. ولكن كان علـي واشـنطن أن تعيـد ترتيب الأوراق بهدوء من خلال موقفها كقائدة للمعسكر الغربي لتجنب الـصدام واضعة في إعتبارها مصالح الغرب عامة ومصالحها خاصة، ومغلبة البرجماتية علي العواطف، وغير مضحية بما حققته من مكانة ومكسب في سبيل أرضـاء غرور حليف لم يعد قادراً علي الوفاء بإلتزاماته أو أداء الدور المنوط بـه منـذ نهايات الحرب العالمية الثانية [٥٩].

وهكذا تبدلت الأدوار وأصبحت البوصلة تشير الي أن القيادة أصبحت لـدي واشنطن وليس لدى لندن. وهذا ماكان يدركه أيزنهاور ويحاول أن يعمقـه مـن خلال خبرته بالشؤون الاوروبية، على حين كان إيدن على العكس ما زال يعيش في اوهام العصر الامبراطوري القديم. ولذا كان علي واشنطن مواجهة الموقف بصورة واضحة واضعة في الاعتبار العوامل المؤثرة علي عملية اتخاذ القـرار فكان عامل البترول علي رأسها. ولم يكن هذا العامل المؤثر في صناعة القرار آنذاك وليد لحظته بل أن أهمية البترول قد وضحت واصبحت قاسماً مشتركاً في صنع السياسات واتخاذ القرارات[٦٠].

ومع نهايات الحرب العالمية الثانية زاد الأمر وضوحا مع بدء حقبة جديـدة في تاريخ العلاقات الدولية بين الاصدقاء والاعداء علي السواء [٦١]، الأمر الذي وضح في العديد من المواقف، وإن إلقاء نظرة سريعة علي اهمية هـذا العامـل وتأثيره علي عملية صناعة القرار قبيل الازمةِ وأثنائها لاتضح لنا أنه مع فـشل مهمة اندرسون لاحلال السلام بين مصر واسرائيل – في نهايـة عـام ١٩٥٥

وبداية عام ١٩٥٦ (٦٢) وزيادة التوتر في المنطقة طـرح موضـوع البتـرول وأهميته بالنسبة للغرب وخطورة الدور السوفيتي المحتمل في هذا الصدد.

وقد وضح هذا في مراسلات أنتوني أيدن لآيزنهاور حين ذكر "علينا أن نعلن صراحة ان إحتياجاتنا من بترول الشرق الاوسط تمثـل أهميـة حيويـه Vital بالنسبة لنا، وأي محاولة لمنع تدفقه سوف تؤدي إلي تصاعد وتزايد حالة التوتر بصورة خطيرة " وقد وافق إيزنهاور علي كل كلمة بها"(٦٣). وتأكيداً لهذا الموقف أرسل إيزنهاور إلي إيدن برقية مختصرة قال فيها " أننا علينـا الا نـذعن او تخضع لكل محاولات "الدب" (روسيا) من أجل السيطرة علي منـابع البتـرول وخطوط امداده، لان ذلك يعد تهديداً صريحاً لأمن العالم الغربي وإقتصاده (٦٤)

وتأكيداً لأهمية عامل البترول وضرورة السيطرة علي مـصادره وخطـوط إمداده فإن وزير الخارجية الأمريكي جون فوستر دلاس في ٢٣ أبريـل ١٩٥٦ في اجتماعه بقيادات الحزبين الجمهوري والديمقراطي أوضح "ان أي خـسارة لبترول الشرق الاوسط سوف تمحو بصورة اكيدة ما تم تحقيقة من فوائد جـراء مشروع مارشال وكذا حلف شمال الاطلنطي " (٦٥)

واذا كان هذا التأثير بالنسبة للأمن القومي الامريكي الذي كـان يـري فـي اوروبا خط دفاعه الاول .. فما هو الحال بالنسبة لوضع الدول الاوروبيـة فـي حالة فرض حظر بترولي أو منع تدفقه عنهم من وجهة النظر الامريكية ؟

لقد أوضح دلاس خطورة الموقف في عبـارات مـوجزة قـال فيهـا "مـن غيرالبترول فإن أوروبا الغربية ستنهار صناعياً وعسكرياً" (٦٦) . وهذه العبارات كان لا بد وأن يكون لها دلالات واضحة لدى آيزنهاور الذي عايش التجربة في أوروبا في فترة الحرب وفي أعقابها وشهد بنفسه محاولات الاتحـاد الـسوفيتي

للسيطرة علي أوروبا نتيجة لتردي الأوضاع الاقتصادية والعسكرية، وكانت هذه الصيغة التحذيرية من دلاس إلي أيزنهاور بمثابة جرس إنذار. فالقضية ليست قضية الامن الامريكي من منظور قاصر علي الحدود الجغرافية بل تعدتها إلي الدور الامريكي الجديد الذي وضح في أعقاب الحرب العالمية الثانية. فأوروبا كما سبق وأن أشرنا أصبحت خط الدفاع الاول بالنسبة لواشنطن ومبدأ مونرو لم يعد يمثل حجر الزاوية في السياسة الخارجية الامريكية فالقوي التي حققت النصر في الحربين كان عليها أن تحافظ علي مكتسباتها وأن تدافع عن الاراضي الامريكية من خارج حدودها فالفكر الأمبراطوري والهيمنة هو الذي أصبح مسيطراً علي صانع القرار(٦٧) .

ولكن إذا كان ما سبق يمثل أثر البترول علي المستهلك او المستورد فما أثره علي الدول المنتجة له والمصدرة خاصة وأن هذه الدول تمثل أهمية حيوية بالنسبة للولايات المتحدة عامة والغرب خاصة.

لقد تكونت الفترة التي سبقت إعلان التأميم لجنة خاصة ومجموعة عمل لبحث أوضاع بترول منطقة الشرق الاوسط وخلصت إلي نتائج محددة بأن هنالك العديد من الدول التي سوف تتأثر من جراء توقف إنتاج النفط أو تصديره ومن اهم هذه الدول المملكة العربية السعودية التي تشكل عوائد البترول نسبة ٨٥% من جملة دخلها القومي وقرابه ٩٠% من جملة صادراتها الخارجية، ويليها العراق الذي تشكل عوائده ثلثي الدخل القومي وتنسحب نفس النسبة علي صادراتها الخارجية وكذا فإن العديد من إمارات الخليج لا تخرج عن هذا الاطار(٦٨) .

وفي نفس تقرير اللجنة " جدول (٥) بيان بقيمة الاستهلاك اليومي للدول الاوروبية ومدي اعتمادها بصفه اساسية علي بترول الشرق الاوسط [٦٩]، كما تضمن تحذيرا في حالة وقوع حظر بترولي مع إغلاق قناة السويس وقطع أنابيب البترول حيث خلص الي ان ما قد تتحمله أوروبا من جملة الخسائر يصل الي قرابة ١,٩مليون برميل يومياً ولذا فإن علي الحكومات المعنية في هذه الحالة ترشيد إستهلاك البترول وضرورة التدخل لوقف حمي ارتفاع اسعاره في الاسواق المحلية[٧٠] . إن هذه الصيغة التحذيرية ومجموعة هذه الدراسات تعكس ما وصلت إليه واشنطن من قلق لما يمكن أن يحدث في أوروبا الغربية ويؤثر بالتالي علي الشارع السياسي مما قد يدفع بالتيارات اليسارية الي اغتنام الفرصة لتحقيق أهدافها.

ولكن اذا كانت شركة قناة السويس قد أممت وأصبح كل من المنتج والمستهلك في مواجهة الخطر، وأصبحت خطوط الامداد والمعابر عرضة للتدمير والاغلاق في حالة وقوع عمل عسكري .. فما هو موقف واشنطن من هذه القضية بعد وقوع التأميم ٢٦ يوليو ١٩٥٦.. ؟.

لقد زاد قلق واشنطن مع التأميم من ردود الأفعال البريطانية التي كانت تنبيء بعمل عسكري ضد مصر منذ البداية [٧١] فأصدر أيزنهاور أوامره الي وزير ماليته هوفر بضرورة الاجتماع بالقيادات الرئيسية للحزبين الديمقراطي والجمهوري مع ضرورة التوضيح لهم علي "أن العالم الغربي سوف يواجه موقفاً عصيباً إذا حدث توقف لحركة تدفق البترول عبر القناة او قطعت خطوط امداده[٧٢]. وفي إجتماع مغلق مع اركان ادارته وقبيل ذهاب جون فوستر دلاس لحضور مؤتمر لندن الاول أعلن ايزنهاور صراحة بأنه يحمل دلاس رسالة الي

الحليف البريطاني بان الولايات المتحدة لن تلجأ الي تأييد العمل العسكري أو المشاركة فيه الا في حالة واحدة وهي "تهديد منابع النفط أو وقف امتداداته وتدفقه"(٧٣)

لقد أصبح البترول وتأمين تدفقه يمثل قيمة حيوية بالنسبة لواشنطن التي ربطت تدخلها أو تأييدها للعمل العسكري بضرورة تأمينه ضاربة عرض الحائط بكل المحاذير من مغبة العمل العسكري وكأن عامل البترول أصبح مسألة حياة أو موت بالنسبة لواشنطن خاصةً وحلفائها عامةً. وإنطلاقاً من هذا فإن مجموعات العمل القريبة من صانع القرار في واشنطن بدأت تعد دراسات مكثفة في هذا الصدد وضحت في التقرير الذي قدمه مستشار الأمن القومي للرئيس والمجلس في العاشر من أغسطس ١٩٥٦ من خمسة عشر صفحة وخمسة ملاحق بعنوان (المرور والطاقة الاسيتعابية لقناة السويس) افادت "بأن اكثر من ٥٠% أو ربما ٦٠% من حجم صادرات البترول من منطقة (الخليج الفارسي) الي دول اوروبا الغربية تمر عبر قناة السويس .. وأن حجم هذه الصادرات قد بلغ ٦٧ مليون (طن متري) في عام ١٩٥٥ (٧٤)

لقد كان صانع القرار الامريكي مدركا لخطورة الموقف الذي سوف يتعرض له خط دفاعه الاول في حالة اغلاق قناة السويس او تدمير انابيب النفط التي تمر عبر الاراضي العربية(٧٥)، وأكثر من هذا فإن التقرير لم يستبعد الولايات المتحدة وكندا من أثر أغلاق قناة السويس علي تلبية احتياجاتهم النفطية من منطقة الشرق الأوسط(٧٦)، وأن لم تكن تلك الاحتياجات بنفس نسب احتياجات بريطانيا وفرنسا في تلك الفترة ، وحتي لو قلل البعض من قيمه واهمية القناه وانه يمكن الاستعاضة عنها بالناقلات العملاقة التي سوف تستخدم راس الرجاء الصالح

كبديل عن القناة او السعي للحفاظ علي خطوط انابيب البترول وحمايتها من التخريب والتدمير فان دلاس أوضح أمام بعض اعضاء لجنه العلاقات الخارجية في الكونجرس في جلسة استماع بانه في حالة اغلاق القناة ومع كل ماسبق " فان الاقتصاد البريطاني سوف تبلغ خسائره اكثر من ٤٠٠ مليون دولار والفرنسي ١٠٠مليون دولار " (٧٧)

ومع تطور الازمة وبدايات الحرب اصبح لزاماً علي الولايات المتحدة ان تسعي جاهدة لعلاج ما قد يترتب علي غلق قناة السويس من نتائج بالنسبة لتدفق البترول من منطقة الشرق الاوسط الي دول العالم الغربي، ولذا فانه في محادثة تليفونيه بتاريخ ٣٠ أكتوبر ١٩٥٦ بين وزير الخارجية الامريكي دلاس ووزير الطاقة فلمنج أوصى دالاس بضرورة تشكيل مجموعة عمل **(Operating Group)** من المستويات العليا من اعضاء الادارة يكون ممثلا فيها وزير الخارجية وينوب نائبه عنه في- حاله غيابه- وكذا وزير الدفاع ولسن وكبير موظفي البيت الأبيض ادمز بالاضافة لوزير الطاقة ورئيس هيئة الحرب العليا الجنرال رادفورد وان يناط بها ضرورة مراقبة الاحتياطي النفطي من وقت لاخر بصورة دقيقة مع دراسة أوضاع بترول الشرق الاوسط بصورة متأنية وملاحظة ارتفاع اسعاره وما يترتب على ذلك من نتائج وكذا التركيز علي عامل الوقت واثرة علي كافة الاصعدة (٧٨)

لقد كان هذا التكليف في هذا التاريخ بالذات يعكس مدي خطورة الموقف علي صانع القرار في واشنطن الذي وجد فيما اقدم عليه حلفاؤه كارثة غير محسوبة العواقب والنتائج . ولقد كان البترول عاملاً هاماً في ضرورة احجام واشنطن عن تأييد إقدام حلفائها في القيام بعمل عسكري ضد مصر لما سيترتب عليه من

نتائج.* ولكن اذا كان البترول قد لعب دوراً وساهم في تطبيق واشنطن لنظرية الارتباط فهل هناك عوامل أخري دفعت واشنطن الي التقيد بهذه النظرية بصورة أو بأخري. ولكن هل هناك اسباباً أخري دفعت بصانع القرار في واشنطن إلي التمسك بتطبيق نظرية الارتباط في معالجتها للأزمة، وهل لعبت شعبية عبد الناصر- في الداخل خاصة بعد مرور أربع سنوات من قيام ثورة يوليو- دوراً في الدفع بواشنطن الي إعادة تقييم الأمور بما يتماشي مع مصالحها العليا !. وفي هذا الخصوص كان وضع عبد الناصر الداخلي وشعبيته بمثابة بوصلة تحرك السياسة الامريكية في المنطقة وهو ما لم تدركه بريطانيا في تناول الاحداث.

ورغم اختلاف وجهات النظر بين عبد الناصر وآيزنهاور (الكولونيل والجنرال) فإن آيزنهاور كان مازال متطلعاً الي تحقيق أهدافه وسياسته إعتماداً علي مكانة مصر وشعبية عبد الناصر التي أفادت تقارير المخابرات بأن عبد الناصر لا يواجه معارضة داخلية (٧٩). وهذا التقييم جعل واشنطن تري أنه من الصعوبة بمكان أن تزج بنفسها في مغامرة عسكرية او تؤيد سياسات قمعية قد تؤدي الي خسرانها لسمعتها التي خرجت بها في اعقاب الحرب العالمية الثانية. لقد أرادت واشنطن استغلال شعبية عبد الناصر ليس حباً ولكن طمعاً في أن تستغل هذه الشعبية لتحقيق أغراضها علي المدي البعيد وهو ما لم تدركه بريطانيا التي ظلت حبيسة أفكار "الامبراطورية التي لاتغرب عنها الشمس" رافضة التعامل والتعاون مع الجيل الجديد من ساسة المنطقة مفضلة من اعتادت علي التعامل معه من قدامي الساسة من المحافظين. وهذا ما جعل واشنطون انطلاقا من تمسكها بالحفاظ علي مكتسبتها وتمشيا مع نظرية الارتباط تسعى إلي

طرق جميع الابواب التي قد تساعدها في انجاح سياستها القائمة علـــي تجنـــب العمل العسكري بصوره او بأخري – ومن هـــذا المنطلـــق فـــإن الدبلوماســـية الامريكية في هذه المرحلة قامت علي اساس محورين اساسيين اولهما: استغلال صداقات عبد الناصر ببعض القوي إقليمياً أو عالمياً. وثانيهما : استغلال عقـــدة الخوف التي سيطرت علي معظم هذه القوي من اثار ونتائج سياسة التأميم علي أوضاعهم داخلياً وخارجياً .

فإذا تطرقنا الي المحور الاول نجد ان واشنطن قد بدأت تركز علي الرياض لخصوصية علاقتها مع القاهرة في هذه الفترة – بالذات – فالتقارير التي كانـــت امام صانع القرار في واشنطن كانت تشير الي ان علاقات مصر ببعض الانظمة العربية والاقليمية كان يشوبها نوعاً من التوتر وعدم الثقة [٨٠]، مما دفعها الـــي الارتكاز علي الرياض يحركها في هذا عاملين رئيسيين خصوصيه علاقة عبـــد الناصر بها والتي كان ظاهرها الصداقة من الجانب السعودي وباطنها الحذر [٨١] والعامل الآخر المسيطر – في فترة حمي المكارثية – هو استغلال الخوف مـــن وقوع انقلاب شيوعي في حالة انخفاض عوائد البترول أو نقص إنتاجه [٨٢]، مما يكون له أسوء العواقب. وقد عمق هذا المفهوم وزاد منه ما توصلت اليه اجهزة صنع القرار في واشنطن من قناعة بأن النظام السعودي (كان) يعاني حالة من الضعف الشديد [٨٣] مما يجعله عرضة للانهيار. وقد حاولت واشنطن اســـتغلال هذه العوامل التي كان ظاهرها التعارض وباطنها التناغم غير مدركة أن البحث عن الحلول الوسط يؤدي الي تناقضات، والتناقضات تؤدي فـــي النهايـــة الـــي صراعات، وإن لم يتم التنفيس عن هذه الصراعات بإي صورة من الصور فإنها تؤدي الي احباطات في النهاية.

لقد حاولت واشنطن إستغلال كافة التناقضات لصالحها، فقد استغلت رغبة "عبد الناصر وتفضيله للوساطة السعودية على الهندية أثناء الازمة[٨٤]. مما دفع بها الي اللعب علي ورقة الرياض والتركيز عليها مستغلة ما يعرف بالدبلوماسية التحتيه Covert Diplomacy في هذا الصدد. ومن هذا المنطلق لم تجد بداً من ضرورة إرسال مبعوث علي مستوي عال بصفة سرية الي الرياض ووقع الاختيار علي روبرت أندرسون وزير مالية إيزنهاور [٨٥] وصديقه الشخصي والذي لعب دوراً هاماً في محادثات السلام بين مصر واسرائيل في اوائل عام ١٩٥٦. ولم يكن اختيارا عشوائياً فالرجل وطبقاً لكافة المعايير كان خبيرا في الشؤون الشرق أوسطية، فضلا عن طبيعة علاقته مع إيزنهاور مما يضفي عليه نوعاً من المهابة لدي حكام الرياض – بالمقاييس العربية الشرقية – يضاف الي هذا أن للرجل علاقات واسعة بالاحتكارات البترولية في المنطقة من خلال صداقته وطبيعة وظيفته. وفي اثناء المحادثات التي اشار إليها إيفلاند في كتابه حبات الرمال [٨٧] والتي تناولتها الوثائق الامريكية فإن الولايات المتحدة حاولت بكل السبل الدفع بالسعودية للضغط علي مصر بقبول مقترحات مؤتمر لندن الاول لعل هذا الحل يستبعد العمل العسكري ضد مصر[٨٨] لقد حاولت الولايات المتحدة ان تدفع بالسعودية الي ان تلعب دور الوساطة لاقناع مصر بقبول "المقترحات الخماسية" مع عدم الاشارة من قريب أو بعيد الي الدور الامريكي – الخفي – في هذا الصدد. وهو ماوضح من البرقيات – غاية السرية – المتبادلة بين أندرسون ووزارة الخارجية في واشنطن [٨٩]. وقد حاولت واشنطن إستغلال كافة الاوراق واضعه في اعتبارها ضرورة نزع فتيل الازمة قبل أن تنفجر ضاربة علي وتر خطورة الموقف ليس بالنسبة للمصالح الغربية في المقام الاول

ولكن بالنسبة لما يهدد الامن القومي السعودي مستغلة عقدة الخوف الابدي التي كانت تسيطر علي النظام السعودي من الخوف من الشيوعية مستخدمة سياسة العصا والجزرة. وبالاضافة الي ذلك فإن واشنطن ارادت إستغلال عقدة الزعامة التي سيطرت علي النظام السعودي الذي كان يري نفسه نظراً لمكانتـه الدينيـة والاقتصادية ان له الحق في ريادة المنطقة ولذا فإن لديه من الحقوق علي مصر التي تجعلها تقبل بمشورته وان تخضع لمشيئته. لقد أرادت واشنطن – كما سبق وأن اشرنا – استغلال احساس النظام في مصر انذاك بأن دوره غير مقبول لدي المحور الهاشمي فلذا فإنه عليه ان يحافظ علي علاقته – الخاصة – بالسعودية كقوة دعم يستند عليها لمواجهة الضغوط في وقت الازمة (٩٠). ومن هنـا فـإن المبادرة سوف تأتي من جانب صديق مخلص ، وبالتالي مـن العـسير عليـه رفضها. لكن إذا كانت واشنطن تبني استراتيجيتها علي ما سبق كـان حلفاؤهـا علي الجانب الآخر يحاولون كسب الوقت من أجل الاعداد لعمل عسكري مـن وراء ظهرها وان كان هذا لا يعني أن واشنطن لم تكن تعلم بمـا يـدور فـي الخفاء(٩١). إن مواقف واشنطن المحيرة وإجادة استخدام نظرية الارتباط والميل نحو الدبلوماسية التحتية دفع بعبد الناصر الي أن يطلب من أيزنهـاور فـي ٣١ أكتوبر ١٩٥٦ "بضرورة دعم مصر وحتي لو أدي الامر الـي القيـام بعمـل عسكري ضد بريطانيا وفرنسا" (٩٢) وهذا ما أكد ريموند هير للباحث (٩٣). وهنا نعود الي السؤال .. هل نجحت واشنطن في تطبيق نظرية الارتباط في معالجـة الازمة، وهل ظل الباب مواربًا في علاقتها مع مصر، وهل نجحت في استغلال عدم وصول العلاقة الي مرحلة العداء المعلن الي استغلال وضع مصر لتحقيـق أغراضها المتمثلة في تحقيق السلام واحتواء الخطر الشيوعي. ربمـا نجحـت

الولايات المتحدة في تحقيق هذا ولكن بعد عقدين من الزمان من الازمـــة التـــي عصفت بكيان الامبراطورية البريطانية ووضعت فرنسا في حجمها الطبيعي ربما نجد أن الولايات المتحدة استعملت سياسة النفس الطويل من أجل تطبيق النظرية وهذا ما نجحت فيه الي حد ما.

الهوامش

The engagement theory

1. Richard Smoke deterrence in American foreign policy, Colombia University 1974, pp606.07.

٢. ريتشارد هاس : العسل والخل الحوافز والعقوبات والسياسة الخارجية الاهرام ٢٠٠٢ ترجمة اسماعيل عبد الحكيم ص ٢

٣. ريتشارد هاس وميجان ، نفسه ، ص ٢ .

٤. George F, Kennan" The Source of Soviet Conduct " Foreign Affairs, Vol 25 July 1947 .PP566 *تأكد هذا التوجـــه الـــذي قـــادة هاولـــد ماكميلان وزير الخزانة الذي استطاع ان ينال تأييد رئيس الوزراء البريطاني السابق ونستون تشرشل الذي لم يجد غضاضة في امكانية قيام نوعاً من التعاون مع اسرائيل لدحر مصر وهوماقد وضح في العديد من الاجتماعات قبيل عدوان السويس للمزيـــد من التفاصيل انظر PROPREM 11/1099 ,Also Scot Lucas, The Hidden Alliance The CIA and M16 Before and After Suez ,London 2000 , P106,تم الاشارة الي هذا في ابريل ١٩٥٦ لمزيد من التفاصيل أرجع الي Ibid P 104

5. F.O 371/11/8855 119399. Extrct From Sir W.Dickson Report, Received From Sir W. Monckton To Sec. of State dated April 10.1956 Top Secret

٦. لمزيد من التفاصيل ارجع الي M.A.W.A. S Ahmed, Nasser and American Foreign Policy London 1989.PP124-125

7. D.D E Lib Eisenhower paper ,Ann wh.File From The Sec,of State To The President , March 28 , 1956,Top Secret , P 1

8. D.D E Lib. Optic , P 3

*للمزيد عن موقف الولايات المتحدة من حلف بغداد، أرجع الي محمد عبد الوهـــاب : التحول الامريكي من حلف بغداد الي اعلان مبدأ ايزنهاور ، سلسله دراســـات الـــشرق الاوسط ١٩٩٠



9. US FR 1955 /1957 Vol X 11 ,pp307-308 –Memo of discussion at the 289 meeting of the NSC Washington ,June 28,1965

١٠. عبرأيزنهاور عن حجم الاختلاف بين اسلوب بريطانيا وأسلوب الولايات المتحدة في التعامل مع عبد الناصر قبل التأميم في اكثر من مناسبة لمزيد من التفاصيل ارجع الي Eisenhower Lib, Dulles Papers Tel.calls . W. H Eisenhower to JFD. 10 April 1956. حينما اثار أيدن أمكانية القيام بعمل مشترك ضد مصر "تعجب أيزنهاور بقوله I do not Know What the British are talking about "

11. Ibid , P 309

١٢. محمد عبد الوهاب : عبد الناصر والسياسة الخارجية الامريكية ١٩٥٢-١٩٥٦ القاهرة ٢٠٠٦ ، ص ص ١٨٠-١٨٣

13. Adams , Dulles Oral History pp23- 25

اشار ديلون اندرسون مساعدأيزنهاور للأمن القومي إلي نفس المعني وكذلك أكد نفس الكلام Adams Sherman ,First hand Report–the Story of the Eisenhower administration N y 1961,P 25 , وأكد نفس المعني السفير الامريكي في لندن"الدريتش" أرجع الي مجموعة Dulles Oral History
-مقابلة مع السفير ريموند هير : واشنطن ١٩٨٤ ، وكذا مع السفير هنري بايرود ١٩٨٤

14. Heikal M, Nasser Cairo Documents , p 74 Neff, Warriors at Suez N Y 1981,P 141

مقابلة مع السيد علي صبري القاهرة ١٩٨٥ ، وكذا محمد عبد الوهاب: نفسه ص ص ١٨٤-١٨٥

15. NA R G 371,774.5-MSP 17 -2556 to Acting Sec. From NEA, July 25, 1956.
16. Heikal Moh. , Optic , P 74
17. Ferrell, Robert , The Diaries, NY 1981 pp218222
18. D.D E lib, Eisenhower papers , Int. Series England , 2Nov.1956

١٩. محمد هيكل . صناعة القرار الامريكي ، وجهات نظر العدد ٥٤ يوليو ٢٠٠٣، ص ص ٩،٨

٢٠. محمد هيكل : نفسه ، ص ٩

21. Ambrose Stephen: The President , P 10
22. Cecil V. Cabb, President Foreign Policy making , pp196-197.
23. David M . Abshier , Foreign Policy makers : President vs congress , p 41
24. David M Abshire , Ibid , P 39
Ibid, P 42
25. Cecil v. crabb. Optic , pp 173- 174
26. Mosley Leonard : Dulles , Dial press N Y 1978pp55-57
27. Adms, First Hand Report , p89
28. Rubin Baray: Secret of State, P 76

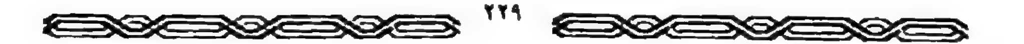
مقابلة مع السفير جورج ماكجي وكيل وزارة الخارجية الامريكية والخبيرالشرق أوسطي واشنطن ١٩٨٤

29. Dan Price, ed the secretary of state Englewood, NJ . 1960 P57
D.D.Eisenhower , Ann Whitman file October 22-1953Dulles Herter box 10

رسالة ايزنهاور الي وزير دفاعه ويلسون والاشارة فيها الي ضرورة رجوع جميع رؤساء الأفرع في الوزارة ومجلس الامن القومي الي دلاس فيما يتعلق بنواحي " انسحاب القوات الامريكية من اوروبا

30. Jackson H. organization of NSC Fsj January 1962 , P13
31. Da novan, EisenhowerThe Inside story PP56-71
32. Adams S. Optic , P 89-
33. Crabb,C. Ibid , pp 160-173
34. Crabb , Optic, PP 173-174
Crabb, optic, pp 173-174

وايضا Rubin B., secret of state pp74,Glen H. stassen , senatorial response ,World politics vol No 25 to secretaries Acheson and Dulles PP109-110 N 10ct 1972.



35. Ibid p110
36. New York Time magazine ,24/2/57
37. Rubin, B optic p 91
38. N.Y Times, April 24-1959.
39. Rubin. B optic , p77

• كان أيزنهاور الوحيد من جنرالات وزارة الدفاع الذي يحمل خمسة نجوم بينما كان علي رتبة في الوزارة من الجنرالات لاتزيد عن اربعة نجوم

40. Green Stein , optic, pp 83-85.
41. Ranelagh, J. The Agency The CIA Cambridge 1987,pp296-315
42. Rubin B. , optic , pp86-87

٤٣ .مقابلة مع السفير هنري بايرود واشنطن ١٩٨٤

44. Raymond Thurston, The Ambassadors and the CIA ,FSJ . January 1979Eveland R, Ropes of sand أنظر ايضا American Failure in the M. East W.W Norton .NY. 1980

٤٥. من الواضح ان وكالة الاستخبارات الامريكية كان لها مواقف مختلفة مع الخارجيــة التي كانت تري الامر بمنظور الحرب الباردة بينما عملاء الوكالة كانوا اكثر درايـــة بالمناخ العام وعملية اتخاذ القرار في منطقة الشرق الاوسط وخاصة مصر ، أنظــر Scott Lucas , the Hidden Alliance, The CIA and M16 Before and After Suez , Frank Cass London 2000,p114

46. N A R G 218 C C-092 Egypt, note by ec to Jcs 31 July 1956 ,pp 306-20 including Jc -2105/38
47. D.D.Elib- Dulles papers , Subject series alph. Box No 11, UK The W.House Eisenhower Top Secret to Eden 31 July 1956 , Also Dulles , H. Series Box No 5-To American Emb. London 30 July 1956
48. D.DE intseries Box 19 Eden 7/8/1956 7/11/1956
49. D.D E Lib. Eisenhower Diary Series Box No 19 ,Oct56 Diary staff Memo Memo of Conf. with The president



50.Dulles oral History Project , Ph phléger Harman P 48 . "If you got military involved in Egypt you would have to occupy the country and you and you probably never could get out

٥١.من الملاحظ ان هذا الدرس لم يتعلمه جورج بوش الابن في معالجته لازمة العراق.

مما يدل علي وعيه وعدم قراءته للتاريخ

52.Eisenhower lib. Oral H. project No11,Interview with D D Eisenhower by Ed, Edwin

53.D.D E Lib. Diary Series Box 19-opcit oct 29.1956

54.NARG 218CCS 092 – Egypt note by Sec. to the Jsc.31/7/1956,pp306

55.D D E Lib Eisenhower Papers Ann whit. file Box No 8 NSC 297 Meeting of the NSC Sept 7.1956

56.RG 218 CCS 092 Egypt Jcs 2105132Note by the sec of Def. To Jcs- Appendix B- PP 315- 320,31 July 1956

57. D-D –E Library Box No16 July 56 ,Phone calls Saturday July 28 -1956 Eisenhower with Acting Sec , Hoover لمعرفة المزيد من التفاصيل عن أندرسون وعلاقته بالمنطقة أرجع الي محمد عبد الوهاب – عبد الناصر والسياسة الخارجية الامريكية ١٩٥٢-١٩٥٦ ص ص ١٧٧و١٨٣

٥٨. أنظر Nutting Anthony No End Of Lesson The Story of Suez , Lond D on 1967.

Shuckburgh. E. Descent To Suez iaries 1951-1956-Londom 1986

مقابلة مع السفير هارولدبيلي لندن ١٩٨٥

٥٩. مقابلة مع السفير هنري بايرود واشنطن ١٩٨٤ وكذا F.o 371/1/18855119399 . From W. Monckton To sec. of state April 10 . 1956. Top secret.

60.Truman H.M emoirs vol 2. 1946-1952, NY 1956,pp102-103,110-112

Acheson,Den, Present at the creation Ny. 1969, PP 262-272.,294-302.

61.WM RogerLouis: The British Empire in the Middle East 1945-1951,OX Ford 1984 ,pp148-172

62. Ibid, pp 632-690 وايضا





Majid Khodduri,The Problem of Regional Security in the M. East , The M East Journal Winter 1957,pp 12-13., Campbell J. Defense of the M East N.Y.1960.pp 5, 30-31,249-52,254-262

٦٣. فادية سراج الدين : المساعي الامريكية – البريطانية لتحقيق السلام ص ٨٤-٩٢ سلسلة تاريخ المصريين ٦٧ – مساعي السلام ، القاهرة ١٩٩٣

64.D D .E Lib. Eisenhower Papers , Dulles – Herter Series , Box No 5 Folder April 56 copy of Message Sir A, Eden 4 April . 1956 , To: Secret وكانت عبارة أيزنهاور,
" I agree with every word you have to say"

65.Ibid From D, Eisenhower to Sir Eden Personal and confidential April 5-1956

66.D D Elib- Dulles papers ,Subject Series , Memo of conv. Date 23-4-1956

67.DDE . Eisenhower papers , D Harter Series Letter From Dulles to Eisenhower , May 18 – 1956

٦٨. لمزيد من التفاصيل عن هذه التحولات راجع كتاب السناتور ولـيم فولبرايـت : غطرسة القوة – ثمن الامبراطورية ، الاهرام القـاهرة١٩٩٥ ص ٤٥-٥٥، ٢١٩-٢٢٤، وكذا محمد هيكل المصدر نفسه ، العدد ٥٤ ، ص ١٠٤٩

69.DD E Lib W H O Office of the Special Asst for N S C. Parliamentary papers M . E Oil Situation – Economic Intelligence committee " Ad Hoc Working group on M. East oil 3 May 1956.

70.D D .E Lib – opcit p 35 Table 5 Crude oil Supply of W. Europe by Source and country – Thousands of Barrels perday.

المجموع	دول أخري	المستورد من دول الشرق الاوسط	
٧٩	٤	٧٥	بلجيكا
٤٨٨	٢٩	٤٤٩	١٠ فرنسا
١٧٢	١٥	١٠٥	٥٢ المانيا الغربية
٥٣٩	٤٨	٤٩٠	١ المملكة المتحدة

٢ ايطاليا	٣٠٥	١٣	٣٢٠
١٨ هولندا	١٦١	٣٢	٢١١
بعثه دول اوروبا الغربيه	٨٦	١٥١	

71. Ibid ,P 16
72. Eden, Full Circle , London 1960 , pp 423 -4- , Love Suez NY 1969 , p 354
73. D D E Lib. Diary Series Box No 16 Folder July 56 . Diary Series July 27 – 1965
74. D D.E Lib . Diary Series Box No 16 July 56 Staff Memo Folder Memo of conf. with the president 31-7 -1956 Other Present , Sec Dulles , Under .Sec Hoover ,Sec. Humphry-Mr . Allen Dulles CIA
75. D.D.E Lib. WH office of special Asst of NSC Records 1952 -1961 Suez Canal Folder I / R No 73 August 10-1956 " The Traffic and capacity of the Suez Canal Ibid (3A)
76. Ibid (3A) جدول

أوضح الجدول(٣) المرفق للتقرير السابق ان اكثر الدول التي سوف تتأثر من جراء عملية أغلاق قناة السويس بريطانيا وفرنسا أذ ان احتياجات الاولي التي تمر عبر قناة السويس تبلغ ٢٠ مليون م طن والثانية ١٢,١مليون م طن وهولندا ٧,٣ مليون م طن وإيطاليا ٧,٣ مليون م طن

77. Ibid , P 9
78. D D .E Lib . Dulles papers , Box No 7 Memo of conv. The Sac's Briefing on Suez situation with M. of senate F R. Com. sept 27 – 1956-
79. D D E. Lib, Dulles papers Telep . Call Series Memo of Telep. Conv. Call from Adams to sec. Oct 30-1956.

* وعلي الجانب الاخر فأن عبد الناصر أو الكولونيل

كما اطلق عليه هيكل في أحاديثه في الجزيرة – أدرك ادراكاً جيدا قيمة هذا العامل بالنسبة لواشنطن أو ما يدور في خلد(الجنرال) ايزنهاور ومن هذا المنطلق فإن الاول منذ البدايـــه اول عدم استعداء واشنطن او خسارتها ، فلذا فإنه استغل مكانته وشعبيته وعلاقته الخاصـــة مع عبد الحميد السراج قائد المكتب الثاني في سوريا (المخابرات) في ان يقوم الاخيـــر بنسف وتخريب خط انابيب البترول القادم من العراق الي سوريا التابع لـــشركه البتـــرول البريطانية بينما عمل في الوقت نفسه علي حماية خط التـــابلاين التـــابع لـــشركه ارامكـــو الامريكيه القادم من السعودية، لقد كان الكلونيل دقيقاً في حساباته فقد لعـــب مـــع القـــوي الجديدة ساعياً الي عدم الرغبة في التصادم معها لانها هي القادرة علي صـــنع النـــصر او فرض الهزيمة آنذاك أما القوي القديمة فإن عدائها أو التصادم معها سوف يؤدي الي أرتفاع مكانة النظام في مصر وكذا سوف يضعها في حجمها الطبيعي بعد زوال عناصـــر القـــوي الامبراطورية التي كانت تستند إليها . أدرك عبد الناصر من خلال نظرية الاحتمالات بأن عليه أن لايدفع بالولايات المتحدة إلي العداء المكشوف أو حافة الهاويـــة بـــل أن عليـــه ان يستخدم نظرية الارتباط من جانبه ويطبقها علي علاقته مع واشنطن من منظـــور القـــوي الاقليمية في مواجهة القوي العالمية ، كان عبد الناصر أو الكولونيل مدركا اهميه البتـــرول فأستخدم ورقته بصورة جيدة لجذب الولايات المتحدة اليه وليس لطردها بعيداً عنه

لمذيد من التفاصيل عن علاقة عبد الناصر بالسراج أنظر أحمد حمروش ، عبـــد الناصـــر والعرب ج ٣ بيروت ١٩٧٦ ص ص ٢٦،٤٤ أكد نفس الموقف السيد علي صـــبري فـــي مقابلة له مع الباحث في القاهرة ١٩٨٤ .

80.D D .E Lib. Eisenhower Diaries, Box No 20 FOLDER. Nov 01956. Bipartisan Legislative Meeting Nov 1956

Allen Dulles. في هذا الاجتماع أخبرهم

"There is no internal opposition to Nasser"

81.DD.E li.b Papers of Dulles Subject Series Box No 7 Suez prob, Sec briefing with member of F.R. Committee 8 Aug .1956
Ibid W H File Top . Sec – File Embassy of Israel , Washington July 24-1958-

82.Ibid , Dulles papers , Subject Series , The sec, s Briefing on the Suez opcit . ,sept 27,1956

ايضا أرجع الي رسالة فوزي أسعد نقيطي " العلاقات المصرية الـسعودية " (١٩٣٧-١٩٦٧) رسالة دكتوراة غير منشورة معهد البحوث والدراسات العربية ٢٠٠٠ / ج٢ ص ٣٦٦ ص ٤٠٠

83.DD . ELib . Eisenhower. Int. Series Suez Summery. No 13 Sept 20 , 1956

٨٤. أطلق هذه الصيحه التحذيرية رئيس الوزراء الهندي نهرو للسفير الامريكي فـي الرياض .

85.D D. E. Lib Dulles papers , J. F. Dulles Call Series Box No Sec. Humphrey to Dulles Aug . 9-1956

86.U.s. F.R. Vol XVL Suez Crisis July 26 -31 Dec- 1956 Summary of Development in Suez situation 27-9-1956

87.U.S.FR 1955-1957 Vol XV1,pp 287-298

٨٨. مقابلة مع السفير جورج ماكجي وكيل وزارة الخارجية الامريكية فـي واشـنطن ١٩٨٤ . وأكد نفس المعلومات بالنسبة عن اندرسون السفير / هنري بـايرود فـي مقابلة مع الباحث بواشنطن ١٩٨٤ . كان اندرسون أيضا من رجال وزارة الـدفاع (البنتاجون) فقد شغل منصب نائب وزير الدفاع قبل انتقالة للخزانة ... ارجع Eveland , Ropes of Sand N.Y 1980, P 209.

89.Ibid , pp 209 –

90.U. S F.R vol Opcit P 288- Memo of Conv. Riyadh August 24-1956

91.Ibid , P 296 – Telegram From The Embassy in Saudi Arabia To The Dept of State , Aug-24,1956 Top Secret File

92.Ibid, pp 592-593- Report Prepared in the excusive Secretarial of the Dept of state Washington Sept 27 –1956.

93. David Staffor (ed) American British Intelligence Scot Lucas : Relations 1939- 2000 , London 2000 The Hidden alliance The CIA and M16 Before and After Suez –pp 109-11٠,Also Prinecton



University Dulles oral History .Dulles Allen. Philip Crowl Interviws. Washington D,C 17 May 1965 .PP 72-74.

94.D D E. Library WH. Central File (Suez Canal crisis) Box 82 . From Cairo To Sec. of state oct 31 -1956

٩٥. مقابلة مع السفير ريموند هيرواشنطن ١٩٨٤ .



أزمة السويس وتطورات النظام الإقليمى في الشرق الأوسط

د. محمد السعيد إدريس

الإجابة عن سؤال: كيف أثرت حرب السويس لعام ١٩٥٦ على تفاعلات وتطورات النظام الإقليمى للشرق الأوسط تبدو معقدة لسببين رئيسيين: **أولهما**، خصوصية نشأة نظام الشرق الأوسط كنظام إقليمى، وتعقد هذه الخصوصية من ناحية القدر الافتعالى الكبير لهذه النشأة والدور المحورى للقوى الخارجية لفرضه على دول المنطقة لتحقيق أهداف ومصالح هذه القوى بغض النظر عن مصالح الدول الأعضاء الإقليم، وبغض النظر عن ما إذا كانت مجمل تفاعلاتها المشتركة تشكل نظاماً إقليمياً أم لا، كما هى الحال فى كل النظم الإقليمية الأخرى. **وثانيهما**، وجود علاقة مباشرة بين هذه التأثيرات والأسباب والأحداث التى دفعت مبكراً إلى حدوث هذه الحرب. ونستطيع أن نلمح مؤشرات صدام مبكر بين مشروعين وبالتحديد منذ قيام ثورة ٢٣ يوليو فى مصر: مشروع الهيمنة الاستعمارى وفى القلب منه "المشروع الصهيونى" الذى جسده قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، ومشروع التحرر والاستقلال الوطنى الذى تجسد فى الوطن العربى منذ تأسيس جامعة الدول العربية التى كانت طموحاً نحو الحرية والاستقلال الوطنى بقدر ما كانت طموحاً نحو الوحدة العربية باعتبار أن الحرية والاستقلال مقدمتان ضروريتان للشروع فى الوحدة. لكن هذا المشروع الأخير اكتسب معالمه الحقيقية بقيام ثورة ٢٣ يوليو فى مصر التى عجلت ممارساتها بحتمية الصدام العنيف مع المشروع الاستعمارى الصهيونى.

لقد ارتبطت الحرب التى حملت اسم "العدوان الثلاثى" بقرار الزعيم جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦، لكن قرار التأميم لم يكن أكثر من ذريعة لتفجير الصدام المسلح والعنيف لفرض أمر واقع جديد يضع حداً للمشروع الثورى التحررى الذى قادته ثورة ٢٣ يوليو وامتد إلى مناطق واسعة خارج العالم العربى وبالتحديد ابتداءً من مؤتمر باندونج أبريل ١٩٥٥، ومن بعده مؤتمر بريونى ومجمل الأحداث المتشابكة التى استطاع جمال عبد الناصر أن ينسج خيوطها بمهارة لإحكام الحصار على المشروع الاستعمارى الصهيونى الذى كان قد حمل فى ذلك الوقت اسم "مشروع الأحلاف" وعلى الأخص مشروع "حلف بغداد" الذى كان يرمى إلى إعادة ترتيب الأوضاع فى المنطقة بما يتلاءم مع أهداف الدول الاستعمارية ومع طموحات المشروع الصهيونى ضمن ما يسمى بـ "مشروع الشرق الأوسط"، على حساب النظام العربى الذى تجسد بقيام جامعة الدول العربية والذى كانت مصر تسعى إلى تثويره وتطويره ليكون قادراً على التصدى للمشروع الاستعمارى الصهيونى.

وهكذا نستطيع أن نقول أن المنطقة شهدت صداماً متصلاً بين مشروعين حاول كل منهما أن يعيد ترتيبها وفقاً لأهدافه ومصالحه، ومن ثم يصبح السؤال عن كيف أثرت حرب السويس فى النظام الإقليمى للشرق الأوسط سؤالاً عن الدور الذى قامت به أحداث هذه الحرب ونتائجها فى حسم الصراع بين المشروعين: المشروع الاستعمارى – الصهيونى الذى حمل مبكراً اسم مشروع الشرق الأوسط، والمشروع التحررى العربى.

ولكى نتعرف بدقة على هذا التأثير الذى أحدثته حرب السويس على النظام الإقليمى للشرق الأوسط وتفاعلاته من الضرورى أن نتعرف أولاً على خصائص النظام الإقليمى للشرق الأوسط وبالذات خصوصية النشأة التى تميزه عن غيره من النظم الإقليمية التى عرفها العالم، ومن ثم أسباب الصدام

بين هذا النظام والنظام الفرعى الآخر الذى حمل اسم النظام العربى، وهـو الصدام الذى بدأ مبكراً منذ نشأة هذا النظام بتأسيس جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥، وبعدها يمكن ثانياً التعرف على ما أحدثته حرب السويس على النظام الإقليمى للشرق الأوسط وبالتحديد تطور مسيرة الصدام بينه وبـين النظـام العربى.

أولاً: خصوصية نشأة النظام الإقليمى للشرق الأوسط

التعرف على هذه الخصوصية يستلزم بداية تقديم معرفة سريعة بمفهوم النظام الإقليمى وخصائصه التى تميز نظام إقليمى عن نظام إقليمى آخر، والعوامل التى تؤثر على تفاعلات النظام الإقليمى وتميزها عن غيرها من تفاعلات نظم إقليمية أخرى، بعدها يمكن الحديث عن نظام الشرق الأوسط وخصوصية نشأته وبالذات دور القوى الأجنبية فى خلق هذا النظام.

١- التعريف بالنظام الإقليمى وخصائص ومحددات تفاعلاته

النظام الإقليمى، فى أبسط معانيه، هو نمط منتظم من التفاعلات، بين عدد من الوحدات السياسية داخل إقليم معين. ويعرف بأنه مستوى وسط بين تحليل النظام العالمى وتحليل السياسة الخارجية للدول. وهو بهذا المعنى أخذ يكتسب أهمية كبيرة كمنهاجية تحليلية نتيجة العديد من التطورات السـياسية، إضافة إلى تطورات أخرى فى نظرية العلاقات الدوليـة وظهـور مـدارس فكرية لها رؤى واجتهادات نقدية لمقولات "مدرسة القوة" أو ما يعرف بـ "مدرسة النظام الدولى" التى ركزت على الدول، بوصـفها وحـدة التحليـل الأساسية، وعلى القوة واستخداماتها فى العلاقات الدولية. فقد أشـارت تلـك المدارس الفكرية الجديدة إلى فواعل Actors أخرى فى النظام العـالمى لا تقل أهمية عن "الدول القومية"، وإلى ظواهر أخرى أخذت تكتـسب أهميـة

كبيرة نتيجة استخدام القوة مثل الاعتماد الاقتصادى المتبادل والتكامل، ثم كان ظهور مدرسة الإقليمية فى أوائل الستينيات بمثابة التتويج لتلك الاجتهادات فى إبراز أهمية النظام الإقليمي كمنهاجية تحليلية للعلاقات الدولية.

ويمكن التعامل مع النظام الإقليمي من منظورين، بحكم وسطيته بين النظام الدولى من ناحية والدول القومية من ناحية أخرى. فهو وفقاً للمنظور الأول نظام فرعى أو تابع Sub-System للنظام الدولى، أى أنه يتفرع عن النظام الدولى. وهو وفقاً للمنظور الثانى نظام إقليمي Regional System ، على أساس أنه تجميع لدول متجاورة أو متقاربة تنتمى لإقليم جغرافى معين بينها من الخصائص والتفاعلات ما يميزها عن غيرها من الأقاليم، معنى ذلك أنه تفكيك للنظام الدولى من ناحية إلى عدة نظم فرعية، وهو من ناحية أخرى تجميع لعدد من الدول القومية المتجاورة التى يجمع بينها إطار تفاعلى مميز.

والفرضية الأساسية لكون هذا المستوى التحليلى الوسط نظاماً فرعياً أو تابعاً للنظام الدولى، هى أن هناك أقاليم معينة تتميز بقدر واضح من الانقطاع Discontinuity أو التمايز عن النظام الدولى، فبعض الأقاليم، لها خصوصياتها الفريدة التى تميزها عن مناطق أخرى. ولئن كانت هناك عوامل تأثير دولية موجودة فى المناطق أو الأقاليم كافة، إلا أن هناك أيضاً عوامل التأثير الخاصة فى كل إقليم، والتى تؤثر بدورها فى أنماط العلاقات والتفاعلات القائمة فى الإقليم، والتى تميزها عن أنماط العلاقات والتفاعلات فى أقاليم أخرى على المستوى العالمى.

أساس هذا المنظور إذن هو تفكيك النظام الدولى إلى أقاليم وفقاً لما يتمتع به كل إقليم عن الآخر من خصائص وتمايزات وبالطبع فإنه وفقاً لتباين عناصر أو معايير Criteria التمييز بين باحث وآخر فإن عدد وحدود تلك الأقاليم سوف تختلف هى الأخرى. فإذا كان المنظور الأول يقوم على فكرة

تفكيك النظام الدولى إلى نظم فرعية فإن المنظور الثانى يقوم على فكرة تجميع الدول القومية فى نظم إقليمية مميزة كل منها عن الأخرى، وتشكل مرحلة وسط بين الدولة القومية والنظام الدولى من منطلق وجود قيود بنيوية ونظامية مستمرة على سياسات وخيارات الدول التى تقع ضمن الإطار الجغرافى الواحد، وأنه مهما حاولت أى دولة من الدول المتقاربة جغرافياً التأكيد على استقلاليتها فإنها عادة ما تصطدم بالضوابط والقواعد الإقليمية الحاكمة المعلنة منها والمستترة، والتى تكون أقوى من كل محاولات التفرد والانفلات. هذا يعنى أن استقلالية كل دولة ضمن النظام الإقليمى هى دائماً استقلالية نسبية وليست استقلالية مطلقة.

ومن هنا كان تعدد مسميات هذا المستوى الوسط للتحليل بين ما يسمي بالنظام الفرعى أو التابع، وما يسمي بالنظام الإقليمى. وهناك أيضاً من يستخدم مصطلح النظام الفرعى الإقليمى مع اختلاف دلالته بين باحث وآخر، فهناك من يستخدمه من باب التأكيد للجمع بين الصفتين: صفة الفرعية عن النظام الدولى، وصفته الإقليمية على اعتبار أنه يضم مجموعة دول تنتمى إلى إقليم معين بينها من الخصائص والتفاعلات ما يميزها عن أى مجموعة إقليمية أخرى.

وتنشأ النظم الإقليمية إما لتوافر إطار من التفاعلات المشتركة بين وحدات النظام تتسم بدرجة من النمطية والكثافة بما يجعل التغير فى جزء منه يؤثر على بقية الأجزاء، وبما يحمل ضمناً اعترافاً داخلياً وخارجياً بهذا النظام كنمط مميز، كما تنشأ أيضاً عن توجه قصدى أو إرادى من جانب مجموعة من الدول بهدف بناء روابط وثيقة فيما بينها، انطلاقاً من شعور مشترك بمهمة أو مسئولية متبادلة حيال إنجاز ما فى المجالات الأمنية أو الثقافية أو الاقتصادية أو بعضها أو كلها معاً. وهذا التوجه يضع تلك الدول

فى موقف خاص يبدأ من التخلى، ولو جزئياً، عن بعض سيادتها فى التصرف حيال بعضها بعضاً فى أمور معينة، وينتهى عندما تفقد هذه المجموعة استقلالها وسيادتها المنفردة لصالح سلطة واحدة وهوية جديدة جامعة، بما يعنى تكوينها معاً لدولة واحدة. وفيما بين هذين الموقفين المتطرفين: أى الاستقلال الكامل والاندماج السياسى هناك موقف له طيف واسع وإمكانيات ونطاق كبير للتدرج فى المسعى المشترك لأداء أشياء مشتركة دون فقدان صفات السيادة والاستقلال الذاتى حيال بعضها البعض فى مجالات أخرى. وهذا الموقف التكاملى هو الذى يعرف مجموعة معينة باعتبارها، نظاماً، أى أنها ليست مجموعاً حسابياً من الدول وليست دولة واحدة.

وتختلف النظم الإقليمية وتتمايز عن بعضها فى العديد من الصفات وهذا الاختلاف يؤثر بدرجة كبيرة فى تباين تفاعلاتها، وهذه الصفات تتعلق أساساً بمساعى الهيمنة التى يقوم بها المهيمن الإقليمى أو التى يسعى إليها المتطلع للهيمنة، وطبيعة مواقف وردود فعل النظام تجاه تلك المساعى، وهذه الصفات هى:

(١) مدى امتداد السيطرة التى يقوم بها المهيمن الإقليمى أو المتطلع إلى الهيمنة، هل هى سيطرة عالية أم متوسطة أم منخفضة، فالتفاعلات داخل نظام إقليمى خاضع لدرجة عالية من الهيمنة تختلف عنها فى نظام تنعدم فيه تلك الهيمنة أو تظهر بمعدلات منخفضة إما لضعف فى قدرات الساعى للهيمنة أو لخصائص فى النظام نفسه.

(٢) الاتجاه المعلن عنه داخل النظام تجاه مساعى الهيمنة، هل هو القبول أم الرفض وبأى درجة؟ .. فإذا كانت هناك دولة تسعى للهيمنة وتواجه هذه المساعى بالرفض المعلن والمطلق فإن ذلك سيخلق حتماً تفاعلات داخل النظام (تحالفات، استقطابات، علاقات مع أطراف خارجية،

صراعات) تختلف عنها فى حالة ما إذا كانت مساعى الهيمنة تلقى القبول والدعم.

(٣) احتمال وجود بديل لقيادة المهيمن، فى حالة وجود بديل فإن ردود فعل فواعل النظام على مساعى الهيمنة تختلف عنها فى حالة عدم وجود مثل هذا البديل.

(٤) وجود مساوم بارز، وهذه الصفة تتوافق مع الصفة السابقة، فالمساوم البارز والقوى يفرز تفاعلات داخل النظام تختلف عنها فى حالة غياب أو ضعف المساوم.

(٥) طبيعة منظمة النظام، هل هى منظمة سياسية أم عسكرية أم وظيفية؟، هل تستخدم الإكراه لفرض قراراتها وهل تملك تلك القدرة على توظيف الإكراه، وما هى أشكاله؟، هل يمكن أن يصل إلى مستوى استخدام الأداة العسكرية؟، وما هى درجة ولاء الأعضاء للمنظمة؟، وما هو تقييم المهيمن أو المتطلع للهيمنة لهذه المنظمة هل يستخدمها كواحدة من أدواته فى السيطرة أم يتجاهل دورها ويلجأ إلى أدواته الخاصة المباشرة؟

(٦) من الأطراف الخارجية التى تشكك فى شرعية المهيمن، ومن ثم تساعد من يقوم داخل النظام بدور التحدى للهيمنة؟، هل هذه الأطراف دول أم منظمات حكومية أم غير حكومية؟، ما هى درجة العداء للمهيمن الإقليمى أو للساعى للهيمنة؟، ما هى قدرات وأدوات تلك الأطراف الخارجية فى تحدى المهيمن الإقليمى؟

(٧) كثافة انغماس النظام فى تنافس القوى العظمى، فكلما زادت درجة الانغماس كلما كان النظام أكثر تلقياً للمساعدة والدعم من القوة العظمى أو الكبرى الأقرب إليه والأكثر عرضة للضغط والتحدى من القوة

الأخرى، وأى من الحالتين يفرز تفاعلات داخلية فى النظام تختلف عن الأخرى.

(٨) الدول الأجنبية الطامحة للإحلال محل المهيمن، والمقصود هنا الدول غير الأعضاء فى النظام، فوجود مثل هذه الدول يخلق كماً هائلاً من التفاعلات داخل النظام حيث تسعى تلك الدولة أو الدول إلى اختراق النظام من الداخل والسعى لخلق استقطابات وولاءات مؤيدة لدورها ومعادية للمهيمن، وقد تستخدم وسائل الإغراء والقهر حسب حالة الموقف ومدى استجابة الأطراف الداخلية وقدرة المهيمن على الصمود والردع.

(٩) درجة الارتباط بالمنظمة العالمية، وبالتالى مدى انفتاح أو انغلاق النظام، فانغلاق النظام يعنى انفراد المهيمن به وفرض سيطرته كما يريد، أما انفتاح النظام وتكثيف ارتباطاته مع المنظمة العالمية فيحد من فرص المهيمن فى فرض السيطرة المنفردة.

(١٠) مستوى التنمية الاقتصادية، أى مدى التقارب أو التفاوت فى درجة التقدم الاقتصادى، فأنماط التفاعل داخل النظام (تعاون – تنافس – صراع) تختلف فى حالة التقارب أو التكافؤ فى المستوى الاقتصادى عنها فى حالة تفاوت هذا المستوى بين أعضاء النظام.

وتتأثر تفاعلات النظام الإقليمى بطبيعة الاتصالات التى تحدث داخله، فكلما تميزت هذه الاتصالات بالسيولة والكثافة والتنوع زادت إمكانيات التفاهم والتعاون المشترك داخل النظام، وكانت هناك فرص أوسع لاستيعاب الخلافات قبل استفحالها، مع إمكانية حلها بالوسائل السلمية، لكن انقطاع أو جمود أو ضعف الاتصالات يزيد من حدة الخلافات، ويؤدى إلى تراجع الوسائل السلمية فى حل الأزمات عند نشوبها، كما يزيد من فرص الاختراق

الخارجى وما يترتب على هذا الاختراق من انعكاسات على التفاعلات داخل النظام.

كما تعتبر التهديدات التى تواجه النظم الإقليمية من العوامل الأساسية المؤثرة فى تفاعلاتها، وهذا يتوقف بالطبع على مصادر هذه التهديدات وأنواعها ودرجاتها، كما يتوقف فى الوقت نفسه على الخصائص الهيكلية للنظام وطبيعته.

فمصادر التهديدات يمكن أن تكون داخلية أو خارجية. والتهديدات الداخلية قد تكون من داخل إحدى دول النظام فى شكل مظاهر عدم الاستقرار السياسى بدرجة قد تؤثر على أمن واستقرار النظام كله إما بسبب ما تحدثه من تهديد لأمن أحد أعضاء النظام وإما للخوف من احتمال انتشار هذا الخطر إلى دول أخرى فى النظام، وقد يكون التهديد الداخلى مباشراً من دولة إلى دولة أو دول أخرى فى النظام. ويمكن أن تأخذ التهديدات الداخلية عدة أشكال، قد تكون سياسية ودعائية وقد تكون تجارية فى شكل قيود أو عوائق، وقد تأخذ شكل التخريب والتدمير باستغلال الأقليات العرقية أو الدينية، أو جماعات سياسية معارضة، وربما تصل إلى الحرب المسلحة.

وقد يكون مصدر التهديد خارجياً، من جانب إحدى القوى الخارجية، وربما يكون هذا التهديد موجهاً إلى واحدة أو أكثر من دول الإقليم وقد يكون التهديد للنظام كله عندما يصل الخطر إلى تهديد مصالح تهم كل دول النظام، والتهديد الخارجى أنواع أيضاً، فقد يكون مجرد حملة دعائية وقد يمتد إلى الحظر أو المقاطعة الاقتصادية، وقد يتطور إلى التخريب الداخلى أو استخدام القوة العسكرية.

ويؤثر هذا التعدد فى أنواع ومصادر التهديدات بدرجات مختلفة فى تفاعلات النظام الإقليمى، فقد تكون عاملاً مساعداً فى زيادة تفكك النظام،

خاصة إذا كانت مصادر التهديد داخلية وإذا كان النظام يفتقد إلى آلية جماعية لفض المنازعات سلمياً وإذا انقسم النظام حولها بين مؤيد ومعارض، وإذا كانت هذه التهديدات خارجية فقد تؤدى أيضاً إلى انقسام النظام وتهديد استقراره إذا لقيت من يساندها من داخل النظام، لكن يمكن أن يكون التهديد الخارجى حافزاً لخلق توجهات تكاملية خاصة إذا كان هناك شعور عام داخل النظام الإقليمى بأن هذا التهديد يستهدف النظام ككل، وإذا حدث توحد فى مواجهته، وتجربة التكامل الأمريكية والأوروبية والآسيوية مليئة بالدروس المفيدة حول كيفية توظيف التهديد الخارجى لصالح عملية التكامل الإقليمى.

كما تلعب القوى الخارجية دوراً فاعلاً ومؤثراً فى أنشطة وتفاعلات النظم الإقليمية من خلال المشاركة السياسية وغير السياسية المتكررة أو المتواصلة فى العلاقات الدولية الإقليمية، هذا يعنى أن شؤون النظم الإقليمية وتفاعلاتها ليست حكراً على الدول ذات العضوية المباشرة فيها، فهناك دول من خارج الإقليم لها نفوذ وتأثير قد يفوق نفوذ وتأثير أى دولة من أعضاء النظام، وربما يفوق نفوذ الدولة الإقليمية المهيمنة أو الساعية للهيمنة داخل الإقليم. وهناك ثلاثة مداخل أو مسالك لتدخل القوة الأجنبية فى شئون النظم الإقليمية هى:

أ – أن يكون للدولة أو القوة الأجنبية مصالح اقتصادية أو استراتيجية مباشرة فى الإقليم، أو تربطها علاقات خاصة مع أحد أعضائه.

ب – التنافس حول مناطق النفوذ، وهنا تكون الدولتان العظميان الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى (السابق) هما المعنيتين بذلك خاصة فى سنوات الحرب الباردة، وحتى فى سنوات الانفراج.

ج – تلبية دعوة إحدى دول النظام الإقليمى بالتدخل لموازنة نفوذ وقوة دولة أخرى فى الإقليم تسعى لتوسيع سيطرتها على حساب مصالح تلك الدولة أو تريد التدخل فى شؤونها.

وتنتج هذه المسالك الثلاث تأثيرات وتفاعلات مختلفة داخل النظم الإقليمية، وتختلف من نظام إقليمى لآخر باختلاف خصائص وظروف كل منها. وأياً كانت المحصلة فهى فاعلة وجوهرية، إذ يصعب تصور وجود نظام إقليمى خالٍ من تأثير القوى الخارجية خاصة الدولتين العظميين وبالذات فى سنوات الحرب الباردة، لحرصهما على اختراق النظم الإقليمية وتوسيع مناطق نفوذهما فى أقاليم عديدة من العالم، وفى بعض الحالات لم يقتصر دور القوتين العظميين على مجرد التأثير فى شؤون بعض النظم الإقليمية، بل كان هذا الدور منشئاً لعدد من هذه النظم، على غرار الدور الأمريكى فى إنشاء تحالف الأطلسى، وفى إنشاء السوق الأوروبية المشتركة التى استندت فى البداية إلى مشروع مارشال الأمريكى، وكذلك الدور الأمريكى فى إنشاء النظام الإقليمى لأمريكا الوسطى، وكذلك دور الاتحاد السوفيتى فى إنشاء حلف وارسو فى شرق أوروبا.

٢- الصدام بين نظام الشرق الأوسط والنظام العربى

تؤكد خصوصية نشأة النظام الإقليمى للشرق الأوسط حتمية صدامه مع النظام العربى، فالأول مفروض من الخارج وتتباين حدوده بتطور مصالح القوى الأجنبية التى دفعت بفرضه على دول المنطقة، والثانى شرعى يمثل مصالح الدول العربية المؤسسة لهذا النظام، ويتوافق بدرجة كبيرة مع المفهوم الذى تحدثنا عنه فى تعريف النظام الإقليمى. فعندما طرح مصطلح "الشرق الأدنى" فى منتصف القرن التاسع عشر (١٨٥٠) الذى سبق بروز مصطلح الشرق الأوسط لم يكن مجرد مصطلح سياسى أو جغرافى ولكنه كان يعكس مفاهيم محددة لمشروع استعمارى استهدف المناطق التى استوعبها وخاصة تركيا وقبرص وسوريا الكبرى ومصر ، وهى المناطق

التى كانت تشملها أغلب أجزاء الإمبراطورية العثمانية، وظهر هذا المصطلح ليعبر عن مشروع يستهدف الاستحواذ على هذه المناطق ضمن مخطط تفكيك الإمبراطورية العثمانية.

وعلى السياق نفسه تطور مفهوم الشرق الأوسط ليعبر عن مشروع استعمارى تزامن أو ترافق مع ظهور الصهيونية كحركة سياسية عالمية منظمة، ويشمل منطقة تشكل امتداداً للشرقين الأدنى والأقصى وهى أغنى المناطق فى العالم بالنفط والمعادن وتتمتع بمركز استراتيجى هام بين القارات الثلاث: أوروبا وآسيا وأفريقيا، وتشمل بلدان شبه الجزيرة العربية والعراق وإيران وأفغانستان إضافة إلى كل المشرق العربى ومصر، وهو بهذا المعنى أضاف دولاً إلى العالم العربى، واستبعد دولاً عربية، ولم يكن ذلك محض استبعاد أو ضم جغرافى ولكنه كان لصيقاً بـ "حرب الهويات" التى باتت تمثل عصب فكرة احتواء "المشروع العربى" وتفكيكه.

إن من يتابع مراحل التطور الحركي لمشروع الشرق الأوسط سيجد تطابقاً هائلاً بينها وبين تطور المشروع الصهيونى ابتداءً من ظهور فكرة إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين. فنظراً لأهمية فلسطين التاريخية والدينية وموقعها الاستراتيجى بين آسيا وأفريقيا، بين بلدان المشرق والمغرب العربى قرر الاستعمار البريطانى إقامة "إسرائيل" فى فلسطين، قلب الوطن العربى كنقطة ارتكاز وانطلاق للتحكم بالمنطقة العربية وثرواتها وإراداتها، ولتكون إسفين لفصل البلدان العربية الآسيوية عن البلدان الأفريقية، وكتب تيودور هرتسل، مؤسس الصهيونية (كحركة سياسية عالمية منظمة) عام ١٨٩٧ فى يومياته، يقول: "يجب قيام كومنولث شرق أوسطى، يكون لدولة اليهود فيه شأن قيادى فاعل، ودور اقتصادى قائد، وتكون المركز لجلب الاستثمارات والبحث العلمى والخبرة الفنية".

وفي عام ١٩٠٧ صدر فى لندن تقرير كامبل بنرمان وزير المستعمرات آنذاك، الذى قدمه فى مؤتمر عقدته مجموعة من علماء التاريخ والسياسة والاقتصاد، بمشاركة عدد من السياسيين الأوروبيين تناول الوضع فى المنطقة العربية، وجاء فيه:

"يكمن الخطر على الغرب فى البحر المتوسط، لكونه همزة وصل بين الشرق والغرب. ويعيش فى شواطئه الجنوبية والشرقية شعب واحد، تتوافر له وحدة التاريخ واللغة والجغرافيا وكل مقوّمات التجمع والترابط، وذلك فضلاً عن نزعاته الثورية وثرواته الطبيعية الكبيرة".

ثم يتساءل التقرير عن مصير المنطقة، إذا انتشر فيها التعليم والثقافة، ويجيب بأنه إذا حدث ذلك، فسوف تحل الضربة القاضية بالإمبراطوريات القائمة. وقد وضع هذا المؤتمر الاستعمارى المخططات والوسائل الكفيلة لإضعاف الوطن العربى وتسهيل السيطرة عليه وعلى شطآنه واحتواء إرادته وطاقاته وثرواته ومنع تطوره وتقدمه ووحدته.، وحدد وسائل وأساليب تحقيق ذلك بما يلى:

أولاً: إقامة حاجز بشرى غريب وقوى مانع، يفصل بلدان المشرق عن بلدان المغرب العربى، وإقامة قوة قريبة من قناة السويس، عدوة لشعوب المنطقة وصديقة للدول الأوروبية.

ثانياً: العمل على تجزئة الوطن العربى إلى دول وكيانات متعددة.

ويبدو واضحا أن المؤتمر استهدف إقامة الكيان الصهيونى فى فلسطين، والسيطرة على الموقع الجيوستراتيجى الهام للوطن العربى وعلى قناة السويس، ونهب ثرواته الطبيعية والحيلولة دون تطوره ودون تحقيق وحدته.

وقد بدأت الصهيونية تعمم مصطلح الشرق الأوسط بدلاً من مصطلح الوطن الواحد والشعب الواحد والأمة الواحدة، نظراً لأنه ملتقى القارات

الثلاث ويشرف على أهم الممرات المائية كقناة السويس، ومضيق باب المندب، والخليج، وخليج العقبة ومضيق هرمز، ويختزن أكثر من ثلثى احتياطى النفط العالمى. وتخشى الصهيونية والاستعمار من إقامة دولة اتحادية عربية قوية وغنية ومسلحة بالثروة النفطية والعروبة والعقيدة الإسلامية.

لقد احتلت المنطقة مكانة هامة فى التنافس الاستعمارى بين دول أوروبا الاستعمارية وبالتحديد بين بريطانيا وفرنسا من أجل السيطرة على الهند (المسماة بدرة التاج البريطاني). وجاءت حملة بونابرت على الشرق فى هذا الاتجاه، ولكنه فشل أمام أسوار عكا فعاد إلى فرنسا، ثم ظهر فى لندن عام ١٩٠٩ كتاب بعنوان: مشاكل الشرق الأوسط لمؤلفه هاملتون وضّح فيه أهمية المنطقة لأوروبا والعالم، وطالب بضرورة السيطرة عليها. ولعل هذا يفسر قيام الحاكم البريطانى على الهند اللورد كيرزون بتكوين "إدارة خاصة للشرق الأوسط" في عام ١٩١١ كلّفها بالإشراف على شؤون فلسطين وشرق الأردن والعراق.

وفي عام ١٩٢٢ اقترح الإرهابى فلاديمير جابوتنسكى عام مشروعاً لإقامة سوق شرق أوسطية. وحدّدت الحركة الصهيونية عام ١٩٤٢ أهدافها التوسعية وسيطرتها الاقتصادية على الوطن العربى فى مؤتمر "بلتيمور" الصهيونى، الذى يعتبر أهم مؤتمر صهيونى بعد المؤتمر التأسيسى فى "بازل" على الشكل التالى: (إقامة قيادة يهودية للشرق الأوسط بأكمله فى ميدانى التنمية والسيطرة الاقتصادية)، ووضع الصهاينة دراسات ومذكرات حول "الشرق الأوسط" فى عامى ١٩٤١ و١٩٤٢، وأنجزوا مشروعاً صهيونياً للشرق الأوسط لمواجهة الكتاب الأبيض لحكومة الانتداب البريطانى فى فلسطين ويتضمن المشروع العمل على قيام تعاون سياسى واقتصادى يمنع التصادم بين العرب واليهود، ويدمج فلسطين وبقية بلدان المشرق العربى.

وقد طُرحت فكرة التعاون الاقتصادى بين بلدان منطقة الشرق الأوسط لأول مرّة فى ١٨ نوفمبر ١٩٤٣، وذلك فى اجتماع عُقد بين ممثلين عن وزارتى الخارجية الأمريكية والبريطانية فى لندن، بمقر وزارة الخارجية البريطانية للتباحث فى تسوية وضع الشرق الأوسط بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية لضمان مصالح البلدين فى المنطقة والهيمنة عليها. وأعد اليهودى-الأمريكى الدكتور ارنست بيرجمان "أحد تلامذة حاييم وايزمان، زعيم المنظمة الصهيونية العالمية"، مذكرة قدّمها للاجتماع، كان جوهرها العمل على "تهويد فلسطين" بهجرة اليهود إليها، وإقامة إسرائيل فيها، وتحويلها إلى قاعدة صناعية متطورة لتكون حجر الزاوية فى المشاريع والمخططات المستقبلية الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط.

وهكذا نستطيع أن نقول أن قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ كان أولى خطوات النجاح الاستعمارية لفرض مشروع الشرق الأوسط كمشروع للهيمنة الغربية الاستعمارية، وبعد قيام إسرائيل توالت الخطط والأفكار والمقترحات من جانب بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية لتفكيك المشروع العربى لصالح مشروع الشرق الأوسط وفى القلب منه المشروع الصهيونى.

لقد كان تأسيس جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥ خطوة فى الطريق المخالف لمسار تطور أحداث مشروع الشرق الأوسط، وهنا تطرح علامة استفهام كبيرة حول الدور البريطانى فى المشروعين: مشروع الشرق الأوسط والمشروع العربى، لكن طرح علامة الاستفهام هذه يكشف النقاب عن محورية الدور العربى فى تأسيس جامعة الدول العربية، أو على الأقل فى تحديد هوية وأهداف هذه الجامعة بما يتعارض مع المشروع الصهيونى-الاستعمارى للشرق الأوسط بدليل دخول جيوش عربية فى الحرب ضد الكيان الصهيونى عام ١٩٤٨، وبدليل التصدى العربى للمقترحات البريطانية

والأمريكية الجديدة لتطوير مشروع الشرق الأوسط على حساب المشروع العربى ابتداء من "مشروع ترومان" عام ١٩٤٩ الذى عرف فى العالم العربى باسم "مشروع النقطة الرابعة" نسبة إلى المادة الرابعة منه، وتضمن إمكانية تقديم مساعدات سياسية واقتصادية وعسكرية إلى دول منطقة "الشرق الأوسط" الواقعة تحت النفوذ الغربى، ثم مشروع "القيادة الرباعية للشرق الأوسط" فى عام ١٩٥١، لإقامة سلسلة من التحالفات السياسية والعسكرية مع دول المنطقة والتنسيق والتعاون بينها، ثم مشروع "قيادة الشرق الأوسط العسكرية" أو "الحزام الشمالى للمنطقة" التى تضم بعض الدول العربية وبعض دول الجوار فى آسيا، إضافة إلى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، وتمخض عن ذلك ما عرف بـ "حلف بغداد".

لقد استطاع النظام العربى أن يصمد أمام كل هذه المشروعات لكن قيام ثورة ٢٣ يوليو فى مصر عام ١٩٥٢ حول الصمود إلى مواجهة وبالذات حول مشروع "قيادة الشرق الأوسط"، أو "سياسة الأحلاف الأمريكية"، وعلى الأخص منها "حلف بغداد".

بداية هذه المواجهة التى تحولت فيما بعد إلى صدام عسكرى أو عدوان ثلاثى بريطانى-فرنسى-إسرائيلى عام ١٩٥٦ ارتبطت برفض مصر الدخول فى الحلف الدفاعى الذى اقترحته بريطانيا.والذى يضم كلاً من بريطانيا والعراق وتركيا وباكستان. فبعد أربعة أيام فقط من توقيع العراق وتركيا على المعاهدة الرسمية المسماة بـ "حلف بغداد" فى ٢٤ فبراير ١٩٥٥ والتى انضمت إليها بريطانيا وباكستان وإيران فى أبريل من العام نفسه، بدأت أزمة جديدة فى العلاقات بين مصر والغرب، أشعلها الهجوم الإسرائيلى على مواقع الجيش المصرى فى قطاع غزة.

فى تلك اللحظة بالتحديد، بدأت علاقة مصر بالغرب تأخذ منحى آخر، فقبل ذلك كان لدى مصر اعتبارات عدة تبرر الأمل فى إقامة علاقات ودية

مع الغرب، أهمها المرونة التى أبـدتها إدارة الـرئيس الأمريكـى دوايـت أيزنهاور إزاء قضية الصراع العربى-الإسرائيلى والعلاقات مـع مـصر، والتى توجت بتوقيع اتفاقية بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية فى عـام ١٩٥٤ تقضى بتزويد مصر بمعونة اقتصادية قدرها ٤٠ مليون دولار.

لكن الهجوم الإسرائيلى على غزة، إلى جانب "حلف بغداد"، كان في نظر مصر جزء من مؤامرة إمبريالية يدبرها الغـرب للقـضاء علـى الثـورة والسيطرة على الوطن العربى مرة أخرى، وتمثل ردهـا علـى ذلـك فـى قرارين: الأول، الاتجاه نحو شراء سلاح لردع إسرائيل عن شن أى هجمات جديدة. والثانى، تعزيز ترتيبات الأمن داخل الجامعة العربية من خلال إبرام سلسلة من المعاهدات الدفاعية مع الدول العربية الحليفة كسبيل لمواجهة حلف بغداد.

وفى البداية اتجهت مصر إلى الغرب لشراء السلاح، لكنها لم تجد قبـولا من جانب بريطانيا أو الولايات المتحدة اللتين أصرتا علـى إلحـاق مـصر بترتيبات الأمن الغربية كشرط لإمدادها بالسلاح، فلم تجد بدا من الاتجاه إلى الكتلة الشرقية. وكان مؤتمر باندونج فى أبريل ١٩٥٥ فرصة لمصر لتعميق علاقاتها مع دول العالم الثالث الطامحة إلـى الاسـتقلال عـن الإمبرياليـة الغربية، وجس نبض هذه الدول فى مسألة إمداد مصر بالأسلحة. وقد تقدمت مصر، خلال المؤتمر، بطلب إلى الصين فى هذا الشأن، والتى حولته بدورها إلى الاتحاد السوفيتى المصدر الأساسى للأسلحة للصين فى ذلـك الوقـت. وكان طلب مصر للأسلحة بمثابة فرصة للاتحاد السوفيتى لتعميق علاقاته مع الدول العربية وضمان موطأ قدم فى المنطقة. وبالفعل أعلن الرئيس جمـال عبد الناصر فى سبتمبر ١٩٥٥ عن إبرام اتفاقية للحصول على الأسلحة من الكتلة الشيوعية مقابل القطن المصرى.

كان من الطبيعى أن تثير صفقة الأسلحة السوفيتية قلق الولايات المتحدة وبريطانيا وإسرائيل التى أعلن رئيس وزرائها بـن جوريـون أن الـصفقة "أبرمت لسبب واحد هو تدمير إسرائيل". والمثير للانتباه فى هذا الـسياق أن اتجاه مصر لشراء أسلحة من الكتلة الشيوعية أفرز رد فعل عكسي من جانب الغرب على خلفية اقتناعه بأن هذه الصفقة ما هى إلا مقدمة لتثبيـت أقـدام الاتحاد السوفيتى فى منطقة الشرق الأوسط خصما من نفـوذ الغـرب فـى المنطقة، ومن ثم بدأت الولايات المتحدة وبريطانيا فى تعديل مواقفهما مـن مصر وهو ما انعكس فى موافقتهما المبدئية على المساهمة مع البنك الدولى فى تمويل مشروع السد العالى. بيد أن هذه الخطوة سرعان ما بددها عدد من التطورات الإقليمية أهمها اتجاه الأردن، بدعم بريطانى، إلى الانضمام إلـى حلف بغداد، وهو ما دفع الرئيس عبد الناصر، عبر إذاعة صوت العرب، إلى شن هجوم عنيف على عملاء بريطانيا فى الأردن، وانتهـى الأمـر بإبعـاد الجنرال جلوب قائد الفيلق العربى من الأردن، وهو ما كان سببا رئيسيا فـى تصعيد التوتر بين مصر وبريطانيا التى حملتها مسئولية إبعاد جلـوب مـن الأردن.

وتوترت العلاقات بين الرئيس جمال عبد الناصر من ناحية، وكل مـن أنتونى إيدن رئيس الوزراء البريطانى، وجون فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكى ووصلت إلى طريق مسدود، حيث اعتبراه تهديدا حقيقيا للمخططات الغربية فى المنطقة، وانضم إليهما جى موليه رئيس وزراء فرنسا الذى اتهم الرئيس عبد الناصر بأنه السبب الرئيسى فى دعم الثورة الوطنية فى الجزائر التى بدأت فى نوفمبر ١٩٥٤. ولم تكن إسرائيل فى حاجة لمبررات جديـدة لاستعداء عبد الناصر. وإزاء اعتراف مصر بالصين الشعبية وتبادل السفراء مع بكين فى ١٦ مايو ١٩٥٦، ازدادت الأمور اشتعالا بين مصر والغـرب

وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية التى اعتبرت أن هذه الخطوة موجهة إليها فى الأساس.

وقد اعتبر الغرب أن عدم مساعدة مصر فى تمويل مشروع السد العالى يمكن أن يمثل ردا مناسبا على سياسة الرئيس عبد الناصر، ومن ثم أعلن وزير الخارجية الأمريكى جون فوستر دالاس فى يونيو ١٩٥٦ أن حكومة الولايات المتحدة قد توصلت إلى نتيجة مفادها أن الاقتصاد المصرى لا يستطيع تحمل عبء بناء السد العالى وأنها لهذا السبب قررت سحب عرضها بتمويل المشروع، وبعد يوم واحد فقط تبنت بريطانيا الموقف نفسه. ولما كان قرض البنك الدولى الذى يبلغ ٢٠٠ مليون دولار متوقفا على المساعدات الأمريكية والبريطانية، فقد ألغى هذا المصدر بسحب الدولتين عرضيهما.

فى تلك اللحظة بدأت فكرة تأميم قناة السويس تراود الرئيس عبد الناصر باعتبارها أحد المصادر التى يمكن أن تمول مشروع السد العالى. وفي هذا الخصوص نلاحظ أن البعض حاول أن يصور قرار التأميم على أنه قرارا انفعاليا جاء ردا على رفض تمويل مشروع السد العالى، لكن الواقع غير ذلك تماما. فقد انشغل عبد الناصر بهذا القرار مبكرا وبالذات منذ رفضه للتسوية المؤقتة التى تم الاتفاق عليها بين الحكومة المصرية وشركة قناة السويس فى عام ١٩٥٥ والتى رفعت بمقتضاها الشركة ما تدفعه لمصر إلى ٧% من إجمالى أرباح القناة، وزادت من عدد المديرين المصريين إلى خمسة مقابل خمسة وعشرين عضواً فرنسياً وبريطانياً فى مجلس الإدارة. كما أن مصر كدولة مستقلة لم تكن تقبل أن تسمح للأجانب باستغلال مواردها الوطنية لأجل غير مسمى خصوصاً أن الإجراءات والترتيبات التى اتخذتها شركة قناة السويس فى تلك الفترة لم تكن توحى بأنه سوف يتم إنهاء امتياز الشركة بعد إثنى عشر عاماً أى فى عام ١٩٦٨.

لهذه الاعتبارات فى مجملها، يمكن القول أن قرار الرئيس عبد الناصر فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ بتأميم شركة قناة السويس (القرار رقم ٢٨٥ لسنة ١٩٥٦)، كان محصلة لسياسة الغرب ضد مصر منذ نجاح الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وتجسيداً لأهدافها وطموحاتها فى السيطرة على الموارد الوطنية وإكساب حرية الوطن معانٍ جديدة تعلمها العالم كله فيما بعد، وأصبحت أبرز شعارات حركة التحرر الوطنى العالمية التى قامت مصر فيها بالدور القيادى المؤسس ابتداءً من مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥ إلى مؤتمر بريونى ثم مؤتمر عدم الانحياز الأول فى القاهرة فى يونيو ١٩٥٦ ومن بعده مؤتمر بلجراد الذى ظهرت فيه حركة عدم الانحياز كحركة عالمية مناهضة لكل أشكال التبعية والهيمنة وداعية إلى الحرية والسيطرة على الثروات الوطنية وإقامة نظام اقتصادى عالمى عادل، وداعية إلى وضع نهاية لسياسة نهب ثروات دول العالم النامى.

لقد حسم عبدالناصر فى مداخلته أمام مؤتمر باندونج، وفى أوج الخلافات حول توجهات الدول التى اعتبرت النواة الأولى للحركة التوجه الحقيقى لمعنى عدم الانحياز عندما قال: "إن معركة الحرية فى العالم واحدة، وإن خطر الاستعمار على الشعوب واحد وإن مصر الثورة تتعهد بشن الحرب بكل ما لديها على الاستعمار والسيطرة الأجنبية".

وانطلاقاً من هذه المبادئ كان مؤتمر بريونى بين جمال عبد الناصر ورفيقيه فى النضال جواهر لال نهرو زعيم الهند وجوزيف بروز تيتو زعيم يوغوسلافيا هو رد الفعل الطبيعى على سلبيات باندونج، وبالذات ما يتعلق بسياسة الأحلاف والانضمام إليها التى كانت الدول الأعضاء قد انقسمت حولها بين مؤيد ومعارض، فى محاولة للبحث عن المعنى الحقيقى لعدم الانحياز، وهو استقلالية الإرادة وانتفاء القهر فى العلاقات الدولية.

كان الدور المصرى البارز فى إجهاض سياسة الأحلاف معركة مهمة كسبها الرئيس جمال عبد الناصر لصالح النظام العربى حيث أرسى مع رفاقه ابتداءً من مؤتمر باندونج قاعدة تفعيل نظام الدفاع الجماعى العربى، وتفعيل دور جامعة الدول العربية لمواجهة التحديات الخارجية، وتقديم كل العون والدعم للشعوب العربية كى تتحرر من الاستعمار. وتوسع الدور المصرى من دعم حركة التحرر العربية إلى دعم حركة التحرر الوطنى فى أفريقيا وآسيا، لذلك يمكن القول أن التحفز الفرنسى لشن العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ لم يكن مجرد رد فعل لقرار تأميم جمال عبدالناصر لقناة السويس بقدر ما كان انتقاماً من دور مصر الداعم للثورة الجزائرية مادياً وعسكرياً ومعنوياً، وعلى النحو ذاته يمكن القول أن العدوان كان انتقاماً ثلاثياً من سياسة مصر المناوئة لنظام الشرق الأوسط لصالح دعم النظام العربى بما يمثله ذلك من مخاطر وتحديات للمشروع الاستعمارى الغربى–الصهيونى.

ثانياً: تداعيات حرب السويس على النظام الإقليمى

انتهت حرب السويس إلى مجموعة من النتائج المهمة بالنسبة لمسيرة الصدام بين مشروع الشرق الأوسط كعنوان للمشروع الاستعمارى – الصهيونى والمشروع العربى من أهمها:

١- خروج المشروع العربى منتصراً الأمر الذى أدى إلى اتساع زعامة جمال عبد الناصر ليصبح زعيماً للأمة ليس فقط بشخصه ولكن أيضاً بما يدعو إليه من قيم ومبادئ للحرية والاستقلال والعزة والكرامة.

٢- أدى الربط بين شعارات الحرية السياسية والاستقلال الوطنى وشعار السيطرة على الثروات الوطنية كما جسده قرار تأميم قناة السويس إلى

دعم مطالب السيطرة على هذه الثروات الأمر الذى اعتبر تحدياً للأطماع الغربية فى المنطقة وتحدياً لمشروعها.

٣- أفول شمس الإمبراطورية البريطانية التى لم تكن تغيب عنها الشمس، كما كانت نتائج الحرب تهديداً للوجود الفرنسى فى العالم العربى وعلى الأخص فى الجزائر ودول المغرب العربى التى كانت مصر تقدم لها كافة المساعدات المادية والمعنوية فى مواجهة الاستعمار الفرنسى، وبشكل عام يمكن القول أن حرب السويس قوضت السيطرة التقليدية التى كانت لتلك القوى الأوروبية على المنطقة.

٤- إسقاط الافتراضات التقليدية فى الغرب حول الهيمنة الأنجلو – فرنسية فى الشرق الأوسط.

٥- السماح لبعض القوى الكبرى الأخرى خاصة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى بالدخول إلى المنطقة، للدفاع عن مصالحها، وهو الأمر الذى كان يعنى بالطبع تقليص نفوذ القوى التقليدية المتمثلة فى كل من بريطانيا وفرنسا لصالح القوى الجديدة.

ونستطيع القول أن حرب السويس أدت إلى إحداث تبدل مهم فى موازين القوى الدولية فى الشرق الأوسط لصالح كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وعلى حساب كل من فرنسا وبريطانيا، الأمر الذى دفع بالنظام الإقليمى فى المنطقة إلى أتون الحرب الباردة بين العملاقين الأمريكى والسوفيتى، وأصبح مستقبل النظام الإقليمى يتوقف بدرجة أساسية على مستقبل الصراع الكونى الأمريكى–السوفيتى بعد أن حدث استقطاب إقليمى حاد فى العالم العربى بين أطراف عربية ثورية صديقة للاتحاد السوفيتى، وأطراف عربية أخرى محافظة أو تقليدية حليفة للولايات المتحدة.

وهنا نلحظ حدوث تطور مهم فى طبيعة نظام الشرق الأوسط بعد حرب ١٩٥٦ وذلك باختفاء الدور البريطانى–الفرنسى وظهور الدورين الأمريكى

والسوفيتى. فقبل عام ١٩٥٦، كان هناك توافق بريطانى-فرنسى فــى إدارة شؤون الإقليم ضمن إطار تنافسى تقليدى بينهما، ولكن الــدخول الأمريكــى والسوفيتى على حساب نفوذ ومكانة بريطانيا وفرنسا جــاء ضــمن إطــار الصراع الكونى بينهما، وتحول إقليم الشرق الأوسط إلى ساحة مهمة للصراع بين واشنطن وموسكو، ومن ثم أصبح الصراع من المعالم الأساسية لنظــام الشرق الأوسط فى مرحلته الجديدة بعد حرب ١٩٥٦.

ولم تنعكس هذه الصفة الصراعية للنظام فى شكل استقطاب دولى داخل الإقليم فقط بل إن ظاهرة الاستقطاب امتدت إلى داخل النظام الإقليمى للشرق الأوسط وإلى نظامه الفرعى ونقصد النظام العربى، وبدأ النظام العربى يشهد وجود قوة ساعية إلى الزعامة أو الهيمنة وهى مصر التى خرجت منتــصرة من الحرب، وقوة أخرى مناوئة أو مساومة لهذه الزعامــة وهــي المملكــة العربية السعودية وخاصة بعد الأحداث المهمة لعام ١٩٥٨، وبالتحديد قيــام الجمهورية العربية المتحدة فى ٢٢ فبراير ١٩٥٨، بين مصر وسوريا، وقيام الثورة فى العراق فى يوليو ١٩٥٨.

فالمملكة العربية السعودية التى تعاونت مع حكومة الثورة فى مصر ضد سياسة الأحلاف قبل عام ١٩٥٦، وبالتحديد حلف بغداد، انقلبت على هذه السياسة ابتداء من عام ١٩٥٨، بعد سقوط النظام الهاشمى فى بغداد الذى كان ينظر إليه بحذر وارتياب شديد من جانب الحكومة السعودية فى إطار تنافسى تقليدى سعودى – هاشمى منذ أن امتد نفوذ عبد العزيز آل سعود إلى الحجاز وخروج الشريف حسين وأبنائه من مكة نهائياً عقب فشل الثــورة العربيــة الكبرى كأحد نتائج الحرب العالمية الأولى، وتولى فيصل بن الشريف حسين حكم العراق، وتولى عبد الله بن الشريف حسين حكم الدولة الجديــدة التــى حملت اسم "المملكة الأردنية الهاشمية".

ولقد انخرطت المملكة العربية السعودية في الصراع مع مصر بعد خروج مصر منتصرة قوية من حرب ١٩٥٦، ثم تأسيس الجمهورية العربية المتحدة وقيام ثورة العراق والخوف من انضمام العراق إلى دولة الوحدة الجديدة. وبدأ النظام العربى يشهد ظهور قطبين متنافسين أو محورين متنافسين فى السياسة العربية هما محور القاهرة، ومحور الرياض، واحتدم الصراع بينهما بعد ذلك ابتداءً من حادث الانفصال الذى أنهى دولة الوحدة فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١، ثم المواجهة بينهما فى اليمن بعد ثورة سبتمبر ١٩٦٢ ، وظهور دعوة الحلف الإسلامى بين السعودية وإيران (الشاهنشاهية) لمواجهة المد القومى العربى بقيادة مصر الناصرية.

وازدادت المواجهة سخونة لاقترانها بالمواجهة الأمريكية–السوفيتية وامتداد ظاهرة الاستقطاب الدولى لتعبر عن نفسها فى ظاهرة استقطاب إقليمى أثرت بقوة على طبيعة النظام الإقليمى، سواء كان نظام الشرق الأوسط، أو النظام العربى. فبقدر ما شهد العالم حرباً باردة أمريكية–سوفيتية، شهد العالم العربى حرباً باردة عربية–عربية، أدت إلى انقسام الدول العربية حول النظام العربى ذاته، وكان هذا يعنى ضمنياً حدوث انقسام عربى حول نظام الشرق الأوسط بكل ما يعنيه من أبعاد استعمارية وصهيونية. لذلك كانت مواجهة القوى الثورية العربية للمشروع الاستعمارى الصهيونى مواجهة بطريقة أو بأخرى لعدد من الدول العربية الصديقة لواشنطن. حدث ذلك بوضوح شديد فى عقد الستينيات حيث حدث انشقاق حاد فى وحدة الصف العربى، ابتداءً من حادثة الانفصال التى أنهت على دولة الوحدة المصرية–السورية (الجمهورية العربية المتحدة) فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١، ثم حرب اليمن، وأخيراً عدوان يونيو ١٩٦٧.

وعندما نتحدث عن انشقاق أو انقسام فى النظام العربى فإننا نتحدث فى الوقت ذاته عن انقسام فى المواجهة العربية للمشروع الاستعمارى

الصهيونى، ومن ثم فإن الخسارة للنظام العربى باتت مزدوجة: خسارة ناتجة عن الانقسام العربى-العربى حول الأهداف والشعارات الأساسية للنظام العربى، وخسارة ناتجة عن مهادنة بعض الدول العربية للمشروع الاستعمارى الصهيونى الذى أخذ يحمل ابتداءً من طرح واشنطن لـ "مشروع أيزنهاور" طابعاً أمريكياً.

لقد واجه النظام العربى محطات صعبة وقاسية بعد حرب السويس فى مواجهة نظام الشرق الأوسط (الأمريكى-الصهيونى) منذ أن أصبحت الولايات المتحدة الطرف الرئيسى فى المواجهة مع النظام العربى بعد حرب السويس.

لقد انتهت حرب السويس بعلاقات مصرية جيدة مع الولايات المتحدة نتيجة للدور المهم الذى لعبته واشنطن فى احتواء الحرب بتقديمها "مشروع دالاس" المكون من نقاط ست استهدفت وقف إطلاق النار. ودخلت تلك العلاقات طوراً جديداً فى عام ١٩٥٧ حين أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية مبدأ "ايزنهاور" فى يناير من العام نفسه وهو نوع من التحالف الاستعمارى يستهدف إيجاد منظومة للدفاع عن الشرق الأوسط بحجة ملء الفراغ الذى أحدثه خروج بريطانيا من المنطقة عقب حرب ١٩٥٦ وأعلن عبد الناصر رفضه لهذا المشروع الذى مثل له امتدادا لحلف بغداد عام ١٩٥٥ بل وعمل على إفشاله بتدعيم الدفاع العربى الجماعى.

لكن الولايات المتحدة الأمريكية لم تقبل مساعى الزعيم عبدالناصر لتجميد مشروع ايزنهاور وبدأت فى استغلال الأحداث الداخلية التى وقعت فى الأردن حيث تحرك الأسطول السادس إلى شرق البحر المتوسط لدعم وتأييد الملك حسين ضد حكومة النابلسى الوطنية، وحلقت الطائرات الأمريكية استعدادا لتنفيذ مبدأ ايزنهاور القاضى باستخدام القوة فى حالة الضرورة. ومع

استمرار تدفق الأموال على العملاء الأمريكيين فى الأردن سقطت حكومة النابلسى وقامت حكومة يمينية بدعم من الولايات المتحدة التى أكدت بذلك نجاح أول تطبيق عملى لمبدأ ايزنهاور.

ومع هذا النجاح سعت الولايات المتحدة إلى تطويق سوريا لضمها إلى منظومة الحلف الأمريكى حيث حشدت القوات العراقية على الحدود السورية وهى قوات تابعه لحلف بغداد، وكلفت القوات التركية بالتحرك إلى الحدود السورية وهى قوات تابعة لحلف الأطلنطى، كما حركت "إسرائيل" قواتها فى اتجاه سوريا فى محاولة لإجبارها على الانخراط فى الأحلاف. وهنا أدرك عبد الناصر المساعى الأمريكية فقام بتحريك قوات من الجيش إلى سوريا تنفيذا لمعاهدة الدفاع المشترك بين البلدين عام ١٩٥٥، ثم عمل على حماية سوريا من هذه المؤامرات الخارجية التى دعمت حالة الفوضى السياسية فيها وقام بتحقيق الوحدة المصرية- السورية فى عام ١٩٥٨ التى مثلت إعلانا عن فشل مشروع ايزنهاور الاستعمارى فى ضم سوريا تحت المظلة الأمريكية.

ونظراً لوجود حكومة لبنانية موالية للولايات المتحدة خلال عام ١٩٥٧ برئاسة كميل شمعون الذى أعلن انضمام لبنان رسميا إلى مشروع ايزنهاور ونتيجة لعدة تطورات سياسية أدت إلى اندلاع المظاهرات ضد كميل شمعون الذى رغب فى إحداث تغيير فى الدستور للحصول على فترة رئاسة ثانية، أعلنت الولايات المتحدة تطبيق مشروع ايزنهاور على لبنان على أساس ضلوع الجمهورية العربية المتحدة فى الأزمة اللبنانية بدعمها لعناصر الثورة اللبنانية. وبدأت الولايات المتحدة فى تحريك أسطولها نحو لبنان وأعلن عبد الناصر عن دعمه لشعب لبنان فى ثورته ضد حكم كميل شمعون وإعلانه استعداده الدفاع عن لبنان إذا اعتدت الولايات المتحدة أو إسرائيل عليه.

هذه التطورات وما تبعها من انفصال سوريا عن مصر عام ١٩٦١ بتورط أطراف عربية ودولية ثم دخول القوات المصرية إلى اليمن، واحتدام المواجهة الأمريكية مع النظام الثورى فى مصر دفعت كلها إلى عدوان يونيو ١٩٦٧ الذى تورطت فيه الولايات المتحدة بهدف القضاء على النظام الناصرى باعتباره "النظام القاعدة" أو "الإقليم القاعدة" فى مشروع نهضوى عربى مناهض للمشروع الأمريكى – الإسرائيلى (مشروع الشرق الأوسط).

لقد أدى عدوان يونيو ١٩٦٧ إلى حدوث انكسار هائل فى النظام العربى، وبدأت مرحلة جديدة من المواجهة غير المتكافئة ين المشروعين العربى والشرق أوسطى فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ التى انتهت باتفاق مصرى – إسرائيلى تمت صياغته فى معاهدة السلام المصرية-الإسرائيلية عام ١٩٧٩. فبعد حرب ١٩٦٧ بدأ المشروع الشرق أوسطى كبديل للمشروع العربى يتقدم بخطوات ثابتة دون عائق عربى حقيقى بعد أن نجحت إسرائيل فى احتلال شبه جزيرة سيناء وهضبة الجولان والضفة الغربية وقطاع غزة، وتصاعدت المشروعات الإسرائيلية لإعادة ترتيب أوضاع الشرق الأوسط. ففي عام ١٩٦٨ تأسست فى إسرائيل جمعية للسلام فى الشرق الأوسط مهمتها وضع الخطط والبرامج والمشاريع لفرض هيمنة إسرائيل الاقتصادية على البلدان العربية، ومن ذلك إقامة سوق شرق أوسطية على غرار السوق الأوروبية المشتركة وبالتنسيق والتعاون معها، وتتألف من سلطات عدة أهمها: سلطة نفط الشرق الأوسط، وسلطة التنمية السياحية، وسلطة المياه والرى، وسلطة الزراعة والصناعة، وسلطة تعمير الصحارى. كما حددت الجمعية بعض السمات الأساسية التى يجب أن تبرز فى تطور اقتصاد المنطقة فخصّصت كل بلد من بلدان المشرق العربى بالصناعات التى تراها الجمعية، وتنبأت للسياحة بأن تكون من أهم صناعات الشرق الأوسط،

بسبب تقارب سكان المنطقـــة وسرعة المواصلات وزيادة الدخل. وفـــي نهاية الستينيات طرح حزب العمل الإســرائيلى إقامـــة اتحـــاد إســرائيلى-فلسطينى-أردنى على غرار اتحــاد البنيلــوكس، بــين بلجيكــا وهولنــدا ولوكسمبورج.

وتبنى ياسر عرفات طروحات حزب العمل حول الاتحاد الثلاثى وأوهام مشروع مارشال. وقدم جاد يعقوبى، وزير المواصلات فى حكومة الجنرال اسحق رابين عام ١٩٧٥ مخططاً ســرياً للتعــاون الإقليمـــى فـــى مجـــال المواصلات بين إسرائيل والأردن ومصر، وجرى بحثـــه ضـــمن هيئـــات حكومية إسرائيلية. وفي هذا المخطط أشار جاد يعقـــوبى إلـــى أن التعـــاون الإقليمى فى منطقة الشرق الأوسط فى مجال المواصلات هو أمر ضرورى للطرفين، ويتضمن المخطط آنذاك التعاون بين مطارى إيلات والعقبة وإقامة مطار جديد مشترك فى مرحلة لاحقة فى الأردن يكون اســتمراراً للمطـــار الأردنى الحالى، وإقامة محطة مشتركة وبرج مراقبة واحد.

وتضمن مشروع يعقوبى ربط الأردن بميناء حيفا بواسطة ســكة حديـــد قطار الغور، وإيجاد اتصال برى بين الأردن وميناء أسدود، وتطوير شـــبكة خطوط حديدية بين إسرائيل والدول العربية المجاورة، وتحويل إسرائيل فـــى نطاق التعاون الإقليمى إلى جسر برى بين مصر ولبنان. كما تضمن أيـــضاً تطويراً إسرائيلياً أردنياً مشتركاً لإيلات والعقبة فى المجال السياحى، وحرية انتقال السياح بين إيلات والعقبة.

وبعد شهر واحد من زيارة السادات للقدس عام ١٩٧٧ وضـــع يعقـــوب ميريدور، وزير الاقتصاد فى حكومة منـــاحم بـــيجن ، مـــشروعاً للتعـــاون الاقتصادى فى الشرق الأوسط وتوطين الفلسطينيين فـــى البلـــدان العربيـــة، اشتمل على تأسيس صندوق مالى قوامه ثلاثين مليار دولار لعشر سنوات من دول النفط العربية وأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، وتستفيد منه فقـــط

الدول التى توقّع على اتفاقيات سلام مع إسرائيل، بينما تحصل إسرائيل على حصة الأسد من الصندوق.

وتبنت بعض الأوساط الأمريكية مشروع ميريدور هذا، وتقدم فرانك شريش، عضو مجلس الشيوخ باقتراح إلى مجلس العلاقات الخارجية والأمن فى الكونجرس طالب فيه رئيس الولايات المتحدة بلورة مشروع "مارشال جديد للشرق الأوسط" يؤدى إلى تعاون اقتصادى كامل فى الشرق الأوسط مع الذين يعقدون اتفاقات سلام مع إسرائيل. واقترح شمعون بيريز خلال زيارته للولايات المتحدة فى بداية أبريل ١٩٨٦ اعتماد مشروع مارشال للشرق الأوسط لتأمين الاستقرار فى المنطقة حسب التخطيط والمصالح الإسرائيلية على غرار مشروع مارشال لأوروبا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية، وذلك لدمج إسرائيل فى المنطقة، والهيمنة عليها.

واستهدف بيريز من جراء طرح مشروعه الاستمرار فى التسوية التى بدأت فى كامب ديفيد بحيث ترتكز على أرضية اقتصادية لحل أزمات إسرائيل الاقتصادية وتحقيق الازدهار فيها، وخلق مصالح مشتركة مع بعض الأوساط العربية لخدمة المخططات الإسرائيلية، ووعدت الولايات المتحدة بدراسة مقترحات بيريز بعناية مع حلفائها.

وقال بيريز قبل مغادرته الولايات المتحدة أنه "يعتقد بأن القضايا الاقتصادية ستصبح القضايا الرئيسية فى الشرق الأوسط، وإذا لم تعالج مثل هذه المشكلات فإننا يجب أن نتوقع عدم الاستقرار وأن يواجه الشرق الأوسط أعظم المشكلات فى تاريخه". وقد أجمل شمعون بيريز موقفه حول التعاون فى الشرق الأوسط فى المعهد القومى لدراسات الشرق الأوسط وأمام مثقفين مصريين خلال الزيارة التى قام بها إلى القاهرة فى نوفمبر ١٩٩٢ بالعبارات التالية:

"لا ينبغى أن ننظر إلى المفاوضات السياسية بالتركيز فى النظر إلى الماضى، يجب أن نضع نهاية للنزاع العربى الإسرائيلى وأن نبنى شرق أوسط جديداً... يجب أن يكون الشرق الأوسط منطقة مفتوحة من ناحية اقتصادية لكل الشعوب التى تقطن فيه... يمكن أن تنشأ كونفدرالية أردنية-فلسطينية، أو كونفدرالية إسرائيلية-أردنية-فلسطينية، أو حلف بصيغة البنيلوكس".

وبالمثل تصاعدت المشروعات الأمريكية للشرق الأوسط بعد أن نجحت الإدارة الأمريكية فى عهد الرئيس كارتر فى إخراج مصر من المواجهة العربية–الإسرائيلية بتوقيع اتفاقية السلام مع إسرائيل عام ١٩٧٩. فقد وضعت الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية بعد توقيع اتفاقيتى كامب ديفيد مخططاً للشرق الأوسط تحت عنوان: "التعاون الإقليمى فى الشرق الأوسط"، وكانت الوكالة الأمريكية قد كلّفت ثمانى عشرة مؤسسة أمريكية حكومية وغير حكومية لوضع هذا المخطط، وتمخض عن التقرير الذى أعلنته الوكالة الأفكار التالية:

- سيكون الدور الأمريكى حاسماً فى مجال التعاون الإقليمى، وعلى الولايات المتحدة أن تلعب دور الوسيط.
- تقوم فكرة التعاون الإقليمى على أساس شرق أوسطى وليس على أساس عربى.
- إيجاد مؤسسات جديدة تتجاوز الجامعة العربية، لكى تسمح باستيعاب إسرائيل وانخراطها فى النظام الإقليمى الجديد.
- إعطاء أهمية لدور الأكاديميين ورجال الأعمال فى بداية التعاون الإقليمى وتطويره.

ويعالج المخطط الأمريكى آفاق التعاون بين إسرائيل ومصر وسوريا والأردن ولبنان والسعودية والضفة الغربية وقطاع غزة، ويتطرق إلى الموارد المشتركة مثل نهر الأردن، والبحر الميت وخليج العقبة، وإلى مشكلة الصحارى والزراعة والتعاون العلمى والتكنولوجى. وأوصى التقرير الأمريكى فى مجال النقل بربط خطوط المواصلات بشكل يعمل على تعزيز التجارة والسياحة، والبحث عن المياه الجوفية فى سيناء، وبيع مياه النيل لإسرائيل وتحلية مياه البحر. وطالب إقامة مشروعات صناعية مشتركة بين إسرائيل، وجيرانها، مؤكدا على الدور الذى يجب أن تلعبه الولايات المتحدة فى المرحلة الأولى من البدء فى تنفيذه.

ولما كانت الولايات المتحدة المريكية تولى. اهتماماً كبيراً للمنطقة العربية لخدمة مصالحها الاقتصادية والهيمنة على النفط العربى والمحافظة على تفوق إسرائيل على جميع البلدان العربية، فقد اقترح البروفيسور الأمريكى روبرت تاكر أنه "لمنع أمريكا من أن تنزف حتى الموت من جراء نفط الشرق الأوسط عليها فرض السيطرة الأمريكية الفعلية على المنطقة الممتدة من الكويت نزولاً على طول الإقليم الساحلى للمملكة العربية السعودية حتى قطر".

ودعا الجنرال الكسندر هيج، وزير الخارجية الأمريكى خلال زيارته لعدة بلدان شرق أوسطية فى أبريل ١٩٨١، إلى إنشاء حزام أمنى فى المنطقة يضمّ عدداً من الدول من باكستان إلى مصر، ويستوعب السعودية وإسرائيل، وتحدّث هيج عن مخططه للشرق الأوسط أمام لجنة العلاقات الخارجية فى مجلس الشيوخ الأمريكى عن الحاجة إلى جمع تركيا وباكستان وإسرائيل وعدد من الدول العربية فى حلف مشترك. وتعمل الولايات المتحدة لخدمة مصالحها فى المنطقة على:

- تأمين السيطرة الأمريكية على منابع النفط وممراته وأمواله عن طريق القواعد العسكرية الدائمة.
- المحافظة على تفوق إسرائيل العسكرى على جميع البلدان العربية.
- نزع السلاح غير التقليدى من أيدى العرب والحد من التسلح للدول العربية غير الخليجية.
- التوصل إلى تسوية للصراع العربى-الإسرائيلى.
- إلغاء المقاطعة العربية.
- بيع كميات كبيرة من الأسلحة للدول العربية فى الخليج لتحسين وضع الاقتصاد الأمريكى.
- توسيع وجودها العسكرى فى المنطقة.
- إقامة النظام الإقليمى والسوق الشرق أوسطية.

لكن التطورات المهمة التى أحدثت تحولاً هائلاً فى مسيرة تطور النظام الإقليمى فى الشرق الأوسط بعد عدوان يونيو ١٩٦٧ كانت أولاً، احتلال العراق للكويت وما تبعها من حرب تحرير الكويت وتدمير الجيش العراقى ثم فرض حظر امتد لأكثر من عشر سنوات على العراق انتهت باحتلاله فى أبريل ٢٠٠٣، وكانت ثانياً، مؤتمر مدريد للسلام عام ١٩٩١ الذى كان من أهم تداعيات ما عرف بـ "حرب تحرير الكويت" حيث تم فرض دخول دول عربية فى مفاوضات مباشرة مع إسرائيل عرفت باسم "المفاوضات الإقليمية" أو "مفاوضات المسار الثانى"، كما فرضت تصفية القضية الفلسطينية من خلال إبعاد الدول العربية عن المفاوضات السياسية وفصل وفود التفاوض عن بعضها البعض، وعزل المفاوضين العرب (سوريا - الأردن - لبنان) عن المفاوض الفلسطينى، وتحول الصراع العربى-الصهيونى إلى مجرد

"نزاع إسرائيلى- فلسطينى"، وهى المفاوضات التى انتهت بتوقيع اتفاقيات وادى عربة الأردنية- الإسرائيلية، وأوسلو الفلسطينية-الإسرائيلية.

وهكذا نستطيع أن نقول أن مشروع الشرق الأوسط تدعم بهذه الاتفاقيات وكان طرح مشروع شمعون بيريز المسمى بـ "الشرق الأوسط الجديد"، ومن بعده المشروع الأمريكى (مشروع بوش-المحافظون الجدد) المعروف باسم "الشرق الأوسط الكبير" محطتين رئيسيتين فى مسار تطور النظام الإقليمى فى الشرق الأوسط لغير صالح النظام العربى.

١ - مشروع بيريز للشرق الأوسط الجديد

صاغ شمعون بيريز رئيس الوزراء الإسرائيلى السابق مشروعه للشرق الأوسط الجديد فى كتاب يحمل العنوان نفسه حيث حدد أربعة عوامل جوهرية تمثل الإطار الجديد للنظام الإقليمى المطلوب هى:

أ - الاستقرار السياسى: إن الأصولية تشق طريقها سريعاً وعميقاً فى كل بلد عربى فى الشرق الأوسط مهددة بذلك السلام الإقليمى، ناهيك عن استقرار حكومات بعينها.

ب - الاقتصاد: إن إنشاء منظمة تعاون إقليمية تتحرك على قاعدة فوق قومية هى الرد بل الرد الوحيد على الأصولية.

جـ - الأمن القومى: إن السبيل الوحيد لضمان مستوى معقول من الأمن القومى فى هذا العصر، عصر الصواريخ أرض-أرض والقدرات النووية، هو إقامة نظام إقليمى للرقابة والرصد.

د - إشاعة الديمقراطية: وليست الديمقراطية مجرد عملية تضمن الحرية الشخصية والمدنية، بل هى أيضا هيئة رقابية تحرص على السلام وتعمل على تبديد العوامل الكامنة وراء التحريض الأصولى.

وأوضح بيريز أن الهدف الرئيسى من النظام الإقليمى الجديد هو "خلق البيئة الملاءمة لإعادة تعظيم مؤسسات الشرق الأوسط"، ويوضح ذلك أكثر بقوله: "هدفنا النهائى هو خلق أسرة إقليمية من الأمم ذات سوق مشتركة وهيئات مركزية مختارة على غرار الجماعة الأوروبية"، ويقترح تطبيق نظام الشرق الأوسط الجديد على مرحلتين: الأولى تتضمن إقامة مشاريع مشتركة فى مجال الطاقة والسياحة والمواصلات والمياه بين بلدان المنطقة ومنها تركيا. ويعتبر اتفاق الإذعان فى أوسلو ووادى عربة بداية تطبيق مشروع الشرق الأوسط الجديد. وتتضمن المرحلة الثانية من مشروعه إقامة سوق مشتركة ومؤسسات مركزية على غرار السوق الأوروبية المشتركة.

وأكد يوسى بيلين، أحد القادة البارزين فى حزب العمل الإسرائيلى أمام مجموعة من المستثمرين البريطانيين فى مايو عام ١٩٩٤، العمل من أجل إقامة السوق الشرق أوسطية وقال: قد نشهد خلال الأعوام الخمسة المقبلة تشييد بنية تحتية مشتركة فى الشرق الأوسط تشمل إضافة إلى إسرائيل كلاً من: فلسطين، ومصر، والأردن، وسوريا، ولبنان، وإذا تم ذلك، فإننا سندرس إمكان إقامة سوق مشتركة فى الأعوام العشرة التالية.

وعلى هذا فالهدف من النظام الشرق أوسطى الجديد والسوق الشرق أوسطية واضح ، وهو تكريس الهيمنة الإسرائيلية على البلدان العربية، فى ظل اختلال موازين القوى والدعم الأمريكى المطلق له، ولممارساته العدوانية والعنصرية والإرهابية والاستيطانية.

٢ - مشروع الشرق الأوسط الكبير - الشرق الأوسط الجديد

هذا المشروع الذى يجسد المشروع الإمبراطورى الأمريكى لمرحلة ما بعد انتهاء نظام القطبية الثنائية، والذى طرح كرد فعل لهجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، يمثل ذروة تطور المشروع الإقليمى الشرق أوسطى. وكانت بدايته مع تأكيد الرئيس جورج بوش (الأب) فى كلمته الافتتاحية بمؤتمر مدريد

للسلام أن جوهر السياسة الأمريكية لا يقتصر على حل النـزاع العربي-الإسرائيلى بل تهيئة الأجواء أيضاً لإقامة النظام الإقليمى الشرق أوسطى.

لقد بدأ مشروع الشرق الأوسط الكبير فعلياً باحتلال العراق لكنه فشل أيضاً فعلياً فى العراق، وتلاه الآن مشروع الشرق الأوسط الجديد "أو المعدل" الذى طرحته وزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس فى ذروة الحرب الإسرائيلية على لبنان (يوليو-أغسطس ٢٠٠٦) عندما قالت إن هذه الحرب سوف تنتهى بإقامة الشرق الأوسط الجديد.

لقد تكشف أن هذا المشروع كان يهدف إلى تحقيق هدفين رئيسيين:

الأول: أن يتوارى الصراع العربى-الإسرائيلى، وألا يتحول إلى عقبة مستمرة تعوق تطوير العلاقات العربية-الإسرائيلية.

الثانى: فرض صراعين بديلين كفيلين بتدمير النظام العربى كلية لصالح المشروع الشرق أوسطى الأمريكى-الإسرائيلى هما :

١ - صراع عربى-إيرانى، وقد ظهرت ملامحه فى المواقف العدائية من دول عربية إزاء حزب الله وإيران فى الحرب الإسرائيلية-اللبنانية، عندما زعمت أن هذه الحرب لصالح أهداف إقليمية ولا تخدم المصالح العربية.

٢ - صراع سنى-شيعى يجرى فرضه وتعميمه على كثير من الدول العربية بحيث يتزامن مع الاستقطاب الجديد فى المنطقة بين عرب وفرس، ويؤدى إلى تفتيت الوحدة الوطنية للدول العربية بهدف إعادة رسم خرائط سياسية جديدة على أسس عرقية وطائفية ولعل ما يحدث من دعوة فرض التقسيم فى العراق التى تتوارى خلف شعار "الفيدرالية" ما يؤكد جدية هذا المشروع.

إن هذه التطورات بقدر ما تعكس عموما جديـة الالتـزام الأمريكـي-الإسرائيلي بل والغربي-الإسرائيلي بمشروع الشرق الأوسط كمشروع للنظام الإقليمي بقدر ما يعكس تردي حال المشروع العربي الذي كان قد وصل إلى ذروته عام ١٩٦٧ قبل أن تقع النكسة التي استهدفت استئصاله من جذوره.

لقد تأثر المشروع العربي سلبياً بمناخ الحرب البـاردة العربيـة، لكـن انكساره الحقيقي حدث بعد عام ١٩٦٧، ثم بتوقيع اتفاقية السلام المـصرية-الإسرائيلية ولم تفلح محاولات تحديث أو تطوير هذا النظام بسبب الانقـسام العربي حول ماهية وأهداف وطبيعة هذا التطور، ومن ثم كان القصور إن لم يكن العجز العربي في التعامل مع الأزمات الحقيقية التي واجهـت النظـام العربي بدءاً من الانقسام حول الغزو العراقي للكويت وحرب تحرير الكويت، والاحتواء الأمريكي-البريطاني للعراق وامتداداً إلى غزو العراق واحتلالـه، والعجز عن دعم الانتفاضة الفلسطينية والتورط بالمشاركة فـي محاصـرة الشعب الفلسطيني بعد تولي حركة حماس رئاسة الحكومة، وانتهاءً بالانقسام حول الحرب الإسرائيلية على لبنان.

لكن انتصار المقاومة في لبنان، ونجاحات المقاومة العراقيـة والمـأزق الأمريكي الهائل في العراق تنبئ بمرحلة جديدة من المواجهة بين المـشروع العربي والمشروع الغربي-الإسرائيلي للنظام الإقليمي، مرحلة تقترن بآفـاق من التحول الديموقراطي الحقيقي في البلدان العربية، وأمـل فـي اسـتعادة الإرادة المفقودة مجدداً، وهي كلها مؤشرات باتت آفاقها ممكنة في ظـل مـا عبرت عنه الشعوب العربية من انحياز للمقاومة ومشروعها وثقافتهـا فـي مواجهة ثقافة التطبيع والاستسلام للمشروع الغربـي-الإسـرائيلي للـشرق الأوسط، ومن حاجة شديدة إلى الإصـلاح بـل وإلـى التغييـر الـسياسي الديمقراطي داخل الأقطار العربية، باعتبار أن الإصلاح السياسي الداخلي هو الكفيل بإصلاح النظام العربي ورد الاعتبار إلى المصالح القومية العربيـة،

وبدء مرحلة جديدة من النهوض للمشروع النهضوى العربى فـــى مواجهـــة المشروع الأمريكى-الصهيونى المتجدد دوماً بفعل الطموحات الإمبراطورية الأمريكية وإصرار الكيان الصهيونى على هويته العنـــصرية الاســـتعمارية الاستيطانية.

العدوان الثلاثى
نقطة فارقة بين عهدين

د. رفعت يونان

ليس من قبيل المبالغة أن فشل العدوان الثلاثى على مصر الذى أعقب قرار تأميم قناة السويس من جانب الرئيس عبد الناصر فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ وتداعياته، كان بمثابة إعلان وفاة لنظام دولى كان قائما حتى ذلك التاريخ وإعلان ميلاد نظام دولى آخر . فقد كانت تجربة مصر فى مواجهة العدوان تمثل ملحمة من ملاحم بطولة الشعب المصرى فى التصدى للغزاه والمحتلين منذ بداية القرن التاسع عشر إبتداء من حركة المقاومة الشعبية ضد الغزو الفرنسى عام ١٧٩٨ الى المقاومة الشعبية لحملة فريزر عام ١٨٠٧ الى الثورة العرابية ومواجهة التدخل البريطانى عام ١٨٨٢ إلى ثورة ١٩١٩ ضد الاحتلال البريطانى، إلى كفاح شعب مصر فى منطقة قناة السويس (١٩٥١-١٩٥٤) إلى توقيع إتفاقية الجلاء البريطانى عن السودان عام ١٩٥٣ وعن مصر عام ١٩٥٤.

وقد كان للمقاومة الشعبية فى مواجهة العدوان الثلاثى أثرها البالغ فى إحباط مخطط العدوان حيث وقفت بورسعيد أرضا وشعباً حائلاً دون تحقيق أحلام المعتدين. وقد كان توقف هذا الهجوم الغادر عند مدينة الكاب جنوب مدينة بور سعيد نتيجة لعدة عوامل تفاعلت جميعها بنسب مختلفة وإنتهت بدحر المعتدين – وقد كان فى مقدمة هذه العوامل رفض القيادة المصرية للإستلام وتوزيع السلاح على الشعب وإطلاق المقاومة الشعبية والبدء فى إتخاذ ترتيبات المقاومة السرية وصدور الإنذار السوفيتى العنيف مع بروز الموقف الأمريكى المعارض للخطة البريطانية الفرنسية لأسباب استراتيجية

امريكية، بالإضافة الى التضامن العربي الإيجابي لموقف مصر وصدور قرارات الأمم المتحدة بوقف القتال. فمن حق مدينة بورسعيد وشعبها الفخر بكفاحهم وبطولاتهم والاحتفال بيوم ٢٣ ديسمبر كعيد قومي للمحافظة ، كما أن لكل شعب مصر الحق في مشاركة بورسعيد هذا الاحتفال على إعتبار أن هذا التاريخ عيد قومي يفخر به كل إنسان مصرى.

والواقع أن العدوان الثلاثي (أزمة السويس) لم تكن وليدة لخطتها لأن الصّراع بين مصر والقوى الأجنبية يمتد الى ماضي بعيد. فقد تراكمت رواسب المرارة والظلم داخل مصر، ولكنها بقيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بدأت تشعر بأنها على أعتاب مرحلة جديدة شيمتها العزة والكرامة وتحررت مما عانته في الماضي ، فإستطاعت التخلص من الإحتلال البريطاني بتوقيع اتفاقية الجلاء في ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ – وأن ما جرى من أحداث عقب هذا التاريخ وحتى إعلان قرار تأميم قناة السويس في يوليو ١٩٥٦ ثم جاءت الفترة منذ قرار التأميم إلى البدء في تنفيذ خطة العدوان في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ لتمثل توهج الأحداث وتلتها النتائج التي اتسمت بالطابع الدولي ثم انتهت بإستقرار الأوضاع واسدال الستار على هذا الحدث الهام.

وقد كانت نتائج العدوان هي المفاجأة الكاملة والمذهلة لدعاة الحروب والمروجين لها بعد أن رفضت مصر الإنذار البريطاني الفرنسي الذى يقضي بإنسحاب مصر من منطقة القناة بحجة منع الصدام المصرى الإسرائيلي المحتمل. وبدأت قوات التآمر الثلاثي بالهجوم على مصر ولولا تمسك الشعب المصرى وشجاعته والتحامه بالجيش في صد العدوان بالإضافة إلى معارضة أمريكا للخطة البريطانية-الفرنسية لإسباب استراتيجية أمريكية كذلك صدور الإنذار السوفييتي الذى هدد بضرب كل من لندن وباريس وتل أبيب في حاله عدم ايقاف اطلاق النار. وهنا يقول السفير الأمريكي في موسكو (بوفلن) إن

السوفيت كانوا يعتزمون تسوية عاصمة إسرائيل بالأرض وأن لهجة الخطاب الموجه الى بن جورجون قد أثار حفيظته وسبب له ذعراً كبيراً لأنه يختلف عن الخطابات المرسلة الى كل من لندن وباريس.

ولقد فشل العدوان عسكريا وسياسياً وإقتصادياً، وشكلت أحداثه ملامح بطولية بكل مقاييس الزمان والمكان ثم ما ارتكبه جيش الاحتلال الصهيونى من مذابح ضد الأسرى المصريين العزل من السلاح والمدنيين الذين تصادف وجودهم فى مناطق المعارك على ارض سيناء إبان العدوان علماً بأن هذه الجرائم لا تسقط بالتقادم.

وإذا نظرنا الى اطراف التواطؤ الثلاثى نجد الآتى :

*** بالنسبة لإسرائيل : حققت مكاسب سياسية وعسكرية من أهمها :**

١- ربطت مصالحها الذاتية بالولايات المتحدة وقد كان ذلك بمثابة بدء اسرائيل ممارسة دروها كشرطى محلى بدعم من الولايات المتحدة .

٢- وثقت إرتباطات الجاليات اليهودية بإسرائيل التى اكتسبت قواتها المسلحة مكانة عسكرية نتيجة هزيمة مصر العسكرية وتدمير جزء كبير من سلاحها الشرقى، مع تدفق التبرعات والهبات المادية عليها .

٣- أصبح لسفن اسرائيل الحربية والتجارية الحق فى حرية الملاحة فى خليج العقبة، كما اكتسب ميناء إيلات ميزة الإرتباط بالطرق البحرية والتجارية العالمية. ومن ناحية أخرى ترتب على هذه الحرب طرد اليهود الذين يحملون الرعوية الأجنبية وتأميم منشآتهم.

بالنسبة لبريطانيا :-

١- فقدت إحترام الرأى العالمى وأوقفت عدوانها على مصر مع سحب قواتها من مسرح العمليات الحربية نتيجة لقرار الأمم المتحدة.

٢- خسرت قاعدتها العسكرية الضخمة فى منطقة السويس بما تحتويه من أسحله وعتاد وذخيرة حربية نتيجة قيام عبد الناصر بإلغاء إتفاقية الجلاء السابق توقيعها مع بريطانيا فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ كما تم صرف النظر عن إسناد أى دور لها فى إدارة القناة .

٣- تدهور قيمة الجنيه الإسترلينى الى درجه جعلتها تمد يدها للولايات المتحدة للوقوف بجانبها فى أزمتها المالية وإنقاذ إقتصادها من الإفلاس.

٤- تدهور مركزها السياسى والأدبى حيث أثار إشتراكها فى الحرب جدلاً شديداً بين الأحزاب السياسية وطوائف الشعب البريطانى وإنتهى بسقوط انتونى ايدن فى يناير ١٩٥٧ .

بالنسبة لفرنسا :

١- سقطت الأمبراطورية الفرنسية الرابعة نتيجة للأحداث الدامية التى وقعت فى الجزائر وقيام مجموعة من الجنرالات الفرنسيين بإعلان العصيان ضد الحكومة الشرعية مما ترتب عليه عودة الجنرال ديجول لتولى السلطة فى الجمهورية الخامسة التى قامت بمنح المستعمرات الفرنسية إستقلالها.

٢- فقدت نفوذها وممتلكاتها فى مصر والعالم العربى حيث أجبرت على الجلاء عن الجزائر وتونس ومراكش كذلك عن غرب إفريقيا الفرنسية وافريقيا الأستوائية.

٣- أخذت تبحث عن طريقة جديدة للإحتفاظ بقرارها السياسى المستقل حيث إن إشتراكها فى العدوان قد نال من حريتها فى إدارة الأزمات وفق المصالح الوطنية الفرنسية مما أدى الى ظهور قوة الضرب الفرنسية المستقلة والتى دخلت منها فرنسا العالم النووى.

٤- كما خسرت إقتصادياً لما تكبدته من مصروفات مالية بالإشتراك فى هذه الحرب بالإضافة إلى قيام مصر بتأميم الشركات والبنوك الفرنسية فى مصر.

أما بالنسبة لمصر :

وهى الطرف الذى وقع عليه بالعدوان فنجد الآتى :

١- حققت مصر نصراً سياسياً ضخماً نتيجة قيام زعامتها السياسية (الزعيم عبد الناصر) بإدارة هذه الأزمة ببراعة تامة بحكمة وحنكة بحيث غطى هذا النصر على الهزيمة العسكرية التى ترتبت على نجاح الضربة الأنجلو فرنسية .

٢- إلغاء المعاهدة البريطانية المصرية (معاهدة الجلاء) وتحطيم آخر قيد يربط مصر بالإستعمار الغربى وكان يفقدها جزءاً من ترابها الوطنى يقيم عليه الإستعمار قواعده العسكرية.

٣- فرضت مصر كل سيطرتها على قناة السويس مع حفظ كامل حقوقها المشروعة بعودة هذا الشريان البحرى الهام إلى اصحابة الشرعيين.

٤- تحرير الإدارة المصرية وإعلاء مكانة مصر إقليماً ودوليا حيث أصبح لها مركز الصدارة لريادة الوطن العربـــي وكـــذلك دول العالم الثالث المتطلعة الى الحرية والإستقلال .

كما أن هذا العدوان قد أدى الى أفول نجم إمبراطـــوريتين اســـتعمارتين كبيرتين هما انجلترا وفرنسا فقد انتهى عصرهما الامبراطورى وتحولتا الى دولتين تجاريتين بينما ظهر فى الأفق نجم قوة جديدة وهى الولايات المتحدة الأمريكية الذى برز دورها خلال الحرب العالمية الثانية، ثم أتاحت لها أزمة السويس مكاناً مرموقاً فى منطقة الشرق الأوسط.

كما كان للعدوان الثلاثى الفضل فى ظهور الاتحاد السوفيتى وخروجـــة من عزلته الستالينية ليمارس دوراً نشطاً فى الشرق الأوسط ومياهه الدافئـــه، فلم تعد المواجهة بينه وبين الولايات المتحدة الأمريكية تدور من وراء الستار الحديدى ومتاريس الكتلة الشرقية وإنما صارتا صـــراعاً محتومـــاً وشـــديد السخونة شملت العالم الثالث مع تركيز خاص على الشرق الأوسط والـــوطن العربى الذى أصبح المنطقة الحرجة فى المواجهة الاقتصادية والسياسية بين الكتلتين الغربية والشرقية.

وقد كان للنصر السياسى الذى حققته مصر الباعث للأجيال التالية فـــى العالم العربى إلى حمل مسئولية الإنتقال من زمـــن الإســـتعمار والـــسيطرة الأجنبية إلى عصر الإستقلال والتحرر الوطنى فتبدأ معه صفحة جديدة مـــن النظام الدولى والعلاقات الدولية. وهنا لابد أن نشيد بدور الإعلام أثناء هـــذه الحرب حيث كان المسئول إعلامياً فى ذلك الوقت هو الدكتور عبـــد القـــادر حاتم الذي قام بإرسال مئات البيانات والصور عن آثار العدوان على المساجد والكنائس وعلى المدنيين فى بورسعيد كما تم الإتصال بأحزاب المعارضة فى انجلتراً وفرنسا حيث وقف الوزير العمالى للمعارضة (انورين بيفـــان) فـــى

بريطانيا يهاجم العدوان على مصر حيث قال عبارته المشهورة "إننا أقوى دولة ولكن هناك يا مستر إيدن من هو أقوى منا". وسقط إيدن رئيس الوزراء رغم انه كان يردد قبل العدوان "إن العالم لا يتسع لى ولعبد الناصر .. ولابد لأحدنا أن يرحل".

أما فى فرنسا فكانت المعارضة تهاجم بشدة فى الجمعية الوطنية جى موليه رئيس الوزراء فإضطر أن يكذب ويقول لماذا هذا الهجوم وقد إنتصرنا والعلم الفرنسى مرفوع الأن فوق مدينة الإسماعيلية. ولكن بعد التأكد من كذبه هاجمه أعضاء الجمعية الوطنية بهتافهم "يسقط جى موليه الكذاب".

أما بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل عندما ماطل فى تنفيذ قرار مجلس الأمن بالإنسحاب من سيناء قرر إيزنهاور قطع المعونات الأمريكية عنه، وعلى الفور أعلنت جولدا مائيير مندوب إسرائيل فى الأمم المتحدة امتثال إسرائيل للقرار بالإنسحاب الشامل والكامل من غزه.

وقد كان لقرار الرئيس الأمريكى (ايزنهاور) أثره الكبير فى العالم بل وفى الولايات المتحدة نفسها فعندما تقدم للإنتخابات لفترة ثانية فى ٦ نوفمبر ١٩٥٦ فاز فوزاً كبيراً واكتسح منافسيه وذلك لموقفه العادل والحاسم من العدوان على مصر ولم يكترث بتهديدات يهود أمريكا على موقفه الإنتخابى .. فهل يتعلم الحاضر من الغائب ؟

وهنا نتساءل : هل كان عبد الناصر يعلم بالهجوم أو العدوان الثلاثى قبل وقوعه؟

يقول الدكتور ثروت عكاشة الذي كان ملحقا عسكريا فى فرنسا أثناء العدوان فى كتابه (مذاكراتى فى السياسة والثقافة) إنه فى الفترة السابقة للعدوان ومنذ شهر يناير ١٩٥٦ كانت تصله معلومات من أصدقائه الملحقين العسكريين من ضباط الأحلاف الغربيه ينتمون الى جنسيات مختلفة كان

يعطفون على قضيتنا المصرية، وأكد بعضهم في ٢ أكتوبر ١٩٥٦ أن ثمـه إجتماعات مريبه تتم بين مسئولين فرنسيين وإسرائيليين منذ أوائل سـبتمبر يشتم منها تدابير موجهه ضد مصر. وكان أهم هذه المعلومات وأخطرها ما وصل اليه من صديق فرنسي يحتل منصباً حساساً في فرنسا طلب أن يلتقي به بصفة عاجلة صباح السبت ١٩٥٦/١٠/٢٧ وأبلغه بالمعلومات بأنه "تـم اتفاق جديد بين بريطانيا وفرنسا واسرائيل على قيام قواتهم المسلحة بعدوان منسق على مصر فتهاجم إسرائيل سيناء لتهئ الذريعة وتحكم الشرك، وبعـد فترة وجيزة تكفي لإستدراج الجيش المصري الى سيناء ومحاصرته فيها تقوم بريطانيا وفرنسا بتوجيه إنذار الى مصر تعقبانه بتمهيد جوى مركز يقوم به السلاح الجوى البريطاني والفرنسي بتدمير المطارات الحربية والتحـصينات العسكرية والدفاعات الساحلية، ويتلوه إنـزال قـوات الإقتحـام ببورسـعيد للإستيلاء على الهدف الرئيسي وهو قناة السويس، وأن الخطة قد تم التصديق عليها نهائيا كي تنفذ خلال الأيام القليلة التالية بموعد أقصاه ٤ نوفمبر حتـى تنتهي العملية قبل الانتخابات الأمريكية في ٦ نوفمبر وان كل الإستعدادت قد اكتملت للتنفيذ".

وفي اليوم نفسه قام ثروت عكاشة بتكليف الملحق الصحفي بالسفارة عبد الرحمن صادق بحفظ هذه المعلومات عن ظهر قلب، وطلب منـه تكرارهـا شفوياً أمامه عدة مرات قبل سفره الى القاهرة وإبلاغ الرئيس عبد الناصـر شخصيا بها. ثم توجه الى مطار بروكسل في بلجيكا أولا – رغبه في التموية – ثم الى مطار القاهرة والتقى بالرئيس عبد الناصر وجهاً لوجه في الـساعة الواحدة والنصف بعد الظهر يوم السبت ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦، أى قبـل قيـام إسرائيل بعدونها على ممر متلا الساعة الخامسة مساء نفس اليوم. وقد علق عبد الناصر على هذه المعلومات قائلا لحامل الرسالة – عبد الرحمن صادق

– "مش معقول ينزلوا .. بريطانيا وفرنسا للدرجة دي ويتحالفوا مع إسرائيل للعدوان على مصر".

وبعد عودة ثروت عكاشة الى مصر فور إنتهاء العدوان بادره الرئيس عبد الناصر ضاحكا "لقد نفذنا من ثقب إبرة بإذن الله". ثم أضاف "أنه لم يصدق فى مبدأ الأمر حدوث هذا التواطؤ الثلاثى برغم ما أبلغه به، إذ كان حدوث هذا من المستحيل فى تقديرى". وبعد ذلك بفترة وجيزة التقى مع حسنين هيكل على باب مصعد جريدة أخبار اليوم بالصدفة فرحب به هيكل فى حماس وشد على يده مشيراً بما بلغه على لسان الرئيس عبد الناصر من أخبار خطة العدوان الثلاثى السابق إرسالها للرئيس.

ومرت الأعوام وعند صدور كتاب (ملفات السويس) لم يذكر مؤلفه محمد حسنين هيكل واقعة قيام ثروت عكاشة بإرسال خطة العدوان إلى عبد الناصر بل ذكر أن التحرك العسكرى الإسرائيلى جاء مفاجئاً لعبد الناصر ولم ير سبباً واضحاً يبرره من هذا التوقيت بالذات .. وأن عبد الناصر لم يكن يتوقع التواطؤ إلا عندما إنتهت فترة الإنذار البريطانى الفرنسى فى الساعة السادسة بعد الظهر بتوقيت القاهرة وبدأت أول غارة للطائرات البريطانية على مطار الماظه الملاصق لبيته.

وهنا يرد ثروت عكاشة على معلومات هيكل قائلا "إن الحقيقة هى أن الرئيس جمال عبد الناصر لم يفاجأ بالعدوان والتواطؤ – حيث أنه منذ بداية عام ١٩٥٦ وهو يرسل الرسائل الخاصة للرئيس وكذلك الى المخابرات المصرية وكان أخر ما أرسله إلى عبد الناصر هو خطة العدوان الثلاثى التى أبلغها له صديقه الفرنسى فى ٢٧ أكتوبر ١٩٥٦ وانها تتطابق تماماً مع إتفاقيه سيفر السرية. وكان عكاشة يأمل أن يستأنس هيكل بتقارير الملحقين العسكريين المصريين فى شتى أنحاء أوربا المحفوظة بملفات المخابرات

المصرية الى جانب التقارير والملفات الأجنبية التى استعان بها قبل أن ينتهى إلى ما إنتهى اليه.

أما بالنسبة للصديق الفرنسى الذى أخبر عكاشة بتفاصيل خطة العدوان فقد رفض قبول أى هدية قائلا "لو أنى تلقيت شيئاً منك لكان يعنى هذا أننى لم أكن أومن بمبدأ الخدمه وأنى أخون وطنى من أجل مطمح شخصى".

وقد يتبادر الى الذهن هذا السؤال .. هل كان عبد الناصر يتوقع تواطؤ الدول الثلاث للعدوان على مصر ؟ فى الحقيقة .. لم يكن الرئيس عبد الناصر يتصور قيام إنجلترا وفرنسا بالمخاطرة بسمعتها فى العالم العربى واستخدام اسرائيل كذريعه بهدف الإستيلاء على القناة، بالرغم من المعلومات الهامة التى قدمها له خالد محى الدين والتى أرسلها له بعض الأصدقاء من باريس حيث يؤكد أن الفرنسيين يخططون لمهاجمة مصر بالتحالف مع إسرائيل. فقد تخيل عبد الناصر أن هذه المعلومات هى عبارة عن خدعة يراد منها ايقاع مصر فى فخ يؤدى الى قيامها بعمل عسكرى ضد إسرائيل. وبرغم إنشغال الولايات المتحدة بعملية الانتخابات الرئاسية إلا أن الاستطلاعات الأمريكية رصدت عملية التعبئة فى إسرائيل وتجمعت لدى المخابرات الأمريكية معلومات تؤكد قيام الدول الثلاث بإجراء التعبئة العسكرية. فقام آيزنهاور بتحذير بن جوريون فى رسالة عاجلة تتضمن عدم إستغلال هذه الظروف والهجوم على الاردن أو مصر لأن الولايات المتحدة لن تقف مكتوفة الأيدى لإنشغالها فى عملية الإنتخابات الأمريكية.

وفى مقابلة بين السفير الأمريكى فى لندن ووزير الخارجية البريطانى سلوين لويد أراد السفير الاستفسار عن عمليات التعبئة التى تجرى فى إسرائيل وهل هناك نية للهجوم على مصر فرد سلوين لويد بأن حكومة صاحبة الجلالة لا تملك أيه معلومات عن هذا الأمر، إلا أن المخابرات

الأمريكية أمكنها جمع كل المعلومات والأدلة مساء ٢٨ أكتوبر والتى تؤكد بأن هدف هذه التحركات الإسرائيلية هو مصر. كما تسلم همرشلد السكرتير العام للأمم المتحدة برقية من مصادره الخاصة تؤكد أن اسرائيل بمساندة فرنسا على وشك الهجوم على مصر. ولقد بلغ التموية من جانب بريطانيا الى الدرجة التى جعلت الولايات المتحدة تعتقد أن جهوداً بريطانية تبذل لتهدئة الفرنسيين والإسرائيلين وهو ما جعلها تستبعد تواطؤ بريطانيا فى أى عدوان على المنطقة، كما قامت بالإشتراك مع فرنسا فى إصدار بيان مشترك يؤكد إستعدادها لبحث أيه مقترحات مصرية جديدة تهدف الى حل أزمة السويس مع التزامها بقرارات مجلس الأمن وتمسكها بمقترحات الدول الـ ١٨ كأساس للتسوية. ورغم قيام آيزنهاور بإرسال برقيات عاجلة الى بن جوريون يدعوه الى العدول عن الحرب كانت الإستعدادات الإسرائيلية تسير على قدم وساق للمضى نحو العدوان.

وفى صباح ٣٠ أكتوبر تأكدت الخارجية الأمريكية من حقيقة التواطؤ الذى ظل خافياً حتى عن الرئيس آيزنهاور. وعندما اتضحت الأمور اتصل الرئيس الأمريكي برئيس وزراء فرنسا وبريطانيا وطالبهما باللجوء الى الولايات المتحدة لتسوية الأزمة بالطرق السلمية كما استدعى سفيرى فرنسا وبريطانيا فى واشنطن وعبر لهما "عن ضيقه البالغ بشأن التواطؤ الخفى الذى تم بينهما بدون علم الولايات المتحدة".



عواقب العدوان الثلاثى على مصر

د. عبد المنعم ابراهيم الجميعى

فى التاريخ أيام تجئ وتذهب، وبعضها يجئ ولا يذهب .. والأيام التى تجئ وتذهب تتحول إلى ذكريات، والأيام التى تجئ ولا تذهب تتحول إلى دروس، ومعركة تأميم قناة السويس كانت درسا لا نهاية له.

لقد انتهت حرب العدوان الثلاثى على مصر بفشل العملية الحربية "موسكيتير" المعدلة التى قادها الجنرال الانجليزى تشارلز كيتلى وهزيمة المخطط المرسوم للغزو باحتلال القناة واخضاع مصر خلال أيام قليلة، وإقصاء الرئيس عبد الناصر عن الحكم، ومنعه من السيطرة على القناة[١] ، فور بدء العمليات، وتكوين حكومة صديقة للغرب تبارك الغزو وتبدى استعدادها لقبول تسوية دولية جديدة لإدارة قناة السويس، وحتى يتم فرض الأمر الواقع دون إثارة أى مشاكل عالمية خاصة بعد أن راهن إيدن وقادة العدوان على أن الشعب المصرى سيثور على عبد الناصر، ولكن ما حدث أنه نتيجة لتدفق المشاعر الوطنية لدى الشعب المصرى على نحو غير مسبوق، وللمقاومة المصرية الباسلة التى صنعت ملحمة وطنية رائعة، ونتيجة للضغط الدولى المتمثل فى نجاح عبد الناصر إلى حد كبير فى جذب أنظار العالم نحو حق مصر فى تأميم القناة، وبسبب الإنذار السوفيتى الذى وجهه الرئيس الروسى "بولجانين" لبريطانيا وفرنسا وإسرائيل، ونظرا لمعارضة الرئيس ايزنهاور للغزو نتيجة لأنه لم يستشر فى الأمر، ومطالبته بانسحاب الدول المعتدية. ونتيجة لموقف الجماهير العربية التى هبت مؤيدة لمصر والتى عبرت عن ذلك بالمظاهرات ومهاجمة الدول المعتدية فى

الصحف والاذاعات، وقيام عمال سوريا بتفجير أنابيب البترول التى تحمل الطاقة إلى أوربا وأمريكا.[٢]

ونتيجة أيضا لموقف دول عدم الانحياز المؤيد لمصر وحقوقها فى تأميم القناة حيث لعبت الهند دورا مهما من خلال الاتصالات بين رئيس وزرائها جواهر لال نهرو وبين قادة العالم، وقيامه بشجب العدوان هذا إلى جانب تحركات وزير الخارجية كريشنامينون ورحلاته المكوكية.

ونظرا لكل ذلك اتخذت الأمم المتحدة قرارا فى ٧ نوفمبر ١٩٥٦ بانسحاب المعتدين فورا من مصر، وإزالة الآثار التى خلفها العدوان[٣]، مما حقق لمصر نصرا سياسيا مؤزرا، وحطم أهداف المعتدين الاستراتيجية فقد خرجت مصر من محنة العدوان أكثر قوة على الرغم من محاولات الدول المعتدية تحطيم معنويات الشعب المصرى وتفتيت قواه عن طريق حربها النفسية من خلال إذاعة صوت بريطانيا فى قبرص، وتوزيع المنشورات وتفتيت وحدة الشعب، والعمل على إحداث شقاق فى صفوف القوات المسلحة وبين هذه القوات والشعب وتحررت مصر من شبهة التحالف مع الغرب بعد أن ألغت اتفاقية الصداقة والجلاء المعقودة بينها وبين بريطانيا فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ والتى كانت تنص على التعاون مع بريطانيا عسكريا كما أنها استردت كافة حقوقها بينما خرجت قوات العدوان مدحورة بعد مغامرتها الفاشلة وضاعت هيبتها فقد ارغمت بريطانيا على الانسحاب من بورسعيد وتأثر اقتصادها بسبب نضوب البترول الوارد إليها واضطرارها لتوزيعه بالبطاقات نتيجة لنسف بعض أنابيب بترول الشرق الأوسط، وعدم مرور ناقلات البترول فى القناة نتيجة لاغلاقها مما اضطرها إلى توزيعه بالبطاقات[٤]، وإلى تحميل الخزانة البريطانية عبئا ثقيلا بسبب نفقات الحرب مما تسبب فى تدهور الاقتصاد البريطانى، وإلى جانب دلك فقد خسرت

بريطانيا قاعدة قناة السويس ومخازنها فى القاعدة بما احتوته من معدات كما خسرت هيبتها ونفوذها فى المنطقة بعد الغاء اتفاقية الصداقة المعقودة بينهـا وبين مصر، وأخذت فى فقدان مراكزها الواحدة تلو الأخرى لدرجـة أنهـا قررت نقل قيادة قواتها فى الشرق الأوسط من قبرص إلى كينيا، كما قررت الجلاء عن الأردن، وتخفيض عدد قواتها فى قبرص وليبيا[٥]، وهكذا تسببت حرب السويس فى قطع ذيل الأسد البريطانى وكسر أسنانه وبدأ يلملم بقايـاه من مستعمراته ويرحل.[٦]

وبالنسبة لفرنسا فقد تسببت حرب السويس فى إضعافها وكسر شـوكتها وعنجهيتها فقد أرغمت على الانسحاب مـن بورسـعيد وفقـدت ممتلكاتهـا وأموالها فى مصر وتأثر نفوذها الثقافى فى المنطقة العربيـة، كمـا ازدادت مساندة مصر للثورة الجزائرية وانطلق التعاون بينهما إلى اقصى حد حتـى كان جلاؤها عن الجزائر في سبتمبر ١٩٦٢ التى كانوا يعتبرونها جزءا من فرنسا كما أنسحبت من تونس ومن بلاد أخرى فى افريقيا وغيرهـا حيـث اشتدت عزائم الثوار فى مستعمراتها حتى تحقق لهم الاستقلال كمـا انتهـى المستقبل السياسى لرئيس وزرائها جى موليه.[٧]

أما اسرائيل التى دخلت المعركة لاستدراج الجيش المصرى داخل أعماق سيناء لقلب إتزانه الاستراتيجى، وإيجاد حالة فراغ تجعل احتلال منطقة القناة سهلة أمام القوات الانجليزية والفرنسية[٨]، فيبدو أنها كانت الرابح الوحيد من الدول المعتدية فقد ابتزت فرنسا لتساعدها فى إنشاء مفاعلها النووى كما أنها حققت بعض المكاسب من هذا العدوان كان أهمها فتح خلـيج العقبـة أمـام الملاحة الاسرائيلية مما جعل لها مخرجا على البحر الأحمر بالإضافة إلـى مرابطة قوات طوارئ دولية على الجانب المصرى من الحدود.

ومع أن مصر رفضت السماح لاسرائيل بمرور سفنها فى قناة السويس فان فرنسا تولت مساعدة اسرائيل بإنشاء خط أنابيب من إيلات على رأس خليج العقبة إلى بئر السبع ومنها إلى حيفا بقصد نقل البترول الخام الوارد من حقول الخليج العربى الذى تستغله الشركات الغربية إلى اسرائيل كبديل لها عن حرمانها من مرور سفنها بقناة السويس، وتشجيع صناعة تكرير البترول فى إسرائيل. (٩)

وبالنسبة لمصر فقد كانت معركة السويس بؤرة تركيز تجمعت فيها كل أمانى مصر فى الاستقلال الوطنى والتنمية الاقتصادية والاجتماعية والتوحد مع عالمها الذى تنتمى إليه وفيها اكتشف الشعب المصرى طاقاته وإلى جانب ذلك فان أهم ما تمخضت عنه حرب السويس من نتائج بالنسبة لمصر زيادة مكانتها، ورفع رصيدها السياسى بين دول العالم، وبروز مكانة عبد الناصر فى العالم العربى وبين دول عدم الانحياز كبطل قومى، وازدياد شعبيته بشكل ملحوظ حيث استحوذ على قلوب الجماهير لدرجة أن ذكر اسمه كان يمس وترا سحريا فى القلوب(١٠) ، خاصة وأنه استطاع أن يبرز أمورا حساسة عند الشعب المصرى باستخدامه للرمزية الوطنية فى خطابه السياسى وجاءت المقاومة الشعبية الباسلة لتصنع تلك الملحمة التاريخية الرائعة(١١) ، فعلى الرغم من توقف عمليات القتال يوم ٧ نوفمبر فان النضال الشعبى لم يتوقف ضد المعتدين حتى خرجت انجلترا وفرنسا منسحبتين يوم ٢٢ ديسمبر ثم خرجت اسرائيل منسحبة من سيناء وغزة يوم ٦ مارس ١٩٥٧. (١٢)

وإلى جانب ذلك تحررت مصر من سيطرة رأس المال الأجنبى، وتمكنت من تحرير اقتصادها القومى، وفتح أسواق تجارية مع دول الكتلة الشرقية.

وكان من نتائج فشل العدوان بروز القومية العربية كقوة مؤثرة مما مهد الظروف لإقامة وحدة بين مصر وسورية، كما أنهت الأردن معاهدتها مع

بريطانيا، واتجهت حكومة عدن إلى قيام دولة اتحادية من المحميات الانجليزية جنوب اليمن، وإلى جانب ذلك قامت ثورة فى العراق كنتيجة مباشرة لموقف حكومة نورى السعيد من أزمة العدوان على مصر. (١٣)

وبالنسبة للاتحاد السوفيتى فقد برز دوره فى مساندة الدول المناهضة للاستعمار عن طريق تقديم المساعدات الاقتصادية والانمائية لدول المنطقة مما زاد من نفوذه فى منطقة الشرق الأوسط، وزعزعة النفوذ الغربى فى المنطقة، ومحاولات الولايات المتحدة أن ترث بريطانيا فى منطقة الشرق الأوسط ومحاولاتها ملء الفراغ عن طريق مشروع أيزنهاور(١٤) ، ورفض مصر لهذا المشروع، وتزعمها فكرة رفضه فى المنطقة، ومناصرتها سياسة عدم الانحياز مما كان سببا فى الصدام بينهما. (١٥)

وهكذا انتهى العدوان الثلاثى بالفشل، وترتب على ذلك العديد من النتائج التى أعادت صياغة النظام العالمى وكانت نقطة تحول رئيسية فى التاريخ الحديث كله حيث أعيد تشكيل الدور الأوربى، ودور دول عدم الانحياز فى السياسة الدولية. وإلى جانب ذلك فقد أصبحت القناة ملكية خالصة لمصر، وأصبح عبد الناصر بطلا قوميا، ورائدا لحركة القومية العربية(١٦) ، بعد أن فشلت جميع المحاولات المعادية للنيل من مصر وزعيمها وفضلا عن ذلك خرجت مصر من الأزمة بتعاطف دولى استطاع أن يخترق الرأى العام لدول العدوان ذاتها فعارضت العديد من الشخصيات السياسية والثقافية والاعلامية فى أوربا العدوان وأدركت فداحته مما كان سببا فى إزاحة العديد من القيادات السياسية المتآمرة على مصر وشعبها وقيادتها. (١٧) فقد سقط ايدن وسقط جى موليه، كما كان من أسباب وضع العالم أمام عصر جديد من تحرر الشعوب، وترسيخ النزعة الاستقلالية فى العالم الثالث وهى النزعة التى قام فيها عبد

الناصر بدور كبير ومؤثر هذا إلى جانب تغيير موازين القوى العالمية حيث أفل نجم بريطانيا وفرنسا وصعد نجم الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى.

ونتيجة لكل ذلك يمكن القول ان ملحمة السويس جديرة بأن تأخذ مكانهـا فى الذاكرة الوطنية، وان يتم استيعاب دروسها جيدا[١٨] ، خاصة وأنها حفرت مكانها فى التاريخ الانسانى والسياسى العالمى وصارت ملحمة يحق للأجيال الحالية والقادمة معرفتها خاصة وان البطل الحقيقى لها كان الشعب المصرى الذى وقف متماسـكا صـلبا ومـصمما علـى مواجهـة جبـروت أكبـر الامبراطوريات، ولو أنه تردد لحظة فى مواجهتها أو ضعف لحظة أو اهتز إيمانه لحظة خاصة فى الفترة ما بين ٢٩ أكتوبر إلى ٧ نوفمبر ١٩٥٦ لمـا كانت هناك جدوى من النصر.[١٩]

وعلى أى حال فان المعارك ضد الاستعمار وقوى الامبريالية لم تتوقـف بعد حرب السويس وان تغيرت أساليبها وأهدافها فجاءت حرب ١٩٦٧ ثـم جاءت بعدها حرب تحرير سيناء فى اكتوبر ٧٣ ، وما زلنا نـشعر بوطـأة الضغوط الامبريالية والقهر الاستعمارى صباح مساء خاصـة وان حركـة التاريخ لا تنقطع ولم تتوقف ولا تعرف الفجوات فى مسارها.



الهوامش

(١) محمد حسنين هيكل: كيف أدار عبد الناصر أزمة معركة السويس،دراسة ضمن كتاب معركة السويس- ثلاثون عاما ، ص ٣٢- ٣٤.

(٢) حدث هذا كله رغم لجوء بعض الحكام العرب مثل نورى السعيد إلى فرض الأحكام العرفية.

(٣) المتحف الحربى بالقلعة، تقرير الجنرال كيتلى عن العمليات الحربية فى مصر، نوفمبر – ديسمبر ١٩٥٦، ص ٣٢.

(٤) فطين فريد: العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ رسالة ماجستير غير منشورة.

(٥) محمد كمال عبد الحميد: الشرق الأوسط فى الميزان الاستراتيجى، ص ٩٠٦.

(٦) الأهرام فى ٢٤ اكتوبر ٢٠٠٦.

(٧) الأهرام، فى ٢٦ اكتوبر ٢٠٠٦.

(٨) هيئة البحوث العسكرية: حرب العدوان الثلاثى على مصر، ص ٨٥.

(٩) محمد كمال عبد الحميد: مرجع سابق، ص ص ٦٠٧- ٦٠٨.

(١٠) انتونى ناتج: ناصر، ص ص ٢٣١- ٢٣٢.

(١١) رءوف عباس: الدلالات التاريخية لحرب السويس، دراسة ضمن كتاب حرب السويس بعد أربعين عاما، القاهرة، مركز الدراسات السياسية ١٩٩٧، ص ٤١٦.

(١٢) الأهرام، فى ٢٦ اكتوبر ٢٠٠٦.

(١٣) فطين فريد: العدوان الثلاثى على مصر، ص ٢٥٨.

(١٤) صلاح بسيونى: مصر وأزمة السويس، ص ٣٣٥.

(١٥) فطين فريد: مرجع سابق، ص ٢٥٥

(١٦) Nutting, A: Nasser , P. 194.

(١٧) فطين فريد: الدبلوماسية المصرية وأزمة السويس، ص ٣٨٤.

(١٨) الأهرام فى ٢٧ اكتوبر ٢٠٠٦ تحت عنوان: حرب السويس لماذا نتذكرها الآن؟

(١٩) محمد حسنين هيكل: دراسة سبق ذكرها ، ص ٣٤.

مصادر الدراسة

أولا: وثائق غير منشورة:

المتحف الحربى بالقلعة. تقرير الجنرال كيتلى عن العمليات الحربية في مصر– نوفمبر – ديسمبر ١٩٥٦.

ثانيا: وثائق منشورة:

- وثائق ندوة السويس الدولية، معركة السويس– ثلاثـون عامـا، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٩.
- هيئة البحوث العسكرية، حربة العدوان الثلاثـى علـى مـصر، خريف ١٩٥٦، جـ١، القاهرة، د.ت.

ثالثا: المراجع العربية والمعربة:

- أنتونى ناتج: ناصر – ترجمة شاكر إبراهيم، القـاهرة، مكتبـة مدبولى، ١٩٩٣.
- صلاح بسيونى: مصر وأزمة السويس، القاهرة، دار المعـارف، ١٩٧٠.

- فطين أحمد فريد: الدبلوماسية المصرية وأزمة السويس، القاهرة، مطابع الشرطة، ٢٠٠٢.
- محمد كمال عبد الحميد: الشرق الأوسط في الميزان الاستراتيجى، القاهرة، الأنجلو المصرية، ١٩٧٢.
- مركز الدراسات السياسية بالأهرام: حرب السويس بعد أربعين عاما، القاهرة، ١٩٩٧.

رابعا: المراجع الأجنبية:

- Nutting, A: The Story of Suez, No end of a lesson , London, 1978.

خامسا: رسائل جامعية غير منشورة:

- فطين احمد فريد: العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦، رسالة ماجستير نوقشت بآداب عين شمس.

سادسا: الدوريـــات:

- الأهرام، أكتوبر ٢٠٠٦.

الدروس المستفادة من عدوان ١٩٥٦ على الصراع العربى الإسرائيلى

د. محمد نصر مهنا

تناقش ورقة البحث من خلال استخدام المنهج الاستقرائى الذى يعتمد على أسلوب الملاحظة وتتبع الأحداث وتسجيل الوقائع وتحليلها بغية الوصول إلى الهدف المتوخى من ورائه وهو تقييم أهم أحداث العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ وتطوراته اللاحقة. وليس من أغراض ورقة البحث هذه دراسة الآثار التى خلفتها الهزيمة التى نزلت بمصر عسكريا أو النجاح الدبلوماسى الذى حققته مصر سياسياً، ولكن المتغير المستقل هو تداعى أحداث عدوان ١٩٥٦ على الصراع العربى الإسرائيلى حيث إذا كان هناك من خرج رابحاً من هذه الحرب فهما مصر وإسرائيل غير أن مكاسب هذه الأخيرة كانت أعظم شأناً بالرغم من اضطرار قواتها إلى الانسحاب يوم ٥ مارس عام ١٩٥٧ خلف حدود اتفاقيات الهدنة، وحصول الإسرائيليين على مكاسب إقليمية تجسدت فى بعض المزايا الدائمة مثل فرصة استخدام خليج العقبة بعد أن كان محظوراً عليها بموجب بنود اتفاقيات الهدنة المصرية الإسرائيلية عام ١٩٤٩، لكن إسرائيل مع ذلك قد أخفقت فى نيل حرية المرور لسفن الشحن عبر السويس، كما فشلت فى إزاحة عبد الناصر الذى شهد نفوذه لدى الرأى العام العربى تصاعداً كبيراً بعد العدوان الثنائى، وهو ما أشارت إليه الجارديان البريطانية فى العديد من المقالات التى نشرتها بمناسبة مرور خمسين عاماً على الأحداث. كذلك فقد هدم الإسرائيليون نظام الجيش المصرى وأتلفوا جانبا كبيرا من أحدث ما لديه من معدات، وأثبتوا بذلك أن الجيش الإسرائيلى قادر على هزيمة أى جيش عربى. ويعيد هذا للأذهان

النتائج المباشرة لنكبة عام ١٩٤٨ على صعيد الصراع العربى الإسرائيلى وأن العرب قد كرروا نفس الأسلوب السياسى والعسكرى فى هذه الفترة وذلك على النحو الآتى فيما يتعلق بالسياسات العربية:

أولاً: على الجانب المصرى:-

أن العرب الفلسطينيين -على الرغم من معداتهم وتدريبهم وتنظيماتهم البدائية- قد أقنعوا الحكومات العربية أنه تكفى قوة منظمة صغيرة لتدمير إسرائيل وهم لذلك أوكلوا المهمة للملك عبد الله الذى استغنى عن نصيحة بريطانيا، والتى كانت تعلم أكثر منه وهو لذلك كان يجارى زملاءه فى الجامعة العربية على حين أنه كان على اتصال بالجانب اليهودى - وذلك بهدف استرداد الأجزاء المخصصة للعرب من فلسطين طبقاً لخطة التقسيم، وفى حالة عدم الموافقة على مشروع التقسيم المعدل مما اتضح من القرار المفاجئ للملك فاروق ضد نصيحة حكومته وذلك بإرسال القوات إلى فلسطين.

وعموماً فإن موقف الملك فاروق يحتاج إلى وقفة خاصة لتحليله: فلقد وصلت مشكلة فلسطين إلى تفاقمها عندما قررت بريطانيا انهاء انتدابها على فلسطين يوم ١٥ مايو ١٩٤٨، وقد كان النقراشى رئيس الحكومة مصراً على ألا يلجأ إلى القوة المسلحة حتى لا يدفع الجيش المصرى إلى حيث تكون القوات البريطانية المرابطة فى منطقة قناة السويس وراء ظهره وقد ظل النقراشى على هذا الموقف حتى يوم ١١ مايو ١٩٤٨، ولكن بين عشية وضحاها تغير هذا الرأى[١] فجأة وطلب من رئيس مجلس الشيوخ فى ١٢ مايو عقد البرلمان فى جلسة سريعة لطلب دخول القوات المسلحة أرض فلسطين، وعرض على البرلمان بيانات غير دقيقة أدت به إلى الموافقة على

إعلان الحرب.

وقد رأى الملك فاروق فى المشكلة الفلسطينية ما يمكنه من استرداد بعض سمعته التى كانت قد انهارت فى العامين السابقين، وأن يدعم بدخول الحرب هيبته ومن ناحية أخرى يهدئ من الفوران الشعبى للرأى العام المصرى، وقد أمر الملك فاروق وزير الدفاع محمد حيدر كى يأمر الجيش المصرى باجتياز الحدود، وتحرك الجيش المصرى بالفعل دون علم رئيس الوزراء ومن غير انتظار لقرار البرلمان أو مجلس الوزراء.

وكان الملك قد ذكر فى ١١ مايو لمراسل اليونايتيد برس أنه خرج عن حدود وظيفته الدستورية التى تلزمه بألا يعمل إلا بواسطة الحكومة، وأضاف أنه سيمد الأخوان العرب بكل مساعدة عسكرية ومالية واقتصادية وأنه لن يقبل أن تقوم دولة صهيونية على مقربة من حدود مصر وأنه لابد من استعمال القوة.[٢]

وبدأت الحرب بحماس ملحوظ ولكنها خلال شهور قليلة انتهت بالهزيمة وكان الرأى العام المصرى -كما يذكر[٣] جون مارلو- قد أبقى جاهلاً بتطورات الحرب وتسربت إليه أخبار الهزيمة تدريجيا كما يتسرب بالتدريج خبر موت أحد الوالدين إلى طفل صغير حساس.

وعموماً فقد مر النظام المصرى كله بفترة كان فيها على وشك الانهيار، وقد استغلت الحكومة المصرية موجة الحماس لدى الرأى العام المصرى وفرضت الأحكام العرفية لتفرض حكم الحديد والصمت على الأحرار جميعاً من كافة الاتجاهات السياسية وأعلنت بغير تكتم زعمها إنشاء معتقل فى جزء من ثكنات[٤] العباسية، وفرضت الرقابة على الصحف واستخدمت سلاحاً ضد المعارضة وشملت ما لا يتصل بأمن الجيش وعلى ما شكى منه فؤاد سراج الدين – حزب الوفد – فى مجلس الشيوخ.

كذلك فقد قويت شوكة الأخوان المسلمين لاعتبارهم الحرب دينية، ويذكر أحمد حسين[٥] أن معركة فلسطين أمدتهم بفرصة ذهبية لحشد السلاح والتمرن على استعماله من أجل فلسطين وأنهم جمعوا كميات الأسلحة تحت ستار تجهيز المتطوعين إلى فلسطين وهم يعدونها لإحداث انقلاب بالقوة فى مصر، وقد قررت الحكومة المصرية حل جماعة الأخوان المسلمين فى ٨ ديسمبر عندما استشعرت نشاطهم الإرهابى وذلك على حد قول البعض.[٦] وكان نشاطهم قد بدأ قبل الحرب وفي أثنائها وبعدها حيث قتلوا أحمد الخازندار رئيس محكمة الجنايات فى مارس ١٩٤٨ وألقوا المتفجرات على محلات اليهود فى القاهرة – شيكوريل وأركو فى يوليو ١٩٤٨ – وبنزايون وجاتينيو فى أغسطس، وشركة الإعلانات الشرقية فى نوفمبر ١٩٤٨، واغتيال حكمدار القاهرة فى ديسمبر ١٩٤٨. وقد ردت جماعة الأخوان على ذلك باغتيال رئيس الحكومة محمود فهمى النقراشى فى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ ثم محاولة نسف دار محكمة الاستئناف فى ١٣ يناير ١٩٤٩، ومع ازدياد العنف دبر الملك فاروق والحكومة اغتيال حسن البنا فى ١٢ فبراير ١٩٤٩.

وكانت أعمال العنف السياسي قد تصاعدت أثناء الحرب وخاصة بعد قتل النقراشى الأمر الذي دفع حكومة إبراهيم عبد الهادى إلى الضغط على الحريات والاعتقال والتعذيب وممارسة سائر أنواع الإرهاب والتخويف لجميع التيارات الثورية والوطنية المعارضة. ويصف لاكويتر[٧] ذلك أصدق وصف قائلا: "إن حرب فلسطين شاهدت بداية معسكرات التعذيب المصرية".

ولما كانت وزارة إبراهيم عبد الهادى قد وقعت أسيرة الخوف[٨] فقد وقعت بالتالي فى أغلاط كانت عدواناً شنيعاً على الحريات والحقوق وعلى الدستور وسيادته. ومن هنا ساد الرأى العام المصرى إحساس بالتوجس من المستقبل وبدأت مصر تعيش على فوهة بركان إذ كانت حرب فلسطين

احتكاماً للسلاح فى صراع سياسى رسم للحركة السياسية المصرية طريقها واضحاً. وساد مبدأ السلاح منذ ذلك الحين محل مؤسسات الدستور وبالتالى فقد حل الصراع بواسطة العنف والسلاح وتكميم أفواه المصريين محل الصراع من خلال المؤسسات الدستورية ولا غرابة والأمر كذلك أن يحل العنف الاجتماعى محل الصراع السلمى.

ثانياً: الحكومات العربية:-

حذت الحكومات العربية الأخرى حذو مصر فاتبعت نفس الأسلوب واستخدمت خطة عمل مشتركة تهدف لتدمير إسرائيل أو تحصرها فى أضيق نطاق، وظلت الحكومات العربية تحت تأثير أن هذه المهمة يمكن إنجازها بقوات صغيرة، وقد جاء قرار الاشتراك فى الحرب ليكون أكثر من دالة على شكوكهم المتبادلة والتى كانت فى غير محلها كما ثبت بعد ذلك بالإضافة إلى عدم تقدير المتطلبات العسكرية الضرورية وهذا يرجع إلى عدم تقدير العرب لحقيقة القوى الإسرائيلية والذى استمر حتى العدوان الثلاثى ودور إسرائيل فيه، إذ كانوا يعتقدون أن قوات اليهود فى فلسطين التى أرادوا غزوها فى إبريل ١٩٤٨ هي كل قواتهم. وفى الحقيقة كان زعماؤهم قد جمعوا كميات هائلة من الأسلحة والمعدات على السفن ومن موانى أجنبية كانت مستعدة للتحرك بمجرد توقف السلطة البريطانية فى فلسطين وقد لوحظ أن هذه القوات كانت تتزايد بمعدل سريع من أسبوع لآخر.

ومن الحقائق التى لا يعرفها الكثيرون أنه عند بداية الحرب، فإننا نجد أن اليهود الذين كان يبلغ عددهم حوالى ٧٠٠ ألف كان لهم عدداً معبأ أزيد عما هو معبأ لدى الدول العربية والذين يبلغ عددهم ٤٠ مرة مثل إسرائيل. ومع ذلك كان لدى العرب فرصة لكسب الحرب في الأسابيع القليلة الأولى عندما

كانت القوات الإسرائيلية غير جيدة التنظيم ولم تكن قد استوعبت بعد كل المعدات التى حصلت عليها.

ثالثاً: اللاجئون الفلسطينيون:-

ولم تكن حرب فلسطين كالحروب العادية، أى اختباراً حراً للقوة ولكنها كانت تتخللها الهدنة وإيقاف النار الذى يفرض عليها من الخارج. ومن الناحية الرسمية استمرت الحرب ثمانية شهور منذ بدء الغزو حتى طلبت مصر الهدنة، ويلاحظ أن القتال الفعلى حدث خلال ربع هذا الوقت وعلى أربع فترات تغطى كل مدة الحرب.

ومن خلال التنازلات فى الأمم المتحدة عقب ذلك – اكتشف العرب حقيقة جديدة كانت موجهاً لموقفهم بعد ذلك وهى الموافقة الضمنية من جانب الطرف الأقوى فى الحرب وقدراته على استئنافها، ومن ثم يستطيع أن يفرض ضرراً أكبر على الطرف الآخر، وبالتالى اكتشفت الحكومات العربية فى ذلك الوقت أنها سوف تكسب القليل وتخسر الكثير إذا عقدت سلاماً مع إسرائيل.

كذلك تضمنت[٩] الحرب تعديلاً بعيد المدى لخطة التقسيم الخاصة بالأمم المتحدة، وفشلت الدولة العربية التى تصورتها هذه الخطة فى الظهور وقسمت الأرض المخصصة لها بواسطة إسرائيل والأردن ومصر، طبقاً لاتفاقيات الهدنة وحصلت إسرائيل على النصيب الأكبر وهو ما يصل إلى ٢٥٠٠ ميل مربع وهو ما أضافته إلى الـــ ٥٦٠٠ ميل مربع التى منحتها إياها خطة التقسيم.

كذلك تضمنت الحرب أيضاً تعديلاً كبيراً فى السكان، فلقد أزيح ما يزيد على ٧٠٠ ألف فلسطينى عربى – كانوا يعيشون فى المنطقة – خلال

القتال قبل وبعد ١٥ مايو ١٩٤٨ – وانتهى وضعهم إلى أن أصبحوا لاجئين موزعين كالآتى: ٦٠% فى الأردن – ٢٠% فى قطاع غزة – ٢٠% فى سوريا ولبنان أصبحوا جميعاً من اللاجئين وجاء قرار الأمم المتحدة فى ١١ ديسمبر ١٩٤٨ لينص على أن من يريد منهم العودة ويعيش فى سلام مع جيرانه يجب أن يسمح له بذلك ونشأ جدال كبير عندما ترك اللاجئون الفلسطينيون أرضهم للسيطرة اليهودية تحت تهديد القوة.

رابعاً: الهدنة وما بعدها:-

إن النتيجة الثالثة لحرب ١٩٤٨ هى بلورة[١٠] التفرق العربى حتى فى مواجهة عدو مشترك Crystallization of Arab Disunity فكانت هذه التفرقة كامنة وموجودة بسبب اختلاف الأهداف للدول العربية فالأردن تؤيده العراق أراد التدخل عسكرياً كى يؤمن لنفسه أجزاء من فلسطين التى خصصت للدولة العربية حسب خطة التقسيم على حين أن مصر تؤيدها السعودية أرادت أن تعوق خطة الأردن-العراق بإلغاء التقسيم كلية وضمان أكبر قدر من الأرض لدولة عربية فلسطينية "عملية".[١١]

وقد بدأت هذه الاختلافات تتضح عندما تحدد التقدم العسكرى العربى ثم أراد الملك عبد الله وقف القتال والاستيلاء على ما وصل إليه على حين أن مصر أرادت الاستمرار فى الحرب على أمل تحقيق هدفها.

وعندما أدت المفاوضات إلى خسائر فى جيش الملك عبد الله، قرر أن يبقى خارج الحلبة فى الجولة القائمة تاركاً القوات المصرية تنهزم وتطرد من النقب وفى النهاية دخل القتال إلى الأرض المكشوفة على حين ألحق الأردن رسمياً به الأرض التى تحت سيطرته وأقامت مصر حكومة عربية فلسطينية فى غزة.

ومما هو جدير بالملاحظة أنه فى أثناء فترة سريان الهدنة اجتمع أهم المسئولين المصريين فى عمان عند الملك عبد الله. وقد روى الملك عبد الله قصة هذا الاجتماع قائلاً: "أراد النقراشى باشا رئيس الوزراء المصرى أن يناقش موضوع الحكومة العربية لسائر فلسطين – حكومة عموم فلسطين – فرد عليه الملك أنه قد يبدو أكثر إلحاحاً أن تتجه الدراسة إلى الأوضاع العسكرية، فقال النقراشى إن الأوضاع العسكرية لا تثير أى قلق لأن الجيش المصرى ثابت فى مواقعه جميعاً. وإذ سأله الملك عبد الله هل لديه علم بأن بئر سبع قد سقطت وأن الفالوجة محاصرة، عندئذ ثار النقراشى وذهب يتهم الدول العربية الأخرى بأنها قد تخلت عن مصر. وهنا رد السوريون واللبنانيون والعراقيون قائلين إنه لم يعد فى استطاعتهم فعل شيء، إذ أن الهدنة كانت قد أعلنت، ولكنهم سوف يحرصون على التدخل فى المرة القادمة ووعد جميل مردم بك بأنه إذا ما حدث ذلك يوماً فإن الجيش السورى سوف يحتل الناصرة وصفد".

وهذه المواقف من المسئولين العرب كانت بدون شك لحماية كرامتهم وضرورة لبقائهم السياسى، فبعد أن أثاروا شعوبهم إلى درجة كبيرة من الحماس من أجل المشكلة الفلسطينية ولقنوهم بتصريحات متوقعة للانتصارات وأخفوا عنهم التدهور فى الموقف العسكرى بقدر ما استطاعوا فإنهم لم يستطيعوا عقد سلام دون أن يضعوا أنفسهم فى موقف حرج لأن السلام يعنى حين ذلك إما تنازل عن معظم فلسطين لليهود بعد حرب حوربت لمنع هذا الظلم، وإما أن يعنى السلام اعترافها بالهزيمة وهو ما يمكن أن يعزى إلى سوء إدارة الحرب المزرى من جانب الحكومات العربية.

وقد نتج عن ذلك أيضاً أن إسرائيل كانت تأخذ بحرص وحذر تصريحات الزعماء العرب واعتبرتها خطة موضوعة لتدميرهم، ومن ثم تعاملوا معها

على هذا الأساس. ومن هذه التصريحات ما أعلنه عزام باشا الأمين العام لجامعة الدول العربية حينئذ فى مقابلة صحفية قائلاً:[١٢] "إننا نمتلك سلاحاً سرياً نستطيع أن نستخدمه أفضل من المدافع الأوتوماتيكية وهو الزمن، فطالما أن الحرب لم تنته فليس هناك منتصر أو منهزم، وإذا اعترفنا بوجود إسرائيل فسوف نعترف بأننا هزمنا". وهكذا أغرقت[١٣] الحكومات العربية شعوبها فى آمال غير معقولة لتحقيق مستقبل لا يمكن التنبؤ به.

خامساً: فشل السياسة البريطانية:-

حطمت حرب فلسطين كل إمكانية أمام السياسية البريطانية لرسم استراتيجية للشرق الأوسط تعتمد على التعاون مع جامعة الدول العربية،[١٤] والحاصل أن الجامعة العربية قد شلت نتيجة للحرب، كما أن موقف الاتحاد السوفيتى كان غير متعاون مع العرب فى قضيتهم، وقد كشف وجه الولايات المتحدة الأمريكية ضد العرب الأمر الذى ساعد على تعميق الشعور بوجوب سياسة محايدة إزاء صراعات الدول الكبرى، كذلك أكدت النكبة "بلقنة" الشرق الأوسط.

والخلاصة أن نكبة فلسطين تركت أثراً عميقاً لدى الرأى العام بأكمله – بل إن أى قدر من الرعاية لا يمكن أن يخفى ما عانته الشعوب العربية من خزى الهزيمة كما أكدت الهزيمة للثوريين فى مصر أن قيادة البلاد يجب أن يطاح بها بعد أن عاد الجيش المصرى باقتناع عميق بأن قادته قد غدروا به، ويذكر لاكوتير أن النتيجة المباشرة والعميقة كانت تفكك الدولة وجميع تنظيماتها ولم يبق إلا الإطار العام، ولم تمر مصر بفترة أقسى من تلك الفترة فى أعقاب النكبة نتيجة لما عاناه الجيش المصرى من الانهيار والتدهور فضلاً عن أن الحملة الصهيونية ضد مصر قد بلغت أوجها فى صحافة العالم وذلك بالإضافة إلى تشريد الإخوان المسلمين وتدهور الحالة الاقتصادية فى

البلاد.(١٥)

ما بعد العدوان الثلاثى:-

اقتصرت المشكلة الفلسطينية والصراع العربى الإسرائيلى على وجه الخصوص بعد العدوان الثلاثى على استخدام أساليب الحرب الباردة وأخذت القرارات والتوصيات تتوالى عاما بعد آخر أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة تدعو الطرفين فى قليل أو كثير من الإلحاح إلى تسوية ما بينهما بالطرق السلمية وإلى إيجاد حل ملائم لمصير اللاجئين الفلسطينيين على أسس من القرارات السابقة. وقد توالت الأحداث حتى عشية عدوان يونيو ١٩٦٧ كى توضح الفشل فى السياسات العربية تجاه إسرائيل على النحو الآتى:-

أولاً: أخذت إسرائيل حتى عام ١٩٥٧ -على ضوء النتائج السياسية للتواطؤ الثلاثى البريطانى الفرنسى الإسرائيلى- تركز سياستها الخارجة لخدمة أمنها عن طريق الحصول على أحدث الأسلحة والمعدات اللازمة لتطوير جيشها وفقا للدروس العسكرية المستفادة وأيضا لكسب ضمانات أمن جديدة من الدول الغربية عموما والولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص لحماية "حدودها" وأخذ الضمانات الأمريكية خاصة لتحقيق هذا الهدف وعرضت الثمن على الولايات المتحدة من خلال القيام بتوسيع الموانى والمطارات الإسرائيلية لاستعمالها كقواعد عسكرية للولايات المتحدة فى حالات الطوارئ.(١٦)

وفى حديث لشيمون بيريز وزير الدفاع فى ذلك الوقت مع المسئولين البريطانيين فى أعقاب ظهور مشروع أيزنهاور أكد أن وجود إسرائيل يشكل حاجزاً ضد "انتشار الشيوعية" ليس فى الشرق الأوسط فحسب بل فى إفريقيا أيضا وأن تقوية إسرائيل بالتالى إنما هو ضمان لاستقلال كثير من شعوب

المنطقة. وقد شهدت هذه الفترة بداية انطلاق الجهود الإسرائيلية للتغلغل فى الدول حديثة الاستقلال فى آسيا وإفريقيا فى تقديم المعونات الفنية والعسكرية لها.(١٧)

وقد شَكَّلَ الاعتماد على القوة العسكرية الاتجاه الأساسى بحيث أكدت وقائع عدوان ١٩٥٦ أن احتلال قطاع غزة كان هدفا عسكريا إسرائيليا قائما بحد ذاته وللخلاص منه كلسان ممتد إلى داخل الأراضى المحتلة يصلح منطلقا لهجوم مصرى مسلح ضد إسرائيل إضافة إلى كونه قاعدة آمنة.

ولم تكن قدرة "إسرائيل" على تحديد مخططاتها المتعلقة بمستقبل قطاع غزة محكومة برغباتها أو بطبيعة ميزان القوى بينها وبين مصر فقط، فقد كان هناك ظرف دولى عام شكل إطاراً استراتيجياً لم يكن من السهل على الأطراف المتورطة مباشرة فى الصراع تجاوزه، وتوج هذا الظرف بقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الذى دعا إسرائيل إلى سحب جميع قواتها فورا إلى ما وراء خطوط الهدنة بين مصر وإسرائيل في فبراير ١٩٤٩.(١٨)

ويمكن ملاحظة الرغبة الإسرائيلية – وقتئذ – للعمل بجدية لتدويل قطاع غزة حتى تضمن عدم عودة الإدارة المصرية آلياً وسير الحوادث فى الفترة السابقة لانسحاب إسرائيل من القطاع مليئة بالمحاولات الدامية لتمرير هذه السياسة بدءاً بصدور قرار الأمم المتحدة بتشكيل قوات الطوارئ الدولية. وهنا أصدرت الحكومة المصرية بيانا أعلنت فيه أن غزة ليست خاضعة لنظام الوصاية حتى توضع تحت إدارة الأمم المتحدة حيث أعلن همرشلد – سكرتير عام الأمم المتحدة – هو الآخر أن قوات الطوارئ لا تتمتع بصفة سياسية بل يقتصر دورها على حل المشكلات العاجلة. غير أن الحكومة الإسرائيلية رفضت رفضا كليا عودة الإدارة المدنية والعسكرية إلى قطاع غزة(١٩) وكانت إسرائيل أكثر ردعا وأشد حسما كى تخل بالتوزان العسكرى

والاستراتيجي مع العالم العربى – وهو ما تحقق فيما بعد وحتى الوقت الحاضر – بمعنى امتلاك أسلحة "الردع"، وساعدها على ذلك التفرق والانقسام العربى الأمر الذى ساعد في تبنى إسرائيل لاستراتيجية الحرب الشاملة أيضا كبديل وحيد لسياسة الردع إذا ما تعرضت للفشل.

ثانياً: كان انتهاج سياسة الحياد التى اتبعتها بعض الدول العربية فى هذه الفترة تعنى بالنسبة للغرب "اعتناق الشيوعية" وهو الأمر الذى صاعد من تدخل الغرب فى الشؤون العربية. وقد ظلت كل من سوريا ومصر بصفة خاصة تنتهجان خط الحياد، وقد نجحت هذه السياسة فى استقطاب الرأى العام العربى.. وقد قلقت الولايات المتحدة من الحكم فى سوريا كونها دولة خاضعة لموسكو، ولم يدرك الأمريكيون أن السوفييت فى غنى عن إرباكهم بدولة سوفيتية فى المنطقة؛ بعكس الحال فى مصر حيث لم يقطع عبد الناصر اتصالاته مع الولايات المتحدة.[٢٠]

وبالرغم من الموقف المصرى فإن التدخل الأمريكى فى الشؤون العربية منذ عام ١٩٥٧ على أساس أن كلا من الاتحاد السوفيتى ومصر أصبحتا حاميا لسوريا فى مواجهة العداء الغربى لها. وقد ظهر كل من الاتحاد السوفييتى ومصر كأنهما بطلان ليس بالنسبة لسوريا فحسب بل وبالنسبة للرأى العام العربى.

وعلى الصعيد العربى جرى توقيع اتفاقية التضامن العربى فى[٢١] يناير ١٩٥٧ حيث تعهدت بمقتضاها كل من سوريا ومصر والسعودية بدفع مبلغ ١٢ مليون جنيها مصريا لدعم الأردن بدلا من الإعانة البريطانية ودخول قوات عسكرية عربية سورية وسعودية وعراقية للأردن[٢٢] بعد العدوان الثلاثى على مصر. وارتبط بذلك إجراء بعض التعديلات على الجيش الأردنى لربطه بالقضية الوطنية والعربية ولم يحقق العدوان لإسرائيل الهدف

الاستراتيجى الذى أرادته ألا وهو المفاوضات المباشرة مع مصر، ولكنها بالمقابل حققت الأهداف المباشرة للعدوان – وهو توقف نشاط الفدائيين ومرور البواخر الملاحة الإسرائيلية فى خليج العقبة وهما مكسبان لهما آثارهما السياسية الضارة على القضية الفلسطينية عموما وقطاع غزة على وجه الخصوص – وأخذ هذان الإنجازان شكلا من أشكال سياسة الأمر الواقع الذى لم يكتسب الصيغة الشرعية وإبقاء باب الصراع مفتوحا.

ثالثاً: رفض عبد الناصر مبدأ أيزنهاور ورحبت إسرائيل به حيث اعتبره عبد الناصر امتداداً لعدوان السويس، كما رفض عبد الناصر فكرة وجود فراغ فى الشرق الأوسط لأن المنطقة يملأها العرب الذين بإمكانهم الدفاع عنها وعن استقلالهم فيما لو حصلوا على السلاح والمال؛ وأصدرت سوريا أيضا بيانا أيدت فيه رفضها لنظرية الدفاع.(٢٣)

وقد رأى عبد الناصر أن الوحدة مع سوريا ستجعل إسرائيل كالبندقة داخل كسارة الجوز – بمعنى انشغاله – أى عبد الناصر بمشكلات الصراع العربى الإسرائيلى وخاصة حين بدأت إسرائيل فى تنفيذ المرحلة الثانية من مشاريع تحويل نهر الأردن ونقل مياهه إلى صحراء النقب ودعوة ناصر إلى مؤتمر قمة عربى فى القاهرة فى يناير ١٩٦٤ – واستمرت قضية نهر الأردن حتى بداية عدوان ١٩٦٧ وجاءت عناصر الحرس الوطنى الأردنى من أبناء الفلاحين فى الضفتين مما شكل عاملا جديدا فى التركيب البنيوى داخل الجيش الأردنى غير أن التمويل المالى العربى للأردن لم يكن كافيا، وتلى ذلك مزيد من المساعدات العربية بحملات تبرع وبالفعل تم جمع أكثر من نصف مليون دينار أردنى.

ولعل من أهم الدروس المستفادة من عدوان ١٩٥٦ ما يتعلق بمحاولات الوحدة بين الدول العربية وردود فعلها على الرأى العام العربى – ففى

سوريا كان حزب البعث يخشى من ازدياد النفوذ الشيوعى وتراءى لقيادته بالتالى – أن يتجه صوب مصر التى تتسم بمناهضتها للاستعمار الغربى خاصة وأن عبد الناصر كان بوسعه تعبئة كافة الجماهير العربية. وتذكر المصادر أن عبد الناصر كان يخشى من أن يرتبط بشدة بالسياسة السورية الهوجاء وبالتناقض المعقد بين مختلف مجموعات الضغوط العربية وأن مصر تخلق أمام عبد الناصر ما فيه الكفاية من المشكلات الصعبة، وقد فرض عبد الناصر شروطه – لذلك – والتى تمثلت فى أنه لن يكون للجيش السورى أى نشاط سياسى وحل جميع الأحزاب السورية وهو ما اعتبره حزب البعث بمثابة انتحار له.

كان رد فعل الوحدة المصرية السورية شعور كل من العراق والأردن أنه من الخطر عليهما البقاء بمعزل عن قيام هذه الوحدة بين دولتين عربيتين، فجرت محادثات سريعة بين الملكين أبناء العم فى الأردن والعراق وتم إنشاء الاتحاد العربى للمملكتين.

رابعاً: وفى إسرائيل أثارت[٢٤] محاولات الوحدة القلق الشديد من قطاعات الرأي العام الإسرائيلى حيث وجدت إسرائيل نفسها أمام كتلتين عربيتين متنافستين وأمام دول عربية ذات سياسات متنافرة، وقد أثبتت المخاوف الإسرائيلية عدم مصداقيتها فيما بعد وأن هذه الوحدة هى أوهام لا أساس لها فى الواقع.

ومع ذلك فلعل من أهم مظاهر الفشل فى السياسات العربية فى مجملها على صعيد الصراع العربى الإسرائيلى هو ما استأثرت به القيادات الوحدوية والناصرية من اهتمام فئات الرأى العام الفلسطينى وصعود تيار المد الوطنى فى المنطقة العربية بقيادة عبد الناصر، غير أن أحداث انفصال هذه الوحدة جعلت عبد الناصر يشعر باضطراب عميق وأجرى مراجعة أليمة لسياساته

فى كافة المجالات عربيا وداخليا وخاصة تجاه رأس المال الوطنى المصرى الذى لم يبد إلا استعداداً قليلاً للاستثمار، وتبع ذلك سلسلة قرارات التأميم لرعوس الأموال المصرية المستثمرة للشركات الإنجليزية والفرنسية واليهودية بعد العدوان الثلاثى داخلياً وعربياً عبر عبد الناصر عن مراجعته لسياساته فى سلسلة من الخطب فى أواخر عام ١٩٦١.

وتأسيساً على ذلك يمكن القول بقدر معقول من الثقة بفشل المحاولات الاستعمارية فى قلب الأوضاع بالعالم العربى، وهو ما جعل شيمون بيريز يبرر الصراع العربى الإسرائيلى بأنه ليس صراعاً محلياً أو إقليمياً وإنما يرتبط بالصراع بين الكتلتين الغربية والشرقية. وأضاف أن ما يحدث فى الشرق الأوسط يهم الغرب كله وأن تقوية إسرائيل بالتالى تعد من مصالح الغرب الحيوية. وقد أشار الكتاب السنوى لحكومة إسرائيل ١٩٦١/٦٠ إلى الدعم الأمريكى لإسرائيل فى عبارة جاء فيها "تؤكد الولايات المتحدة من جديد موقفها من إسرائيل وتنوه بأن وجود إسرائيل وازدهارها جزء لا يتجزأ من السياسة الأمريكية، وبالتالى فقد أخذ الصراع العربى الإسرائيلى تصعيداً جديداً خلال السنوات الواقعة بين العدوان الثلاثى وكارثة عام ١٩٦٧ حيث احتلت إسرائيل فلسطين بأكملها وثلث مساحة سوريا وخمس مساحة مصر وفرضت إرادتها على حاضر ومستقبل الصراع العربى الإسرائيلى.[٢٥]

والخلاصة أن عدوان ١٩٥٦ انتهى إلى النتائج الآتية:-

أولاً: حصل الإسرائيليون على ميزة كبيرة وهى نزع سلاح تيران وشرم الشيخ ومراقبة هذه المواقع بمعرفة قوات الطوارئ الدولية مما حقق لهم الملاحة فى خليج العقبة وإزالة الحصار الذى كان مفروضا على ميناء إيلات.

ثانياً: لم ينجح الإسرائيليون فى تصوير عبد الناصر كطاغية متعطش

إلى السلطة معتبرين إياه بأنه يشكل الخطر الأعظم على إسرائيل ومحاولة الإقلال قدر المستطاع من تأثير زعامته الكريزمية ببريقها الذى يستأثر باهتمام الرأى العام العربى.

ثالثاً: كانت هناك إمكانية فى أن ينجح عبد الناصر فى إقامة اتحاد عربى له القوة الكافية للقضاء على دولة إسرائيل، والحصول على تنفيذ لقرار الأمم المتحدة رقم ١٩٤ الذى يدعو إلى تخيير الفلسطينيين بين العودة إلى أوطانهم أو صرف تعويضات لهم.

رابعاً: خروج مصر اقتصاديا بأنها اكتسبت تأميم قناة السويس مما أضفى عليها نفوذاً اقتصادياً.

خامساً: تحملت مصر قوات الطوارئ الدولية كنتيجة مباشرة لعدوان ١٩٥٦ على طول الحدود المصرية فقط مع إسرائيل، وهو ما يعتبر من أهم نتائج "حرب السويس" بالنسبة للصراع العربى الإسرائيلى.

سادساً: بالنسبة لقضية فلسطين، يمكن القول، أن غياب استراتيجية عربية واحدة فضلاً عن عدم التنسيق وتعدد السياسات العربية جعل مصر تخرج خاسرة من هذه الناحية، ومن الخطأ تصوير النتيجة بأنها نصر شامل.

سابعاً: تركت الهزيمة العسكرية لدى عبد الناصر تأثيراً شديداً إذ خرج منها مقدراً للأمور بتبصر وتروى أكثر من أى وقت مضى، وأصبح يفكر فى الأمور كثيراً وعميقاً قبل أن يقدم على اتخاذ القرار. ولو أن تدمير إسرائيل فى نظره كان الهدف الأسمى، ولكنه لم يكن الهدف العاجل.

الهوامش

(١) وهو ما يذكره الدكتور محمد حسين هيكل – وكان يشغل رئيس مجلس الشيوخ المصرى وزعيم حزب الأحرار المشارك فى الحكم آنذاك – فى مذكراته فى السياسة المصرية الجزء الثانى، ص ص ٣٢٥-٣٣١.

(٢) الأهرام – القاهرة – ١٢ مايو ١٩٤٨.

(3) Marlo, John, Anglo-Egyptian Relations 1800 - 1850 London, 1954, PP 330-332.

(٤) الدكتور/ محمد حسين هيكل، مذكرات فى السياسة المصرية، مرجع سابق.

(٥) أحمد حسين: واحترقت القاهرة – القاهرة بدون تاريخ إصدار، ص ص ٣١٣-٣١٥.

(٦) طارق البشرى – الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥-١٩٥٢، الهيئة العامة للكتاب – القاهرة ١٩٧٢، ص ص ٢٧٢-٢٧٤.

(7) Lacouture, Egypt in Transition, P.103.

(٨) محمد زكى عبد القادر – محنة الدستور، القاهرة، بدون تاريخ إصدار، ص ٤٧.

(9) Dranath, P 42.

(10) Safran, P 37.

(١١) يقصد Safran بلفظ (عملية) هنا – أى تابعة لمصر والسعودية.

(12) Safran, P 43.

وذلك نقلاً عن:

Wolfyang Bretholz, Aufstemd der Araber, Munich 1960, PP 215-216.

والنص كما جاء هو:

(We have a secret weapon which we can use. Better than guns and this is time. As long as we do not make peace with the Zionists, the war is not over, and as long as the war is not over there is neither victor nor vanquished as soon as we recognize the existence of the State of Israel, we advise by this act that we are vanquished).

(١٣) للإطلاع على انعكاس نكبة ١٩٤٨ على الرأى العام العربى يرجع إلى:

* الدكتور/ جلال يحيى: العالم العربى الحديث منذ الحرب العالمية الثانية – مرجع

سابق ٤٧٥-٤٧٦.

• دكتور/ إبراهيم أبو اللغد - تهويد فلسطين، فبراير ١٩٧٢، ص ٣٥٧، حيث تضمنت بحثاً بعنوان سياسة الدول العربية تجاه إسرائيل بقلم مايكل س. هدسون.

(14) Mario, John, PP 331-332.

(١٥) تفصيل ذلك فى:

• محمد زكى عبد القادر - محنة الدستور، مرجع سابق ص ١٤٦، طارق البشرى - مرجع سابق ص ٢٧٢-٢٧٤. وراجع أيضاً:

* Little, Tom, Egypt, P 117.
* Lacouture, PP 103-104.

(16) Safran Nadav: From War to War, P. 72.
(17) Rodlnson, Maxime: Israel et le Refus Arabe, P 55-58.
(18) Safran Nadav: From War to War, P. 74.
(19) Vatcketds, F.J., Conflict in the Middle East, (London: George Allen and U win, Ltd., 1971, P. 19.
(20) Ibid, P. 20.
(21) Koury, Enver, M., The Patterner of mass movements in Arab Revolutionary Progressive States, The Hogue: Mouton and Co., 1976, P. 15.

(٢٢) الملك حسين: قصة حياتى، المنشورة فى جريدة الديلى ميل اللندنية، الترجمة العربية، عمان، المديرية العامة للمطبوعات، بدون تاريخ إصدار، ص ٦٥-٦٧.

(٢٣) الأهرام فى ١٩٥٨/٩/٢٩.

(٢٤) راجعْ فى تفصيل ذلك:

Ilahu ben Elissar et zeev Schiff: La guere Israelo Arabe 5-10 Juin 1967, PP. 41-42.

(٢٥) راجع أسعد رزوق: إسرائيل الكبرى، سلسلة كتب فلسطينية، إصدار منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث ببيروت، ١٩٦٨.

الآثار والنتائج والدروس المستفادة من العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦

د. فطين أحمد فريد علي

لماذا درس "السويس" تحديدا وبعد خمسين عامًا؟ أليست دروس تاريخنا كثيرة؟ والجواب أن "السويس" كانت نقطة تحول رئيسية في التاريخ المصري والعربي الحديث والمعاصر كله. بل إن كثيرًا من الملامح الرئيسية على الخريطة السياسية للعالم كما نعرفه اليوم – جرى رسمها أيام السويس. إن القيمة الأساسية لحرب السويس تتركز في أنها كانت حدًا فاصلاً بين عصرين.... عصر السيطرة الاستعمارية المستغل، وعصر الاستقلال والتحرر السياسي والعسكري والاقتصادي والثقافي.

وكانت بداية النتائج قطع ذيل الأسد البريطاني وكسر أنيابه فبدأ يلملم بقاياه من مستعمراته ويرحل. كما كانت بداية النتائج أيضًا هزيمة القوى اليمينية الفرنسية فاشتدت عزائم الثورة في المستعمرات – مثل الجزائر وتونس وأفريقيا وغيرها– حتى تحقق الاستقلال.

بل إن ما حدث في حرب السويس كانت له تأثيراته الإيجابية في أقصى الجنوب الأفريقي وفي أقصى القارة الأمريكية الجنوبية وفي آسيا. ولهذه القيمة الكبرى بالغة الأهمية حفرت حرب السويس مكانتها في التاريخ السياسي والعسكري والإنساني للعالم .. وأكد المصريون قدرهم وقدرتهم .. ومن ثم يحتفي بها العالم شرقه وغربه.

وإذا كان العالم يهتم بها ولا تزال دور الصحف ومراكز الدراسات والأبحاث تنشر عنها حتى هذه اللحظة دراسات وكتبًا عن خفاياها ونتائجها وما ترتب عليها فإنه من الأجدر أن تكون هذه مهمتنا نحن المصريين وكل العرب. لأننا نحن الذين تصدينا لهذه الحرب وخضناها ببسالة وشرف وخرجنا منها بنتائج مشرفة ودروسًا عظيمة.

لقد كان درس السويس .. درسًا لا نهاية له، ولا تزال آثاره ونتائجه موجودة في عالمنا حتى الآن. فبعد خمسين عامًا على السويس ونتيجة لتولي الولايات المتحدة الأمريكية توجيه الأمور في الشرق الأوسط، فإن النظرة العامة إلى تحقيق السلام تبدو ملبدة بالغيوم، أكثر منها في أي وقت مضى.

إذا كان هدف التذكر والدراسة هو التحليل الاستراتيجي للحرب من الجوانب والأبعاد السياسية والعسكرية والاقتصادية وغيرها. فإننا نحن أول من يهمه – هكذا المفروض – هذا التحليل ونتائجه. ولكننا للأسف الشديد لا نبالي بهذا ونبدو أحيانًا وقد قطعنا الصلة بالماضي وبما أنجزناه فنبدأ من فراغ كما لو كانت الدنيا تولد اليوم "فلا نستفيد بما فعلنا على حين يستفيد الآخرون، ولا نبني فوق ما بنينا فنرتفع بينما يفعل الآخرون. وإذا كنا نتنبه ونتحسب ونعى الدرس لما كان قد حدث ما حدث على الساحة العربية التي تبدو – من دون ساحات العالم ومناطقه – مهانة مجروحة مباحة لكل من يريد أن يغزوها بالسلاح أو يتهجم عليها بالإساءات، أو يشوه تاريخها وزعماءها ويشككها في نفسها.

آثار العدوان

لقد تميزت إجراءات التأميم بالالتزام بالشرعية والقوانين الدولية، بفضل الدراسة المتأنية، والجرأة مع التسلح بالمفاجأة، فلم تأت تلك الإجراءات

كرد فعل محموم، أو للثأر من إهانة التشكيك في سلامة الاقتصاد المصري، وسحب تمويل مشروع السد العالي، بل كانت تعبيرًا عن إرادة شعبيه طال تطلعها إلى التخلص من الهيمنة والكبت الاستعماري، ومن تلك الدولة داخل الدولة، التي كانت تدير قناة السويس في معزل عن السلطة المصرية، وتتدخل في مجالات كثيرة أخرى خارج نطاق عملها، وتبدى من الصلف والاستعلاء ما لا يمكن قبوله. ورغم ما وضعته بعض الدول من عراقيل في طريق الإرادة المصرية التي تولت أمور القناة، فقد سار العمل فيها بصورة جيدة، لم تترك للمؤامرات الأنجلو فرنسية من سبيل، إلا استخدام القوة الغاشمة لإعادة احتلال مصر، وإرجاع عقارب الزمن إلى قرون ولَّت وصارت في ذمة التاريخ[١].

كما مثل العدوان الثلاثي أيضًا أشد حروب القرن العشرين ظلمًا وتبجحًا، فكل ما قدمه أطراف العدوان الثلاثة من مبررات لإشعالها، كانت أعذارًا أقبح من الذنب، وكل ما زعموه عن مواقف مصر المعادية للسلام العالمي، أو المخالفة للشرائع والقوانين الدولية، كان أوهى من خيط العنكبوت[٢].

لقد أخطأ المعتدون الحساب، فالانتصار الذي ظنوا أنه بين أيديهم قد أفلت منهم . ومنوا بالهزيمة[٣]. وتغير العالم بشكل حاسم عما كان عليه عندما كانت تتوَّج فيه الممارسات الاستعمارية القديمة بالنجاح. فقد قام النظام الاشتراكي وكانت قوته الرئيسية الاتحاد السوفيتي بدرجة كافية من القوة بحيث تضع حدًا للمعتدين الإمبرياليين. وكان الإنذار الذي وجهه محذرًا من عمليات عسكرية، حسب رأي نهرو، عاملاً حاسمًا أدى إلى قبول فرنسا وبريطانيا العظمى وإسرائيل بوقف إطلاق النار. وحطمت حركة التحرر للشعوب المستعمرة وشبه المستعمرة مدعومة من قبل الاشتراكية، نظام

الاستعمار الإمبريالي، وجاء عام ١٩٥٥ بمشاركة وفد مصري برئاسة عبد الناصر مؤتمر باندونج الذي شكل علامة بارزة في الوقوف ضد الاستعمار وإقراره لمبادئ التعايش السلمي. ولم تكن الحركة العمالية شأنها شأن بقية القوى الديمقراطية في دول إمبريالية مستعدة للقبول بالعودة إلى الممارسات الاستعمارية القديمة(٤).

وقد أرادت الولايات المتحدة الأمريكية أن تحقق فائدة مضاعفة من هذا الوضع. فقد كانت تؤيد بصورة أساسية توجيه ضربة قوية لحركة التحرر الوطني بغية إضعافها، ومن هذا المنطلق أيدت تصرف المعتدين الثلاثة. وكانت تريد في نفس الوقت أن تحتل في الشرق الأوسط مواقع القوى الاستعمارية "التقليدية" وهذه هي السياسة التي بدأت بوضع مخططاتها في عام ١٩٤٣. وهذا ما جعلها تؤكد على تقاليد ديمقراطية خاصة بها وتندد بالاستعمار القديم. ويدخل في إطار هذا النهج ما أعلنه أيزنهاور في رسالة إذاعية بخصوص ما يدور حول قناة السويس، بأن حكومته "لا تعتبر استخدام العنف ضربًا من الذكاء وليس الشكل المناسب لحل أزمات دولية". ولم يستطع المعتدون الثلاثة على هذا النحو الاعتماد على دعم الولايات المتحدة الأمريكية عندما أصبح الوضع حرجًا بالنسبة لهم(٥).

هل كان العدوان الأنجلو فرنسي مفاجئًا لمصر؟

كان عبد الناصر، حتى بعد أن تلقى الإنذار الأنجلو فرنسي ورفضه، غير قادر على أن يصدق أن إيدن وجي موليه على وشك أن يشنا حربًا ضد مصر بالتواطؤ مع إسرائيل، حقيقي أنه كان يعتقد، منذ فترة طويلة شأنه في ذلك شأن الرأي العام العربي الواسع الاطلاع، أن الدول الغربية قد خلقت إسرائيل لتكون بمثابة رأس جسر للحفاظ على وجودها في الشرق الأوسط

وعلى نفوذها في بعض الدول العربية منفردة، كما كان يراوده الشك في وجود صلة مؤكدة بين تعزيز حلف بغداد وما أعقب ذلك من زيادة مفاجئة في عدوانية إسرائيل تجاه جيرانها العرب ولاسيما مصر. ومع ذلك لم يستطع أن يصدق أن تكون أية دولة عربية على درجة من الجنون تحملها على كشف التحالف القائم بين الإمبريالية والصهيونية عن طريق مساعدة إسرائيل وتحريضها على الاعتداء على دولة عربية(٦).

لقد ظل الرئيس عبد الناصر يستبعد قيام بريطانيا أو فرنسا بشن عدوان على مصر، رغم توالي المعلومات من مختلف المصادر، التي يؤكد بعضها قرب وقوعه، بينما يحذر البعض الآخر من احتمال وقوعه. فالملحق العسكري المصري بفرنسا، ثروت عكاشة، حصل على خطة تحركات القوات الفرنسية، قبل وقوع العدوان بعشرة أيام، وأرسلها إلى الرئيس جمال عبد الناصر بخطاب خاص مع الملحق الصحفي بالسفارة عبد الرحمن صادق، قام بتسليمها يدًا بيد للرئيس(٧).

وكذلك الملحق المصري بتركيا زكريا العادلي إمام، الذي حصل على معلومات مؤكدة عن العدوان، وتفصيلات الحشد الأنجلو فرنسي بجزيرة قبرص، بل وفي إسرائيل أيضًا، وذلك عن طريق بعض الأتراك الذين جندهم لهذا الغرض، وقد أرسل تلك المعلومات الثمينة في برقية شفرية يوم ٦ أكتوبر ١٩٥٦ إلى اللواء عبد الحكيم عامر – القائد العام للجيش المصري – تقول: "ستوجه المملكة المتحدة وفرنسا إنذارًا نهائيًا إلى مصر، سوف يعقبه عدوان مشترك بالتعاون مع إسرائيل، وذلك في منتصف نوفمبر ١٩٥٦"(٨).

ثم تبعها الملحق العسكري المصري برسالة سرية أخرى، قدم فيها موعد العدوان، وكان نصها كالآتي: "رغم أن المعلومات المتوفرة لديّ تشير إلى أن العدوان سوف يقع في منتصف نوفمبر، إلا أن الظواهر تدل على أنه

سوف يكون قبل نهاية أكتوبر ١٩٥٦". هذه الرسالة سلمت إلى المخابرات الحربية المصرية[٩]، التي ردت عليه بأنه الملحق العسكري الوحيد الذي أبلغها بهذه المعلومات[١٠].

ولكن لم تؤخذ بلاغات الملحق العسكري المصري زكريا العادلي إمام مأخذ الجد والاهتمام الجدير بها[١١]. فلما استشعر الخطر من عدم الاقتناع بما أرسله من معلومات، توجه بنفسه إلى القاهرة يوم ١٩ أكتوبر ١٩٥٦ ليبلغ عبد الحكيم عامر القائد العام، إن إسرائيل أعدت ودربت شخصًا من عائلة الحوت لاغتيال الرئيس جمال عبد الناصر، وإن العدوان الأنجلو فرنسي مؤكد ووشيك الوقوع. ولكن عامر لم يظهر الاهتمام الجدير بهذه المعلومات الخطيرة[١٢]. لذلك طلب مقابلة الرئيس جمال عبد الناصر الذي لم يبد اهتماما لما سمع، فعاد الرجل كسير الخاطر إلى محل عمله باسطنبول يوم ٢٧ أكتوبر ١٩٥٦، ليجيش صدره باللوعة مساء ٢٩ أكتوبر عندما وقع العدوان الذي حذر منه[١٣].

هذا عن المصادر المصرية، أما الشواهد الأجنبية فقد كانت كثيرة، ومنها تصريحات أنتوني إيدن بمجلس العموم البريطاني، التي كانت تشير بوضوح إلى عزمه على اتخاذ عمل ضخم ضد مصر، لضمان حقوق بريطانيا[١٤]. كما أكد روبرت منزيس في مقابلته للرئيس عبد الناصر بمنزله بالقاهرة، بعد مؤتمر لندن الأول في ٣ سبتمبر ١٩٥٦، "أن المؤتمر يستبعد استعمال القوة ضد مصر"[١٥].

أما التصريحات التي كانت تصدر من لندن وباريس مغلفة بنبرة تهديد سافر لمصر، فكانت من الكثرة بحيث لم يكن يصح إهمالها، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، ما أعلنته لندن يوم ٣ أغسطس رسميًا عن نقل قوات

فرنسية إلى قبرص لتعزيز القوات البريطانية بالجزيرة، ولكي تكون الدولتان على أهبة الاستعداد لطوارئ أزمة السويس(١٦).

وبعد توجيه الإنذار الأنجلو فرنسي، اعتقد جمال عبد الناصر طوال الأربع والعشرين ساعة الأولى من تسلم مطالب الحكومتين أن الإنذار لا بد وأن يكون خدعة أو حيلة لمساعدة إسرائيل على تحقيق نصر سهل في سيناء وذلك بسحب القوات المصرية بعيدًا عن حدود النقب لحماية بورسعيد والقناة. والواقع أنه كان على يقين، بناء على تقديرات مخابراته، من أن هذا هو الهدف حتى إنه أصدر أوامره على الفور بأن تعود إلى سيناء كثير من وحدات قيادته الشرقية التي كان قد سحبها قبل ذلك بشهرين عندما خشي وقوع هجوم إنجليزي فرنسي مباشر على القناة، ولم يضطر إلى التسليم بأن الإنذار جدي إلا عندما بدأت قاذفات القنابل البريطانية من طراز "كانبيرا" في مهاجمة المطارات المصرية في مساء يوم ٣١ أكتوبر وفاء للتعهد الذي قطعه إيدن على نفسه لبن جوريون بتدمير سلاح الطيران المصري(١٧).

ولما أدرك عبد الناصر من أنه على وشك مواجهة تفوق عسكري ساحق من جانب بريطانيا وفرنسا، فضلاً عن إسرائيل، هرع إلى مقر قيادة الجيش ليطلب من اللواء عبد الحكيم عامر إلغاء كل الأوامر السابقة وإنه يأمر كل الوحدات في سيناء بالانسحاب إلى غرب القناة مع استمرارها في القناة أثناء انسحابها. كما أصدر أوامر بضرورة وضع الخطط الخاصة بحرب العصابات موضع التنفيذ فورًا، وأسند إلى زكريا محيى الدين مسئولية قيادة المقاومة الشعبية بينما تولى كمال الدين حسين قيادة الفدائيين في منطقة القناة. وأخفيت مخابئ الأسلحة في منازل ومساكن اختيرت في كل مدينة كبيرة وصغيرة من مدن الوجه البحري، بالإضافة إلى أجهزة الحرب السرية الأخرى مثل أجهزة الإرسال اللاسلكي وآلات الطباعة، كما وزعت الأسلحة

على أي فرد يتطوع في المقاومة بوساطة عربات الجيش التي كانت تجوب الشوارع حاملة مكبرات الصوت تدعو الناس إلى المساعدة على مقاومة الغزاة الزاحفين[١٨].

كان هذا الأسلوب في تنظيم المقاومة الشعبية، بلا مبالغة، يتسم بالارتجال إلى حد ما وبغير فعالية كما اكتشفت القوات البريطانية في وقت لاحق في بورسعيد، كما لم تكن جماعات الفدائيين أسوأ تنظيمًا من الجيش. فعلى الرغم من شحنات الأسلحة الروسية كانت القوات النظامية المصرية غير مستعدة تمامًا لخوض حرب، إذ كان يستخدم حتى الآن ما يقرب من خمسين دبابة فقط من بين مائتي دبابة روسية جديدة، ولم يكن معدًا للتشغيل من المائة طائرة مقاتلة من طراز ميج غير حوالي ثلاثين طائرة، ومن الخمسين قاذفة طراز اليوشن سوى اثنتي عشرة طائرة، وكان معظم الطيارين وأطقم الدبابات الذين سيقومون باستخدام هذه الأسلحة الجديدة ما زالوا يتدربون على استخدامها في مدارس تدريب في الاتحاد السوفييتي. ومن ثم كان سلاح الطيران المصري الجديد هدفًا أكيدًا لطائرات الكانبيرا البريطانية فلم ينج من الثلاثين طائرة اليوشن التي نجحت في الفرار إلى الأقصر سوى اثنتي عشرة طائرة تمكنت من مواصلة الطيران إلى السعودية، أما الثماني عشرة طائرة الأخرى فقد هاجمتها ودمرتها غارات جوية بريطانية أخرى على الصعيد[١٩].

ومما زاد من قلق عبد الناصر أنه في الوقت الذي كان فيه يفكر في الدمار الذي لحق بسلاحه الجوى السوفييتي، جاءته رسالة من خروشوف، عن طريق الرئيس السوري – شكري القوتلي- الذي كان وقتئذ في زيارة لموسكو، تنبئه صراحة أن السوفييت لن يغامروا بالتورط في حرب عالمية ثالثة من أجل قناة السويس، وأنه إذا كان لا بد من خوض مثل هذه الحرب

فإن الروس سيختارون مكاناً وزماناً أكثر ملاءمة، وفي نفس الوقت أشار خروشوف بضرورة أن تعقد مصر صلحًا بأسرع ما يمكن مع بريطانيا وفرنسا لأن قوتهما المتفوقة لن يجدي معها القيام بمزيد من المقاومة، وأن روسيا سوف تقدم لها كل تأييد أدبي لازم إلا أنها لا تستطيع تقديم أية مساعدة أخرى في هذه المرحلة[٢٠].

أصابت صراحة خروشوف القاسية عبد الناصر بهزة عنيفة حتى إنه بادر بوضع البرقية في خزانته الخاصة، وخوفاً من إضعاف روح وزرائه المعنوية في هذه اللحظة الحاسمة لم يطلع أقرب المقربين إليه على فحواها[٢١]، إلا أن محمود رياض يروى مقابلة الرئيس السوري شكري القوتلي يوم أول نوفمبر ١٩٥٦ للقادة السوفييت – خروشوف وبولجانين ومارشال زوكوف بصورة أخرى حيث يقول: روى لي شكري القوتلي تفاصيل المحادثات التي أجراها مع القادة السوفيت وقال إنهم أبلغوه أن الاتحاد السوفيتي سيقدم أقصى معونة ممكنة لمصر بما في ذلك الأسلحة والفنيين، إلا أنهم غير مستعدين لإرسال قوات عسكرية خوفاً من أن يؤدى ذلك إلى قيام حرب عالمية[٢٢]. "وأبرقت لعبد الناصر برسالة القوتلي، وقد احتفظ بما فيها سرًا حتى يبقى عالقًا في الأذهان استعداد الاتحاد السوفيتي للتدخل العسكري، خاصة بعد أن صدر الإنذار السوفيتي. وقد صدر الإنذار في منتصف ليلة ٥ نوفمبر على شكل رسالة من بولجانين إلى إيدن ومولييه يتضمن إمكانية استخدام الصواريخ. كما وجه بولجانين رسالة عنيفة إلى بن جوريون أشار فيها إلى أن اشتراك إسرائيل في العدوان يهدد وجودها كدولة. وفى ١١ نوفمبر، صدر في موسكو إعلان باستعداد الاتحاد السوفيتي إرسال متطوعين لإنهاء الاحتلال". ويلاحظ أن تأييد السوفييت كان يتصاعد كلما تبين لهم تصميم مصر على المقاومة، والتأييد الجاد من الدول العربية"[٢٣].

كانت الأهداف الاستراتيجية للحرب بالنسبة للإسرائيليين تتلخص في التوجيه الاستراتيجي الذي أعطاه بن جوريون إلى رئيس أركان الجيش الإسرائيلي موشي دايان بشأن ضرورة القضاء على قواعد الفدائيين في سيناء، وفتح الممرات المائية وخصوصًا قناة السويس ونزع سلاح سيناء، وإسقاط "الديكتاتور" هكذا بالحرف الواحد، وتأمين مشارف إيلات بما فيها طابا(٢٤).

أما الهدف الرئيسي للعملية الأنجلو فرنسية "الخطة موسكيتير المعدلة النهائية" فكان تحطيم ناصر. ويذكر انتوني ناتنج – وزير الدولة البريطاني للشؤون الخارجية الذي استقال قبل الغزو مباشرة – أنه سأل إيدن ما الذي ينوى أن يفعله إذا ما أفلح في تدمير ناصر؟ من الذي سيضعه محل ناصر؟! وأبديت رأيي في أنه على حد علمي لا يوجد الآن جنرال زاهيدي "جاهز" في مصر في ذلك الوقت ليحل محل عبد الناصر (زاهيدي هو الذي خلف مصدق بعد عملية بارعة من كيرمت روزفلت رجل المخابرات الأمريكية). ولكن إيدن رد على محتدًا: "أنا لا أريد زاهيدي في مصر" فقلت له "إذن فأنت تريد أن تعم الفوضى على أية حال". "لا يهمني.. لا يهمني.. إن الغرض الأساسي هو التخلص من ناصر"(٢٥).

وهكذا فإن الأمر كله كان التخلص من عبد الناصر .. وأنه لمن المذهل الذي لا يستطيع العقل أن يستوعبه أن دولتين مثل بريطانيا وفرنسا أقدمتا بإصرار على هذه المغامرة التي هزت العالم بعنف دون أي اعتبار لأي شيء إلا الهدف الذي يريدانه. هذه هي حقيقة موقف الدولتين دون أن يضعا أي اعتبار لأي شيء ولا تفكير في النتائج التي قد تحدث .. كل ما تريدانه هو التخلص من ناصر. أما كيف يحدث ذلك .. وما الذي سيحدث بعد ذلك فلم يكن هناك أدنى حساب له أو تفكير فيه.. لم تكن لديهما أية خطة

أيًا كان شأنها.. لم يفكر أحد في كيفية التعامل مع الموقف بعد ذلك.. ولم يتساءل أحد ماذا نفعل؟.. هل سنتحمل وزر ١٨٨٢ أخرى؟ هل سيعود اللورد كرومر مرة أخرى ليستقر في السفارة البريطانية بالقاهرة؟ ماذا ستكون النتيجة؟ لم يدر شئ من هذا بتفكيرهم.. لم تكن هناك أية خطة أيًا كانت لما سيحدث.. كل ما في أيديهم كان خطة طوارئ في إطار خطة موسكيتير لاحتلال القاهرة والدلتا.. وأبعد من ذلك لم يكن هناك أي تخطيط على الإطلاق(٢٦).

حنكة سياسية وشطط عسكري

بعد أن سكتت المدافع في الساعات الأولى من صباح ٧ نوفمبر ١٩٥٦ كانت نتائج الحرب واضحة، فقد فقدت مصر سيناء وبورسعيد، كما دمرت قواتها الجوية بصورة تكاد تكون تامة، علاوة على ما تحملته الوحدات البرية من خسائر خلال انسحابها من شمال سيناء، واستسلام بعض العناصر العاملة والحرس الوطني المرابطة في شرم الشيخ وغزة(٢٧).

وكان المتداول في القيادة العامة المصرية، خلاف الرئيس جمال عبد الناصر مع المشير محمد عبد الحكيم عامر حول إدارة المعركة. وأكد ذلك ما أفضى به الرئيس عبد الناصر لرفيقه عبد اللطيف البغدادي – عضو مجلس قيادة الثورة – ليلة ٤/٥ نوفمبر، وهما في طريقهما إلى الإسماعيلية، حيث شاهد قصف القوات الجوية البريطانية لقواتنا المنسحبة من شرق سيناء. ولم يملك الرئيس عندئذ إلا أن يعبر عن إحباطه بقوله: "إن جيشي قد هزمني!"(٢٨).

وفي ١٠ نوفمبر ١٩٥٦ عرض المشير عامر استقالته من منصبه فور تحقيق انسحاب القوات البريطانية والفرنسية، إلا أن الرئيس عبد الناصر

استطاع أن يتجاوز أزمة الثقة وأن يسوى الخلاف بينهما[٢٩]. وفي يوم الثلاثاء أول يناير ١٩٥٧، قدم عبد الحكيم عامر استقالته لجمال عبد الناصر، إلا أن مسألة الاستقالة قد سويت يوم الأربعاء ٢ يناير ١٩٥٧. وفي يوم ٥ يناير ١٩٥٧ قاما معًا بزيارة الجرحى للقضاء على الشائعات[٣٠].

وعندما يجرى تقييم أداء أدوات الصراع في المعركة، قد لا يملك الكثيرون سوى الادعاء بأن القوات المسلحة المصرية قد تلقت ضربة عنيفة خلال عشرة أيام من القتال. وبكل المقاييس العسكرية، فمن الضروري أن نعترف بأن قواتنا المسلحة لم تكسب المعركة العسكرية التي خاضتها، ولكن من الإنصاف أيضًا أن نقول إنها لم تخسرها. ودون ادعاء مبالغ فيه، نستطيع أن نسجل حقيقة أن "الجيش المصري" لم يهزم، وأن أداءه قبل وخلال معركة العدوان الثلاثي كان عاملاً هامًا في تحقيق القيادة السياسية لأهدافها الوطنية[٣١]. ففي مرحلة الاقتراب من الحرب، استطاعت قيادة القوات المسلحة أن تحسن تقدير الموقف وأن تطور تقييمها مع تتابع الأحداث – غير المنظورة – على الجانب الآخر، حتى كادت مراحل تخطيطها للدفاع تتوافق يومًا بيوم مع مراحل تخطيط قيادة العدوان الثلاثي[٣٢].

ولقد وضعت القيادة العامة وهيئات أركان الحرب بناء على ذلك خطط المواجهة، ورتبت أوضاع القوات على جبهتي القتال في سيناء وقناة السويس بما فيها الدلتا، وأجرت تحركات واسعة النطاق للقوات المقاتلة. واستجابت التشكيلات المقاتلة لمطالب التخطيط، وساعدت كفاءة عناصره الفنية والإدارية على التغلب على مشكلات مناطق الحشد والانتشار. ولقد فرض هذا الأداء على قيادة الحلفاء إبطاء عجلة الحرب، والحد من اندفاعها نحو شن عملية حربية خاطفة[٣٣]. وعندما نشبت الحرب بهجوم إسرائيل استبعدت

القيادة السياسية احتمال وقوع هجوم آنجلو فرنسي، وركزت على التصدي لإسرائيل، ونقل مركز الثقل الاستراتيجي للقوات المصرية إلى سيناء[٣٤].

وفي تقديرنا أن هذا القرار كان سابقًا لأوانه، ففي مثل تلك الظروف لم يكن هناك ما يبرر في مساء ٢٩ أكتوبر، وبخاصة بعد الإنذار البريطاني-الفرنسي في مساء ٣٠ أكتوبر، استبعاد التدخل الغربي. وطالما بقيت القوات الأنجلو فرنسية عبر الشاطئ الشمالي.. فقد كان من الحكمة أن نمنح أنفسنا فسحة من الوقت نتبين خلالها نواياها قبل أن نلقى بثقلنا في اتجاه أو آخر. وحتى يحين الوقت المناسب، كان علينا أن نتخذ القدر المحدود من الإجراءات لدعم دفاعاتنا ولمنع الموقف من الانقلاب[٣٥].

ومع ذلك، فقد استطاعت القيادات العسكرية وتشكيلاتها المقاتلة – استجابة إلى تقديرات القيادة السياسية – أن تقوم بمناورات هامة في فترات زمنية قصيرة، لكي تتلاءم وما تتطلبه المواقف الاستراتيجية الجديدة. ففي خلال ٤٨ ساعة استدارت قواتنا شرقًا للتدخل في سيناء، ثم قامت بالانسحاب منها غربًا إلى منطقة القناة، رغم ظروف السيادة الجوية للقوى المعتدية[٣٦].

ولقد ساعد ذلك على إبطاء عمليات قوات العدوان، فقد استطاعت قواتنا أن تكسب للقيادة السياسية أيامًا، بل ساعات ثمينة، سمحت بتعبئة وإقحام تأييد دولي ضخم للقضية المصرية. ولم تكن هذه القوى السياسية التي ألقت بثقلها في المعركة إلى جانب مصر، لتقبل عليها لولا ثقتها في أنها تخطو فوق أرض صلبة يمثلها إصرار القيادة العليا للبلاد وفعالية قواتها المسلحة وتصميم شعبها على مواصلة القتال[٣٧].

ومن الضروري أن نعيد تأكيد موقف القوات المصرية على الجبهة الشرقية، إذ لا يمكن الادعاء بهزيمتها أمام "الهجوم" الإسرائيلي خلال معركة سيناء. ففي المرحلة الافتتاحية للعمليات، اكتفت القوات الإسرائيلية بتنفيذ

عملية محدودة توفر المبرر لبريطانيا وفرنسا لإصدار إنـذارهما مسـاء ٣٠ أكتوبر أما القوة الإسرائيلية الرئيسية فقد انتشرت أمام مواقع القوات المصرية في شمال شرق سيناء في انتظار بدء الهجوم الجوى للحليفتين. ولما لم يبـدأ الهجوم حتى ظهر ٣١، رأي بن جوريون سحب قوات المظلات مـن ممـر متلا خشية تدميرها، لولا تدخل موشي دايان الذي أقنـع رئـيس الـوزراء الإسرائيلي باستبقائها في مراكزها على أن تلتزم بالدفاع المرن(٣٨).

وعلى أثر تدخل سلاح الطيران البريطاني–الفرنسي، بادرت القـوات المصرية في شرق سيناء بالتخلي عن مواقعها الدفاعية. وفوجئ الإسرائيليون في اليوم التالي بالمواقع وقد أخليت أثناء الليل. ولم تحاول القوات الإسرائيلية الاتصال بالقوات المصرية المنسحبة والضغط عليها، تاركة هذه المهمة للقوة الجوية البريطانية–الفرنسية(٣٩).

لم تحقق الحرب لمصر انتصارًا عسكريًا، ومن الناحية الأخرى لم تكن فشـلاً على الصعيد العسكري. فقد أدت القوات المصرية واجبها على أحسن وأسوا ما يكون في مواجهة الإسرائيليين، وكان بوسعهم الادعاء – بـصدق ولهم بعض التبريرات في ذلك – بأنهم أرغموا على الانسحاب مـن جـراء التهديد الأنجلو – فرنسي وأن الإسـرائيليين لم يهزموهم، كما كان بوسـعهم في نفس الوقت الذي طردوا فيه من بورسعيد وبور فؤاد، أن يفاخروا بـأن مقاومتهم للأعداد الغفيرة والتكنولوجيا المتفوقة قد أعاقت الغزاة الأوروبيـين وعجـزوا عن تحقيق أهدافهم العسكرية(٤٠).

وعندما توقفت العمليات في فجر ٧ نوفمبر، كانـت قيـادات القـوات البرية المصرية في مراكزها تمارس مسئولياتها، وعلـى اسـتعداد لإقحـام تشكيلات أساسية حول الإسماعيلية وفي داخل الدلتا، فيما لو استمر القتـال. وكان بمقدورها بذلك أن تكسب للقيادة السياسية بضعة أيام أخرى ثمينة(٤١).

على خلاف الجانب السياسي الذي مارسته إدارة مصر بحنكة ومهارة وضبط النفس، بما حقق لها نصرًا سياسيًا ضخمًا، وترك أطـراف العـدوان يقبضون الريح في ختام القتال .. فإن الجانب العسكري وما تضمنه من إدارة المعارك على الجانب المصري بأوجهها المختلفة وقع في أخطـاء كثيـرة، وعثرات عديدة شكلت مجالاً واسعًا للنقد، بما دفع القيادة العسكرية العليا إلى إسدال ستار من الكتمان عليها، وحجبها خلف ذلك النصر الـسياسي الـذي عمدت إلى استثمار نتائجه لصالح الأداء العسكري بغير وجه حق(٤٢).

ويأتي على رأس قائمة تلك الأخطاء العسكرية في المجال البري، كثرة تغيير أماكن الواحدات والتشكيلات بما أرهق أفرادهـا وأضـر بأسـلحتها ومعداتها، بالإضافة إلى الميل إلى تفتيتها، ثم نـشر أجزائهـا فـي أرجـاء المسرح، بما يحرمها من ميزة العمل في قوة قتالية واحدة، يمكنها من إبراز كامل كفاءتها الميدانية على أفضل الصور، فضلاً عن تحقيق التعاون الوثيق بين مختلف أجزاء تلك القوة، بفضل سابق معرفتها ببعضها البعض من واقع العمل المشترك معًا في التدريبات والمناورات السابقة(٤٣).

وفيما يختص بأوامر الانسحاب التي أصدرتها القيادة العامـة، لـسرعة إخلاء سيناء من القوات المصرية .. فعلى قدر ما كانت ضرورية من وجهة النظر الاستراتيجية لتجنب قطع مؤخرة تلك القوات بالغزو الأنجلو فرنـسي الوشيك، بقدر ما كانت مجافية مـن ناحيـة التكتيـك للأسـلوب الميـداني المعتمد(٤٤). فالانسحاب الناجح يتم وفق خطة لا تهمل الروح التعرضية كلية، وتحرص على تكبيد العدو أكبر قدر من الخسائر، مع استنفاد جهده ووقتـه بالهجمات المضادة المفاجئة، وبزرع الألغام والشراك الخداعية والكمائن في طريقه، وبتدمير وقفل المضايق والمحاور التي تختـرق سلاسـل الجبـال والتلال، وبالمؤخرات الجسورة التي تنهك العدو، وتوقع به الخسائر وتعطله

أطول مدد زمنية ممكنة، وقد أهمل أمر الانسحاب الذي صدر لقوات سيناء ليلة ٣١ أكتوبر كل ذلك. كما اتبعت تلك القوات أسلوبًا أقرب إلى التقهقر غير المنظم، الذي لا علاقة له بشكل معركة التخلص من القتال المعتمد في كافة مدارس الحرب، والذي يتم على وثبات متتالية للخلف[٤٥].

أما عن القوات الجوية .. فقد كان تحطيم الطائرات المصرية، وهي جاثمة على الأرض دافعًا إلى عقد الدراسات المخلصة لاستخلاص الخبرة والخروج بالدروس المستفادة التي تمنع تكرار هذا الحدث الجلل مرة أخرى. فلما لم تأخذ هذه التجربة المريرة حقها من اهتمام المسئولين، تكرر وقوعها وبصورة أشد إيلامًا وأسرع زمنًا في مستهل الجولة الثالثة في حرب الخامس من يونية ١٩٦٧[٤٦].

ولقد ترتب على هذا المسلك الذي حاولت الزعامة السياسية المصرية التدخل لمعالجة بعض أسبابه دون طائل، ومنها تغيير القادة العسكريين الذين أظهروا فشلهم في إدارة القتال – أن استفحلت الأخطاء على مدى السنوات التالية، حتى ظهرت على الملأ في صورتها القبيحة يوم الخامس من يونيو ١٩٦٧، وما تلاه من أيام غبراء[٤٧].

ذرائع سريعة العطب

قامت حبكة مخطط التواطؤ الثلاثي على ذريعة مهترئة، وفرتها إسرائيل لحليفتيها كيما يبررا تدخلهما بقواتهما المسلحة، وبذلك اندرج هذا العدوان في قوائم حروب الذرائع[٤٨]. ورغم ما تجمع للاستعمار الأنجلو فرنسي من خبرة واسعة سابقة في أساليب خلق وافتعال مثل تلك الذرائع، ومنها ذريعة الصفعة الشهيرة التي كالها داي الجزائر للفرنسي الوقح الذي تجاوز معه حدود الأدب، فاتخذتها حكومة فرنسا سببًا لاحتلال الجزائر، وكذا ذريعة المالطي وتلك المشاجرة التي حدثت بينه وبين صاحب الحمار في

الإسكندرية لاختلافهما على الأجرة، التي كانت سببًا في احتلال مصر عام ١٨٨٢، فإن ذريعة عدوان ١٩٥٦ جاءت شديدة التهافت هذه المرة، ثم راحت تتغير وتتبدل، كلما انكشف أمرها، حتى حولت تراجيديا العدوان إلى كوميديا هزلية، طبعت بسمة السخرية على شفاه العالم، وأثبتت أن الذرائع بضاعة سريعة العطب.

لقد تفتق ذهن أطراف التواطؤ الثلاثي عن أول ذريعة في شكل "حجة الفصل بين المتحاربين على مقربة من قناة السويس، حرصًا على سلامتها واستمرار قوافل الملاحة فيها". وبمجرد سقوط هذه الذريعة، تدارك إيدن ومووليه الأمر وقالا أن الهدف من التدخل هو حماية أرواح الأجانب، وسلامة السفن التي تعبر قناة السويس.. وأخذت الذرائع تسقط واحدة تلو الأخرى[٤٩].

خرجت فرنسا من تجربة السويس تبحث عن بديل. ولم يمض عام إلا وسقطت الجمهورية الثالثة وعاد "ديجول" يؤسس الجمهورية الرابعة وهو يدرك أن فرنسا لم تعد تستطيع أن تعتمد على الرادع النووي الأمريكي إذا كان لها أن تحتفظ باستقلالية قرارها السياسي، وهكذا ولدت قوة الضرب الفرنسية المستقلة ووراء ذلك ظهرت احتمالات أوروبا الغربية كقوة نصف مستقلة على الأقل[٥٠]. إن الدرس الذي استوعبته فرنسا استوعبته الصين أيضًا وهكذا راحت بدورها تسعى إلى دخول النادي النووي لكي تصبح قوة عظمى بإمكانياتها الذاتية[٥١].

وأحدثت السويس تحولاً هامًا في سياسة إسرائيل فقد راحت من يومها توجه اهتمامها شطر النجم الأمريكي البازغ وتلحق نفسها به. وكان ذلك بداية ظهور دور الشرطي المحلي الذي كررت الولايات المتحدة نموذجه بعد ذلك كثيرًا في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وإن بقيت للشرطي الإسرائيلي مكانة مميزة لأسباب عديدة آخرها أنه أصبح شرطيًا نوويًا – لأول مرة في تاريخ الشرطة[٥٢].

الحنكة السياسية تسبب ورطة عسكرية

فرضت الحبكة السياسية للعدوان الأنجلو فرنسي على جهاز التخطيط العسكري أن يوجه الغزو البحري إلى ساحل بورسعيد. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يختار فيها رأس شاطئ، ليس له مخرج سوى عنق زجاجة بالغ الطول قليل العرض، بما جعل القوات المكلفة بالانطلاق من خلالها، نحو الإسماعيلية والسويس، تقع في ربكة شديدة لم ينقذها إلا قبول حكومتا المملكة المتحدة وفرنسا إيقاف إطلاق النار، بعد منتصف ليلة ٦/٧ نوفمبر ١٩٥٦[٥٣].

وكان الجنرال ستوكويل قد اعترض على اختيار شاطئ بورسعيد لعملية الغزو البحري بقوله: "إنه أسوأ مكان لعملية غزو، فلا هو يصلح للهجوم، ولا للدفاع"[٥٤]. أما القائد العام الجنرال تشارلز كيتلي.. فقد شبهه "بعنق الزجاجة الطويل، الذي يتعين على المرء أن يحشر فيه يده، ليغترف ما في بطن الزجاجة من رحيق"[٥٥].

وبينما اجتمعت كلمة العسكريين الأنجلو فرنسيين على تفضيل ساحل غرب الإسكندرية لشن العملية نظرًا لأنه الأكثر مناسبة، والأقرب إلى القاهرة، والأفضل لتحقيق هدف الغزو، كان النزول فيه يتعارض مع مزاعم الذريعة التي سوف تسقط للتو إذا ما نزل الغزو بغير ساحل بورسعيد، وهو ما دفع السياسيون إلى الإصرار عليه ليلقوا بقوات الغزو في ورطتين: ورطة القتال في المناطق المبنية، وورطة الدخول في عنق الزجاجة جنوب بورسعيد[٥٦].

ومع التسليم بأن الخطط الحربية يجب أن تنصاع للقرار السياسي بحكم أن الحرب امتداد للصراع السياسي بوسائل أخرى، فإنه يتعين على الزعامة السياسية بالمقابل ألا تورط القيادة العسكرية في وضع يتعارض مع المنطق

العسكري، أو يعرض قواتها المقاتلة لمواقف شديدة التعقيد، على نحـــو مـــا واجهته القيادة المشتركة للعملية موسكيتير المعدلة النهائية، عندما فرضـــت عليها قيادتها السياسية رأس شاطئ بورسعيد، لتنفيذ عملية الغـــزو البحـــري رغم اعتراض جميع القادة العسكريين عليه، والتركيز على غرب الإسكندرية بوصفه الأفضل والأضمن لنجاح الغزو بأقل تكلفة وأسرع وقت(٥٧).

ولقد أثارت تلك الاختلافات في الرأي بين السياسيين والعسكريين جـــدلاً حادًا، لا يزال يتردد صداه داخل مؤسسات الأمن الوطني، ومراكـــز اتخـــاذ القرارات، عما إذا كان على العسكريين الطاعة العمياء، وأن ينزلـــوا علـــى وجهة النظر السياسية مهما كانت خطأً من وجهة نظر فن الحرب، أم أن من واجبهم أن يعترضوا عليها، ويوضحوا مغبتها، ثم يـــصروا علـــى وجهـــة نظرهم، حتى يقنعوا السياسيين بها أو يتنحوا هم عن القيادة(٥٨).

وأظهرت الأفعال الخرقاء التي ارتكبها إيدن، ســـهولة الالتفـــاف علـــى المؤسسات الديمقراطية. وقد أشار اللورد مونتباتن إلى هذا الوجه المحـــزن والمفزع لأزمة السويس فيقول: "لقد أذهلتني رؤية ما يمكن أن يفعله رجـــل متعنت واحد إذا كان يشغل منصب رئيس الوزراء. فهـــو لـــم يـــسمح أبـــدًا للبرلمان بأن يعرف ماذا يجرى. ولم يتح ذلك حتى لمجلس الوزراء. وكنـــا عاجزين عن الاطلاع على ما يحدث. وقد فشلت أنا نفسي في هذا، نظرًا لأن رؤساء الأركان لا يعرفون ما يدور حولهم. لكن واحدًا أو اثنين من هـــؤلاء الوزراء كان ينبغي أن يعلن ما يعرف: مونكتون، وماكميلان نفسه، وسلوين لويد، الرجل الذي تفاوض حول التواطؤ، وهو ما لم يفعله أي منهم. والنتيجة أن إيدن تمكن من السير قدمًا في تلك العملية بناء على قراره وحده فقط بينما نحن نعتقد أننا نملك ديمقراطية راسخة لا تسمح بوقوع هذا"(٥٩).

ومنيت العمليات العسكرية والسياسية لبريطانيا وفرنسا بالفشل، رغم الدرجة العالية من كفاءة قوتهم البرية والبحرية والجوية. فقد حالت مجموعة من الظروف دون الإفادة من تفوقها القتالي الواضح على المصريين، وفشلت في تحقيق أهدافها العسكرية، أما على الصعيد السياسي فقد كانت هذه اللهفة الاستعمارية للعودة لاحتلال مصر كارثة على بريطانيا وفرنسا نتج عنها سقوط حكومات هذه الدول(٦٠).

المطرقة والبندقة

الاقتصاد في المجهود أحد مبادئ الحرب التسعة المعتمدة في كافة المدارس العسكرية المعاصرة، ومن أحكام هذا المبدأ الهام ألا تحاول كسر بندقة بمطرقة ضخمة، حتى لا تستنفد جهدًا أكبر مما تستحقه تلك البندقة، التي سوف تسحق تمامًا فلا يبقى لها نفع(٦١).

لقد كان هيكل الدفاع عن ساحل ومدينة بورسعيد من الضعف وعدم الاستعداد بالقدر الذي لم يكن يستلزم من القيادة الأنجلو فرنسية كل تلك النيران والقوات الضخمة، التي حشدتها لتستولي على رأس شاطئ فيه(٦٢). كما أن تلك القيادة وقعت بنزولها في بورسعيد في خطأ تعبوي كانت له عواقب تكتيكية خطيرة، اضطرتها إلى القتال في مناطق مبنية، ثم حشد قواتها اللاحقة داخل شريحة أرضية ضيقة ليس لها إلا مخرج واحد، عبارة عن عنق زجاجة يضيق في بعض أجزائه، حتى لا يتجاوز بضعة أمتار وتحف به المياه من الجانبين: قناة السويس شرقًا، وترعة المياه العذبة، وبحيرة المنزلة غربًا(٦٣). وكشف حجم النيران التي وجهها العدوان الأنجلو فرنسي على مصر عن مقدار التخبط، الذي وقع فيه أنتوني إيدن بين الأمل في أن ينجح هذا القصف العنيف في إثارة جماهير شعب مصر ضد زعامتها

السياسية لتسقطها، والخشية من أن تثير تلك الوحشية الدموية الرأي العام العالمي بدرجة أكثر حدة وإيجابية، بما يفقد المملكة المتحدة وفرنسا احترام العالم[٦٤].

والواقع أنه بعد أن نجحت الضربة الجوية الأنجلو فرنسية الشاملة في تحطيم الغطاء الجوي المصري، ثم تحطيم دفاعات ساحل الغزو المختار في فترة التمهيد النيراني التالية.. فإنه لم يعد هناك مبرر لاستمرار ذلك القصف الجوى العنيف طيلة الأيام السبعة، فيما بين مساء ٣١ أكتوبر وصباح ٦ نوفمبر ١٩٥٦، إلا أن يكون القصد منه هو مجرد تغطية الفترة الزمنية التي استغرقتها رحلة أساطيل الغزو، فيما بين موانى الإقلاع في الجزائر ومالطة وقبرص، وحتى الوصول إلى ساحل بورسعيد، وهو مبرر يتعارض مع المنطق العسكري والإنساني السليم[٦٥].

ورغم قيام القوات البريطانية في الساعة العاشرة من صباح يوم الثلاثاء ٦ نوفمبر ١٩٥٦ بأسر العميد أركان الحرب صلاح الموجي – رئيس أركان الجبهة الشرقية المصرية وقائد قوات بورسعيد – الذي كان يقاتل في بسالة في الجبهة الأمامية رفض إصدار أمر بالاستسلام. وفي الساعة الحادية عشرة صباحًا نزل الجنرال ستوكويل والجنرال بوفر والأير مارشال بارنيت إلى شاطئ بورسعيد من سفينة القيادة سعيًا للتفاوض مع أسيرهم العميد صلاح الموجي بشأن استسلام المدينة بلا قيد أو شرط، غير أن هذا القائد – الذي أعلن أنه لم يعد في مركز يخول له صلاحية القيادة – رفض إصدار أمر بالاستسلام، وبذلت محاولات أخرى في هذا الشأن، عن طريق القنصل الإيطالي، للتفاوض بهدف الاستسلام، غير أنها باءت بالفشل أيضًا[٦٦].

نقطة التحول

لقد شكل العدوان الإسرائيلي في جولة صيف ١٩٥٦، نقطة التحول بالنسبة للقوات المسلحة الإسرائيلية من مستوى خوض الإنجازات الانتقامية، في ميادين القتال إلى شن العمليات الحربية في مسارح الحرب، وكان وراء هذا التحول الكبير عدة مؤثرات نجملها فيما يلي(٦٧):

١- إن الزعامة السياسية الإسرائيلية، بعد أن أيقنت أن التواطؤ كان الصخرة التي تحطم عليها العدوان، وأجبره على إعادة كل ما إكتسبه عقدت العزم على أن تشن الجولة التالية بالقدرات القتالية الذاتية، دون تواطؤ خارجي سافر.

٢- أن القيادة العسكرية الإسرائيلية بذلت جهدًا ضخمًا في دراسة حرب العدوان الثلاثي من جميع جوانبها السياسية والعسكرية والاقتصادية والمعنوية، وحصرت نقاط القوة والضعف، كما أنها استغلت الأشهر الأربعة التي ظلت تحتل خلالها شبه جزيرة سيناء حتى مارس ١٩٧٥ في دراسة طبوغرافية الأرض، ورسم خرائطها، توطئة لتطبيق مأثورة "هانيبعل" الشهيرة: "دع الأرض تقاتل معك وتذود عنك" في الجولة التالية.

٣- إن تلك القيادة العسكرية راجعت مستوى أداء ضباطها في الميدان، بدءًا بقادة الكتائب، حتى قادة المناطق العسكرية الإسرائيلية، فأنهت خدمات من ثبت عدم صلاحيتهم للقيادة الميدانية وهم لم يكونوا قلة، وركزت اهتمامها على زيادة كفاءة من أثبت منهم قدرة عالية على سرعة التصرف في المواقف الصعبة، مع التحلي بالروح الهجومية، والقدرة على قيادة المجموعات الكبيرة من الجنود. وتكفي النظرة على قوائم قادة مجموعات العمليات، ثم قادة اللواءات في جولة صيف

١٩٦٧، لنجد أنهم كانوا أبرز قادة اللواءات والكتائب في جولة خريف ١٩٥٦[٦٨].

٤- وقد حقق جيش الدفاع الإسرائيلي بفضل تلك الجهود نقطة التحول سالفة الذكر، التي كانت قد دفعت قائدين من أبرز أفراد المؤسسة العسكرية الإسرائيلية إلى إبداء شكهما قبل عدوان خريف ١٩٥٦، في أن يكون جيشهما قادرًا على تنفيذ خطة "قادش الهجومية"، رغم ما سوف يقدمه التواطؤ الأنجلو فرنسي من مساعدات ضخمة، أبرزها تحقيق السيادة الجوية المطلقة في سماء المسرح الصحراوي المكشوف في جزيرة سيناء[٦٩].

ويذكر الجنرال موشي دايان – رئيس الأركان العامة لجيش الدفاع الإسرائيلي إبان حرب ١٩٥٦: "أننا سندخل معركة سيناء ووراءنا عدد كبير من العمليات الانتقامية، وصل فيها الجيش إلى مستوى قياسي في القدرة والاستعداد بالوحدات الصغيرة، فهل نحن مخطئون الآن في توقعنا بأن جنودنا سوف يحققون في العمليات الحربية القادمة مستوى قتال ممتاز مثل ما فعلوه في العمليات الانتقامية؟ إنني آمل أن نستطيع أن نفعل ذلك"[٧٠].

ويتساءل عيزرا وايزمان – قائد قاعدة حاتور الجوية – عن نفس الأمر، ولكن بتعبير مختلف فيقول: "لقد راودني الشك في قدرة جيشنا على إنجاز تلك المهام الضخمة، فرحت أسأل نفسي: هل يحق لنا اعتمادًا على ما أنجزناه عام ١٩٤٨، أن نطمئن على قدرتنا على فعل نفس الشيء مرة ثانية دون أن نضع في اعتبارنا الظروف المعاكسة والقيود الشديدة، التي كانت تكبل أيدي أعدائنا عام ١٩٤٨؟" [٧١].

أما الجنرال حاييم لاسكوف – قائد مجموعة العمليات ٧٧ التي هاجمت محور رفح العريش، والذي خلف موشي دايان في منصب رئيس الأركان

العامة سنة ١٩٥٨- فقد كتب نقدًا عن حملة سيناء، جاء فيه: "أننا حاولنا بناء أسطورة حول جيش إسرائيل وفكرة أنه لا يهزم. وأردنا أن يكون لهذه الأسطورة تأثير ضخم على معنويات الجيش والشعب. وقد أضاف الجنرال دايان إلى ذلك دعاية شخصية لذاته، على أساس أن وجود قائد له سمعة أسطورية، هو جزء من أسطورة الجيش نفسه، ولكن الخطر يجيء إذا صدقنا هذه المقولة، وخلطنا بين الدعايات التي نروجها للآخرين، وبين الحقائق التي يجب أن نضعها نصب أعيننا"(٧٢).

ويستطرد حاييم لاسكوف قائلا: "فخطة قادش التي وضعت عام ١٩٥٥ لم تختبر في أي مناورة عامة قبل تنفيذها في أكتوبر ١٩٥٦. ولا ينبغي أن تؤخذ العملية مقياسًا لكفاءة القيادات، لأن رئيس الأركان العامة دخل المعركة وهو يعلم سلفًا أن القوات الأنجلو فرنسية سوف تقوم بالدور الرئيسي في الحرب، بما أتاح له أن يتخذ موقفًا مريحًا يمكنه من الانتظار. ولهذا كان تأكيده على القادة المرؤوسين ألا يتورطوا في قتال رئيسي مع جيش مصر، قبل أن يحدث التدخل الأنجلو فرنسي. وعلى سبيل التأكيد فإن الطيران الإسرائيلي، لم يقم بشل فاعلية طيران مصر، على نحو ما كان يتعين عليه فيما لو حاربت إسرائيل وحدها مصر. ولقد تطلبت حبكة التواطؤ تغيير هدف العملية قادش، قبل أيام من تنفيذها ليصبح "خلق حالة تهديد على مشارف قناة السويس، تعرض الملاحة فيها لخطر التوقف"(٧٣).

ويؤكد الجنرال حاييم لاسكوف، أن معارك جيش إسرائيل في سيناء كانت محدودة جدًا لعدة أسباب(٧٤):

- إن ستة لواءات كانت قد سحبت من القوات المصرية بسيناء في نهاية عام ١٩٥٥ وأوائل ١٩٥٦، لكي يعاد تسليحها وتدريبها على العتاد السوفييتي.

- بعد احتدام أزمة تأميم شركة قناة السويس، وترجيح مصر بأن خطر الحرب قد تحول من ناحية إسرائيل إلى توقع غزو أنجلو فرنسي وشيك، قامت القيادة العامة المصرية بسحب كل قواتها من سيناء تقريبًا باستثناء ست كتائب في أم قطف والعريش ورفح وكتيبة سابعة في شرم الشيخ.
- دارت المعارك في سيناء في أم قطف بقيادة الجنرال سمحوني حيث نجح العقيد سامي يس في وقف هذا الهجوم لمدة طويلة، وفي رفح حيث فعل العقيد جعفر العبد نفس الشيء، وفي متلا حيث تعرض لواء شارون المظلي لمحنة حقيقية داخل الممر، لم ينقذه منها إلا غارات الطائرات الفرنسية على المواقع الدفاعية المصرية.

وختم حاييم لاسكوف نقده بالتحذير من أخذ حملة سيناء كدرس في الأداء العسكري الجيد للأسباب التالية[٧٥]:

١. إن رئيس الأركان العامة كان مشغولاً بالترتيبات السياسية وحبكة التواطؤ مع المملكة المتحدة وفرنسا، أكثر من انشغاله بقيادة الجيش.
٢. إن الخطة قادش لم تكن تثق بحلفائها الأنجلو فرنسيين، وأنهم سوف ينفذون دورهم في بروتوكول التواطؤ (اتفاق سيفر)، ولهذا فقد كان بن جوريون وموشي دايان على استعداد دائم للإعلان بأن العملية لا تعدو إغارة ضخمة على أوكار الفدائيين العرب بسيناء، يتم بعدها الانسحاب داخل الحدود.
٣. إن البريطانيين حرصوا على إخفاء التواطؤ، لدرجة قيامهم بإطلاق النار من إحدى طائراتهم على جنودنا، الذين أسرعوا بتقديم المساعدة لطيار بريطاني أصابت المدفعية المصرية طائرته، وأرغمتها على الهبوط.

٤. إن جو عدم الثقة وصل إلى درجة إيقاف إطلاق النيران، بواسطة الزعامة السياسية الإسرائيلية يوم ٤ نوفمبر، قبل أن تنزل القوات الأنجلو فرنسية على شاطئ الغزو ببورسعيد، مما سبب حرجًا بالغًا لإيدن وموليه حيث انتفت ذريعة عدوانهما التي زعمت الرغبة في الفصل بين قوات إسرائيل ومصر[٧٦].
٥. إن قوات أبراهام يوفيه دخلت شرم الشيخ – الهدف النهائي للحملة – بعد وقف إطلاق النار، وبعد صدور أمر الانسحاب إلى العقيد رؤوف محفوظ زكي[٧٧].

كما كتب البريجادير الأمريكي ستيوارت تقريرًا عسكريًا للبنتاجون، بوصفه الملحق العسكري بتل أبيب، جاء في ديباجته "إن العيب الأساسي لحملة إسرائيل ضد سيناء كان سوء التنظيم والتخطيط، بالإضافة إلى ضعف سيطرة القيادة العامة عليها، والتي لم ترتفع إلى مستوى قيادة العمليات الحربية في الجيوش العصرية، بل كانت أقرب شبهًا إلى أسلوب حرب العصابات منه إلى أسلوب الحرب الحديثة"[٧٨].

"وعلاوة على ذلك.. فقد أغارت الطائرات الإسرائيلية على وحدات برية إسرائيلية، واشتبكت وحدات إسرائيلية ضد بعضها في أم قطف، وفشلت لواءات إسرائيلية في احتلال مواقع دفاعية مصرية قليلة العدد ضعيفة التجهيز، وكان التنسيق والتعاون بين القوات الإسرائيلية في المحور الواحد بالغ الضعف"[٧٩].

وبقدر عنف النقد وتعدد مجالات الخطأ، بقدر ما كان حرص المؤسسة العسكرية الإسرائيلية على معالجتها بكل جدية، الأمر الذي استغرق منها نيفًا وعشر سنوات لتأتي الجولة الثالثة في صيف عام ١٩٦٧ خالية من أغلبها، إن لم تكن كلها[٨٠].

كيف أدار أطراف التواطؤ الصراع

أولاً: المملكة المتحدة

بات من المألوف إبان أزمة السويس في عام ١٩٥٦ وبعدها أن يتهم أنتوني إيدن وغيره من الوزراء البريطانيين عبد الناصر بالكراهية الشديدة لبريطانيا، وأنه يسعى إلى القضاء على كل مصلحة اقتصادية وتجارية لها في جميع أنحاء العالم العربي[٨١].

لقد بدأت أزمة السويس حقيقة في اليوم الذي أقال فيه الملك حسين ملك الأردن الجنرال جلوب من منصبه كقائد للأركان في الجيش الأردني، ذلك أنه في هذا اليوم بالذات أعلن أنتوني إيدن حربه الشخصية ضد الرئيس جمال عبد الناصر.. هذه الحرب التي تصاعدت حتى بلغت ذروتها بغزو السويس[٨٢].

هذه الواقعة التي التقطها معارضو إيدن لمهاجمته زاعمين أنه حتى في مجال تخصصه وهو السياسة الخارجية.. بل وفي أخص مجالاته وهو الشرق الأوسط قد لحقته الهزيمة.. وبدأ الانهيار يدب حتى في هذا المجال[٨٣].

ويذكر أنتوني ناتنج: "ولقد أمضيت معظم تلك الليلة – ليلة طرد جلوب – مع إيدن أحاول أن أحلل على أسس عقلانية تصرف الملك حسين بطرد ذلك الجنرال العجوز من رئاسة أركان جيشه.. ولكن إيدن أصم أذنيه عن كل هذا.. ولم يكن في ذهنه غير زعم واحد: "أن هذا هو من فعل عبد الناصر!!"[٨٤].

ومنذ تلك اللحظة حتى النهاية لم تعد الدنيا تستطيع أن تتسع لاثنين معًا: إيدن وعبدالناصر!! في تلك الليلة أعلن رئيس الوزراء إيدن "حربه الشخصية" على الرئيس عبد الناصر.. تلك الحرب التي بلغت ذروتها بمأساة السويس.. بل إن إيدن قد ذهب إلى أبعد من ذلك.. فقد قرر أن يرتدي عباءة سلفه

ونستون تشرشل – بكل ما يحتويه هذا التعبير من أبعاد – فتخلى عن دور "الدبلوماسي" لكي يتقمص دور "المحارب"[٨٥].

ومنذ طرد الجنرال جلوب.. ظل أنتوني إيدن عاجزًا عن أن يشن الحرب ضد عبد الناصر، فكان عليه أن ينتظر حتى شهر يوليو ١٩٥٦، عندما قام جون فوستر دالاس بسحب عرض تمويل السد العالي. وسارع إيدن إلى الاقتداء بدالاس فأسقط عرض البنك الدولي لتمويل السد، ورد عبد الناصر بتأميم شركة قناة السويس، فظن إيدن أن الفرصة قد جاءته أخيرًا[٨٦].

وأعد إيدن خطته الحربية مع فرنسا لغزو مصر.. تلك الخطة التي عرفت باسم "موسكيتير"، ولكن عبد الناصر لم يعطه الفرصة التي يمكن أن يتخذها مبررًا وذريعة لتنفيذ تلك الخطة، فلا الملاحة تعطلت في القناة، كما لم تتوقف فيها سفينة واحدة، على الرغم من أن السفن البريطانية والفرنسية وسفن بأعلام أخرى وتحت ضغط المملكة المتحدة وفرنسا ظلت تدفع رسوم المرور إلى الشركة القديمة، وليس للهيئة المصرية[٨٧].

ولم تتوقف أية سفينة ولم يحل دون أي واحدة منها والعبور في القناة، كما لم يقع الضرر على أي من الرعايا البريطانيين في منطقة القناة أو قاعدتها، وبهذا أسقط في يد إيدن الذي لم يجد مبررًا يتعلل به لتنفيذ خطته العسكرية، ومن ثم أخذ يبحث عن وسائل أخرى للضغط على مصر[٨٨].

دعيت القوى البحرية إلى "مؤتمر لندن"، وذهب منزيس فرانس رئيس وزراء أستراليا إلى مصر في أوائل سبتمبر ١٩٥٦ حاملاً مقترحاتهم بإنشاء مجلس أو هيئة دولية لإدارة القناة ولكن بلا جدوى، لأن عبد الناصر قال: إن هذا الاقتراح يعود بنا إلى النظام الدولي القديم للقناة ولكن بقاعدة أوسع. وعلى نفس المنوال جرى الأمر في الأمم المتحدة وانتهت المناقشات بفيتو

سوفييتي في مجلس الأمن ضد قرار مماثل تم وضعه إرضاء لبريطانيا وفرنسا(٨٩).

وقد أصاب هذا كله إيدن بالإحباط، ولكن ما لم يكن يدريه بالطبع في ذلك الوقت هو أن فرنسا بدأت تخطط لحسابها حلاً عسكريًا للقضية باستخدام إسرائيل على أساس أن تهاجم مصر وتتخذ فرنسا من الهجوم ذريعة للتدخل العسكري بدعوى إنقاذ القنال من القتال بين الجانبين، تلك كانت الذريعة(٩٠).

كان جي موليه – رئيس وزراء فرنسا مقتنعًا – تمامًا مثل أنتوني إيدن – بأن كل متاعبه في العالم العربي كان سببها عبد الناصر.. وأنه إذا أمكن إزاحة عبد الناصر فإن ثورة الجزائر – والتي اشتعلت زهاء سنتين – سرعان ما تتوقف.. وأن الجزائريين سوف يهدأون ويعيشون في سعادة تحت الحكم الفرنسي وأن المشكلة كلها سببتها خطيئة ناصر(٩١). ومن ثم فقد كان جي موليه تواقًا مثل إيدن للالتجاء للحل العسكري في هذه الأزمة، ولكن المشكلة كانت هناك، سرعان ما برزت في المحادثات بين الفرنسيين والإسرائيليين، فقد فرض الإسرائيليون شرطًا أساسيًا وقاطعًا.. الأمر الذي جعل فرنسا عاجزة عن مواجهة الموقف وحدها(٩٢).

لقد أصر بن جوريون إصرارًا لا تراجع عنه: أنه إذا ما كانت إسرائيل ستهاجم مصر فإنه يتعين مقدمًا أن "تزاح وتستأصل" قوة ناصر الجوية.. كانت هذه هي كلماته "تستأصل".. و إلا فإنه يخشى أن مدن إسرائيل سوف تسوى بالأرض بواسطة قاذفات الأليوشن التي يملكها ناصر(٩٣).

وفرنسا لم تكن تملك القيام بهذا العمل.. ففرنسا لم تكن تستطيع أن تضرب مصر بالقنابل من القواعد الفرنسية التي كانت بعيدة حتى تلك التي في الجزائر. وكان هذا يعنى أنه لا بد من إدخال بريطانيا في العملية التي لها قواعد في قبرص قريبة بما فيه الكفاية لأداء هذه المهمة(٩٤).

وهكذا وفد إلى بريطانيا يوم ١٤ أكتوبر ١٩٥٦ مبعوثان فرنسيان هما المسيو جازييه الذي كان وزيرًا للخارجية بالنيابة في فرنسا والجنرال شـال، ليضعا الأمر بين يدي إيدن في تشيكرز – المقر الريفي لرئيس وزراء بريطانيا – في سرية ليقدما إلى إيدن فكرة استخدام إسرائيل في إيجاد الذريعة لتدبير التدخل العسكري الأنجلو فرنسي ضد مصر، وهي الذريعة التي كان يتوق إليها منذ شهر يوليو ١٩٥٦(٩٥).

وهكذا وجد إيدن أخيرًا فرصته الذهبية.. فتلقفها وتشبث بها بكلتا يديه. ويذكر ناتنج: "ولكن الشيء الغريب – المحزن في نظري- أنه في تلك الأثناء وفي نيويورك – وقبل يومين فقط من وصول المبعوثين الفرنسيين إلى تشيكرز- كان سلوين لويد وزير خارجية بريطانيا وكريستيان بينو وزير خارجية فرنسا قد توصلا بحضور داج همرشولد السكرتير العام للأمم المتحدة إلى الخطوط العريضة لاتفاق مع الدكتور محمود فوزي وزير خارجية مصر، يعطي لبريطانيا وفرنسا – بصورة واقعية وعملية – كل ما يحتاجانه من الضمانات التي تؤكد أن قناة السويس ستظل تدار في المستقبل وفق احتياجات الدول المستخدمة لها. وأن هذه الخطوط العريضة للاتفاق سيجرى صياغتها والتوقيع عليها في اجتماع يعقد في جنيف يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦(٩٦). ومفهوم طبعًا، أنه لا إيدن ولا موليه، كانا يريدان اتفاقًا، كان كل منهما يريد نصرًا، وفي الخطة التي تواطأ الفرنسيون مع الإسرائيليين على إعدادها، وجد إيدن وموليه ما يعتقدان أنها الفرصة لتحقيق ذلك النصر"(٩٧).

وبعد يومين من الزيارة الفرنسية – وقبل عودة سلوين لويد من نيويورك – دعا إيدن بعض أخصائه من الوزراء المتعاطفين مع ميوله إلى اجتماع لدراسة الخطة الفرنسية(٩٨). ويصف ناتنج ما دار في هذا الاجتماع، فيقول: "لقد جادلت إيدن بعنف، وعارضت هذه الخطة قائلاً أنها غير أخلاقية من

الناحية السياسية، وأنها خطة خرقاء تمامًا عارية من التعقل، في الوقت الذي أصبح بين أيدينا اتفاقًا يكاد يكتمل. وقلت أيضًا أننا لا نستطيع أن نفلت من مغبتها بالتظاهر بأننا نرسل قواتنا، لإيقاف حرب نحن أنفسنا قد أشعلناها، ثم نضرب بقنابلنا المعتدى عليه بدلاً من أن نضرب المعتدى، فننتهك بصورة فاضحة كل التزاماتنا الدولية، وبالأخص تلك المعاهدة التي وقعتها بنفسي مع عبد الناصر منذ عامين. ولقد حدث أن وصل سلوين لويد قبل نهاية الاجتماع – وعلى الرغم من أنه قد وافقني في البداية على وجهة نظري. إلا أن إيدن استطاع – فيما بعد – أن يدير رأسه، وأخذ الاثنان بعد ظهر ذلك اليوم طريقهما سويًا إلى باريس، ليعلنا للفرنسيين موافقتنا على الخطة، وأننا سننضم إليهم في تنفيذها(٩٩).

لم يكتف الحلفاء الغربيون – بريطانيا وفرنسا – بذلك بل لقد التقوا معًا في سيفر مع بن جوريون للاتفاق على العدوان على مصر. فقد بدأت مباحثات سيفر عصر يوم ٢٢ أكتوبر بين الفرنسيين والإسرائيليين وكان الجانب الفرنسي مكونًا من جي موليه، وكريستيان بينو وبورجيس مونوري وزير الدفاع، وتكون الجانب الإسرائيلي من بن جوريون وشيمون بيريز وموشي دايان وجولدا مائير(١٠٠).

وفي هذا الاجتماع اقترح بن جوريون أنه لا داعي للإسراع في ترتيب حملة عسكرية وأنه يجب إعطاء أولوية لبحث الممكنات السياسية، إلا أن الفرنسيين لم يكونوا مستعدين للتحول عن الإجراء العملي وهو الحرب(١٠١). وفي صباح ٢٣ أكتوبر بدأ الاجتماع الثاني بين القادة الفرنسيين والإسرائيليين وتحدث بن جوريون عن احتياجات إسرائيل وذكر أنها تحتاج إلى المال والسلاح وأن مدنها معرضة للإغارة الجوية والقصف البحري، وقبل أن يحل وقت الغذاء كان هناك اتفاق رسمي يقضي بأن تؤمن القوة الجوية الفرنسية

الغطاء الكافي للمدن الإسرائيلية وأن تتولى البوارج الفرنسية حراسة السواحل الإسرائيلية على أن تقوم القوات الفرنسية بحراسة إسرائيل من أي دولة عربية معادية بالإضافة إلى مصر(١٠٢).

واعترف شيمون بيريز بأن موضوع البرنامج النووي الإسرائيلي قد بدأ الاتفاق عليه خلال اجتماع سيفر في ضاحية باريس عندما اجتمعت القيادة الفرنسية والإسرائيلية مع عدد من الرسميين البريطانيين ووضعوا تفاصيل العدوان الثلاثي على مصر. وقد ربط الفرنسيون والإسرائيليون تعاونهما في تلك العملية بتعاون آخر في برنامج نووي تقدمه فرنسا إلى إسرائيل وهو مفاعل نووي في ديمونه هدية منها مقابل أن تتولى إسرائيل الجزء القذر من العلمية(١٠٣).

كان بن جوريون متشككًا في بريطانيا إلى حد بعيد وأحس – وكان محقًا في إحساسه – أن سلوين لويد لم يكن متحمسًا تمامًا للخطة الفرنسية(١٠٤). وقال إنه لا يريد أن يتورط في نزاع السويس والذي وصفه بأنه نزاع بريطاني-فرنسي مع مصر، وهو أمر لا يعني إسرائيل في شيء. وذهب بن جوريون إلى أبعد من هذا عندما أصر على أنه إذا ما كانت إسرائيل ستشارك في العملية وتقبل أن تمثل دور الذريعة لتبرير التدخل البريطاني الفرنسي فإنه لابد أولاً أن يجرد عبد الناصر من قوته الجوية وأن تستأصل قاذفات القنابل الاليوشن التي في حوزته على أن يتم ذلك بمجرد أن تجتاز القوات الإسرائيلية حدود مصر.. بل في نفس اللحظة التي تجتاز فيها القوات الإسرائيلية هذه الحدود(١٠٥).

واعترض سلوين لويد بأن هذا المطلب سيطيح بالخطة من أساسها.. وأنه يجب أن يكون هناك فاصل زمني يتيح لمصر أن ترفض إنذارنا ومطالبتنا بأن تنسحب قواتها وقوات إسرائيل من قناة السويس ومن ثم تتح للقوات

الأنجلو فرنسية العذر للتدخل[١٠٦]. ولكن بن جوريون ظل يصر على ضرورة التعجيل بضرب القواعد الجوية المصرية بمجرد بدء إسرائيل العمليات، ولكنه في النهاية وافق على مده ثمان وأربعين ساعة كفترة فاصلة[١٠٧].

وهكذا، وبعد هذا التفاهم وضعت الخطة الثلاثية موضع التنفيذ. ففي يوم ٢٩ أكتوبر هاجمت إسرائيل، وهو اليوم الذي كان مفروضًا أن يلتقي فيه سلوين لويد مع الدكتور محمود فوزي في جنيف ليعملا على أن يصبح هيكل الاتفاق الذي توصلا إليه في نيويورك اتفاقًا نهائيًا! [١٠٨]، وطالبت بريطانيا وفرنسا الجانبين المتحاربين بالانسحاب عشرة أميال بعيدًا عن قناة السويس لكي تتيح لقواتهما احتلال منطقة القنال[١٠٩].

في هذا الوقت الذي كانا يطالبان فيه الإسرائيليين والمصريين بالابتعاد لم تكن القوات الإسرائيلية قد وصلت بعد إلى منطقة القناة. وهكذا وببساطة فإن ما كانا يطالبان به معناه واقعيًا وعمليًا.. هو أن تتقدم القوات الإسرائيلية حوالي ٧٥ ميلاً لتكون على مسافة عشرة أميال من القناة، بينما على القوات المصرية أن تنسحب زهاء ١٢٥ ميلاً لتحقق هذا المطلب.. كان منطقًا هزليًا![١١٠].

وهكذا .. ففي مساء يوم ٣١ أكتوبر قامت قاذفات القنابل البريطانية بضرب القواعد الجوية الأربعة الرئيسية لمصر، لتشل تمامًا فاعلية طائرات الإليوشين المصرية[١١١]. ويذكر أنتوني ناتنج: "ولما كنت في ذلك الوقت قد فشلت في الحيلولة دون وقوع هذه المأساة، شعرت بأنه لا يمكنني أن أكون مدافعًا عن موقف الحكومة سواء أمام مجلس العموم أو أمام الأمم المتحدة.. وكان على أن أستقيل!!" [١١٢].

ما بعد ذلك، كان التاريخ.. أجبرت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل تحت ضغط التهديدات الأمريكية والسوفيتية، وإلحاح الرأي العالمي على إيقاف العدوان والانسحاب[١١٣]. ويذكر مايكل فوت: ولكن ليس هناك ما يمكن أن يقال ليمحو نهائيًا الجرم الذي حدث في السويس .. وإني لحزين إذ أقول إن أكثر ما كشف عنه مؤخرًا من وثائق يضيف مزيدًا من الإدانة والتجريم والبشاعة لهذا الذي حدث.. لم تكن كلمة "تواطؤ" كلمة مألوفة من قبل، ولكنها أصبحت كلمة شائعة في المناقشات العامة، أثناء الهجوم على السويس، وكانت أول مرة ذكرت فيها – كما ورد في الكتاب الذي قرأت فيه عن هذا الموضوع كتاب عن تاريخ حياة أنتوني إيدن – كانت هناك إشارة إلى كلمة "التواطؤ" إنها وردت قبل وقوع العدوان بثلاثة أيام في اجتماع لمجلس الوزراء البريطاني.. ثم ظل الإنكار يلف بها أسابيع طويلة بعد العدوان.. كانت الواقعة تنكر وتنفى.. ولكن الواقعة كانت حقيقية.. وكان هناك "تواطؤ" وهذه الكلمة تعنى أنه كان هناك اتفاق شرير ومجرم بين بلدنا والبلاد الأخرى المشتركة معها في هذا التواطؤ.."[١١٤].

أما إيدن الذي كان يخطط لمجد زاهر ونصر عسكري ساحق، اضطر للاستقالة بعد شهرين، وانزوى محطمًا يواجه نهاية مأساوية لرجل حاول أن يلعب دورًا لا يناسبه[١١٥].

العمل المشترك بين الولايات المتحدة والمملكة المتحدة (بان آلفا وأوميجا)

أقدم إيدن في نهاية عام ١٩٥٤ على مبادرتين في الشرق الأوسط، كانت إحداهما في العلن وهي: تأييده لحلف بغداد، والعمل على تدعيمه، بينما احتفظ بالثانية في الخفاء، ولم يكشف عنها إلا حديثًا، وتعرف بالاسم الرمزي "بان آلفا" وكانت نتيجة اقتراح من إيدن قدمه لدالاس .. لكي يعمل الاثنان سويًا في جهد مشترك للوصول إلى تسوية نهائية للقضية الفلسطينية[١١٦].

وقد شكل لهذه الغاية فريق مشترك من المفاوضين البريطانيين والأمريكيين، فكان السير إيفيلين تشاك العضو عن الجانب البريطاني، والمستر فرانسيس رسل العضو الرئيسي عن الجانب الأمريكي، وقد خول الاثنان للعمل بمعزل عن وزارتي الخارجية الأمريكية والبريطانية، كما كانت معظم الأجهزة الدبلوماسية العادية في البلدين في معزل عن هذه الخطة[١١٧].

وكان الرئيس عبد الناصر في نظرهما، هو الشخصية القوية في العالم العربي، التي تستطيع أن توقع اتفاقية سلام دائم مع إسرائيل، وتضمن لهذا السلام أن يبقى. ولكي يوفرا فرصة النجاح لخطة "بان آلفا" انصب اهتمام بريطانيا وأمريكا على تدعيم مركزه وتقويته سياسيًا[١١٨].

ولكن في نفس الوقت، كان إيدن متورطًا في العلن في مبادرة حلف بغداد، بما يتعارض مع أهداف خطة "بان آلفا" ليس من الناحية النظرية فقط، وإنما من الناحية العملية أيضًا، إذ يترتب عليه إدخال العراق –بزعامة نوري السعيد– في حلف دفاعي يهدد المصالح السياسية للرئيس عبد الناصر[١١٩].

وحاول أيزنهاور ودالاس في البداية كسب ود عبد الناصر بعرض تمويل بناء السد العالي، وحاولا تهدئة الوضع المصري الإسرائيلي عن طريق إرسال المبعوث الخاص روبرت أندرسون لرعاية اتفاق في أوائل عام ١٩٥٦، إلا أن ناصر لم يقبل شروط عرض مساعدات السد والتعاون بشكل تام مع مهمة أندرسون. والأسوأ من ذلك أنه شجع أعمال الشغب المعادية لبريطانيا في الأردن والبحرين، واستمر في انتقاده لحلف بغداد، واشترى سلاحًا من بولندا، واعترف بجمهورية الصين الشعبية. وانتهى مسئولو مجلس الأمن القومي إلى أن "الحياد الإيجابي" الخاص بناصر، يعمل في واقع الأمر لمصلحة الكتلة السوفيتية، حيث إنه موجه ضد المواقف الغربية الراسخة[١٢٠].

وبعد اعتراف ناصر بالصين الشعبية، انتقل العمل في كل من لندن وواشنطن من المجال السياسي إلى المخابرات، التي طلبت في اجتماع عمل مع مندوب المخابرات الأمريكية في لندن، ضرورة قتل جمال عبد الناصر للخلاص منه[١٢١]. في ذلك الوقت قامت الولايات المتحدة من جانبها بتأليف مجموعة أوميجا، برئاسة السفير ريموند هير لحسم موضوع الرئيس عبد الناصر، ولم يكن هناك حديث عن عقد صلح، وإنما أصبح الموضوع هو الخلاص من عبد الناصر طبقًا لخطة أوميجا، وإن اختلفت الوسائل. فبينما كان البريطانيون يحبذون الغزو.. كان الأمريكيون يفضلون الوقيعة بين الملك سعود والرئيس عبد الناصر، توطئة لإحداث انقلاب في سوريا حتى تبقى مصر وحدها. وفي تلك اللحظة سوف يسهل إسقاط الرئيس عبد الناصر[١٢٢].

وكان المسئولون الأمريكيون قد انتهوا بحلول مارس ١٩٥٦ إلى أنه بالرغم من جهود كسب ود ناصر، فقد برز كتهديد لمصالح أمنهم القومي في الشرق الأوسط. ولذلك وضعوا بالاشتراك مع البريطانيين سياسة أوميجا، وهى مجموعة من الخطوات للنيل من مكانة ناصر بين الشعوب العربية وربما للإطاحة به. وأشار دالاس إلى أن أوميجا سوف تجعل الكولونيل ناصر يدرك أنه لا يمكنه التعاون كما هو الحال الآن مع الاتحاد السوفيتي ويتمتع في الوقت نفسه بمعاملة الدولة الأولى بالرعاية من جانب الولايات المتحدة. وكانت أوميجا تخطط للسحب التدريجي لعرض مساعدات السد العالي، ولكن في يوليو وتحت ضغط قوى من الكونجرس، ألغى دالاس الاتفاق فجأة. ورد ناصر على عدم الوفاء بتعهد بناء السد العالي بتأميم شركة قناة السويس وإعلان أن عائداتها سوف تمول السد العالي[١٢٣].

وفي أواخر ١٩٥٦ وقرر البريطانيون على الفور استخدام القوة لاستعادة الممر المائي والإطاحة بناصر من السلطة، وفي النهاية تآمروا مع الفرنسيين والإسرائيليين لشن هجوم ثلاثي على مصر بدأ في ٢٩ أكتوبر. وفي المقابل

قرر الرئيس أيزنهاور في وقت مبكر من الأزمة أن القوة سوف تهدد مصالح الأمن القومي الأمريكي. فالهجوم البريطاني على مصر سوف يثير كراهيـــة إنجلترا في أنحاء العالم، ويؤجج نار القومية العربية، وبذلك يعرض واردات النفط إلى الغرب للخطر، ويؤدى إلى احتلال بريطاني طويل ومكلف لمنطقة قناة السويس، وأبلغ أيزنهاورمجلس الأمن القومي في ٣١ يوليو أن الولايات المتحدة ترى أن السماح للندن بشن حرب على مصر "سوف يوحد إلى حـــد كبير العالم من داكار إلى جزر الفلبيين ضدنا"، كما أن حدوث صـــدع فـــي العلاقات مع لندن سوف "يكون على قدر كبير من الخطورة، إلا أنه ليس في خطورة السماح للحرب بأن تبدأ وعدم السعي لإيقافها"[١٢٤].

وبناء على ذلك سعى أيزنهاور لاستخدام الدبلوماسية لتأجيل الهجـــوم البريطاني، باعتبار أن الوقت سوف يهدىء من انفعال البريطانيين ويبعد شبح الحرب. وفي أواخر شهر يوليو أرسل نائب وكيل وزارة الخارجية للـــشؤون السياسية روبرت ميرفي ومعه دالاس إلى لندن لتهدئة الغضب البريطـــاني. وفي أغسطس رتب أيزنهاور ودالاس مؤتمر لندن لوضع حـــل دبلوماســـي لمسألة السيطرة على القناة، واقترحوا في سبتمبر إنشاء رابطة المـــستفيدين من القناة للسيطرة على الممر المائي، وفي أكتوبر شجعوا بريطانيا ومـــصر على حل خلافاتهما من خلال المفاوضات التي ترعاها الأمم المتحدة. وناشد أيزنهاور في السر والعلن رئيس الوزراء البريطاني أنتـــوني إيـــدن ضـــبط النفس. وقال في برقية بعث بها إلى إيدن في ٣ سبتمبر: "إن استخدام القـــوة سوف يزيد مساحة الخطر زيادة ضخمة". كما أن العالم النامي "سوف يتكتل ضد الغرب إلى درجة أخشى أنه لن يمكن التغلب عليها خـــلال جيـــل، بـــل وربما خلال قرن"[١٢٥].

وما إن بدأت الأعمال القتالية في ٢٩ أكتوبر حتى تحرك أيزنهاور لوقف القتال فورًا لأسباب أمنية ثلاثة[١٢٦]:

أولاً: فقد أسف لأن الهجوم على مصر صرف أنظار العالم عن سحق موسكو الوحشي للتمرد في المجر.

ثانيًا: كان يخشى أن يدعم السوفييت مصر سياسيًا وبالتالي يكسبون التأييد بين الدول النامية. وأشار دالاس إلى أنه ما لم توقف الولايات المتحدة القتال فإن كل تلك الدول التي حصلت حديثًا على استقلالها سوف تنصرف عنا إلى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية. وسوف ينظر إلينا على أننا مقيدون للأبد في السياسات الاستعمارية البريطانية والفرنسية. وأضاف أيزنهاور قائلاً: "كيف يمكن لنا تأييد بريطانيا وفرنسا، إذا كنا سنفقد بذلك العالم العربي قاطبة". وكان عدم التحرك الأمريكي سيمكن الاتحاد السوفيتي من الاستيلاء على زعامة العالم من خلال إبداء الاهتمام الزائف، ولكنه مقنع، بالدول الصغيرة[١٢٧].

ثالثًا: كان أيزنهاور يشعر بقلق شديد من التهديدات السوفيتية بالتدخل عسكريًا للدفاع عن مصر. وفي ٥ نوفمبر، أي بعد يوم واحد من سحق التمرد في بودابست، هددت موسكو بإرسال قوات إلى مصر وإطلاق الصواريخ على لندن وباريس. وفسرت هيئة الأركان المشتركة هذا التصريح على أنه "عزم خطير من جانب السوفييت". وأشار أيزنهاور إلى أن الزعماء السوفييت كانوا "خائفين وغاضبين" بشأن المجر "وليس هناك ما هو أخطر من الدكتاتورية في هذا النسق العقلي". وحذر الرئيس موسكو من أن الولايات المتحدة سوف تدافع عن حلفائها، إلا أنه زاد من ضغوطه الدبلوماسية والمالية لإقناع بريطانيا وفرنسا بوقف القتال. وقبلت الدولتان قرار الأمم المتحدة لوقف إطلاق النار في ٦ نوفمبر[١٢٨].

كيف أدار عبد الناصر الصراع

كانت مشروعية التأميم متوفرة على أكمل وجه في قرار جمال عبد الناصر بتأميم شركة قناة السويس، لأنه كان يستجيب لمطلب كان في أعماق الضمير المصري ولم يكن ينقص تحقيقه إلا ظهور عنصر الإرادة الوطنية – وهذه شرعيته(١٢٩). وقد عرف جمال عبد الناصر أن نجاح قراره يرتبط بكفاءة إدارة المرفق. لذلك ركز اهتمامه في اختيار الإدارة معتبرًا أنها العامل الأساسي في النجاح، ثم أعطى لهذه الإدارة سلطة الدولة كلها(١٣٠).

وضمانًا نهائيًا للنجاح فقد أعطاها حق فرض الأحكام العسكرية على العاملين الأجانب في القناة، وكان واثقًا أن هذا الإجراء الذي يبدو تعسفيًا لن يواجه معارضة شديدة في البداية فالغرب يحتاج إلى القناة أكثر منه – لأنه يحتاج إلى تدفق البترول – لأن احتياطياته منه في ذلك الوقت لم تكن تزيد على أربعة أسابيع – وبالتالي فإنهم هناك مضطرون إلى فترة تخزين قبل الإقدام على مخاطرات يمكن أن تؤدى إلى إغلاق القناة. هم يحتاجون إلى فترة تخزين وهو يحتاج إلى فترة ترتيب(١٣١).

وهكذا فإن عامل حسن اختيار الإدارة المصرية للمرفق عززه ضمان إضافي باستبقاء الجزء العملي من الإدارة الأجنبية ولو حتى بقوة الأحكام العسكرية خصوصًا على المرشدين، ثم إن ذلك كان يتيح الوقت لإعداد وتجنيد عناصر فنية تواجه الموقف في حالة ما إذا أصبح الغرب على استعداد لإثارة موضوع القسر الواقع على العناصر الأجنبية، وهو ما حدث بعد ذلك فعلاً بعد سبعة أسابيع في ١٥ سبتمبر ١٩٥٦ – انسحب المرشدون الأجانب يومها ولم يكن صانع القرار المصري نائمًا في قيلولة ظهيرة في يوم صيف حار(١٣٢). كان الرئيس عبد الناصر حريصًا قبل إعلان قرار التأميم على التحقق من حجم القوات الأنجلو فرنسية القريبة من مصر،

ودرجة استعدادها، ولم يتخذ قراره إلا عندما تأكد أن حجمها غير كاف وأنها غير مستعدة للتدخل الفوري(١٣٣).

غير أن الرئيس عبد الناصر كان يتصور أن العمل السياسي أسبوعًا وراء أسبوع سوف يجهض فكرة التدخل المسلح، ولم يكن يدرك الحالة النفسية التي استبدت بأنتوني إيدن. كما كان يتصور أن إيدن سوف يربأ بنفسه عن التواطؤ مع إسرائيل في حملة عسكرية ضد مصر، حتى لا يحرج أصدقاءه العرب، ويتسبب في تقلص النفوذ البريطاني في المنطقة والإضرار بمصالحه. لكن إيدن تصرف على عكس ما تصور عبد الناصر، فدفع الثمن غاليًا حيث سقط وانزوى عن عالم السياسة، كما دفعت المملكة المتحدة ثمنًا غاليًا، إذ تحولت من قوة عظمى إلى دولة تابعة للولايات المتحدة(١٣٤).

وقد حافظ عبد الناصر على هدفه الاستراتيجي، وهو المحافظة على قناة السويس، فلم يسمح لأية عوامل تكتيكية أن تنال منه. أما هدفه التكتيكي فكان كسب الوقت لتعبئة الرأي العام العالمي وتحريك موازين القوى لصالحه. وقد أحسن استغلال تناقضات الأطراف، حتى ولو كانت مرحلية، ليتجنب التدخل العسكري. ولهذا لم يعترض على مؤتمر لندن الأول، كما لم يعترض على مجيء بعثة منزيس إلى مصر أو ذهاب المملكة المتحدة وفرنسا إلى الأمم المتحدة، وإنما استغل كل ذلك للمناورة، وكسب الوقت، وتعبئة الرأي العام، وتحريك الموازين(١٣٥).

وكان عبد الناصر على استعداد لأن يناقش، ويسمع، ويبدي رأيه، ويعقد الاتصالات المباشرة وغير المباشرة، مع التجاوز عما هو تكتيكي، ليحافظ على هدفه الاستراتيجي، ولهذا سمح بمرور السفن التي لا تدفع الرسوم للهيئة المصرية، شريطة أن تضاف رسوم مرورها على حساب شركاتها حين يجيء يوم الحساب. ولو كان رفض أن تمر أي سفينة دون أن

تدفع الرسوم، لتسبب في تعطيل حركة المرور في القناة، ولأعطى للمتربصين حجتهم. وتحت ظروف القتال، فإنه رفض عمليًا ومعنويًا أن ينساق إلى قرار بإعلان الحرب على المملكة المتحدة طبقًا لما تقضى به الأصول، فلقد كان ينظر إلى ما بعد انتهاء المعارك، ويعرف أنه لا يستطيع أن يطبق على المملكة المتحدة ما يمكن تطبيقه على إسرائيل، ومنع مرور سفنها من قناة السويس طالما استمرت حالة الحرب(١٣٦).

وهكذا عالج عبد الناصر الأمور بمرونة منذ البداية، وحافظ على هدفه الاستراتيجي طوال الأزمة، فبمجرد أن بدأت المعارك، أصدر أمره بإغلاق قناة السويس حتى لا تتكرر تجربة أحمد عرابي عام ١٨٨٢. وعندما حان وقت إيقاف تدفق النفط إلى الغرب كجزء من الصراع، تحقق ذلك على أكمل وجه حينما قامت كل العناصر المؤيدة له على الساحة العربية بنسف خط الأنابيب الممتد من الخليج العربي إلى البحر الأبيض المتوسط عبر سوريا(١٣٧).

ولقد كان تمثله لساحة المعركة هو الذي حفزه إلى اتخاذ واحد من أهم القرارات العسكرية في مجرى الحرب وهو قرار سحب مجموعة القوات الرئيسية التي تقدمت إلى سيناء بعد أن تدخلت إسرائيل بدورها في التواطؤ على حدود مصر، وذلك حتى لا ينقسم الجيش المصري إلى قسمين – واحد يواجه إسرائيل في سيناء وآخر يواجه بريطانيا وفرنسا خلفه على القناة أو في الدلتا، وإنما رأى تجميع قواته والدخول في معركة أساسية واحدة. ولقد قاتل في سيناء بالقدر اللازم لحماية الانسحاب، وقاتل في بورسعيد بالقدر اللازم لوقف تقدم قوات الغزو، واختار سلامة الطيارين على سلامة الطائرات أمام تفوق جوى أنجلو فرنسي لكي يصون قواه لمرحلة أخرى من المعركة رآها في انتظاره إذا لم تخرج إسرائيل من سيناء وقطاع غزة(١٣٨).

وبعد انتهاء العدوان، وفي ٢٤ أبريل ١٩٥٧، أبلغت مصر المستر داج همرشولد السكرتير العام للأمم المتحدة بإعلانها الخاص بقناة السويس. وفي الرسالة التي وجهها الدكتور محمود فوزي إلى السكرتير العام، جاءت الإشارة إلى "فهم مصر" للمبادئ التي قررها مجلس الأمن في ١٣ أكتوبر ١٩٥٦ – ولكنها لم ترد في صلب الإعلان المصري – وإلى بيانات مصر في مجلس الأمن والخاصة بهذا القرار(١٣٩). وطلبت مصر إيداع الإعلان وتسجيله في سكرتارية الأمم المتحدة، وبذلك يعتبر وما ضمنه من التزامات وثيقة دولية(١٤٠). وقد حدد هذا الإعلان، الذي أعلنته مصر من طرف واحد ضماناً بحرية الملاحة في قناة السويس على أساس اتفاقية القسطنطينية عام ١٨٨٨. وإن الحكومة المصرية ستستمر في احترام ومراقبة وتنفيذ اتفاقية القسطنطينية، وتثق في أن الدول الأخرى الموقعة عليها ستلتزم بنفس المبدأ(١٤١).

وبناءً على طلب الولايات المتحدة، انعقد مجلس الأمن في ٢٦ أبريل ١٩٥٧ برئاسة مندوب بريطانيا، وأعلن مندوب الولايات المتحدة أن البيان المصري لا يتفق تمامًا مع المبادئ الستة، وأنه لا يتضمن إجراءات محددة منظمة للتعاون بين مصر والمنتفعين، ولكنه أردف قائلاً أن حكومته رأت إتاحة الفرصة للتعرف على مدى صلاحية النظام الذي أعلنت مصر أنها ستسير القناة بمقتضاه(١٤٢).

أما مندوب بريطانيا فقال، أنه يود أن يسجل عدم تحقيق البيان المصري لتسوية نهائية للمشكلة وأنه جاء خلوًا من الإيضاحات اللازمة بشأن تطبيق بعض المبادئ الستة، وأنه بيان من جانب واحد(١٤٣). أما مندوب فرنسا، فقد أعلن أن البيان لا يحقق المبادئ الستة، وأنه تصريح من جانب واحد مما يسمح لمصر بأن تعدله حينما تشاء، كما أشار إلى أن مصر لا تحترم اتفاقية

١٨٨٨ عندما تمنع سفن إسرائيل من المرور في القناة، ثم حاول التدليل في خطابه بأن البيان المصري مطاط مبهم العبارات ولا يمكن قبوله. وطالب المجلس باستئناف المفاوضات للوصول إلى معاهدة دولية بدلاً من هذا البيان الصادر من جانب واحد[١٤٤]. ثم تحدث مندوب الاتحاد السوفيتي وأعلن موافقته التامة على الإعلان المصري[١٤٥].

وانتهى اجتماع مجلس الأمن دون اتخاذ قرار بشأن الإعلان المصري، وأعلن رئيس المجلس أنه سوف تتخذ ترتيبات لمناقشة أخرى يحددها رئيس المجلس بعد التشاور مع الأطراف المعنية[١٤٦].

لقد كشفت الأحداث السابقة على انعقاد مجلس الأمن، ثم المواقف المختلفة خلال انعقاده عن أمرين أولهما: أن بريطانيا تتخذ موقفًا بعيدًا عن فرنسا، فهى قد قبلت في واقع الأمر البيان المصري وهى قد سمحت لسفنها بالمرور في قناة السويس ودفع الرسوم. ثم بدأت في ذلك الوقت في السعي إلى عودة التبادل التجاري مع مصر. وثانيهما: أن فرنسا رفضت البيان المصري واعتبرته متعارضًا مع المبادئ الستة واستمرت في مقاطعة قناة السويس[١٤٧]. وبين هذين الموقفين كانت السياسة الأمريكية، تسعى إلى إعادة تحالف الأطلنطي إلى قوته، وبالتالي محاولة التأثير على موقف فرنسا حتى تتجه إلى الاعتدال، وفي نفس الوقت تتعرض الولايات المتحدة إلى حملة عنيفة مضادة في المنطقة العربية ومصر تتزعم هذه الحملة وتغذيها، وذلك نتيجة مشروع أيزنهاور وما يحويه من وصاية جديدة على العرب[١٤٨].

ولكن الولايات المتحدة كانت تقدر في ذلك الوقت أن اتخاذها موقفًا عنيفًا ضد مصر يؤدى بالضرورة إلى هدم خطتها الجديدة في المنطقة وضياع نهائي للمركز الذي اكتسبته من خلال معارضتها للعدوان. ويؤكد للرأي العام العربي سوء نواياها من وراء تقديم مشروع أيزنهاور[١٤٩].

وفي شهر يونيو ١٩٥٧، أعلنت فرنسا موافقتها على مرور سفنها في قناة السويس وأعقب ذلك إعلان مصر قبولها الولاية الجبرية لمحكمة العدل الدولية فيما يتعلق بتفسير وتطبيق اتفاقية ١٨٨٨ على ضوء ما ورد في بيان ٢٤ أبريل ١٩٥٧. وفي سنة ١٩٥٨ وقع اتفاق تعويض شركة قناة السويس العالمية، وأوفت مصر بالتزاماتها ودفعت للشركة كافة الأقساط المستحقة عليها[١٥٠].

ثم وجد جمال عبد الناصر الفرصة مواتية وملائمة لإلغاء كل اتفاقية الجلاء سنة ١٩٥٤ مع المملكة المتحدة، دون انتظار مرور السبع سنوات التي تقضي نصوصها بها. كما أنهى ما اتفق عليه الدكتور محمود فوزي من نقاط ست مع لويد وبينو وهمرشولد، لأن المعتدين أنفسهم خرجوا على تلك النقاط[١٥١].

وفي النهاية فإن الجائزة الاستراتيجية للحرب كلها – وهي المرادف الفعلي للنصر – قناة السويس في هذه الحالة – ظلت ملكية كاملة لمصر بأهميتها وبدورها وبدخلها.

يبقى في النهاية عنصر الإدراك الواعي للمناخ الوطني والإقليمي والدولي. وبالنسبة للمناخ الوطني فلقد وضع ثقته منذ اللحظة الأولى للأزمة في الشعب المصري، وجرى توزيع السلاح بمئات الآلاف من القطع على أفراد الشعب وأحس الناس أنهم في المعركة شركاء في المصير -بل هم أصحابه[١٥٢]. وكان واثقًا أن مجمل الأحداث منذ قيام الثورة قد خلق حالة من الوعي والتأهب وصلت إلى أرقى درجاتها، وحين إطلق صيحة القتال دفاعًا عن الوطن لم تسمع في مصر على مستوى الجماهير صيحة غيرها وإلى النهاية[١٥٣].

وبالنسبة للمناخ العربي فلقد أدرك أن شعوب الأمة العربية كلها وصلت إلى درجة عالية من التعبئة خلال مواجهة ممتدة ضد الأحلاف وضد احتكار السلاح وضد مخططات سيطرة القوى الكبرى[١٥٤]. ولم ينتظر عبد الناصر طويلاً فإن ضغط الشارع العربي المندفع على القصور العربية المترددة ولَّد طاقات لا حدود لها في المنطقة وخارجها من "داكا" (باكستان الشرقية- بنجلاديش) إلى "داكار" (السنغال) وأصبحت لندن بالفعل عاصمة تحت الحصار من الخارج وحتى من الداخل، وتصدع "حلف بغداد"، بل وكاد "الكومنولث" نفسه أن يتصدع تحت وطأة الأحداث[١٥٥].

وأحس عبد الناصر بأبعاد التناقض بين المملكة المتحدة والولايات المتحدة، وعلم أنه مجرد تناقض في الوسائل وليس في الأهداف، ومع ذلك فقد بدا له من تناقض الوسائل ما يمكن استغلاله إلى أقصى درجة. كما رأى أن الاتحاد السوفيتي أمام منعطف مهم، فإما أن يخرج نهائيًا من عزلته التي أطل منها مجرد إطلاله على الشرق الأوسط بعد صفقة السلاح، وإما أن يعود إلى عزلته القديمة. ورجح أن القيادة السوفيتية لن تترك الفرصة تفلت، لتقفز فوق الحزام الشمالي وتؤيد حركات التحرر الوطني في العالم العربي. كما وجد عبد الناصر رصيدًا كبيرًا من الصداقات، التي عقدها مع رجالات دولة من أمثال تيتو ونهرو وسكارنو، ثم استغل منابر الأمم المتحدة في لحظة تاريخية مواتية[١٥٦].

ثم اكتشف عبد الناصر بسرعة فائقة أهمية الأمم المتحدة في لحظة خاصة من تاريخها، فإن توافق القوتين الأعظم ظاهريًا على الأقل في تحركات الأزمة أعطى المنظمة الدولية ولأمينها العام بشخصيته المتميزة في ذلك الوقت دورًا استثنائيًا سواء كأداة فعل أو أداة تعبئة، ومشى عبد الناصر بهذا الدور إلى مداه[١٥٧].

ومن المؤكد أن مصر وعبد الناصر شخصيًا قد كسبا بالفعل أكثر مما خسرا بحرب السويس عام ١٩٥٦، فقد تأكدت سيطرة مصر وإدارتها لقناة السويس. وبفضل التأييد المعنوي الذي قدمته الأغلبية الساحقة من الدول الأعضاء في الأمم المتحدة أحبط عبد الناصر كل مخططات إيدن ومولييه للإطاحة به وحمله على التخلي عن ثمار تأميم شركة قناة السويس. ورغم أن إسرائيل استفادت بدورها من إغلاق خليج العقبة، إلا أنها اضطرت هي وحلفاؤها في العدوان إلى الانسحاب من كل بوصة من الأراضي المصرية التي كانت جيوشها قد غزتها[١٥٨].

بيد أن أهم ما تمخضت عنه الحرب من نتائج كان يكمن في تأثير نجاح عبد الناصر في تحويل الهزيمة إلى نصر على علاقاته ومكانته في العالم العربي[١٥٩]. ولم يكن تألق نجم عبد الناصر وذيوع صيته الذي بلغ أجواز الفضاء أمرًا لا يستحقه، لأنه مهما كانت أخطاء مصر في ميدان القتال فإن خطواته السياسية طوال الأزمة كانت بلا أخطاء في الواقع. فمنذ اللحظة التي أعلن فيها تأميم شركة القناة عمل جاهدًا على ألا يهيئ مطلقًا أية ذريعة للتدخل المسلح من جانب دولة من الدول المنتفعة بالقناة، ومع أنه رفض مقترحات منزيس الخاصة بفرض إشراف دولي على القناة إلا أنه كان على استعداد دائم لتجربة وسائل أخرى للتوصل إلى تسوية متفق عليها. وبعدئذ وافق في شهر أكتوبر، بعد أن أشار عليه أصدقاؤه العرب وغيرهم مثل تيتو ونهرو ببذل جهد آخر لحل المشكلة، على أساس للمفاوضات لم يستطع حتى وزيري خارجية بريطانيا وفرنسا أن يرفضاه باعتبار أنه لا يقدم حلاً. ولذلك، فعندما وقع عليه العدوان الثلاثي كان في أقوى موقف يمكنه معه أن يطلب من الرأي العام أن يهب لنجدته. ومع ذلك ورغم كل هذه العوامل المساعدة له بما في ذلك التأييد المعنوي من جانب الدولتين الأعظم الولايات المتحدة

والاتحاد السوفيتي، كان يعرف نقاط الضعف في موقفه ويسلم بهـا، وهكـذا فعندما اقتضت الضرورة ذلك كان على استعداد لتقديم تنـازلات لهمرشـولد وللولايات المتحدة مثلما كان مستعدا لاستغلال قوته كما كان واثقاً من أنه لا يمكن دحض حجته. وباختصار كان أداء عبد الناصر أداء شخص محنك في فن التعامل الدبلوماسي، وهو ما يدل على ألمعية وبراعة(١٦٠).

نتائج حرب العدوان الثلاثي

كانت معركة السويس بؤرة تركيز تجمعت فيها كل أماني مـصر فـي الاستقلال الوطني والتنمية الاقتصادية الاجتماعية والتوحد مع عالمها الـذي تنتمي إليه، وفيها اكتشف الشعب المصري طاقاته الكامنة ومـصادر قوتـه الحقيقية. والواقع أن الشعب المصري كان هو البطل الحقيقي لهذه الحرب فقد وقف متماسكًا وصلبًا ومصممًا في مواجهة جبروت أكبر الإمبراطوريات، في الفترة ما بين ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ إلى ٧ نوفمبر ١٩٥٦ – ولو أنه تردد لحظة في هذه الأيام العشرة العصيبة أو ضعف لحظة أو اهتز إيمانه لحظة لما كان هناك جدوى من أي شيء – لا من قيادة جمال عبد الناصر، ولا من تضامن بقية شعوب الأمة العربية، ولا من تعاطف الشعوب الآسيوية والأفريقية، ولا من مواقف الأمم المتحدة، ولا من سياسات الولايات المتحدة، ولا من الإنذار السوفيتي. وقد كانت المقاومة المـصرية فـي مواجهـة المـوارد العديـدة والتكنولوجية المتفوقة للغزاة، حاسمة، وواسعة الحيلة وتميزت ببسالة منقطعة النظير(١٦١).

ومع مصر في نفس اللحظة وعـى العـالم العربـي حقـائق موقعـه وضرورات وحدته ومكامن قوته ومجالات عمله وأولها أن الفعل الحقيقـي للجماهير وليس لغيرها. ولقد أثبتت الأمة العربية في الـسويس أن أحلامهـا

صحيحة وأن الدفاع عنها ممكن، وليس مهمًا أننا شهدنا فيما بعد تراجعًا عن الأحلام وقصورًا في الدفاع عنها فعندما تثبت القوانين تصبح مخالفتها جرائم يستحق حسابها في يوم من الأيام، لكن القوانين نفسها لا تسقط! [١٦٢]

ففي الغرب أفل نجم إمبراطوريتين (بريطانيا وفرنسا) وتحولت كلتاهما إلى دول تجارية أو دول صناعية، ولكن العصر الإمبراطوري بالنسبة لهما انتهى في السويس[١٦٣]. وبذلك تحول الاستعمار الاحتلالي إلى إمبريالية احتكارية، لا تحتل أرضًا ولا تبنى معسكرات برية أو قواعد جوية أو مواني حربية لتفرض هيمنتها على ضحاياها من الدول الصغيرة، بل سارت تسيطر على مواردها الطبيعية، وتحتكر ثروتها الوطنية، وتتحكم في اقتصادها عن طريق البنوك ذات الفروع عبر القارات، والشركات متعددة الجنسية، فالمؤسسات عبر البحار التي باتت تشكل كلها مجالاً رحبًا، لنهب خيرات الشعوب واستلاب موارد الدول الصغيرة التي لا تملك ترسانات نووية، ولا أسلحة حرب الفضاء[١٦٤].

وفي الوقت الذي أفل فيه نجم إمبراطوريتين، صعد نجم قوة إمبراطورية جديدة هى الولايات المتحدة الأمريكية – كانت قد برزت بدورها أثناء الحرب العالمية الثانية ضد النازية وبعدها لكنها لم تلبث أن تورطت في حرب كوريا ثم أعطتها السويس مسرحًا جديدًا في الشرق الأوسط تبدأ منه بداية أخرى[١٦٥].

وبالسويس خرج الاتحاد السوفيتي لأول مرة بعد عزلة عصر "ستالين" ليمارس دورًا عالميًا نشيطًا وحيًا، فقد قفز عبر الحزام الشمالي للشرق الأوسط ولم تعد المواجهة بينه وبين الولايات المتحدة الأمريكية مواجهة تقتصر على ما وراء خنادق ومتاريس الكتلة الشرقية وإنما أصبحت ذراعًا حيًا وساخناً ذابت فيه ثلوج الحرب الباردة وتعددت مواقعه التي تداخلت

حركاتها وتنوعت أساليبها وأهدافها فشملت العالم الثالث كله مع تركيز خاص على الشرق الأوسط الذي أصبح المنطقة الحرجة في المواجه العالمية سياسيًا واقتصاديًا واستراتيجيًا وفكريًا – ووراء الشرق الأوسط أفريقيًا(١٦٦).

ونجحت مصر في إدارة قناة السويس، إذ ارتفع مجموع حمولة السفن التي تعبر القناة يوميًا من ٣٩٣,٠٠٠ طن عام ١٩٥٧ إلى ٥١٢,٠٠٠ طن عام ١٩٦١، ثم ظل هذا الرقم يزداد ارتفاعًا كل يوم منذ ذلك التاريخ. كما وصلت الإيرادات السنوية التي كانت ٣١ مليونًا و١٠٠ ألف جنيه إسترليني عام ١٩٥٥ إلى ٥٠ مليون و٤٠٠ ألف جنيه إسترليني عام ١٩٦٠، وذلك دون إضافة أية زيادة على رسوم المرور في القناة(١٦٧).

وأجريت تحسينات ضخمة في القناة، كما تم رفع نحو مائة مليون متر مكعب من الرمال من مجراها، فتطورت القناة، ونتج عن ذلك الانتقال من حالة عدم صلاحية خدمة السفن التي لا يزيد عمق غاطسها على عشرة أمتار وواحد وخمسين سنتيمترًا، لأن تصبح صالحة لمرور السفن التي يبلغ عمق غاطسها ١١,٢٧ مترًا ثم ١٢,١٩ مترًا، كما اتسع سطح القناة حتى وصل عرضه إلى ٢٠٠ متر، ولا يزال هذا الرقم في ازدياد مطرد(١٦٨). وتمت كل تلك التحسينات بواسطة قروض، حصلت عليها مصر من البنك الدولي، وقد بلغ حجمها خلال الأعوام الستة التي تلت العدوان الثلاثي ثلاثة أمثال التحسينات التي قامت بها الشركة العالمية لقناة السويس خلال السبعين عامًا السابقة على التأميم(١٦٩).

وهكذا عادت القناة لأصحابها الشرعيين وأصبحت ملكًا خالصًا وكاملاً لمصر، وعائداتها أصبحت تعود لها مباشرة دون شريك. ونجحت الإدارة المصرية للقناة في إدارتها وزيادة الملاحة بها(١٧٠).

كما نتج عن العدوان الثلاثي على مصر أن تمكنت الحكومة المصرية من تحرير اقتصادها الوطني، بتمصير المؤسسات الأجنبية وفتح الأسواق التجارية مع آسيا ودول الكتلة الشرقية، والتحرر الفعلي من سيطرة رأس المال الأجنبي(١٧١).

كما قامت مصر أيضًا بعد انتهاء الحرب بتمصير كل البنوك الإنجليزية والفرنسية وشركات التأمين. وكذا كل الشركات الأخرى التي كانت تمارس نشاطًا تجاريًا أو إنتاجيًا. وأصبحت تلك الشركات تدار بفنيين مصريين. وتحرر بذلك اقتصادنا من السيطرة الأجنبية عليه. وساعد ذلك في تدعيم استقلالنا السياسي. وتم إنشاء المؤسسة الاقتصادية لتقوم بالإشراف على أعمال تلك البنوك والشركات(١٧٢).

ويذكر عبد اللطيف البغدادي: "وتم أيضًا استيلاؤنا على كل الأسلحة والمهمات والموجودات البريطانية والتي كانت لا تزال موجودة بمخازنهم في منطقة القناة – ولم يكن قد تم سحبها بعد تطبيقنا لاتفاقية الجلاء التي كانت قد وقعت معهم في أكتوبر ١٩٥٤– واستولى عليها كغنائم حرب. بل إن الاتفاقية نفسها والتي كانت تنتهي مفعولها بعد سبع سنوات من تاريخ توقيعها اعتبرناها ملغاة من أول يناير ١٩٥٧. وأن مصر أصبحت غير ملزمة ولا مقيدة بما كان قد جاء بها بعد هذا الاعتداء عليها. ولأن ما حدث قد نقض الاتفاقية نفسها"(١٧٣).

ويرى إيمري هيوز – عضو مجلس العموم البريطاني – أن هزيمة بلاده في حرب السويس حملت الخزانة البريطانية عبأ ثقيلاً.. فيقول: "ويدعونا العجب أن نتساءل: ألم يفكر ماكميلان بصفته وزيرًا للمالية ومسئولاً عن الشؤون المالية فيما يحتمل أن تؤدى إليه حرب السويس من عواقب؟ ألم يكن من واجبه أن يحذر إيدن ووزارته من أن هذه المغامرة سوف تكون كارثة

على بريطانيا؟ لو أن ماكميلان بصفته وزيرًا للمالية أشار – ولو من طرف خفي – إلى أنه سوف يستقيل لو واصلت الحكومة البريطانية استعداداتها للهجوم المسلح على مصر، لتوقف كل شيء"(١٧٤).

ويحمل إيمري هيوز، ماكميلان مسئولية تأييد حملة قناة السويس، وما سببته من تدهور للاقتصاد البريطاني، للحد الذي وصل بإيدن أن يبدى استعداده لرهن التحف الفنية البريطانية للإنفاق على مغامرة السويس. بل إن الجنيه الإسترليني قد أصيب بهزة عنيفة في السوق الدولية، ولولا دعم الولايات المتحدة للمملكة المتحدة بألف مليون دولار لانهار الجنيه الإسترليني(١٧٥).

وطبقًا لتقديرات حزب العمال لتكلفة الغزو البحري الأنجلو فرنسي، وما صرف عليه من خزينة المملكة المتحدة، والمنشورة في كتاب الشؤون الخارجية، حيث بلغت جملة الإنفاق فيما بين أكتوبر وديسمبر ١٩٥٦، ٢٣٤ مليون جنيه إسترليني، فإذا ما أضيفت إليها هبوط الإنتاج الوطني وقيمة الأسلحة، والمعدات بالقاعدة البريطانية بقناة السويس التي استولت عليها مصر كغنيمة حرب تصبح التكلفة الإجمالية للعدوان الأنجلو فرنسي على الخزانة البريطانية ٣٢٨ مليون جنيه إسترليني(١٧٦).

لقد أبلغ ماكميلان بصفته وزيرًا للمالية، مجلس العموم البريطاني أن الضغط على الجنيه الإسترليني اشتد منذ بداية نوفمبر ١٩٥٦، وأن الاحتياطي البريطاني من الدولار هبط بمقدار ٥٧ مليونًا في سبتمبر و٨٤ مليونًا في أكتوبر، و ٢٧٩ مليونًا في نوفمبر، وهذا الرقم يعادل ١٥% من احتياطي بريطانيا الكلي من الذهب والدولار(١٧٧).

وفي شهر نوفمبر ١٩٥٦ ساد الذعر دوائر الخزانة البريطانية، حتى لقد أبلغ المسئولون فيها ماكميلان، يوم ٦ نوفمبر، أن هبوط الإسترليني قد

زاد لدرجة أنه أصبح يساوى ٢,٧٨ من الدولار فقط، أما المدخرون للإسترليني فقد بدأ يتسرب الخوف إلى نفوسهم مما سوف تكون عليه حال العملة فيما بعد. وقد أخذت الدوائر المالية الأمريكية تمارس كل أنواع الضغط على الحكومة البريطانية، واضطر ماكميلان إلى أن يرسل برقية لواشنطن يتوسل أن تمنح بريطانيا قرضًا قدره ألف مليون دولار، وذلك لإنقاذ الإسترليني، وردت أمريكا في اليوم نفسه بأنها على استعداد لمنح القرض، بشرط أن توافق بريطانيا على وقف إطلاق النار حتى منتصف الليل، وكان في هذا الرد فصل الخطاب، فقد أرغمت الوزارة البريطانية على قبوله، وبذلك انتهت أزمة السويس(١٧٨).

أما على الجانب الفرنسي: فعقب حملة السويس، قطعت الحكومة المصرية العلاقات التجارية والاقتصادية مع فرنسا، وكان ذلك بمثابة ضربة قاضية للنشاط الفرنسي في مصر في المجالات التجارية والصناعية. وقدر مجموع الخسائر الفرنسية في القطاعين الصناعي والتجاري نحو ٤٠٠ مليار فرانك قديم، أي نحو أربعة مليارات فرانك جديد. فقد وضعت الحكومة المصرية أربعة بنوك فرنسية كبرى، هي: بنك الكريدي ليونيه، والكونتوار ناسيونال دي باري، والبنك العثماني، والكريدي دوريان تحت الحراسة، وكذلك شركة الرهونات المصرية وتسع شركات فرنسية للتأمين وفروعها والمصالح الفرنسية في ثلاث مؤسسات للائتمان العقاري، والشركة العامة لتكرير السكر، ومعامل تكرير البترول، والشركة المصرية للبترول وثلاثة مصانع تعتمد على شركة الغاز السائل وغيرها(١٧٩).

وشملت الخسائر أيضًا العقود الصناعية، التي فقدها الفرنسيون، وهذه العقود تضمنها الاتفاق، الذي وقعته مصر وفرنسا في مارس ١٩٥٤، وتشمل تكليف شركة كهرباء فرنسا القيام ببحوث عامة لإنتاج واستخدام الطاقة

الكهربائية في مصر، وإنشاء مصنع للأسمدة الأزوتية في أسوان، وإنشاء شبكة كهربائية في القاهرة. وقيمة هذا العقد ٦٠٠ مليون فرانك – وإنشاء محطة كهربائية في شبرا وقيمت هذا العقد ٥٠ مليون فرانك، وتوريد ٢٠٠ ألف من العوارض الخشبية اللازمة للأشغال البحرية، وقيمة هذا العقد ٣٣٦ مليون فرانك، وإنشاء خمسة خزانات للبترول، سعت كل منها عشرة آلاف متر مكعب في القاهرة، وإنشاء عشرين قاطرة سكة حديد طراز باسيفيك لخط القاهرة – الإسكندرية .

ومهما يكن من شأن هذه الخسائر الفادحة، فإنها لا تشمل غير ناحية واحدة من القصة كلها. وقد بذلت جهود ضخمة فيما بعد للتخفيف من آثارها، أسفرت عن عقد اتفاقية في زيوريخ يوم ٢٢ أغسطس ١٩٥٨، إعادة العلاقات الاقتصادية والمالية والثقافية بين فرنسا ومصر لحالتها الطبيعية، ولكن ذلك حدث بعد مضى شهر من عقد تسوية بين الحكومة المصرية، وبين الشركة العالمية لقناة السويس .. وبعد مضى شهر أيضًا من تولى حكومة جديدة الحكم في فرنسا. وقد نصت اتفاقية زيوريخ – بصفة خاصة – على إنهاء التدابير الخاصة التي اتخذت ضد الرعايا الفرنسيين في مصر، ورفع الحراسة عن ممتلكاتهم، وإعادتها إليهم، أو دفع قيمتها لهم .

وكذلك كانت للعدوان نتائج كبيرة على منطقة الشرق الأوسط، تلخصت في تدخل الولايات المتحدة في الشئون الاقتصادية للمنطقة، عن طريق تقديم الإعانات لبعض دولها، بعد أن تقلص النفوذ الأنجلو فرنسي فيها، كما بدأ الاتحاد السوفيتي يتسلل للمنطقة، عن طريق المساعدات الاقتصادية والإنمائية لدول المنطقة، وكذلك صفقات الأسلحة والمعدات الحربية .

وتلخصت نتائج العدوان الثلاثي في المجال الاقتصادي، في خسارة دول العدوان اقتصاديًا، وتصدع الإنتاج العام في أوروبا للافتقار إلى البترول..

بالإضافة إلى الاتجاه إلى إنشاء خطوط أنابيب جديدة بين الخليج العربي والبحر المتوسط عن طريق أراضي حلف بغداد، واتجاه المملكة المتحدة إلى خفض مصروفاتها، والتوسع في تجارتها مع الصين الشعبية، مما ضاعف من حرج الولايات المتحدة وزاد قلقها.. وأنشئت السوق الأوروبية المشتركة لدول غرب أوروبا، ونشطت محاولات استغلال الطاقة الذرية في غرب أوروبا، لتوليد القوى المحركة بأسرع ما يمكن كمصدر بديل للنفط.

وامتدت نتائج العدوان الثلاثي على مصر إلى الدول التي كانت مغلوبة على أمرها والخاضعة للسيطرة الاستعمارية، فزاد اقتناعها بأن أسلوب القرن التاسع عشر واستخدام القوة العسكرية في إسكات الحركات الشعبية التحررية قد عفا عليه الزمان – فزاد نشاط الحركات التحررية. ولم تقف مصر ساكنة حيالها بل امتدت يد المساعدة إليها لتساعدها على التحرر من الاستعمار إيمانًا منها بأن تحرير تلك البلاد منه يدعم استقلال مصر السياسي ويؤمنه أيضًا.

ومجمل القول إن ذلك العدوان الثلاثي ترك وراءه ست نتائج ذات أهمية بالغة، تتلخص في أنه رفع الرئيس جمال عبد الناصر من مرتبة رئيس دولة نامية إلى مصاف زعماء العالم الثالث ذوى الكلمة المسموعة والمنزلة العالمية الرفيعة.

وأنه أنهى – بغير عودة – دبلوماسية "مدفع البارجة"، التي استمر الاستعمار الأنجلو فرنسي يستخدمها مائة عام أو يزيد، لقلب حكومات دول العالم الثالث وفرض إرادته عليها. كما أدخل تغييرًا جذريًا، على طبيعة العلاقات بين العالم القديم والعالم الحديث بما أجبر الدول العظمى والكبرى، على التحول عن أسلوب السيطرة المباشرة إلى السيطرة غير المباشرة، على مقدرات الشعوب النامية. كما أن العدوان أحيا في العالم الثالث آمال العزة

الوطنية والانتماء إلى نفس القضايا، التي تربط بين دوله وشـعوبه، نتيجـة وحدة مصالحها ووحدة مصادر الخطر عليها. وأثبت أن مصر ليست أكبـر دولة عربية فقط، بل هى رأس الأمة العربية وضميرها الحي وعقلها المفكر، وأنه بقيادة مصر ينتظم النضال العربي كله.

وأخيرًا أثبت العدوان أن إسرائيل هـى وكيلـة للإمبرياليـة، وعميلهـا الاحتكاري في الوطن العربي، وهى مخلب القط والصنيعة الجـاهزة علـى الدوام لحماية مصالح الدول الاستعمارية في الشرق الأوسط حتى ولو تطلب الأمر أن تشعل فيه الحروب بالوكالة عن تلك المصالح الاستعمارية.

الخلاصـــــــة :

كانت معركة السويس بؤرة تركيز تجمعت فيها كل أماني مــصر فــي الاستقلال الوطني والتنمية الاقتصادية الاجتماعية والتوحد مع عالمها الــذي تنتمي إليه، وفيها اكتشف الشعب المصري طاقاته الكامنة ومــصادر قوتــه الحقيقية.

لقد كان أنتوني ناتنج – وزير الدولة البريطاني للشئون السياسية إبــان أزمة السويس – بعيد النظر وصافي الفكر والذهن إلى أبعد حد حينما اختار لكتابه الشهير عن السويس عنوانًا يقول "لا نهايــة للــدرس" No End of a Lesson. هكذا رأى حرب السويس وهكذا نراها معه: درسًا لا نهاية له.

كان أنتوني ناتنج يعني في كتابه "درس السويس" الطرف البريطــاني، ونحن معه في ذلك ولكننا نراها درسًا لكل الأطراف، والطــرف المــصري أولهم وأحقهم.

إن الدرس الأساسي للسويس هو أن مصر تعلمت أنها يمكن أن تكون مستقلة.. وأن بريطانيا وفرنسا قد تعلمت أنهمــا لــم يــستطيعا أن يكونــا مستقلتين؛ لأن العالم لم يعد محكومًا بالاستقلال بصفة مطلقة لأن هناك عاملاً قويًا هو التضامن بين المستقلين المتكافئين.

استطاعت مصر أن تحارب وأن تنتصر فــي صــراع الــسويس لأن تضامنها مع العالم العربي وتعاطف شعوب العالم الخارجي معها بما في ذلك الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ساعدها على تحقيق النصر.

ولكن بريطانيا وفرنسا بالطبع، بتصرفهما المنفــرد، وجــدا نفــسيهما منعزلتين في الأمم المتحدة، بل وعلى صعيد العالم كله.. وعندئذ وجدا أنهما لا يستطيعان المضي في فعلتهما.

وفي أعقاب السويس قررت السياسة البريطانية أن تأخذ موقفًا سلبيًا مطلقًا في الشرق الأوسط، وأن تنضوي تحت العباءة الأمريكية، وأن تؤيد كل حركة تصدر عن واشنطن أيًا كان سوء هذه الحركة و أيًا كان انحيازها.

خرجت فرنسا من التجربة تبحث عن بديل. ولم يمض عام إلا وسقطت الجمهورية الثالثة وعاد "ديجول" يؤسس الجمهورية الرابعة وهو يدرك أن فرنسا لم تعد تستطيع أن تعتمد على الرادع النووي الأمريكي إذا كان لها أن تحتفظ باستقلالية قرارها السياسي، وهكذا ولدت قوة الضرب الفرنسية المستقلة ووراء ذلك ظهرت احتمالات أوروبا الغربية كقوة نصف مستقلة على الأقل.

إن الدرس الذي استوعبته فرنسا استوعبته الصين أيضًا وهكذا راحت بدورها تسعى إلى دخول النادي النووي لكي تصبح قوة عظمى بإمكانياتها الذاتية.

أحدثت السويس تحولاً هامًا في سياسة إسرائيل فقد راحت من يومها توجه اهتمامها شطر النجم الأمريكي البازغ وتلحق نفسها به. وكان ذلك بداية ظهور دور الشرطي المحلي الذي كررت الولايات المتحدة نمونجه بعد ذلك كثيرًا في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وإن بقيت للشرطي الإسرائيلي مكانة مميزة لأسباب عديدة آخرها أنه أصبح شرطيًا نوويًا – لأول مرة في تاريخ الشرطة.

وكانت السويس هى العلامة البارزة في حركة التحرر الأفريقي، ويكفي للدلالة على ذلك أن "هارولد ماكميلان" رئيس الوزراء الذي خلف "إيدن" لم يسبق له ذكر سياسي غير خطابه المشهور عن رياح التغيير في أفريقيا والذي كان معناه تصفية بقايا الإمبراطورية في أفريقيا.

وكان إلهام السويس عميقًا في أمريكا اللاتينية، وقد ذكر الزعيم الكوبي فيدل كاسترو، أنه كان يتابع مع رجاله في جبال كوبا، أخبار الغزو البريطاني الفرنسي الإسرائيلي لمصر، ومقاومة الشعب المصري الباسلة له، ويخطب في رجاله قائلاً: "إذا كان في استطاعة شعب صغير كالشعب المصري التصدي لإمبراطوريتين - ولدولة تابعة - أفلا نستطيع نحن أن نتصدى لدكتاتور تابع وهو الجنرال باتيستا".

وظهرت حقائق كثيرة من حرب السويس.. منها أن عصر الحملات الاستعمارية قد انتهى تمامًا، وانتهت أساليبه وأبرزها دبلوماسية المدافع البحرية. وتأكدت استحالة الحرب النووية. واكتشف الجميع بالتجربة العملية أن التدخل المباشر ضد الآخرين ينطوي على احتمالات صعبة، وخرج الكل يدرس أن العمل غير المباشر أكثر أهمية - وربما أقدر على التحقيق - من العمل المباشر.

كانت تلك دروس السويس، التي اضطرت قوات العدوان إلى الانسحاب تحت ضغوط هائلة وبعد عناد عقيم شبهه "راندولف تشرشل" - ابن ونستون تشرشل - بأنه كان أشبه ما يكون بعناد "هتلر" في سحب قواته من "ستالنجراد" حتى فات الأوان.

وبعد دراسة الآثار والنتائج والدروس المستفادة من السويس، نعود إلى الأهداف الاستراتيجية الأساسية في أزمة السويس وحرب السويس لكي نرى من حقق الأهداف؟ ومن انتصر؟.

كانت بريطانيا تريد القناة وإخضاع مصر وقتل رئيسها وقائد مسيرتها، وكانت فرنسا هى الأخرى تريد الخلاص من عبد الناصر لتقضي على قاعدة الثورة الجزائرية قبل أن تريد شركة قناة السويس، ولم تستطع بريطانيا ولا فرنسا أن تحققا أهدافهما.

وكانت السياسة الأمريكية تريد محاصرة عبد الناصر استعدادًا للقضاء عليه ليخلو لها الطريق أمام دخولها المنطقة استعدادًا لربط دولها بالأحلاف الأمريكية، بل كان هدفها الأساسي بعد الخلاص من عبد الناصر هو إرثها لممتلكات الإمبراطورية البريطانية وكذا فرنسا.

وكانت إسرائيل تريد ضرب مصر لتسكت صوت القومية العربية والوحدة العربية.

كانت تلك هى أهدافهم الاستراتيجية في الأزمة.. ولم تستطع سياستهم ولا آلتهم الحربية أن تحقق واحدًا منها. وأما الهدف الاستراتيجي المصري وهو احتفاظ الشعب المصري بملكيته لشركة قناة السويس وإدارتها له فقد بقى ذلك الهدف حتى هذه اللحظة أهم منجزات السياسة المصرية، وفشلت جميع المحاولات الغربية في النيل منه، فضلاً عن أن مصر خرجت من هذه الأزمة بعطف دولي هائل استطاع أن يخترق حتى الرأي العام لدول العدوان ذاتها وربما كان سببًا في إزاحة العديد من القيادات المتآمرة على مصر وشعبها وقيادتها وأهدافها العظيمة.

الهوامش

(١) Finer, Herman. Dulles over Suez, London 1964 PP. 68 -69, see also,

وزارة الخارجية المصرية، الكتاب الأبيض في تأميم شركة قناة السويس، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٦، ص ص ٥٥ – ٥٦.

(٢) Robertson, Terence . Crisis, London 1964, PP. 87 – 88.

(٣) وثائق ندوة السويس الدولية – معركة السويس، ثلاثون عامًا، دار الشروق – الطبعة الأولى ١٩٨٩، ص ٢٧٥.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٧٦.

(٥) المصدر السابق، ص ص ٢٧٦ – ٢٧٧.

(٦) ناتنج، انتوني: ناصر، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد – دار ومكتبة الهلال بيروت، مكتبة مدبولي القاهرة – الطبعة الأولى ١٩٨٥، ص ٢٠٧.

(٧) مقابلة مع الوزير السابق ثروت عكاشة بمنزله بالدقي يوم ٥ أغسطس ٢٠٠٦، انظر كذلك:

Neff, Donald. Warrious At suez – Eisenhower Takes Ameruca into Middle East, London 1990, P P 40 – 41.

(٨) وثائق وزارة الدفاع المصرية– وثائق المحفوظات العسكرية، برقية شفرية مرسلة من الملحق العسكري بتركيا زكريا العادلي إمام يوم ٦ أكتوبر إلى اللواء محمد عبد الحكيم عامر، استلمها مدير مكتبه البكباشي توفيق عبد الفتاح.

(٩) وثائق وزارة الدفاع المصرية، المصدر السابق، رسالة سرية أرسلها الملحق العسكري المصري بتركيا مع الملحق الإداري المصري بالسفارة الذي توجه للقاهرة، وسلمها إلى المخابرات الحربية المصرية يوم ١٥ أكتوبر ١٩٥٦.

(١٠) مقابلة مع اللواء حسن البدري بمنزله بمصر الجديدة يوم ١٥ مارس ١٩٩٦. وكان اللواء حسن البدري على علاقة قوية بالبكباشي زكريا العادلي إمام.

(١١) أحمد حمروش: مصر والعسكريون، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٥، ص ص ٩٩ – ١٠٠.

(١٢) مقابلة مع اللواء حسن البدري، مقابلة سبق ذكرها.

(١٣) أحمد حمروش، المرجع السابق، ص ١٠٠.

(١٤) حسن البدري وفطين أحمد فريد: حرب التواطـؤ الثلاثـي – المكتبـة الأكاديميـة القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٧، ص ٦٥٤.

(١٥) صلاح بسيوني: مصر وأزمة السويس، دار المعارف بمـصر– الطبعـة الأولـى ١٩٧٠، ص ص ١٥٦ – ١٥٧.

(١٦) محمد حسنين هيكل: ملفات السويس، مطابع الأهرام – الطبعة الأولى ١٩٨٧، ص ٤٩٥.

(١٧) ناتنج، انتوني: ناصر، ص ٢٠٨، انظر كذلك: نيف، دونالد: حرب السويس، ترجمة أحمد خضر وعبد السلام رضوان – مكتبة مدبولي – القاهرة ١٩٩٠، ص ص ٥٣٧– ٥٣٨.

(١٨) المصدر السابق، نفس المكان، انظر كذلك وثائق المحفوظات العسكرية المـصرية، قرار توحيد الجبهة المصرية الصادر من اللواء أركان الحرب محمد عبد الحكيم عامر سعت ٢٢٠٠ يوم ٣١ أكتوبر ١٩٥٦،

Nutting, Antony. No End of Alesson, The story of Suez, London, 1967,P P. 155-156, Dupuy, Trevor N. Elusive victory, London, .1978, P P. 190-192

(١٩) ناتنج، انتوني: ناصر، ص ٢٠٩.

(٢٠) المصدر السابق، نفس المكان.

(٢١) المصدر السابق، نفس المكان.

(٢٢) محمود رياض: مذكرات محمود رياض، الجزء الثـاني، دار المـستقبل العربـي، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٦، ص ١٥٥.

(٢٣) المصدر السابق، ص ١٥٦.

(٢٤) دايان، موشي: يوميات معركة سيناء، ترجمة المخابرات العامـة ١٩٦٥، ص ص ٥٦– ٦٧، انظر كذلك دايان، موشي: قصة حياتي، الجزء الأول، الترجمة العربية رقم ٧٣٠، الهيئة العامة للاستعلامات، ص ص ٧٥– ٧٦.

(٢٥) ناتنج،أنتوني: وثائق ندوة السويس الدولية –معركة السويس، ثلاثـون عامًـا، دار الشروق– الطبعة الأولى ١٩٨٩، ص ١٦٦، انظر كذلك ناتنج، أنتوني: درس لا نهاية



له.. قصة السويس، مصلحة الاستعلامات – الترجمة العربية رقم ٥٩٠، ص ص ٤٨-٤٩.

(٢٦) ناتنج، أنتوني: وثائق ندوة السويس الدولية -ثلاثون عامًا، ص ص ١٦٦- ١٦٧، انظر كذلك دوبوى، تريفور. ن: النصر المحير،الترجمة العربية-رقم ٧٦٨، الهيئة العامة للاستعلامات، ص ص ٢٣٤- ٢٣٩.

(٢٧) محمد حافظ إسماعيل، أمن مصر القومي في عصر التحديات، مركز الأهرام للترجمة والنشر – الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٧، ص ٦٨.

(٢٧) عبد اللطيف البغدادي، مذكرات عبد اللطيف البغدادي، الجزء الأول، المكتب المصري الحديث، الطبعة الأولى – القاهرة ١٩٧٧، ص ص ٣٥٣- ٣٥٤.

(٢٨) ناتنج، أنتوني: ناصر، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد، ص ٣١، انظر كذلك محمد حافظ إسماعيل، المصدر السابق، ص ٦٨.

(٢٩) عبد اللطيف البغدادي، المصدر السابق، ص ٣٦٥.

(٣٠) محمد حافظ إسماعيل، المصدر السابق، ص ٦٩.

(٣١) وزارة الحربية، شعبة البحوث العسكرية – القيادة العامة للقوات المسلحة، حرب العدوان الثلاثي على مصر – خريف سنة ١٩٥٦، الجزء الأول، مطابع القوات المسلحة ١٩٦٥، ص ص ٦٥- ٦٧.

(٣٢) وزارة الحربية، وثائق المحفوظات العسكرية -غير منشورة- ملف رقم ٨٥/٥٦- ملف الخطة تحرير، انظر كذلك مقابلة مع أمين هويدي بمنزله بمصر الجديدة يوم ١٠ أغسطس ٢٠٠٦م. وأمين هويدي كان يشغل في ذلك الوقت رئيس فرع التخطيط بالقيادة العامة.

(٣٣) محمد حافظ إسماعيل، المصدر السابق، نفس المكان.

(٣٤) محمد حافظ إسماعيل، المصدر السابق، ص ص ٦٩ – ٧٠.

(٣٥) المصدر السابق، ص ٧٠.

(٣٦) المصدر السابق، نفس المكان.

(٣٧) بن جوريون، ديفيد. إسرائيل تاريخ شخصي، الجزء الثالث – المخابرات العامة، مركز البحوث والمعلومات، ص ص ١٢٠ – ١٢٢، انظر كذلك دايان، موشي- يوميات معركة سيناء، ترجمة المخابرات العامة ١٩٦٥، ص ص ٧٨ – ٧٩.

(٣٨) وثائق وزارة الحربية المصرية، وثائق المحفوظات العسكرية المصرية، قرار توحيد الجبهة المصرية الصادر من اللواء أركان الحرب محمد عبد الحكيم عامر ساعت ٢٢٠٠ يوم ٣١ أكتوبر ١٩٥٦.

(٣٩) دوبوى، تريفور. ن: النصر المحير، ص ٢٥٧.

(٤٠) وثائق وزارة الحربية المصرية، وثائق المحفوظات العسكرية المصرية، ملف رقم ٥٦/٨٥، الخطة المصرية للدفاع عن الإسماعيلية والدلتا.

(٤١) حسن البدري وفطين أحمد: حرب التواطؤ الثلاثي، المكتبة الأكاديمية. الطبعة الأولى ١٩٩٦، ص ٦٥٤.

(٤٢) المرجع السابق، ص ٦٥٥.

(٤٣) وثائق وزارة الحربية المصرية، وثائق المحفوظات العسكرية، ملف رقم ٥٦/٢٢ ملف انسحاب قوات سيناء، انظر كذلك وثائق المحفوظات العسكرية، قرار توحيد الجبهة المصرية الصادر من اللواء محمد عبد الحكيم عامر، سبق ذكره.

(٤٣) وثائق وزارة الحربية المصرية، وثائق المحفوظات العسكرية، ملف رقم ٥٦/٢٢ ، المصدر السابق.

(٤٤) وثائق وزارة الحربية المصرية، وثائق المحفوظات العسكرية، ملف رقم ٥٦/١٢٤، خسائر القوات الجوية والدروس المستفادة.

(٤٤) حسن البدري وفطين أحمد، المرجع السابق، ص ص ٦٥٥ – ٦٥٦.

(٤٥) دوبوي، تريقور. ن: النصر المحير، ص ص ١٧٢– ١٧٩.

(٤٦) المصدر السابق، ص ص ٢٠٩– ٢١٠.

(٤٧) وثائق ندوة السويس الدولية – معركة السويس، ثلاثون عامًا، ص ٣٥..

(٤٨) المصدر السابق، نفس المكان.

(٤٩) المصدر السابق، ص ص ٣٥ – ٣٦

(٥٠) وثائق المحفوظات العسكرية، ملف الخطة موسكيتر المعدلة النهائية، ص ١٢.

(٥١) Hugh, Thom. The Suez Affair (Weidenfeld and Nicolson), P. 228.

(٥٢) وثائق الحربية المصرية، ملف رقم ٩٨، التقرير الرسمي للجنرال كيتلي عن العمليات الحربية ضد مصر، نوفمبر – ديسمبر ١٩٥٦، ترجم عن طريق المخابرات الحربية المصرية، ص ٧.

(٥٣) المصدر السابق، انظر كذلك حسن البدري وفطين أحمد، حرب التواطؤ الثلاثي، ص ٦٥٩.

(٥٤) وثائق الحربية المصرية، ملف رقم ٩٨، التقرير الرسمي للجنرال كيتلي، ص ص ١٥ – ١٦.

(٥٥) حسن البدري وفطين أحمد: حرب التواطؤ الثلاثي، ص ص ٦٥٩ – ٦٦٠.

(٥٦) Neff, Donald. Warrious AT Suez, P P 495 – 497.

(٥٧) Dupuy, Trevor. Elusive Victory, P P. 215 – 217.

(٥٨) وثائق وزارة الحربية المصرية، وثائق المحفوظات العسكرية، ملف رقم ٦٥/٥٦، ملف بعنوان الدروس المستفادة من العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ومبادئ الحرب، ص ص ٧ – ٨.

(٥٩) وثائق وزارة الحربية المصرية، وثائق المحفوظات العسكرية، ملف ١٠٨/٥٦ ملف بعنوان الإنزال الأنجلو فرنسي في بورسعيد، ص ١٥.

(٦٠) المصدر السابق، ص ص ٢١ – ٢٢.

(٦١) وثائق وزارة الحربية المصرية، وثائق المحفوظات العسكرية – ملف رقم ١٨٨ بعنوان الضربة الجوية الأنجلو فرنسية للقواعد والمطارات المصرية عام ١٩٥٦، انظر كذلك وثائق وزارة الحربية، ملف رقم ٩٨، التقرير الرسمي للجنرال كيتلي، ص ٢٥.

(٦٢) ملف رقم ١٨٨، الضربة الجوية الأنجلو فرنسية.

(٦٢) دوبوي، تريفور. ن: النصر المحير، الترجمة العربية رقم ٧٦٨، الهيئة العامة للاستعلامات، ص ٢٤٠، انظر كذلك مقابلة مع العميد صلاح الموجي بقصره بالجيزة، يوم ٤ فبراير ٢٠٠٤، هرزوج، حاييم: الحروب العربية– الإسرائيلية ١٩٤٨– ١٩٨٢، ص ص ١٦٥– ١٦٦.

(٦٣) بن جوريون، ديفيد: إسرائيل تاريخ شخصي، الجزء الثالث، ص ص ١٥٦– ١٧٩، انظر كذلك دايان، موشي: يوميات معركة سيناء، ص ص ١٠٨ – ١١٢، Dayan, Moshe. Story of My Life, London 1971, P P. 98–105. وثائق الحربية



المصرية، ملف رقم ٩٨ وهو مسودة كتاب العدوان الثلاثي على مصر، ص ص ٥٥٠ -٥٧٥.

(٦٤) حسن البدري وفطين أحمد: حرب التواطؤ الثلاثي، ص ١٦١، انظر كذلك هرزوج، حاييم: الحروب العربية الإسرائيلية، ص ص ١٦٧ – ١٦٨.

(٦٥) دايان، موشي: يوميات معركة سيناء – ترجمة المخابرات العامة المصرية، القاهرة ١٩٦٥، ص ٩٠، انظر كذلك:

Oballance, Edgar. The Sinai Compaign 1956, London 1959, P P. 155 – 165.

(٦٦) دايان، موشي: يوميات معركة سيناء، ص ١٢٢.

(٦٧) وايزمان، عايزر: على أجنحة النسور، ترجمة المخابرات العامة، القاهرة ١٩٦٦، ص ٨١.

(٦٨) وثائق المحفوظات العسكرية المصرية –غير منشورة– ملف رقم ٥٥/٥٧ تحت عنوان تقييم الجنرال حاييم لاسكوف لحملة سيناء عام ١٩٥٦، ترجمة المخابرات الحربية المصرية، ص ص ٣–٥، انظر كذلك هرزوج، حاييم: الحروب العربية – الإسرائيلية ١٩٤٨–١٩٨٢، ترجمة بدر الرفاعي، سيناء للنشر – الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٣، ص ١٦٨.

(٦٩) المصدر السابق، ص ص ١٢ – ١٤.

(٧٠) المصدر السابق، ص ص ١٦ – ١٨.

(٧١) المصدر السابق، ص ص ٢٥ – ٣٢.

(٧٢) دوبوي، تريفور. ن: النصر المحير، الترجمة العربية رقم ٧٦٨، الهيئة العامة للاستعلامات، ص ص ٢٣٠ – ٢٣١. وجهة نظر أخرى.

(٧٣) المصدر السابق، ص ص ٢٣١ – ٢٣٣. وجهة نظر أخرى.

(٧٤) وثائق وزارة الحربية المصرية، وثائق المحفوظات العسكرية – غير منشورة – ملف رقم ٢٥/٥٧ تحت عنوان تقرير البريجادير ستيوارت الملحق العسكري الأمريكي بتل أبيب والمرسل للبنتاجون بتاريخ ١٨ يونيه ١٩٥٧، ص ص ١ – ٢.

(٧٥) المصدر السابق، ص ص ١٥ – ١٧.

(٧٦) حسن البدري وفطين أحمد: حرب التواطؤ الثلاثي، ص ٦٦٥.

(٧٧) ناتنج، أنتوني: ناصر، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد، مكتبة مدبولي بالقاهرة – الطبعة الأولى ١٩٨٥، ص ١٠٥.

(٧٧) ناتنج، أنتوني: كيف أدار إيدن أزمة السويس، وثائق ندوة السويس الدولية –معركة السويس ثلاثون عامًا، دار الشروق– الطبعة الأولى ١٩٨٩، ص ١٨.

(٧٨) المصدر السابق، ص ٢٢.

(٧٩) المصدر السابق، نفس المكان.

(٨٠) ناتنج، أنتوني: درس لا نهاية له.. قصة السويس، مصلحة الاستعلامات، الترجمة العربية رقم ٥٩٠، ص ص ٢٧– ٢٨.

(٨١) Lioyd, Selwyn. Suez 1956, London 1978, P. 85.

(٨٢) ناتنج، أنتوني: وثائق ندوة السويس الدولية، ص ٢٣.

(٨٣) المصدر السابق، ص ص ٢٣ – ٢٤.

(٨٤) أزو، هنري: فخ السويس، ترجمة حسن إبراهيم، دار القاهرة للطباعة والنشر– القاهرة ١٩٦٦، انظر كذلك صلاح بسيوني: مصر وأزمة السويس، ص ص ٩٤– ٩٧.

(٨٥) ناتنج، أنتوني: وثائق ندوة السويس الدولية، ص ٢٤.

(٨٦) المصدر السابق، ص ص ٢٤ – ٢٥.

(٨٧) المصدر السابق، ص ٢٥.

(٨٨) بن جوريون، ديفيد: إسرائيل تاريخ شخصي، ترجمة المخابرات العامة، ص ٨٥.

(٨٩) ناتنج، أنتوني: وثائق ندوة السويس الدولية، ص ص ٢٤– ٢٥.

(٩٠) المصدر السابق، ص ٢٥.

(٩١) ناتنج، المصدر السابق، نفس المكان.

(٩٢) المصدر السابق، ص ٢٦.

(٩٣) Lioyd, Selwyn. Suez 1956, P P. 97 – 98.

(٩٤) Nutting, Anthony: The Story of Suez – No end of a Lesson. London 1978, PP.121–122.

(٩٥) Robertson, Terence, Crisis, London 1964, P. 176.

(٩٦) دايان، موشي: قصة حياتي، الجزء الثاني – الترجمة العربية رقم ٧٣٠، الهيئة العامة للاستعلامات، ص ص ٢٤٤- ٢٤٧، انظر كذلك دوبوي، تريفور. ن: النصر المحير، ص ص ١٧٢- ١٧٣.

(٩٧) جريدة الأهرام، العدد ٣٦٣٤٤ بتاريخ ١٩٨٦/٦/١١، بينو يستعيد ذكرياته، الحلقة الثانية، ص ٥.

(٩٨) بيريز، شيمون: معارك السلام مذكرات منذ مولد إسرائيل حتى صراع السلام، ترجمة المخابرات العامة – القاهرة ١٩٩٥، ص ص ٢٨ – ٣٠، انظر كذلك جريدة الأخبار، العدد ١٣٤١٩ السنة ٥٤٣، بتاريخ الأربعاء ١٩٩٥/٥/١٠، بيريز يعترف، ص ١.

(٩٩) ناتنج، أنتوني: وثائق ندوة السويس الدولية، ص ٢٦، انظر كذلك بن جوريون، ديفيد: إسرائيل تاريخ شخصي، الجز الثالث، ص ص ١٢٠ – ١٢٦.

(١٠٠) ناتنج، أنتوني: وثائق ندوة السويس الدولية، ص ٢٧.

(١٠١) Lioyd, Selwyn. Suez 1956, London 1978, P P. 95 – 97.

(١٠٢) ناتنج، أنتوني، المصدر السابق، نفس المكان.

(١٠٣) محمود فوزي:حرب السويس ١٩٥٦، ترجمة دكتور مختار الجمال، دار الشروق ، الطبعة الأولى ١٩٨٧، ص ٩٢، انظر كذلك Lioyd, Selwyn. Suez 1956, PP. 88 - 89.

(١٠٤) بن جوريون، ديفيد: إسرائيل تاريخ شخصي، الجزء الثالث، ص ١٢٣.

(١٠٥) ناتنج، أنتوني، المصدر السابق، ص ٢٨.

(١٠٦) وثائق وزارة الحربية المصرية، ملف رقم ٩٨، ص ص ٤٨١ – ٤٨٢.

(١٠٧) ناتنج، أنتوني، المصدر السابق، ص ص ٢٨ – ٢٩.

(١٠٨) محمود فوزي: حرب السويس ١٩٥٦، ص ص ١١٣ – ١١٥، انظر كذلك محمد حسنين هيكل: ملفات السويس، مركز الأهرام للترجمة والنشر– الطبعة الأولى ١٩٨٦، ص ص ٥٧٥ – ٥٧٨.

(١٠٩) فوث، مايكل: حزب العمال البريطاني والعدوان على مصر، وثائق ندوة السويس الدولية، ص ص ١٤٧– ١٤٨.





ومايكل فوث هو رئيس حزب العمال البريطاني من عام ١٩٨٠ إلى عام ١٩٨٣، وله كتاب مشهور صدر عام ١٩٥٧ بعنوان "رجال مذنبون" يتضمن وجهة نظره في حرب السويس. وقد وصف تلك الحرب بأنها حرب إمبريالية ضد شعب كــل جريمتــه أنــه يسعى لنيل حقوقه

(١١٠) ناتنج، أنتوني: كيف أدار إيدن أزمة السويس، وثائق ندوة السويس الدوليــة، ص ٢٨.

(١١١) Jernegan To Murphy, 16 August 1954, RG 59, 774. 13. see also Hart Byroade, 26 October 1954, and Caffery to Dulles, 6 November 1954, RG 59, 774. 5 M s p.

(١١٢) كايل، كيث: العمل المشترك بين أمريكا وبريطانيا لمواجهة عبد الناصر، وثــائق ندوة الويس الدولية، ص ص ٣١٩ - ٣٢٠.

(١١٣) المصدر السابق، ص ص ٣٢٠ - ٣٢١.

(١١٤) المصدر السابق، ص ٣٢١.

(١١٥) Caffery to Dulles, 16 September and 27 November 1954, R G 59, 774. 5 M S P, Memorandum by operations Coordinating Board (hereinafter O C B) Working group, 21 December 1954 OCB. O 91. Egypt folder, OCB Central File Series. N S C staff papers, Dwight D. Eisenhower Library. Abilene. Kansas (hereinafter Eisenhower Library), and stevenson to Eden, 17 January 1955, Political Correspondence of the Foreign office. Fo 371/113608, JEIOS 7/1, P .R O.

(١١٦) حسن البدري وفطين أحمد: حرب التواطؤ الثلاثي، ص ٦٦٩.

(١١٧) كايل، كيث: العمل المشترك بين أمريكا وبريطانيا لمواجهة عبد الناصر، وثــائق ندوة السويس الدولية، ص ص ٣٣٦ - ٣٣٨.

(١١٨) Byroade to Dulles. 20 May and 9 June 1955, F R us 14 (1955 – 1957).

(١١٩) Progress Report on NSC 5428, 16 May 1956,R G 273 see also Progress Report on N S C 5428,2 November 1955. R G 273: Dulles to Macmillan, 5 December 1955.

(١٢٠) Dulles to Eisenhower, 28 March 1956, Whitman File: Diary Series. Box 13. see also memorandum of Conversation, 19 July





1956, and Byroade to Dulles, 26 July 1956. Frus 15 (1955 – 1957): 867 – 873, 906 – 908.

(١٢١) صلاح بسيوني: مصر وأزمة السويس، ص ٢١٠ – ٢١٤.

(١٢٢) Memorandum of Conversation by Goodpaster, 31 July 1956, Whitman File: Diary Series. Box 16. see also Eden to Eisenhower, 27 July 1956, PREM 11/1098, Minutes of Meeting, 27 July 1956, Whitman File: Cabinet series, Box 7.

(١٢٣) Eisenhower to Eden, 3 September 1956. PREM 11/1100. see also Dulles to Murphy, 30 July 1956, and Dulles to Eisenhower, 2 August 1956, Whitman File: Dulles – Herter series, boz 5.

(١٢٤) محمد حسنين هيكل: كيف أدار جمال عبد الناصر أزمة معركة السويس، وثائق ندوة السويس الدولية، ص ٤١.

(١٢٥) عبد اللطيف البغدادي: مذكراته، الجزء الأول، ص ص ٣٢٠ – ٣٢١، انظر كذلك عبد الحميد أبو بكر: أيام هزت الدنيا، ص ٢١.

(١٢٦) محمد حسنين هيكل: قصة السويس، شركة المطبوعات والتوزيع والنشر، الطبعة الثالثة ١٩٨٣ بيروت، ص ص ١٢٧ – ١٢٨، انظر كذلك: Robertson, Terence. Crisis, P. 88.

(١٢٧) مقابلة مع علي صبري – نائب رئيس الجمهورية سابقًا – بمنزله يوم الأحد ٢٨ ديسمبر ١٩٨٦، انظر كذلك محمد حسنين هيكل: وثائق ندوة السويس الدولية، ص ص ٤٣-٤٤.

(١٢٨) وثائق المحفوظات العسكرية –غير منشورة– تقرير مخابرات حربية رقم ٦٥/١٥ مرفوع إلى الرئيس جمال عبد الناصر بتاريخ ٢٤ يوليو ١٩٥٦ عن حجم القوات الأنجلو فرنسية في شرق البحر الأبيض المتوسط وفي القواعد حول مصر وقبرص.

(١٢٩) مقابلة مع أمين هويدي بمنزله بمصر الجديدة يوم ٢٥ يونيو ٢٠٠٦، انظر كذلك مقابلة مع ثروت عكاشة بمنزله بالزمالك يوم ٢٨ يونيو ٢٠٠٦، مقابلة مع محمود رياض بمنزله بالزمالك يوم ٥ ديسمبر ١٩٩١.

(١٣٠) Love, Kennett. Suez the Twice – Fought War Ahistory, New York, 1969, PP. 118 – 119.

(١٣١) I lid, p. 122.

(١٣٢) Childers, Ereskine. The Road to Sues, London 1962, PP. 73 - 75.

(١٣٣) وثائق ندوة السويس الدولية – معركة السويس، ثلاثون عامًا، ص ٤٧، انظر كذلك دوبوي، تريفور. ن: النصر المحير، ص ٢١٥.

(١٣٤) وثائق وزارة الخارجية المصرية – غير منشورة - مجموعة الوثائق يوليو ١٩٥٦- ديسمبر ١٩٥٧، رسالة الدكتور محمود فوزي إلى داج همر شولد بتاريخ ٢٤ أبريل ١٩٥٧، ص٣.

(١٣٥) المصدر السابق، ص ص ٧ – ٨.

(١٣٦) المصدر السابق، ص ص ٨ – ١٢.

(١٣٧) وثائق الخارجية المصرية، وثائق مجلس الأمن –جلسة مجلس الأمن يوم٢٦ أبريل ١٩٥٧، كلمة مندوب الولايات المتحدة الأمريكية.

(١٣٨) وثائق الخارجية المصرية، جلسة مجلس الأمن يوم ٢٦ أبريل ١٩٥٧، كلمة مندوب بريطانيا.

(١٣٩) المصدر السابق،كلمة مندوب فرنسا.

(١٤٠) المصدر السابق،كلمة مندوب الاتحاد السوفيتي.

(١٤١) المصدر السابق،جلسة مجلس الأمن يوم ٢٦ أبريل ١٩٥٧.

(١٤٢) صلاح بسيوني: مصر وأزمة السويس، دار المعارف بمصر ١٩٧٠، ص ٣٣٩.

(١٤٣) المرجع السابق، نفس المكان.

(١٤٤) المرجع السابق، ص ص ٣٣٩ – ٣٤٠.

(١٤٥) المرجع السابق،ص ٣٤٠.

(١٤٦) محمد حسنين هيكل: وثائق ندوة السويس الدولية، ص ٤٨.

(١٤٧) المصدر السابق، نفس المكان.

(١٤٨) المصدر السابق، نفس المكان.

(١٤٩) وثائق الخارجية المصرية – إدارة الصحافة، تقارير الصحافة العربية والعالمية خلال الفترة من ٢٦ يوليو وحتى ٢٢ ديسمبر ١٩٥٦.

(١٥٠) المصدر السابق.

(١٥١) حسن البدري وفطين أحمد، حرب التواطؤ الثلاثي، ص ٦٧١.

(١٥٢) وثائق ندوة السويس الدولية، ص ص ٤٩ - ٥٠.

(١٥٣) ناتنج، أنتوني: ناصر- ترجمة شاكر إبراهيم سعيد، ص ص ٢٣٠ - ٢٣١.

(١٥٤) دوبوي، تريفور. ن: النصر المحير، ص ٢٥٧.

(١٥٥) ناتنج، أنتوني: ناصر، ص ص ٢٣٢ - ٢٣٣.

(١٥٦) دوبوي، تريفور. ن: النصر المحير، ص ٢٤١.

(١٥٧) وثائق ندوة السويس الدولية، ص ٣٤.

(١٥٨) المصدر السابق، ص ص ٣٤ -٣٥.

(١٥٩) وثائق الخارجية المصرية، إدارة الأبحاث -قسم النشرات- سرى جداً، نشرة خاصة عن نتائج العدوان البريطاني الفرنسي الإسرائيلي على مصر، صادرة بتاريخ ٢٤ يونيه ١٩٥٧، ص ١٨.

(١٦٠) المصدر السابق، ص ص ٢٣ - ٢٤.

(١٦١) المصدر السابق، ص ص ٢٨ - ٢٩.

(١٦١) وثائق وزارة الخارجية - إدارة الأبحاث، قسم النشرات، سرى جدًا، نشرة خاصة عن العدوان البريطاني الفرنسي الإسرائيلي على مصر، صادرة بتاريخ ٢٨ مارس ١٩٥٧. الجزء الثاني، ص ص ٢٥ - ٢٧، انظر كذلك مقابلة مع علي صبري بمنزله بمصر الجديدة سبق الإشارة إليها.

(١٦٢) المصدر السابق، ص ص ٣٢ - ٣٣.

(١٦٣) المصدر السابق، ص ص ٣٣ - ٣٥.

(١٦٤) عبد اللطيف البغدادي: مذكرات عبد اللطيف البغدادي - الجزء الأول، ص ٣٦٦.

(١٦٥) وثائق الخارجية المصرية، إدارة الأبحاث - قسم النشرات - سرى جداً، نشرة خاصة عن نتائج العدوان البريطاني الفرنسي الإسرائيلي على مصر، صادرة بتاريخ ٢٤ يونيه ١٩٥٧، ص ٨.

(١٦٧) المصدر السابق، نفس المكان.

(١٦٨) عبد اللطيف البغدادي، المصدر السابق، ص ص ٣٦٦ - ٣٦٧.

(١٦٩) Hughes, Emrys. Macmillan – portrait of a politician London 1961, PP. 35 – 36.

(١٧٠) I lid, P. 37.

(١٧١) I lid, PP. 40 - 42.

(١٧٢) I lid, P. 45.

(١٧٣) I lid, PP. 48 - 49.

(١٧٤) وثائق الخارجية المصري، مجموعة وثائق أزمة السويس – غير منشورة – قرار قطع العلاقات التجارية والاقتصادية مع فرنسا، انظر كذلك قرار الحكومة المصرية بوضع البنوك والشركات والمؤسسات الفرنسية تحت الحراسة.

(١٧٥) وثائق الخارجية المصرية، مجموعة وثائق أزمة السويس – غير منشورة – قرار إلغاء العقود الصناعية بين الحكومة المصرية والشركات الفرنسية.

(١٧٦) وثائق الخارجية المصرية، مجموعة وثائق أزمة السويس – غير منشورة– اتفاقية زيوريخ بتاريخ ٢٢ أغسطس ١٩٥٨، انظر كذلك اتفاق بين الحكومة المصرية والشركة العالمية لقناة السويس بتاريخ ٢٢ سبتمبر ١٩٥٨.

(١٧٧) وثائق الخارجية المصرية، إدارة الأبحاث –قسم النشرات– سرى جدًا، نشرة خاصة عن نتائج العدوان البريطاني الفرنسي الإسرائيلي على مصر، صادرة بتاريخ ٢٤ يونيه ١٩٥٧، ص ص ١٠ – ١٢.

(١٧٨) المصدر السابق، ص ص ١٥ – ١٦.

(١٧٩) وثائق الخارجية المصرية، إدارة الأبحاث –قسم النشرات– سرى جدًا، نشرة خاصة عن نتائج العدوان البريطاني الفرنسي الإسرائيلي على مصر، الجزء الأول، صادرة بتاريخ ٢٩ ديسمبر ١٩٥٦، ص ص ٣ – ٤.

المصـــــــادر

أولاً: الوثائق:

أ- الوثائق غير المنشورة

١- العربية:

- وثائق وزارة الخارجية المصرية: تمت الإشارة إليها في هــوامش الدراسة.
- وثائق وزارة الحربية المصرية: تمت الإشارة إليها فـــي هــوامش الدراسة.

٢- الأجنبية:

- National Security File, NSC History – Middle – East Crisis.
- National Security File – I sroel, Volume 12.
- Private Papers of John Foster Dulles.
- Dwight Eisenhower Library: Boz 1, 3, 5.
- United States. Department of State. United States Policy in the Middle East: September 1956 – June 1957 Washington, Aug, 1957.

ب- الوثائق المنشورة:

١- العربية:

- وزارة الخارجية المصرية، الكتاب الأبيض في تأميم شركة قناة السويس، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٥٦.
- مصلحة الاستعلامات، بيانات الرئيس جمال عبد الناصر في مجلس الأمة سنة ١٩٥٧، المجلد الأول والثاني – المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٥٧.
- وثائق الخارجية البريطانية التي أعدها مركز الخليج للبحوث والدراسات الاستراتيجية في لندن وعلق عليها وحللها سير أنتوني نـــاتنج ونـــشرتها جريدة الأهرام القاهرية خلال الفترة من ٢٥ ينـــاير ١٩٨٦ وحتـــى ١٢ أبريل ١٩٨٦.

- وثائق ندوة السويس الدولية - معركة السويس- ثلاثون عامًا، دار الشروق - الطبعة الأولى ١٩٨٩.
- وزارة الحربية، هيئة البحوث العسكرية، العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦.

٢- الأجنبية:

- The Suez Canal Problem, July 26 - September 22, 1956, New York 1956.
- Suez Canal Papers, Selected documents, London 1965.
- التقرير الرسمي للجنرال كيتلي عن العمليات الحربية ضد مصر - نوفمبر، ديسمبر ١٩٥٦. نشرته مجلة لندن جازيت في ملحق خاص بتاريخ ١٠ سبتمبر ١٩٥٧. نقلاً عن وزارة الدفاع البريطاني. ترجم عن طريق المخابرات الحربية المصرية.

ثانيًا: المذكرات الشخصية:

أ- غير منشورة:

- أحمد حسين، مذكراته عن أزمة السويس.
- محمود فوزي، مذكراته عن أزمة السويس والعدوان الثلاثي على مصر.
- صلاح الموجي، مذكراته عن حرب العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦. والعميد صلاح الموجي كان يشغل إبان الحرب منصب رئيس أركان الجبهة.

ب- منشورة:

١- العربية:

- إيدن، أنتوني: مذكراته - جزءان، ترجمة خيري حماد - دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر بيروت ١٩٦٠.
- أيزنهاور، دويت: مذكراته، ترجمة هيوبرت يونغمان، الطبعة الأولى ١٩٦٩.

- بن جوريون، ديفيد: إسرائيل تاريخ شخصي، إعـداد مركـز البحـوث والمعلومات – المخابرات العامة المصرية.
- ثروت عكاشة: مذكراتي في السياسة والثقافة – جزءان، مكتبة مـدبولي، القاهرة ١٩٨٧.
- دايان، موشي: يوميات معركة سيناء، ترجمة المخابرات العامة ١٩٦٥.
- دايان، موشي: قصة حياتي، جزءان، الترجمة العربية رقم ٧٣٠ الهيئـة العامة للاستعلامات.
- عبد اللطيف البغدادي – مذكراته، جزءان، المكتب المـصري الحـديث القاهرة ١٩٧٧.
- فتحي رضوان: ٧٢ شهرًا مع عبد الناصر – كتاب الحرية، دار الحريـة للصحافة والطباعة والنشر – العدد الثاني، القاهرة ١٩٨٥.
- محمود رياض: مذكراته، الجزء الثاني – الأمن القـومي العربـي بـين الانحياز والفشل، دار المستقبل العربي، القاهرة ١٩٨٦.
- محمود فوزي: حرب السويس ١٩٥٦، دار الشروق – الطبعـة الأولـى ١٩٨٧.
- محمد حافظ إسماعيل: مذكراته – أمن مصر القومي، مطـابع الأهـرام، القاهرة ١٩٨٧.
- هرزوج، حاييم: الحروب العربية – الإسرائيلية ١٩٤٨ – ١٩٨٢، ترجمة بدر الرفاعي، سينا للنشر، الطبعة الأولى – القاهرة ١٩٩٣.

٢- الأجنبية:

- Ben Gurion, D: years of challenge, London 1963.
- Ben Gurion, D: Apersonal History, New York, 1971.
- Dayan, Moshe. Diary of the Sinai Compaign, Harper and Row - New York, 1966.

- Dawan, Moshe. Story of My Life, London, 1971.
- Dulles, J.F. War or peace, United States, London 1957.
- Eden, Anthony. Full Circle, Cassel, London 1960.
- Eisenhower, Dwight. Waging Peace, Doubleday – New York, 1965.
- Lioyd, Selwyn. Suez 1956, London, 1978.
- Mahmoud Fawzi. The Suez War 1956, London, 1987.

ثالثًا: المقابلات الشخصية والمصادر الحية:

- أمين هويدي، مقابلات معه بمنزله بمصر الجديدة خلال شهر أغسطس ٢٠٠٦.
- ثروت عكاشة، مقابلة بمنزله يوم ٥ أغسطس ٢٠٠٦.
- حسن البدري، مقابلة بمنزله بمصر الجديدة يوم ١٥ مارس ١٩٩٦.
- علي بليغ صبري، مقابلات كثيرة معه خلال أشهر عام ١٩٨٩ وعام ١٩٩٠.
- عبد اللطيف البغدادي، مقابلات معه بمنزله بمدينة نصر خلال شهر مارس ٢٠٠١.
- محمود رياض، مقابلات معه خلال شهر يناير ١٩٩١ بمنزله بالزمالك.

رابعًا: الدوريات:

- الجمهورية: جريدة يومية قاهرية – الأعداد من يناير ١٩٥٥ وحتى نهاية ديسمبر ١٩٥٦. ثم أعداد متفرقة أعوام ١٩٨١، ١٩٨٢، ١٩٨٦، ١٩٨٧، ١٩٨٨، ١٩٨٩، ٢٠٠٦.
- الأهرام: جريدة يومية قاهرية – الأعداد من يناير ١٩٥٣ وحتى نهاية يونيه ١٩٥٧. ثم أعداد متفرقة أعوام ١٩٨٥، ١٩٨٦، ١٩٨٩، ١٩٩٠، ٢٠٠٢، ٢٠٠٦.

خامسًا: المؤلفات والبحوث والدراسات العلمية:

أ- العربية:

- أحمد حمروش: مصر والعسكريون، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٥٧.
- آزو، هنري: فخ السويس، ترجمة حسن إبراهيم – دار القاهرة للطباعة والنشر ١٩٦٦.
- أمين هويدي: حروب عبد الناصر، دار الموقف العربي، القاهرة ١٩٨٢.
- أمين هويدي: الفرص الضائعة، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الأولى ١٩٩٢ بيروت.
- بارزوهار، ميشيل: حرب السويس، وزارة الإرشاد القومي – مصلحة الاستعلامات.
- بيريس، شيمون: معارك السلام – مذكرات منذ مولد إسرائيل حتى صراع السلام، ترجمة المخابرات العامة – القاهرة ١٩٩٥.
- حلمي سلام: أنا وثوار يوليو، دار المعارف – القاهرة ١٩٨٢.
- حسن البدري وفطين أحمد: حرب التواطؤ الثلاثي، المكتبة الأكاديمية – القاهرة ١٩٩٦.
- صلاح بسيوني: مصر وأزمة السويس، دار المعارف بمصر ١٩٧٠.
- محمد حسنين هيكل: قصة السويس، شركة المطبوعات والتوزيع والنشر، الطبعة الثالثة ١٩٨٣ بيروت.
- محمد حسنين هيكل: ملفات السويس، مطابع الأهرام ١٩٨٧.
- ناتنج، أنتوني: ناصر – ترجمة شاكر إبراهيم، دار مكتبة الهلال، الطبعة الأولى ١٩٨٥ بيروت.

- ناتنج، أنتوني: درس لا نهاية له.. قصة السويس، مصلحة الاستعلامات، الترجمة العربية رقم ٥٩٠.
- نيف، دونالد: حرب السويس، ترجمة أحمد خضر وعبد السلام رضوان، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٨٩.
- هيوز، أيمري: ماكملان شخصية سياسـية، ترجمـة حـسين الحـوت، مختارات الإذاعة والتليفزيون، بدون.
- وأيزمان، عيزر: على أجنحة النسور، ترجمة المخابرات العامة، القاهرة ١٩٦٦.

ب- الأجنبية:

- Barker, A.J. Suez the Seven Day War, London 1969.
- Childers, Ereskine. The Road to Suez, London 1962.
- Clark, D.M.J. Suez Touchoown, London, 1964.
- Dupuy, Trevor N. Elusive Victory, London. 1978.
- Finer, Herman. Dulles Over Suez, London, 1964.
- Kimche, Jon and David. Both Sides of the Hill, London, 1960.
- Love, Kennett. Suez the Twice – Faught War A history, New York, 1969.
- Nutting, Anthony. The story of Suez, No end of a lesson, London, 1978.
- Nadav, Safran. From War to War, New York, 1963.
- Oballance, Edgar. The Sinai Compaign 1956, London, 1959.
- Robertson, Terence. Crisis, London, 1964.

العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦
فى مقررات التاريخ المدرسى المصرى
والانتماء الوطنى

د. زكى البحــيرى

مدخــل :

التعليم مقياس التقدم ، إذا صلح حاله فى أى مجتمع أو أمة صلح حــال المجتمع بكامله، ولذلك من الضروري ربط خطط التعليم والتربيــة بخطــط الإنتاج والتنمية وبالسياسات العامة للدولة وبتوجهها القومي .

والمقررات التاريخية تشكل المكون الأساسى للتراث الثقافى لدى طلاب المدارس، ولما كانت مقررات التاريخ المدرســية لــدينا مليئــة بــالعيوب والتغييرات الدائمة فقد جعلت الحيرة تستولى على طلابنا ومثقفينا عند الحكم على حدث من الأحداث أو موقف تاريخى أو سياســى معــين لأن الرؤيــة مضببة واختلاف الرأي سمة غالبة بين كثير من الطلاب والمثقفــين، وهــذا يستدعى طرح سؤال هام هو ما ذنب أجيالنا الحاضرة لكى يتشوه تاريخهــا ويتغير مفهومها وتتلون نظرتها لماضيها، ويقل شعورها بالانتماء ؟.

وإذا كان التاريخ هو أحداث ووقائع الماضى، وسلة الخبرات والمعارف فإن المقررات التاريخية المدرسية مهمتها الوقوف على مجهودات الأجيــال السابقة، وإبراز دور بلادنا، وتنمية الاعتــزاز بــالتراث والقــيم الوطنيــة والروحية والثقافية والحفاظ على الانتمــاء الــوطنى للمــواطن المــصرى والعربى.

وإذا عبر التاريخ المدرسى حقيقة عن ظروفنا الراهنة فإنــه لا شــك سوف يركز على البعد الوطنى والقومى الذى يعمق لدينا ثقافة ووعيا كافيين

لإحلال قيمة الشجاعة كبديل للتردد والخوف، والإحساس العام كبديل للذاتية والأنانية، والشعور الوطنى والقومى كبديل لعدم الانتماء والعدالة الاجتماعية كبديل للتباين الطبقى الصارخ، والديمقراطية كبـديل للدكتاتوريـة، وتقويـة الاقتصـاد الوطـنى كبديل للتبعية (١) .

ولقد كان العدوان الثلاثى أو حرب الـسويس عـام ١٩٥٦ ــ كحـدث تاريخى كبير وهام فى حركة الكفاح الوطنى المصرى ــ مفصلا مهمـا لـه تأثيراته الجذرية على المستوى الوطنى والعربى والدولى، لذلك فإن دراسـة هذه الحرب دراسة تفصيلية تكشف عن كثير من الحقائق التـى أهملناهـا، وأهلنا عليها تراب النسيان لأن بعضا منا وكثيرين فى الخارج يبرزون عـن عمد أو عن جهل السلبيات التى حدثت فى السياسة المصرية والعربية إبـان الفترة الثورية الناصرية بصفة خاصة ــ على حساب الحقيقة التاريخيـة ــ ويستثمروتها وينفخون فيها كالحاوى فى الأساطير الهندية حتى تصبح ثعابين متوحشة تخيف اللاعبين بها أكثر مما تخيف غيرهم على حد قول محمـود مراد الصحفى الكبير بجريدة الأهرام(٢) .

ولقد اعتبر البعض أن ما جاء فى مقررات التاريخ المدرسية عن الفتـرة المنحصرة ما بين سنتي ١٩٥٢ و١٩٧٠ ــ خاصة ما يتصل منها بالصراع ضد الاستعمار وإسرائيل ــ كان مبالغا فيه، وحمل هؤلاء حكومـة الثـورة مغبة ما وقع من أحداث منها حرب السويس عام ١٩٥٦ وما ارتبط بها مـن مواقف الغرب المعادية لنا، وكأن المواقف الوطنية والقوميـة فـى تـاريخ الشعوب خطأ لا يجب تكراره، وكأن مواجهة التحدي الإمبريالي الإسرائيلى للبلدان العربية قد نبع من فراغ ولا أساس له .

وتدليلا على سوء نيات القوى الغربية وتخطيطها ضد مصر منـذ قيـام الثورة وقبل حرب السويس نستشهد بما جاء فى وثيقة أمريكية بعثـت بهـا

وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى لندن إلى رئاستها فى واشنطون فى ربيع عام ١٩٥٦ ـ قبيل وقوع العدوان الثلاثى ـ كتبتها المخابرات الأمريكية عقب إحدى جلسات التنسيق للعمل ضد مصر بينها وبين المخابرات البريطانية جاء فيها ما نصه "لقد كانت المخابرات البريطانية فى هذه الجولة أكثر حزما وتصميما على العمل المباشر" ، وأنها وضعت مخططا للعمل بالفعل، وفيما يلى نورد انطباعا عن هذا المخطط البريطانى :

المرحلة الأولى : العمل على إحداث تغيير كامل فى حكومة سوريا، وتعتقد المخابرات البريطانية أنها تستطيع أن تقوم بهذه العملية وحدها لكنها ستلجأ عند الاقتضاء إلى العمل المشترك مع العراق وتركيا واحتمالا مع إسرائيل.

المرحلة الثانية : تود المخابرات البريطانية مناقشة المخابرات الأمريكية فى العمل السياسى، واعتقد أن المخابرات البريطانية مستعدة لبذل الجهود لاستغلال الانقسامات فى الأسرة المالكة السعودية، واحتمال استغلال موقعهم فى الأمارات المتصالحة للتعجيل بسقوط سعود.

المرحلة الثالثة : سيتم الاضطلاع بها توقعا لرد فعل مصرى عنيف تجاه المرحلتين الأولى والثانية، وينهى كاتبو تقرير وكالة المخابرات الأمريكية من لندن تقريرهم بقولهم "لقد خرجنا بانطباع هو أن نطاق الإجراءات البريطانية سيتناسب تناسبا مباشرا مع رد الفعل المصري، ويتراوح هذا من فرض العقوبات المحسوبة لعزل ناصر إلى استخدام القوات البريطانية والإسرائيلية على حد سواء لإسقاط الحكومة المصرية"[٣].

والوثيقة التى أوردت هذه المؤامرات السرية البريطانية الأمريكية كانت عن اجتماع تم فى ربيع عام ١٩٥٦ ـ كما سبق أن أشرنا ـ أي عقب خروج القوات البريطانية من قاعدة قناة السويس، تلك القوات التى بلغ عددها ٨٠ ألف جندى تنفيذا لاتفاقية الجلاء التي كانت بريطانيا قد عقدتها



مجبرة مع حكومة الثورة فى عام ١٩٥٤ نتيجة لزيادة عمليات الكفاح المسلح ضد الجنود الإنجليز فى قاعدة قناة السويس.

ومما لاشك فيه أن رجال السياسة البريطانيين الحاضرين للاجتماع المشار إليه كانت عالقة فى حلوقهم مرارة الخروج من بلد احتلوه ما يقرب من ثلاثة أرباع قرن من الزمان واعتصروا كل ثرواته خلال هذا الوقت لصالح بلادهم. وتاريخ الوثيقة يوضح أن خطط التآمر البريطانية ضد مصر والدول العربية المستقلة حديثا كانت مجهزة قبل تأميم قناة السويس الذى وقع فى ٢٦ يوليه ١٩٥٦، وهذا بمثابة رد على من يصورون لنا أن حكومة الثورة هى التى جرت الإنجليز والفرنسيين للاعتداء علينا.

ولقد اعترف المفكرون الأحرار حتى فى إنجلترا وفرنسا أنهم تعاملوا مع أزمة السويس بحسابات عصر الامبريالية وهذا ما أشار إليه الصحفى الفرنسى الذائع الصيت جان لا كوتير فيما بعد حيث قال "باختصار لقد تعاملت فرنسا مع أزمة السويس بحسابات القرن التاسع عشر وعقلية الإمبراطورية الفرنسية" ثم يقول: " لم يدر بخلد القادة الفرنسيين من الطبقة السياسية الحاكمة وغير الحاكمة أن العالم كان على أعتاب عصر جديد من تحرر الشعوب كان مؤتمر "باندونج" بدايته "[٤].

ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ :

قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، فتخلصت من ملكية فاروق التى أذلت الشعب، وأخذت ثرواته وأنفقتها فى دور الملاهي وشواطئ الاصطياف الأوربية وعلى الحفلات الصاخبة، لقد كان كل هذا البذخ من مال ودم وعرق وضرائب الفلاحين المصريين الحفاة، وقللت الثورة من سيطرة الطبقة الإقطاعية بإصدارها قانون الإصلاح الزراعي، وأزالت سيطرة رأس المال

الأجنبي على الحكم بإصدار قوانين التمصير، وركزت رأس المال والثـروة فى يد الحكومة المصرية لحساب الشعب المصرى بإصدار قوانين التـأميم، وسعت الثورة سعيا مباشرا للتخلص من الاستعمار البريطانى فى الـسودان بعقد اتفاقية السودان عام ١٩٥٣ مما أدى إلى إنهاء الحكم الثنائى فى هذا البلد العربي الأفريقى ذات العلاقات التاريخية العميقة والوثيقة بنـا، وتخلـصت الثورة من الاستعمار البريطاني لمصر بعقد اتفاقية الجلاء فـى ١٩ أكتـوبر ١٩٥٤، وبموجبها غادر آخر جندي بريطاني قاعدة قناة السويس فـى ١٨ يونية ١٩٥٦[٥].

ثورة يوليو ومحاولات تطوير الاقتصاد المصرى :

إذا كان الاقتصاد هو أساس أى تقدم فقد سعت حكومة الثورة إلى تطوير اقتصاد البلاد بعد خروج المستعمر، والتاريخ بما فيه تـاريخ المـدارس ــ يرصد ضمن ما يرصد ــ التطور الاقتصادى للبلدان، ولقد ورد فى كتـاب الثانوية العامة المعنون (تاريخ العرب الحديث) لسنة ١٩٦٨ م لمؤلفيه أحمد عزت عبد الكريم وآخرون أن مصر بعد الثورة قد سعت لتطوير اقتصاديات البلاد، ورأت حكومة الثورة أنه لكي تتطور الزراعة المصرية وتزيد الرقعة الزراعية، وتولد طاقة كهربية كبيرة يمكن اسـتخدامها لتطـوير الـصناعة المصرية لا بد أن تقيم مشروع السد العالي، ولما راحت هذه الحكومة تتلمس المال من البنك الدولي لإقامة هذا المشروع الذي علقت عليه الآمال لإنعاش أحوال مصر الاقتصادية، رفض البنك الدولى للإنشاء والتعمير إقراض مصر المال الذي تحتاج إليه لبناء السد العالى نتيجة لضغـط الدول الاستعمـارية على إدارة البنـك[٦].

ويستطرد نفس كتاب الثانوية العامة المشار إليه بقوله "ومضت حكومـة الثورة قدما فى استكمال تحرير مصر ودعم استقلالها السياسى والاقتصـادى



من أي سيطـــرة أجنبية [٧] ، فلما طرحت فكرة إقامة مشروع السد العـــالى، ولما رفض البنك الدولى تمويل المشروع لإعاقة برامج الثورة ــ المـــصرية ــ لتطوير هذا البلد، وإثبات فشل خطط هذه الثورة تجاه القـضايا العربيـــة وقضية فلسطين، رأت القيادة المصرية ممثلة فى الزعيم جمال عبد الناصـــر أن شركة قناة السويس تمثل نموذجا صارخا للسيطرة والاستغلال الأجنبيين، هذه القناة التى تجرى فى أرض مصرية وحفرتها أيد مصرية ومـــات فـــى حفرها عشرات الألوف من الفلاحين وضحت مـــصر فـــى ســـبيل حفرهـــا بتضحيات غالية من دماء أبنائها، ثم سيطرت شركة قناة الـــسويس ومـــن ورائها إنجلترا وفرنسا على مصر التي فقدت مكانتها ونصيبها من الأرباح، ولم يكن لأبنائها من نصيب فى مناصب الشركة ووظائفها" [٨].

واستكمل نفس مقرر التاريخ للثانوية العامـــة لعام ١٩٦٨ كلامـــه عـــن حرب السويس ذاكرا أن " القيادة المصرية قررت على لسان زعيمها جمـــال عبد الناصر فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ تأميم الشركة العالميـــة لقنـــاة الـــسويس فاستردت مصر بذلك هذا المرفق الهام". وما أن صدر قرار التأميم حتى قام مالكو الشركة ومن ورائهم الدول الاستعمارية – وخاصة إنجلترا وفرنسا ــ بحملة ظالمة على مصر والحكومة المصرية ، وتوالت المؤامرات والدسائس لتعطيل الملاحة فى القناة، ومن هذه الدسائس أن أكثر المرشـــدين الأجانـــب العاملين فى القناة تقدموا باستقالة جماعية حتى يحدث شلل لحركة الملاحة فى القناة، ولكن مصر مضت فى خطتها، ووفرت هيئة من الفنيين والإداريـــين المصريين واليونانيين مكنتها من إدارة حركة الملاحة فى القناة على أكمـــل وجه [٩].

وحول تأميم القناة تحدث مقرر تاريخ مصر الحديث والمعاصر للـــصف الثالث الإعدادي عام ١٩٦٧ لمؤلفه رشدى مجلع الحكيم وآخرون بقوله " كان

تأميم القناة مقدمة لتحرير الاقتصاد القومى تماما من السيطرة الأجنبية، فقــد اتخذت الثورة في أعقاب العدوان الثلاثي عدة إجراءات لتحقيق ذلــك منهــا وضع أموال الدول المعتدية تحت الحراسة ثم قامت بتمصير ثم تأميم البنوك وشركات الــتأمين والوكالات التجارية الأجنبية" (١٠). والواقع أن مـــا ورد فى هذا المقرر من حقائق تاريخية ومواقف وطنية، لم يرد فـــى المقـــررات التاريخية المدرسية التي جاءت بعد عقد معاهدة كامب ديفيد المنعقدة ١٩٧٨..

ورأت حكومة الثورة أن خطر إسرائيل على الحدود يتزايد يوما بعد يوم خاصة بعد تأميم شركة قناة السويس، وأحست أن هناك نوايا تبيت فى الخفاء ضد مصر فقررت العمل على تزويد الجيش المصري بالأســلحة الحديثــة، وخاصة أن إسرائيل كانت تتلقى أحدث المعدات والأسلحة من الخارج. ولقد ورد فى مقرر الصف الثالث الإعدادي للدراسات الاجتماعيــة لعــام ١٩٩٢ لمؤلفه إبراهيم الدسوقى محمد وآخرون "أن مصر طلبت من الدول الغربيــة تزويدها بالسلاح، فلما رأت امتناع هذه الدول عن بيع السلاح لها لجأت إلى الاتحاد السوفيتي لشراء السلاح منه، ووقعت اتفاقية معه ومع بعـــض دول الكتلة الشرقيـــة لتزويد مصر بالأسلحة " (١١).

العدوان الثلاثي على مصر :

لما فشلت كثير من المؤامرات الموجهة ضد مصر مـــن جانـــب الـــدول الغربية لجأت الدولتان الاستعماريتان – فرنسا وإنجلتـــرا ـــ إلـــى التهديـــد بالحرب فحشدت الجيوش والأساطيل والطائرات ثم اتفقتا سراً مع إســـرائيل على أن تشن حربا هجومية على مصر فى الوقت الذي تغزو فيـــه القـــوات الفرنسية والإنجليزية مدينة بورسعيد ومدن منطقة القنـــاة فـــى ٢٩ أكتـــوبر ١٩٥٦. (١٢)



وحول أسباب العدوان الواردة فى المقررات التاريخية للمدارس المصرية يذكر مقرر الصف الثالث الإعدادي ٩٢ / ١٩٩٣ أن عقد مصر لصفقة "الأسلحة السوفيتية كانت من ــ أول ــ وأهم العوامل التي دفعت إنجلترا وفرنسا ومعهما إسرائيل للعدوان على مصر وأن العامل الثاني للعدوان خاصة بالنسبة لفرنسا هو غضب فرنسا ورغبتها فى الانتقام من مصر التي كانت تقدم المساعدات العسكرية والاقتصادية للثورة الجزائرية التي قامت عام ١٩٥٤ – من القاهرة – لتحرير الجزائر، أما العامل الثالث والمباشر للعدوان فهو قيام حكومة الثورة بتأميم شركة قناة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦" (١٣).

وقد وردت أحداث العدوان الثلاثى على مصر بالتفصيل – مما لم يرد فى الكتب التاريخية المدرسية بعد عقد معاهدة كامب ديفيد عام ١٩٧٨ – فى مقرر الشهادة الإعدادية المعنون بالتاريخ الحديث للجمهورية العربية المتحدة والوطن العربي ١٩٧٠ فذكر هذا المقرر "أنه فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ فوجئت مصر بدخول العصابات الإسرائيلية الحدود المصرية فى سيناء فتصدت لها قواتنا البرية والجوية ودمرت عددا من الكتائب اليهودية، وألحقت بالعدو خسائر فادحة وأخذت القوات المسلحة الضاربة تتجه إلى ميدان القتال وبدأت معارك ضارية أحرزت فيها القوات المصرية انتصارات حاسمة، وبينما كانت العمليات العسكرية تدور فى الجبهة ظهرت حقيقة المؤامرة (١٤)، ففى اليوم التالي تلقت مصر إنذارا مشتركا من بريطانيا وفرنسا تطالبان فيه بالآتي :

١ – سحب القوات المتحاربة (يقصد الإسرائيلية والمصرية) إلى مسافة تبعد عشرة أميال عن جانبي القناة.

٢ – تسليم مصر لمدن القناة الثلاث ــ بور سعيد والإسماعيلية والسويس ــ لجيوش الدولتين الاستعماريتين، وكانت الدولتان قد حشدتا أساطيلهما وجيوشهما فى قبرص قرب السواحل المصرية، وحددت مهلة لإثنتى عشر ساعة لقبول الإنذار وإلا تدخلتا عسكريا لتنفيذه" [١٥]. ويلاحظ أن هذا المقرر يوضح موقف القوات المسلحة المصرية ودروها العسكري المشرف الذي لم تذكره المقررات التاريخية فى العشرين سنة الأخيرة بل وتجاوزته كثير من الأبحاث التاريخية والأكاديمية.

ويذكر مقرر تاريخ العرب الحديث للصف الثالث الإعدادي عام ١٩٦٧ لمؤلفه أحمد عبد الرحيم مصطفى وآخرون "أن مصر لم تتردد فى رفض الإنذار البريطاني الفرنسي، وأعلن الرئيس جمال عبد الناصر أن مصر ستحارب الدول الثلاث إذا حاربتها، وأنه لن يفرط فى حق مصر واستقلالها، ونفذت بريطانيا وفرنسا تهديدهما فبدأت طائرات الدول المعتدية الثلاث تضرب الأراضي المصرية فى ٣١ أكتوبر ١٩٥٦ ولكن السلاح الجوى المصرى – الناشئ – تمكن من تدمير ثلث طائرات سلاح الجو الإسرائيلى ونجح فى إسقاط بعض الطائرات البريطانية والفرنسية[١٦]. وهاجمت الطائرات المعادية مدينة بورسعيد، ورغم أن العدو كان قد حشد ٣٠٠٠٠ جندي بريطاني و٤٥٠٠٠ جندي فرنسي فإنه لم يتمكن وكما ورد فى مقرر الصف الثالث الإعدادي للتاريخ عام ١٩٧٠ من النزول إلى ساحل بورسعيد إلا بصعوبة، ولاقى جيشه الكثير من المقاومة الشعبية فى المدينة الباسلة إذ قاتلت النساء والأطفال جنبا إلى جنب مع الرجال من بيت إلى بيت ومن شارع إلى شارع مما أكسب بورسعيد منزلة رفيعة لشجاعة أبنائها وبسالتهم"[١٧].

ويشير كتاب تاريخ العرب الحديث للمرحلة الإعدادية لعام ١٩٦٧ لحالة التضامن العربى من المحيط إلى الخليج، فقد تظاهرت وأضربت الشعوب

العربية إضرابا شاملا عقب تأميم مصر لشركة القناة مظهرة تأييدها لمصر واحتجاجها على تدخل الدول الغربية فى شؤونها، وظهر لون آخر من ألوان التكتل العربى مع مصر إبان العدوان الثلاثى حيث دمر المواطنون فى سوريا أنابيب البترول المارة بأراضيهم، والتي تحمل زيت البترول العراقي إلى الدول الغربية فى ٢ نوفمبر ١٩٥٦، وفى نفس الوقت "رفض العمال العرب فى كثير من الموانئ العربية التعاون مع السفن البريطانية والفرنسية، ورفضوا القيام بعمليتي الشحن والتفريغ لها، كما دمر العمال العرب فى ليبيا أحد المطارات البريطانية العسكرية هناك ورفضت الحكومة الليبية الموافقة على استخدام القواعد العسكرية البريطانية لديها للعمليات الحربية ضد مصر" (١٨).

ووقفت الدول المحبة للسلام مع مصر وهدد الاتحاد السوفيتي باستخدام الصواريخ العابرة للقارات ضد المعتدين، ولم تكن الولايات المتحدة مؤيدة للعدوان الثلاثى، فقد كان من صالحها أن يرحل الاستعمار الاحتلالى القديم لكى تحل هي محله بسيطرة من نوع جديد هو الاستعمارالاقتصادى، واستمعت الأمم المتحدة لنداء السلام، وقررت وقف العدوان فى ٦ نوفمبر ١٩٥٦، وجلاء القوات المعتدية عن قناة السويس، فتم جلاء آخر جندى منها فى يناير عام ١٩٥٧.

وانتهى العدوان العسكرى الغربى ضد بلادنا ليبدأ العدوان الاقتصادى إذ عملت الدول الاستعمارية على شن حملة اقتصادية عنيفة ضد مصر، وجمدت ما لديها من الأرصدة المالية المصرية، وامتنعت عن شراء القطن المصري، ولكن مصر نجحت فى تصريف انتاجها من القطن، واستوردت ما يلزمها من القمح والأدوية وغيرها، وأصلحت من نظامها الاقتصادى حتى اعترفت الدول الاستعمارية نفسها بفشل حصارها الاقتصادي ضدنا (١٩)، وخرجت

مصر منتصرة عسكريا وسياسيا واقتصاديا بإرادة شعبها وحكومة ثورتها، ووقوف الدول العربية والدول الصديقة معها.

ملاحظات حول عرض حرب السويس فى المقررات التاريخية المصرية :

أولا : نحن نلاحظ من خلال ما عرضناه فى المقررات التاريخية المدرسية وما لم نعرضه عن حرب السويس أن المقررات التي صدرت قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ عالجت الأحداث التاريخية بقدر كبير من الحقيقة بحيث تعكس دور الشعب المصرى والشعوب العربية، وهذا بالطبع ينسحب على قضية تأميم القناة وحرب السويس عام ١٩٥٦. كما نلاحظ أن أحداث العدوان وأطرافه قد نوقشت تاريخيا بمسمياتها الفعلية دون إضافة أو إسقاط، فكتاب تاريخ العرب الحديث لعام ١٩٦٧ ـــ لأحمد عبد الرحيم مصطفى وآخرون للإعدادية العامة ـــ يقول: بخصوص عدوان عام ١٩٥٦ "لقد وجد الإنجليز والفرنسيين صنيعتهم إسرائيل مخلب قط لتنفيذ العدوان الثلاثي على مصر". ويورد نفس المقرر عبارة يصف بها إسرائيل – عبارة لم ترد نهائيا بعد حدوث الاتجاهات التفاوضية مع إسرائيل عقب حرب ١٩٧٣ ـــ حيث يقول "فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ هاجمت العصابات الإسرائيلية حدود مصر الشرقية " (٢٠). ثم يعرض الكتاب لموضوع حرب السويس ككل فى أربع صفحات كاملة وهو نفس عدد الصفحات التى عالجت ذات الموضوع فى كتاب التاريخ الحديث للجمهورية العربية المتحدة والوطن العربى للمستوى الإعدادى فى عام ١٩٧٠ لمؤلفيه عبد الرءوف نصر ومحمد إبراهيم الصيحى. ولقد سبق أن أشرنا أيضا لمعالجة العدوان الثلاثى فى كتاب الثانوية العامة "تاريخ العرب الحديث" لمؤلفيه أحمد عزت عبد الكريم وآخرون، إلا أن هذا الكتاب قد تم تغييره تغييرا واضحا فى طبعة عام

١٩٧٤ حيث تم تقليص المادة العلمية للموضوع ذاته من أربع صفحات إلى أربعة سطور[٢١].

ثانيا : وبعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ جرت مفاوضات بين مصر وإسرائيل فى حضور الوسيط الأمريكي هنرى كيسنجر وقتها – وهو يهودي أمريكي – وسافر السادات إلى إسرائيل وتطورت المفاوضات المصرية الإسرائيلية، وانتهت بعقد معاهدة كامب ديفيد عام ١٩٧٨ فى الولايات المتحدة وبترتيبات سياسييها وحضور رئيسها جيمى كارتر، وتغيرت الاتجاهات السياسية والفكرية والثقافية المصرية بفعل وقيود معاهدة كامب ديفيد ونصوصها. وبناء عليه قامت وزارة التربية والتعليم عن طريق من قبلوا كتابة أو مراجعة المقررات التاريخية المدرسية وتفصيلها وتشذيبها على مقاس السياسة المصرية الجديدة فتم تقليص المقررات وتخفيضها بشكل عام وتم إزالة أو تقليل اللهجة الوطنية والقومية التي تعكس اعتزازا بالأرض ومعاداة للقوى الأخرى وإسرائيل مما قلل من الإحساس القومي، وأضعف الانتماء الوطني، ولن أقول أنهاه كليا، وأدى إلى قبول الآخر رغم عدم قبوله لنا، وإلى نشر ثقافة السلام [٢٢] فى مواجهة من ينشر ضدنا ثقافة المواجهة والعداء، بل والتحقير فى بعض الأحيان ــ ولعلنا نراجع ما جرى فى العراق وأفغانستان، وفلسطين ولبنان، والصومال، والسودان، والبوسنة، والهرسك، إنها حروب عدائية ضد العرب والمسلمين وفى القلب منهم مصر .

وقد ترتب على مراجعة المقررات المدرسية التاريخية ــ المشار إليها آنفا ــ إزالة الكلمات التي كانت تزعج المستعمرين وتثير حساسية إسرائيل والدول الأجنبية المعادية لنا مثل كلمة «الإمبريالية» ، وأحيانا كلمة «الاستعمار» وهى بنفس معناها، وتم استبدالها بكلمات تدخل أو احتلال ، كذلك أزيلت عبارات مثل «العدو الصهيوني» أو «العصابات الصهيونية»

أو «العدو الإسرائيلي» وحل محلها كلمة «إسرائيل» فقط ، والعبارات الأولى تعنى العدو المغتصب ، أما كلمة إسرائيل فتشير إلى دولة ذات سيادة، وما بين مصر وبينها مجرد خلاف فى الرأي أو نزاع منتهى [٢٣] ، كذلك توقف ذكر أية إشارة إلى النفوذ الإمبريالي الأمريكي، والتغلغل الثقافي الغربي، وهذا أمر فى منتهى الخطورة والأثر على إدراك طلابنا وشعوبنا ذلك لأن التاريخ لا ينبغي أن يغير أو يبدل تحت أى بند من البنود إلا أن يكون ذلك أمر يفرضه الغالب على المغلوب أو المنتصر على المهزوم، ولعل مثل هذه النغمة قد نجحت فى إبعاد عقول أبنائنا عن التنبه لمخاطر القوى المنافسة والمعادية لنا، كما نجحت فى قبول التطبيع والسلام مع إسرائيل، وهى الدولة المتغطرسة والمتحدية والنووية والمعادية الوحيدة لأمتنا العربية، ولقد كان هدف إسرائيل من عقد معاهدة «كامب ديفيد» تحييد مصر، وإبعادها عن ساحة الصراع العربى الإسرائيلي لكي تتفرد إسرائيل بالدول العربية واحدة بعد الأخرى تساومها على التفاوض وقبول ما تفرضه من شروط أو تشن عليها الحرب والعدوان، وهذا ما حدث ضد لبنان وحزب الله أخيرا، وما حدث مع العراق ابتداء من عام ١٩٩١ [٢٤] ، لأن الغزو الأمريكي الكامل للعراق عام ٢٠٠٣ كان بقوات أمريكية ودولية متحالفة نيابة عن إسرائيل، وما تتطلع إسرائيل إلى عمله تجاه سوريا أو إيران من حرب أو تدمير لقواتهما العسكرية التقليدية أو غير التقليدية هو فى الواقع تدمير للإرادة الوطنية مما يدخل فى إطار مخطط تكسير عظام البلدان العربية وبلدان العالم الإسلامى المتعاونة معها لكى تصنع منهم أمريكا والصهيونية عالم جديد يناسب مزاج إسرائيل ويخدم المصالح الغربية، ويجعل منها القوة الوحيدة المتحكمة فيما أسموه بالشرق الأوسط الجديد.

ثالثا : ومن خلال مراجعتنا للمقررات المدرسية بصورة عملية بعد معاهدة «كامب ديفيد» وجدنا أن كتاب المواد الاجتماعية للصف الثالث

الإعدادى لسنة ٨٩ / ١٩٩٠ وعدد صفحاته ١٧٠ صفحة منها ١٨ صفحة فقط للتاريخ أي ١٠% ، و ٨ % للتربية الوطنية مقابل حوالى ٨٠ % للجغرافيا، مما يثير التساؤل حول هذا التوسع الملحوظ فى موضوعات الجغرافيا، وإسقاط وتجاهل معظم الموضوعات التاريخية الواجب دراستها، إن ذلك قد أدخل تلاميذ مدارسنا الذين درسوا هذا المقرر فى موضوعات جغرافية وصفية كثيرة تبعدهم عن الوعى التاريخى الذى يثير الجدل والمناقشة حول الحقائق التاريخية الخاصة بنا ، وبحث أسباب تأزم أحوالنا سواء فى الماضى أو الحاضر مما ساهم فى تزييف إدراك أجيالنا، وأدى لافتقادها للهوية الوطنية [٢٥] .

واستمرارا لنفس مسلسل التشويه والإسقاط يتحدث كتاب «تاريخ مصر الحديث» للصف السادس الابتدائي عام ٨٩ / ١٩٩٠ عن العدوان الثلاثى فى خمسة سطور فقط تعكس مدى التجاهل المقصود للحقيقة التاريخية لكفاح الشعب المصرى ضد قوى الغزو والاستعمار [٢٦].

أما كتاب الشهادة الإعدادية «الدراسات الاجتماعية» لعام ١٩٩١ لمؤلفه إبراهيم الدسوقى محمد وآخرون فقد قسى قسوة شديدة على تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وإنجازاتها بما فيها حرب السويس عام ١٩٥٦ حيث ألغى الكتاب دور هذه الثورة، وأورد فقط عددا من السطور لا يتعدى عدد أصابع اليد الواحدة عن بعض ما يخص تاريخ مصر ما بعد ثورة ١٩٥٢ تحت عنوان «نظام الحكم فى مصر وتطور الديمقراطية» [٢٧] وهى لعبة تمويهية لا تخيل على أى متابع مدقق لهذه الأمور، ويورد نفس المقرر أسئلة تافهة وغير قومية ولا منطقية مثل: هل العدوان المسلح على قناة السويس يحافظ على حرية الملاحة فيها أم يوقفها؟ [٢٨] ، وهو سؤال مقلوب لأسئلة تاريخية حقيقية عن هذا الحدث التاريخي السياسي العسكري الهام من قبيل : هل كان

من حق الدول المعتدية غزو مصر والاعتداء عليها ؟ ، وهل القناة التي عاد الاستعمار لاحتلالها عام ١٩٥٦ بالتنسيق مع إسـرائيل تجـرى فـى أرض مصرية أم فى أرض أوربية ؟ ، ومن الذين حفروها وماتوا في قاعها حتـى يتصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر؟، ومن الذين كانوا يستفيدوا من دخلها المصريون أم الأوربيون ؟ ، وهل خطأ أن تستعيد القيادة السـياسية لمصـر المتمثلة فى جمال عبد الناصر القناة وتؤممها وتردها لأهلها بعد اسـتغلالها والتهام أرباحها لمدة حوالى ٨٦ عاما ؟.

ومن المقررات الدراسية الصادرة حديثا فى عـام ٩٧ / ١٩٩٨ كتـاب «جغرافية العالم ودراسات فى تاريخ مصر الحديث" لمؤلفه أحمـد اللقـانى وآخرون، حيث نجد الجزء الخاص بتاريخ مصر الحديث فيه يحتوى علـى ٥٧ صفحة فقط لأن صفحات التاريخ بالكتاب ٧٧ صفحة تقريبـا فـإذا مـا طرحنا منها ١٠ صفحات صور و١٠ صفحات أسـئلة (٧٧ - ٢٠ = ٥٧ صفحة). والسؤال الذي يطرح نفسه على الفور هو هل من الممكن عـرض تاريخ مصر الحديث والمعاصر على كثرة أحداثه فى ٥٧ صفحة ؟ ، وفـى وسط هذا الإيجاز المخل كيف يتحدث الكتاب عن حرب السويس ؟ (٢٩).

وورد موضوع العدوان الثلاثى فى كتاب التاريخ الحالى للثانوية العامـة فى ١٧ سطرا فقط لا يذكر فيها كفاح شـعب بورسـعيد، ولا دور الجـيش المصري فى مواجهة الجيوش الإسرائيلية فى سيناء (٣٠). ولم تشر كثير من كتب التاريخ الحالية لمدى تماسك الشعوب والحكومات العربية فـى حربـي ١٩٥٦ ، ١٩٧٣ بالشكل الذي يعكس حقيقة الكفاح الوطنى للشعب المصرى، وتلاقى المشاعر القومية للشعوب العربية فى مواجهة عدوان ضد قطر عربي تم الاعتداء عليه.

والواقع أن المعالجة المشوهة والمزورة والمنحرفة فـى كتابـة تـاريخ مدارسنا قد أدخلت أبناء الأمة العربية في دائرة الشك فـى رمـوز تراثنـا

وتاريخنا، وأنستنا أمجادنا التاريخية، وجعلتنا نخلط بين العـدو والـصديق، وجرتنا إلى السخط المعلن وغير المعلن، بل وحولتنا هذه المعالجة من الشك فى خصوصياتنا إلـى الإعجـاب بخـصوصيات الآخـرين كـالأمريكيين والأوربيين وربما الإسرائيليين، ومن المحتمل أن ينتقل هذا الإعجاب بعد ذلك إلى اليابانيين أو الصينيين ولكن دون أى رد فعل أو عمل أو تحـرك مـن جانبنا نحن.

وفى مواجهة هذا النقص التاريخى المتعمد، والتشويه المقصود والتزييف الواضح لمقررات التاريخ لمدارسنا علينا أن نتدارك ــ عند إعـادة تأليفهـا وطباعتها من جديد ــ أخطاءنا ونحافظ على موروثنا الثقافي، ونستعيد تلـك الصور التاريخية التى تدل على حقيقة مواقفنا ومشاعرنا الوطنية، والتى تخلد رموزنا الوطنية وفى مقدمتهم محمد على ورفاعة الطهطاوى وأحمد عرابى ومحمد عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول وجمال عبد الناصر. إن إسقاط هذه الحقائق من كتب التاريخ المدرسية يعوق تكوين حس قومي فى وجدان وعقلية تلاميذنا مما ينذر ربما بزوال هويتنا القومية، وحتمية مواجهة هـذا التشويه والتزوير التاريخي تصبح ضرورية إذا مـا عرفنـا مـاذا يرتـب الآخرون لنا ممن يراهنون على استمرار تخلفنا وزوال هويتنا، فمن خـلال سؤالي لأمناء مكتبة متحف وزارة التربية والتعلـيم عرفـت أن المقـررات التاريخية التى تدرس لطلاب مدارسنا فى السنوات الأخيرة لم تتجـه عنايـة باحثينا لدراستها منذ أصدرت كتابي الأول «تاريخ مصر الحديث والمعاصر فى مقررات المدارس المصرية ١٩٩٦» ، وأن الذين ذهبوا ودرسـوا هـذه المقررات التاريخية كانوا من الأجانب خاصة من الأمريكيين.

ويتحتم علينا أيضا مواجهة هذا التشويه والتزوير إذا ما عرفنا ماذا ترتب إسرائيل لنا، فمن خلال الدراسة التي قدمتها الباحثة: صفاء محمود عبد العال

بعنوان «تربية العنصرية فى المناهج الإسرائيلية» تقديم الدكتور حامد عمار ــ الصادرة فى ٢٠٠٥ عن الدار المصرية اللبنانية ــ يمكننا أن نعرف حتى من خلال عرض عناوين فصول الكتاب الأسلوب والمنهج الإسرائيلى فــى التعامل مع العرب وفى القلب منهم مصر، فعناوين فصول هذا الكتاب نــصا هى:

الفصل الأول : النظرة الدونية للعرب .

الفصل الثانى : تفوق اليهود العرقى .

الفصل الثالث: التمايز العنصرى اليهودى فى الترتيب الاجتماعى .

الفصل الرابع : دعوة للحقوق التاريخية فى أرض إسرائيل .

الفصل الخامس : التوسع الاستيطانى فى أرض إسرائيل .

الفصل السادس : هاجس الأمن الإسرائيلى .

الفصل السابع : تهويد القدس .

ويقع الكتاب المشار إليه عاليه فى حوالي ٢٣٠ صــفحة، إعتمــدت المؤلفة في كل كلمة من كلامها فيه على وثائق عبرية إسرائيلية، تبين مــاذا يدرس تلاميذ المدارس الإسرائيلية من موضوعات تقطر كراهيــة وعــداء للعرب فى الوقت الذي تدعونا إسرائيل وأمريكا فيه إلى استخدام لغة الــسلام والحب فى مواجهة لغتهم للعداء والتحقير والتدمير.

نحو مقرر ومنهج تاريخي عربي موحد:

فى ضوء المعطيات السابقة وغيرها، ومن واقع الفرقة وعــدم التوحــد العربى الذى تفرضه علينا أنظمة حكم متخلفة وظروف خارجيــة ضاغطــة علينا، نــدعو «الجمعية المصرية للدراسات التاريخية» لتبنى عقــد مــؤتمر قومي عام على مستوى البلدان العربية مجتمعة موضوعه «نحو مقرر ومنهج تاريخ عربي موحد لطــلاب المدارس العــربية»، ومــن غيــر الجمعيــة

التاريخية المصرية يتصدى لمثل هذا العمل التاريخي القومي الهام الذي تأخر كثيراً ؟ ، هذا المؤتمر الذي بإمكانه أن يؤكد على أهمية دروس التاريخ فـــى المدارس العربية، وتأصيل علاقات الوحدة، وزيادة حجـــم المـــشترك بـــين الشباب العربى ، ويخلق الانتماء الوطني والقومي بدلا من سيادة الانتماءات الإقليمية المفككة، وهذا يمهد الطريق نحو ثقافة عربية ومصالح مشتركة تدعم وتوطد الأمل فى قيام وحدة عربية نحلم بها جميعا .

إن منهج تاريخ عربي مشترك لطلاب المدارس العربية لا بد أن يراعى العام، ويقلل من الخاص بين الشعوب العربية فالواجب أن يـــدرس الطـــلاب العرب تاريخ واحد لكل العرب بدلا من تواريخ إقليمية متناقضة ومتضاربة، تاريخ يراهن على الوحدة لا على الانقسام، ويضع الطلاب والشعوب العربية أمام مسئوليتها التاريخية فى مواجهة حالة الخلافات والإقليمية، تاريخ يـــدفع الحكام العرب لأن يعبروا عن مصالح بلادهم وإلا يصبحون غير جـــديرين بالتعبير عنها، تاريخ يولد طاقة وشباب قادر على صنع أمـــة قـــادرة علـــى المنافسة والتحدى فى وسط الأمم ، فمواطنى شعبنا العربى ليست عقيمة إنما العقم فى ثقافتها وفى سياستنا.

إن تاريخ عربى قومى موحد يعمق الهوية القومية العربية، ويخرج أجيال مؤمنة بأوطانها واثقة فى تاريخها وقدرات شعبها، وهذا وغيره يجـــر إلـــى تحقيق الآمال العربية من سوق عربية مشتركة، وإزالة للحواجز الجمركيـــة والحدودية العربية، ومرونة فى تحرك وانتقال العمال والموظفين والأســـاتذة والعلماء، والتدرج إلى قيام اتحاد عربى يرتقى إلى كتلة اقتصادية وسياســـية واحدة وسط كتل أمريكا والاتحاد الأوربى والصين والأسيان بـــدلا مـــن أن تتخاطفنا القوى لأننا افتقدنا الهوية والقوةوالوحدة.

وعلى المستوى التنظيمى والهيكلى فى النظام التعليمى المصرى بالـذات ــ وفيما يتصل بوضع المناهج الدراسية ــ أطالـب أولا : أن يقتـصر دور كليات التربية على الدراسات العليا فقط، بمعنى أن يلتحق بها خريجو الكليات الأكاديمية المختلفة كالآداب والعلوم وغيرهما للحصول على دبلوم يـؤهلهم لمهنة التعليم بعد حصولهم على مـؤهلهم الأكـاديمي، أو للحـصول علـى الماجستير أو الدكتوراه فى مجال التربية. وثانيا: ألا يضع رجـال التربيـة أنفسهم فى كل صغيرة وكبيرة فى المدارس والوزارة والمقررات الدراسـية المختلفة بعلم وبغير علم. وثالثا: أن يكون مؤلفو الكتب التاريخية بالذات من أساتذة التاريخ لا من أساتذة التربية وطرق التدريس وخلافـة، وأن يقتـصر دورهم على النواحى التربوية والمنهجية لا على تأليف المادة العلمية.

الهوامش

١- زكي البحيري ، تغير مقررات التاريخ المدرسي المصري وأثرها على الإنتماء والوعي القومي ، ص ١-٢.

٢- الأهرام في ٢٧/ ١٠ / ٢٠٠٦ مجموعة مقالات لمحمود مراد بعنوان خمسون عاما على حرب السويس .

٣- محمد حسنين هيكل ، ملفات السويس ،الوثائق المنشورة ، والملحقة بالكتاب ، الوثيقة الأخيرة ، مطابع ونشر الأهرام ، ١٩٨٦ .

٤- الأهرام في ٢٧ /١٠/ ٢٠٠٦ مصدر سابق مقالات لمحمود مراد .

٥- أحمد عزت عبد الكريم وآخرون، تاريخ العرب الحديث ، للصف الثالث الثانوي، دار وهدان للطباعة، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، طبعة ٦٨ – ١٩٦٩ ، ص ٣١٤ .

٦- نفس المصدر ، ص ٣١٥ .

٧- نفس المكان.

٨- نفس المصدر ، وفليب جلاب، هل نهدم السد العالي ، كتاب الأهالي ، القاهرة عام ١٩٨٥ ، ص ٤٤-٤٩.

٩- أحمد عزت عبد الكريم، المصدر السابق ، ص ٣١٦ .

١٠- رشدي مجلع الحكيم وآخران، تاريخ مصر الحديث والمعاصر، للصف الثالث الإعدادي، وزارة التربية والتعليم، عام ٧٦ / ١٩٧٧، ص ١١٧.

١١- إبراهيم الدسوقي محمد وآخران، كتاب الدراسات الاجتماعية، للصف الثالث الإعدادي ، وزارة التربية والتعليم ٩٢/ ١٩٩٣ ، ص ٢٢٦.

١٢- أحمد عزت عبد الكريم، المصدر السابق، ص ٣١٦ .

١٣- إبراهيم الدسوقي محمد وآخران، مقرر الصف الثالث الإعدادي ٩٢ / ١٩٩٣ مصدر سابق، ص ٢٢٦.

١٤- لمزيد من التفاصيل عن حرب السويس ، راجع ملفات السويس لمحمد حسنين هيكل، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٩٦. وكذلك ٥٠ عاما على حرب السويس لمحمود مراد مجموعة مقالات بجريدة الأهرام في ٢٥ ، ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٦ ، والسياسة الدولية، قسم خاص، خمسون

عاما على أزمة السويس ١٩٥٦ ، وهى مجموعة مقالات لمحمد السيد سليم وآخرين ٨ – ٤٥ ، العدد ١٦٦ أكتوبر.

١٥- عبد الرؤوف نصر، محمد ابراهيم الصيحي، التاريخ الحديث للجمهورية العربية المتحدة والوطن العربي، الصف الثالث الإعدادي، وزارة التربية القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٨٩ .

١٦- أحمد عبد الرحيم مصطفى، تاريخ العرب الحديث من الفتح العثماني حتى الوقت الحاضر، الثالث الإعدادي، وزارة التربية، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٣٣ .

١٧- عبد الرؤوف نصر .. مقرر الإعدادية ١٩٧٠ ، مصدر سابق ،ص ١٩٠ .

١٨- أحمد عبد الرحيم مصطفى، مقرر الإعدادية للتاريخ ١٩٦٧، مصدر سابق ص ١٣٧ .

١٩- أحمد عزت عبد الكريم ، كتاب التاريخ للثانوية العامة ٦٨ / ١٩٦٩ مصدر سابق ، ص ٣١٧.

٢٠- أحمد عبد الرحيم مصطفى، مقرر الإعدادية للتاريخ ١٩٦٧، مصدر سابق، ص ٢٢٠ وما بعدها .

٢١- أحمد عزت عبد الكريم وآخرون ، تاريخ العرب الحديث للصف الثالث الثانوي، طبعة جديدة عام ١٩٧٤ .

٢٢- زكي البحيري، تغير مقررات التاريخ المدرسي المصري وأثرها على الانتماء والوعي القومي ٢-١٠ .

٢٣- نفس المؤلف، كتاب تاريخ مصر الحديث والمعاصر في مقررات المدارس المصرية ، القاهرة ١٩٩٦ ، ص ٢١٠ .

٢٤- نفس المرجع والمكان .

٢٥- نفس المؤلف ، تغير مقررات التاريخ ... مرجع سابق،ص ٦.

٢٦- نفس المؤلف، كتاب تاريخ مصر فى المقررات ... ، مرجع سابق ، ص١٨١ – ١٨٢.

٢٧- إبراهيم الدسوقى محمد وآخران، كتاب الدراسات الإجتماعية، للصف الثالث الإعدادى، ٩٠/١٩٩١، ص ٥٤.

٢٨- نفس المصدر، ص٧٢٢.

٢٩- زكى البحيرى، تغير مقررات التاريخ... مرجع سابق، ص١٠.





٣٠- عطية القوصي، وعبد العزيز نوار وعاصم الدسوقى وآخرون، كتاب التاريخ للثانوية العامة، طبعـة وزارة التربيـة والتعلـيم، عـام ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢ ص ونريد أن نلفت النظر هنا إلى أن هذا الكتاب قد اشترك فى تأليفـه ومراجعتـه ووضع ملاحقه أكثر من عشرين مؤلفا يتحملون ما ورد فيه من تغيير وتـشويه وأخطاء وإسقاط لحقائق تاريخية.

العدوان الثلاثى

فى ذكريات المعاصرين وشهود العيان الروس

د . جينادي جارياتشكن

تعتبر "أزمة السويس" أو العدوان الثلاثى حلقة من الحلقات الهامة فـــى تطور الأحداث والعمليات الجارية فى مصر والعالم العربـــى وفـــى تـــاريخ العلاقات الروسية المصرية على مدى المرحلة السوفيتية .

كان الاتحاد السوفييتى أول من اعترف بثورة يوليـــو ١٩٥٢ ومجيـــئ الحكومة الجديدة فى مصر، ولذلك حملت سيارات موظفى الهيئات الروســـية في القاهرة الرقم الدبلوماسى (١)، ورغم الفترة الصعبة فيما يتعلق بخشونة العلاقات وأحيانا عدم الثقة وحتى الإتهامات المتبادلة وضغط العوامل الداخلية والخارجية جرى التقارب بين الاتحاد السوفييتى ومصر بالتدريج. ولم يمض إلا سنتان حتى قررت حكومتا الدولتين تحويل بعثة الإتحاد الـــسوفياتى فـــى القاهرة وبعثة مصر فى موسكو الى سفارتين "من أجل تعزيز العلاقات بـــين البلدين وتطويرها".

وكان المستوى العالى للعلاقات السياسية بين الإتحاد السوفياتى ومـــصر يفترض منطقياً ضرورة التحول الـــى الأفـــضل فـــى المجـــالين التجـــارى والإقتصادى بينهما أيضا . وفى نهاية سنة ١٩٥٣ وبداية ســـنة ١٩٥٤ زار موسكو وفد اقتصادى مصرى وذلك بعد أن مر بأقطار أوربا الشرقية .

وتعتبر صفقة الأسلحة فى مقابل القطن والأرز واحدة من أهم المنجزات فى مجال التعاون. ففى ٢٠سبتمبر ١٩٥٥ تم التوقيع على اتفاق اشتهر فيمـــا

بعد باسم "صفقة الأسلحة التشيكية" تتسلم مصر بمقتضاه طائرات "ميج-١٥" و "ميج- ١٧"، ومعدات عسكرية سوفييتية أخرى فى حدود مائتى وخمسين مليون دولار. وفى ٢٠ نوفمبر ١٩٥٥ وصلت على متن سفينة سوفييتية أول شحنة من السلاح. وحسب نصوص نفس الإتفاقية توجه الخبراء السوفييت الى مصر لتقديم العون فى التدرب على استخدام تلك الأسلحة وامتلاك ناصيتها.

وطبقاً للاتفاقية المذكورة كما يذكر فاديم كيربيتشينكو النائب الأول للسفير السوفييتى فى مصر فى السنوات ١٩٥٤- ١٩٦٠ والنائب الأول لرئيس لجنة الأمن الخارجى للدولة فيما بعد "كان الخبراء العسكريون السوفييت الأوائل يصلون الى القاهرة ويحملون معهم جوازات سفر تشيكية من باب الحذر. وكانت مثل هذه الممارسة تحمل طابعاً مؤقتاً نظراً لعدم معقوليتها وبلطبع لا يمكن إخفاء المغزى".

وتتطابق هذه الواقعة مع حدث آخر تماماً، فقد جرت مباحثات مع البولنديين بشأن توريدات عسكرية بحرية إلى مصر. وذات مرة حللت ضيفاً فى التسعينيات على صديق فى مدينة أوديسا، وتحدثت مع أحد الاوديسيين الذى قال لى إنه على أثر أحداث المجر المعروفة عام ١٩٥٦ أرسلوه الى الإسكندرية وكان يلبس زيا عسكريا بولندياً مع المظليين الآخرين السوفييت. وحسب أقواله كان الجنود السوفييت يرابطون فى الإسكندرية وعلى استعداد لخوض العمليات القتالية فور صدور الأوامر.

إن هذه الاتفاقيات التى كان القادة السوفييت يسعون بواسطتها الى فرض الأعباء المالية والاقتصادية والمعنوية على حلفائهم جزئياً وإدخالهم فى أزمة "الحرب الباردة " فى الشرق الأوسط، كان لها مغزى هام لتقوية قوة مصر

الدفاعية وذلك عندما رفضت الدول الغربية أن تورد الأسلحة لمصر بمقتضى تراجعها عن الأولويات السابقة فى سياستها الخارجية.

لم يكن شراء الأسلحة هو وحده الذى أثار صداع الرأس للقادة المصريين، فقد لاقوا صعوبات كبيرة بصدد تنفيذ أهم مشروع حيوى للبلاد فيما بدا ألا وهو بناء سد أسوان الجديد (السد العالي) الذى مع بنائه كانت المشاكل الزراعية فى مصر ستحل وبعدها تنتقل الى التصنيع وحل المسائل الأخرى.

وقد كتب إيادور كوليف مستشار السفارة السوفييتية للشؤون الاقتصادية فى القاهرة فى سنوات ١٩٦٠ – ١٩٦٥ وبعد ذلك نائب رئيس اللجنة السوفييتية للعلاقات الخارجية الاقتصادية، فى "مذكرات اقتصادي": "لقد فهموا جيداً فى الغرب أهمية مسألة تنظيم مياه النيل وبالتالى تشييد السد العالى بأسوان وجعلوا هذه المشكلة أداة للإبتزاز السياسى والإقتصادى. ففى نهاية ديسمبر سنة ١٩٥٣ وصل الى مصر رئيس البنك الدولى للإنشاء والتعمير يوجين بلاك وبعد سنتين من عمل خبراء هذه المؤسسة تمت الموافقة على تمويل تشييد السد العالى على النحو الآتى : تقدم الولايات المتحدة الأمريكية ٥٦ مليون دولار، وإنجلترا ١٤ مليون، والبنك الدولى للإنشاء والتعمير ٢٠٠ مليون دولار. وبعد ذلك بدأت التعقيدات ، ففى يوليو عام ١٩٥٦ رفض وزير الخارجية الأمريكى دالاس تقديم القروض لمصر ، وتلته إنجلترا ثم البنك الدولى للإنشاء والتعمير.

وكما يبدو من ظاهر الأحداث، كان من أهم أسباب الرفض ذلك التقارب الذي حدث بين مصر والاتحاد السوفيتى، إذ وصل فى مايو سنة ١٩٥٦ الى القاهرة ديمترى شيليبين مندوب خروشوف الخاص، وسكرتير اللجنة

المركزية للحزب الشيوعى السوفياتى، ورئيس تحرير جريدة "البرافدا " لكى يتفهم الواقع المصرى ويلتقى شخصياً بجمال عبد الناصر. ووفقاً لـــذكريات كيربيتشينكو "كانت تصل الى موسكو من مختلف البلدان معلومات تفيــد أن العلاقات بين جمال عبد الناصر وأمريكا وانجلترا لا تسير على ما يــرام .. وفى ظروف الحرب الباردة كان ذلك مغريا للتقرب الى جمال عبد الناصر والقيام بدور "نقلة الحصان" فى مؤخرة حلف شمال الأطلنطي "الناتو"، وحلف "بغداد". وقد وضعت مقابلة شيليبين مع جمال عبد الناصر أساساً للعلاقات مع الاتحاد السوفييتى أكثر رسوخاً.

وإستناداً إلى دعم وتأييد المعسكر الإشتراكى ودول عدم الإنحياز وزعماء الأقطار العربية أعلن جمال عبد الناصر قراره التاريخى بتأميم قناة السويس. ويتذكر كيربيتشينكو أن الأوضاع فى مصر قبل التأميم كانت مقلقة جداً وأن سياسة عبد الناصر الخارجية كانت تثير ارتياباً كبيراً فى الغـــرب" .. فـــإذا كانت تثير القلق قبل التأميم فماذا يمكن أن نقوله بعد حدوثه .. ؟

فى ١٦ أغسطس حاولت الدول الإستعمارية إرغام مصر على التنـــازل عن حقوقها وفرضت حصاراً إقتصادياً على مصر ، واستدعت مرشديها لشل حركة الملاحة في القناة. وكان يعمل بالشركة ٢٠٤ مرشدا منهم ١٦ بريطانيا و ٥٣ فرنسياً و ١٤ هولندياً و ١٢ يونانيا و ١١ نرويجيـــاً و ٣ دانماركيـــا وإيطاليين وإمريكيين وبلجيكيين وسويديين وواحد من يوجوســـلافيا وبولنـــداً و٤٠ مصرياً بلغ عددهم حتى ١٥ ســبتمبر ٧٠ مرشــداً بالإضـــافة إلـــى المرشدين السوفييت واليونانيين واليوغسلاف ومـــن جنـــسيات أخـــرى تـــم إختيارهم وتدريبهم وإرسالهم إلى مصر فى أسرع وقت لمجابهـــة المـــؤامرة الجديـــدة (راجع: صلاح بسيونى ، مصر وأزمة السويس، ص ١١٣).

وفى حديثه معى فى أكتوبر الماضى (٢٠٠٥) قال فيكتــور جورافليــف السفير المتقاعد، وكان فى ذلك الحين متدرباً فى السفارة السوفييتية إنه جــاء الى مصر قبل العدوان بشهرين : " لقد فوجىء المصريون مفاجئة كاملة ببدء العمليات الحربية وكذا فوجىء الرأى العام العالمى .. وكان معظم المصريين فى ذهول لا يعرفون ما الذى ينبغى أن يعملوه فى الفترة الحرجة .. فمثلاً ، عندما كانت السلطات تناشدهم أن يراعوا اطفاء الأنوار وعدم إضاءة فوانيس الشوارع كانوا يردون عليها بالهزار وإطلاق النكات، وكانوا يلونون بيــوتهم بعقود من اللمبات كأنهم يعيشون فى وقت الــسلم. وحــسب كــلام فيكتــور جورافليف فإن مصر لم تتعرض فى الحرب العالمية الثانية لغارات الطيران والمدفعية العنيفة التى منيت بها بعض من الدول وأوقعت فيها ضحايا كثيرة.

ويفسر هذا العامل وأيضا روح الشفقة التقليدية بالنسبة للــضعيف الــذى يتعرض للإضطهاد (وذلك فى ذورة الحرب الباردة) إلى حد كبير تــضامن المواطنين السوفييت الجبار مع الشعب المصرى الذى تجلى فى جميع انحاء الإتحاد السوفياتى. وفي ذلك الحين كنت أقطن فى مدينة صغيرة على ضــفة نهر (انجارا) بين مدينتى (إيركوتسك) و (براتسك) فى سيبيريا الشرقية على مسافة حوالى خمسة الاف كم من موسكو ورأيت وجوه الكبار والمسنين المتوترة وقلقهم البالغ عندما كان المذيع يعلن عن الغارات المكثفة على المدن المصرية التى شنتها مئات الطائرات المعتدية، وعن رغبة الحكومة السوفيتية فى إرسال المتطوعين السوفييت لمساعدة هذا البلد الأفريقى البعيــد. وكــان الناس المحيطون بى يوجهون سؤالا واحــــدا : "هل سنقوم بــالحرب مــن جديد".

وقد انتهى مؤتمر لندن الثانى الذى بدأ فى ١٩ سبتمبر من نفــس العــام بدون نتيجة. وفى نهاية سبتمبر قدمت حكومتا إنجلتراً وفرنسا شكوى ضــد

مصر الى الأمم المتحدة وقامت مصر بنفس الخطوة ، وجاء القـرار الـذى اتخذه مجلس الأمن كحل وسط يفرض على الأطراف مواصلة مناقشة "مسألة السويس" فى الأمم المتحدة فيما بعد.

لكن انجلترا وفرنسا كانتا تستعدان للحرب .. فعلى أثر تأميم قناة السويس نقلتا إلى شرق البحر المتوسط ١٨ سرباً من الطائرات الحربية و ١٨٥ سفينة حربية، وأشركتا إسرائيل فى تنفيذ خططهم العدوانية إستغلالا لمساعيها فـى إنشاء الدولة اليهودية العظمى من الفرات الى النيـل علـى حـساب ضـم الأراضى العربية.

وطبقاً للبيانات المختلفة تراوح عدد القوات الإسرائيلية بين ٨٠ – ١٠٠ الف فرد ووصل قبيل العدوان الى ١٠٠ – ١٥٠ الف. وشن المعتدون واحدة من أكبر المعارك فى ذروة "الحرب الباردة" وكانوا يريدون ليس فقط القضاء على نظام مصر الجمهورى، بل والقيام بقلب الأنظمة غير المرغوب فيها فى سورية والأردن والأخذ بالثار التاريخى فى الشرق الأوسط. ووضع المعتدون فى حسابهم انشغال الإتحاد السوفيتى بالأحداث فى المجر وبولندا، وانـشغال الولايات المتحدة الأمريكية بفترة الإنتخابات الرئاسية.

وفى مساء ٢٩ أكتوبر شنت إسرائيل العدوان على الأراضى المـصرية. وفى ٣٠ أكتوبر ظهرت قاذفات القوات الجوية البريطانية والفرنسية فى سماء القاهرة. وذكر كيربيتشينكو إنه "لم يتوقع أحد مثل هذه الغارات البربرية على القاهرة والإسكندرية". واستمرت الغارات بإستخدام القنابل الحارقة والقنابـل الشديدة الإنفجار خمسة أيام. وتعرضت للقصف الجوى مـدن الإسـماعيلية والسويس وبورسعيد والقواعد الحربية فى فايد وأنشاص ..الخ.

وقبل الإنزال الجوى ارسل المعتدون تعزيزات جديدة الى شرق البحر المتوسط وهكذا وجهت ثلاث حاملات جنود من إنجلترا، واشترك فى قصف الأراضى المصرية وفى عمليات الإنزال أكثر من مائة سفينة من كافة الأنواع.

وفى الساعة ٧,٣٠ صباح ٥ نوفمبر بدأ إنزال المظليين من نخبة القوات الجوية والبحرية البريطانية ووحدات الفيلق الأجنبى الخاص الفرنسى فى ثلاث نقاط فى بورسعيد: بورفؤاد والجبانة ومطار الجميل، وابتدأت المعارك العنيفة فى بورسعيد. وتلت الموجة الثانية الموجة الأولى من المظليين، وإحتلت القوات المعتدية بور فؤاد والجميل فى صباح ٦ نوفمبر.

وقد أكد فى حديث معى فى بداية عام ١٩٩٤ شاهد العيان المباشر لقصف بورسعيد أناتولي بتروفيتش شيكوف الذي كان أول قنصل سوفييتى فى هذه المدينة "إنه قد سويت أحياء بورسعيد التى يقطنها أولاد البلد بالأرض تماماً حيث جرت أعنف مقاومة ضد المعتدين.

وتحدث عن بطاريتى مدفعية صغيرتين "كانتا تطلقان النيران بإستمرار"، وقال "وبينما سيطر المزاج الوطنى القوى العام على الشعب المصرى وقادته نشب الذعر بين الرؤساء المحليين فى بورسعيد ، ولم ينظم أركان الحرب حقيقة فى المدينة .. ولكن الجنود والعساكر العاديين فى الجيش المصرى أظهروا رباطة جأش فى الوضع المتأزم بينما أثار قصف بورسعيد فى سائر مدن وادى النيل موجة من المشاعر الوطنية لدى الجماهير .. وكان بعضهم يسعى إلى إن يذهب إلى بورسعيد لكى يقاتل فى المدينة المكافحة. وربما لهذا السبب سميت بورسعيد بالمدينة المتآخية مع ستالينجراد.

ويذكر اناتولى شيكوف : " لما ابتدأ قصف المدينة أثناء العدوان الثلاثـــى فرشنا على سطح القنصلية العلم السوفيتى بحيث تراه الطـــائرات .. ولكـــن الطائرات لم تقصف القسم الأوربى من بورسعيد غير أنه دمرت مبانى حول القنصلية. وهذا يسمح لنا أن نستنتج ان هدف المعتدين كان تخويف ممثلـــى الاتحاد السوفييتى. وفي هذا يقول القنصل السوفييتى آنـــذاك "إن بورســـعيد كانت مقسمة إلى قسمين: القسم الأوربى والقسم العربى بواسطة خط ســـكك حديدية وبينهما ممر صغير وفيه نقطة تفتيش .. وأعلنت الأحكام العرفية من الساعة السادسة مساءا .. وكان الأجانب لا يثقون فى العرب .. وكان ممثلو الدول الأجنبية يتحركون فى المدينة بمصاحبة رجـــال المظـــلات الإنجليـــز والفرنسيين". كما قال لى القنصل إن قائد قوات الحملة العـــسكرية الجنـــرال ستوكوال بعث بدعوات إلى جميع أعضاء السلك الدبلوماسى فـــى بورســـعيد لمأدبة عشاء بمناسبة ما اسماه "النصر" لكن القنصلية الـــسوفييتية رفـــضت الدعوة. وقد أشار اناتولى بتروفتش الى عمل إستفزازى آخر بقوله " ظهرت فى بورسعيد دبابات رسمت على ابراجها النجوم الحمراء، وخـــرج أهـــالى المدينة لإستقبالها ظنا منهم أنها سوفييتية ففتحت هذه الدبابات النيران علـــيهم .. وبهذه الطريقة حاول المعتدون النيل من شعبية الموقف السوفييت ".

فى هذا الوقت كان موظفو المؤسسات السوفييتية ومنهـــا الـــسفارة فـــى القاهرة والقنصلية العامة فى الإسكندرية يعملون حـــسب نظـــام الطـــوارىء العسكرى. وكتب فاديم كيربيتشينكو انه " حتى لو منعتنا السلطات المـــصرية من الخروج من السفارة كنا نصعد على سطح السفارة وحاولنا أن نحدد أين يضربون ، وماذا يضربون .. وما هى قوة الضربات ؟ " ولم يتوقف عمـــل المركز الثقافى السوفييتى الذى كان يديره فيكتور جورافليف الذي قـــال "إن

راديو القاهرة أذاع أن ساسة انجلترا وفرنسا الرسميين وجهوا إلـى سـكان القاهرة نداء بأن يتركوا بيوتهم الواقعة قرب الكبارى إذ ستضرب بـالطيران الغربى".

وواجه العاملون السوفييت بالقاهرة مشكلة حادة أخرى ، وهـى إجـلاء أسرهم الى موسكو. ويذكر جورافليف انه " بمجرد ركوب زوجتـى طـائرة تابعة لشركة الخطوط الجوية اليوغوسلافية ابتدأ قصف مطـار القـاهرة ". وبصعوبة بالغة تسنى للسفارة أن ترسل أطفال وزوجات موظفى المؤسسات السوفييتية فى مصر بالسكة الحديدية إلى أسوان حيث نقلوا بواسطة بـاخرة صغيرة عتيقه وصندل كانت تجره الى وادى حلفا ، ومنه الى الخرطوم التى رحلوا منها الى مطارات أوربا المختلفة. وتذكر فـاديم كيربيتـشينكو هـذا الإجلاء الذى كان "كالسكينة الحادة فى القلب" بالنسبة له : فقد كان على ذراع زوجته ولده البالغ خمس سنوات وبنتان توأمان كان عمرهما سنة واحدة.

والحقيقة أنه منذ بداية حرب السويس استنكرت حكومات الدول العديـدة العدوان البريطانى الفرنسى الإسرائيلى. وفى ٣١ أكتوبر أصدرت الحكومـة السوفييتية تصريحا أدانت فيه بشدة العدوان المسلح على مصر ونادت مجلس الأمن الدولى أن يتخذ الإجراءات العاجلة والحاسمة لإيقاف الأعمال العداونية لإنجلترا وفرنسا وإسرائيل. غير أن الدبلوماسيين البريطـانيين والفرنـسيين عرقلوا عمل المجلس واستخدموا "الفيتو" على قراره. ومع ذلك ففى ٢ نوفمبر سنه ١٩٥٦ إتخذت الدورة الإستثنائية للأمم المتحدة قراراً بخصوص العدوان الثلاثى طالبت فيه بإيقاف إطلاق النيران الفورى وإنسحاب القوات المعتديـة من أراضى مصر. لكن حكومات البلدان المعتدية رفضت القـرار المـذكور وأعلنت انها ستواصل العمليات الحربية.

وفى ظروف تجاهل وإنكار المعتدين لرأى غالبية المجتمع الدولى وإستمرارهم فى شن الغارات اللا إنسانية على المنشآت السلمية فى مصر، توجه الاتحاد السوفيتى الى رئيس الولايات المتحدة بإقتراح إستخدام القوات الجوية والبحرية لإيقاف العدوان مع أعضاء الأمم المتحدة الآخرين. ولكن حكومة الولايات المتحدة رفضت هذا الإقتراح.

وفى ٥ نوفمبر بعث رئيس الوزراء السوفييتى نيقولاى بولجانين برسائل إلى إنجلتراً وفرنسا وإسرائيل تضمنت ليس فقط إدانة مباشرة بل وتحذيراً مباشراً. وقال فى رسالته الى رئيس وزراء إسرائيل بن جوريون: " تنفيذاً لإرادة الغير وبتعليمات من الخارج تتلاعب حكومة إسرائيل بمصير العالم ومصر وشعبها بشكل إجرامى ودون مسئولية .. وتبذر بين شعوب الشرق الحقد على إسرائيل الذى سيؤثر فى مستقبلها وسيشكك فى وجودها نفسه كدولة.

وجاء فى رسالة بولجانين إلى رئيس وزراء بريطانيا أنتونى إيدن ما يلى: " تعتبر الحكومة السوفييتية لزاماً عليها أن تلفت إنتباهكم إلى أن الحرب التى شنتها إنجلتراً وفرنسا ضد الدولة المصرية محفوفة بأوخم العواقب على العالم كله .. فى أى حال ستكون إنجلتراً نفسها لو هاجمتها دول أكثر قوة ، تمتلك جميع أنواع اسلحة التدمير ؟ وبوسع مثل هذه البلدان فى الوقت الحاضر أن لا ترسل الأساطيل الحربية والجوية الى سواحل إنجلتراً بل تستخدم فقط الوسائل الأخرى ، على سبيل المثال ، الصواريخ . إننا عازمون بكل حزم على قهر المعتدين وإعادة السلام فى الشرق بإستخدام القوة .. ونحن على أمل بأنكم فى هذه اللحظة الدقيقة سوف تظهرون الحصافة

اللازمة وتستخلصون من ذلك الإستنتاجات المناسبة ". ولقد وجهت رسالة بمثل هذا المضمون الى رئيس وزراء فرنسا جي موليه.

لقد انطوت هذه التحذيرات المعادلة للإنذار النهائي والمكتوبة بلغة شديدة اللهجة على تهديد بتعريض إنجلترا وفرنسا لهجوم بالصواريخ الموجهة بعيدة المدى ذات الرؤوس النووية. لقد غير التدخل السوفييتي طابع أزمة السويس كلها، إذ تجاوزت الحدود الإقليمية واتخذت ابعاد الأزمة العالمية.

والآن لم يعد هناك ما يمكن إن ينقذ العالم من الحرب الجديدة إلا اتخاذ الأمم المتحدة إجراءات حاسمة وكذلك إستبعاد إنجلترا وفرنسا وإسرائيل للإصغاء لصوت العقل وإيقاف العمليات الحربية على أرض مصر. وفى ٧ نوفمبر أوقفت العمليات الحربية على أرض مصر ودخلت اليها القوات الدولية. وغادر المعتدون الإنجليز والفرنسيون بورسعيد فى ٢٣ ديسمبر ١٩٥٦ !.. وهكذا إنتهت المغامرة الثلاثية بصورة مخزية.

لقد قال شاهد العيان أناتولي شيكوف، أول قنصل سوفييتى فى بورسعيد – قلعة المقاومة الرئيسية ضد العدو– وبكل تأكيد إنه "حتى ولو لم يوقف العدوان تحت ضغط هيئة الأمم المتحدة والاتحاد السوفييتى واحتل المعتدون منطقة قناة السويس فما كان المصريون ليسلموا سلاحهم".

والحق لم تخضع مصر التى تعرضت لواحدة من أولى وأخطر اختبارات القوة بين البلدان المتحررة وبين المستعمرين الذين كانوا يحاولون أخذ الثار التاريخى واسترجاع المواقع المفقودة فى مستعمراتهم السابقة، بل ورفعت هذه المغامرة الفاشلة سمعة هذا البلد وقيادته فى أنظار المجتمع الدولى. وأصبحت مصر فى طليعة حركة دول عدم الإنحياز، وشغل جمال عبد الناصر مكانة بارزة بين زعمائها.

ومن بين النتائج الرئيسية لصد العدوان الثلاثي حدوث التقارب مع الاتحاد السوفييتي. وفي هذا قال لي القنصل شيكوف إنه "بعد سحب قوات المعتدين أقامت البحرية المصرية مأدبة عشاء كان مندوبو الاتحاد السوفييتي ضيوف شرف فيها. ولما ظهروا في قاعة المأدبة استقبلوا بتصفيق حار من قبل الحضور، حتى الأعيان والوجهاء الذين كانوا ضمن المدعوين أظهروا الاحترام لموقفنا أثناء الأزمة".. ولا يزال أبناء العالم العربي حتى الآن يذكرون هذا الإنذار السوفياتي شديد اللهجة. وهكذا نقل كيربيتشينكو هذا التقييم لموقف الاتحاد السوفييتي: "عندما دوى الإنذار الحاسم وشديد اللهجة المعروف بـ "إنذار بولجانين" ، وقرر المعتدون أن ينسحبوا، تغيرت الأوضاع بالنسبة لنا بشكل جذرى . فقد اكتسبنا فورا لقب منقذى مصر، وأفضل أصدقائها. وذات يوم رفع حشد من القاهريين سيارتى "الأوستين" الصغيرة ذات العلمين السوفييتين المرسومين على زجاجها وحملوها بى عدة أمتار".

ولقد خدم دور الاتحاد السوفييتى فى مساعدة الشعب المصرى على صد العدوان الثلاثى تعزيز العلاقات الثنائية لاحقا، والذى ساعد بدوره على إنشاء القاعدة المادية التقنية للبلاد لإجراء التحولات الإقتصادية الإجتماعية الناجحة وذلك عن طريق تشييد السد العالى فى أسوان وبناء مجمعى الحديد والصلب بحلوان والألومينيوم بنجع حمادى، والترسانة البحرية فى الإسكندرية، والمنشأت الزراعية فى مديرية التحرير ومؤسسات القطاع العام الضرورية لتحقيق الإستقلال السياسى والاقتصادى. كما ساهم خريجو الجامعات والمعاهد السوفييتية العليا من المصريين مساهمة فعالة فى تطوير الحياة الثقافية للبلاد. ونتيجة للتعاون الثنائى إزدادت القوة الدفاعية لمصر، والتى اصبحت بالفعل زعيمة للعالم العربى.

صدى العدوان الثلاثى فى الأدب العراقى

د. سهيلة الحسينى

عندما نبحث فى قضية وطنيـــة تاريخية حركت وجـــدان الـشعب العربى (كقضية العدوان الثلاثى على مصر عـام ١٩٥٦) بـسبب تـأميم الحكومة المصرية لقناة السويس وإدارتها. هذه القناة التى كانـت أول قنـاة صناعية شقتها يد الإنسان المصرى وهو يصنع الحضارة البـشرية ، علـى عهد "سنوسرت الأول" منذ ما يقرب من أربعة الآف عام ، لتغدو فيما بعـد محطة تلتقى عندها دول العالم فى حركة تجارتها ومصالحها عبـر البحـار ومن خلال هذا الشريان الحيوى غدت كرمز للسلام العالمى[١].

ومـن أجل تسليط أضواء صدى العدوان على مصر فى نفوس أدبـاء الطرق ، ذهبنا فى محاولة استنطاق التاريخ القديم تمهيداً لمعرفـة الأجـواء السياسية القائمة بين هذين الشعبين اللذين يساميان بعضهما عراقة وحضارة ، إذ تلقى بظلالها بقوة على الموقف الأدبى لنجد وبكل أسف أن علاقتهما تتسم بروح التباعد أكثر منها تقارباً. لذا إذ استثنيا فى العصر الحديث مرحلة حكم الرئيس "عبد السلام عارف" ذات الصلة المتينة بالرئيس جمال عبد الناصر. كذلك المرحلة القديمة المتصلة بحـــكم ملوك الكاشيين فى بابل منذ حوالى ألفى سنه ق.م.

وكمثال نجد أن العلاقة بين أحـد ملـوكهم "كارينـدارش" ومعاصـره الفرعون "تحتمس الرابع" علاقة ودية تبودلت فيهـا المراسـلات الأخويـة والهدايا وازدهرت التجارة، وتوجب هذه العلائق الوثيقـة بالمعاهـدة بـين الأسرتين الحاكمتين. أما فيما عدا ذلك لا نجد أثرا لتقـارب ملمـوس علـى صعيد الحكام وشعوبهم أيضا لعل أقساها وأعنفها ما كان فى عهـد "دولـة

أشور" التى مثلت حروبها الطاحنة الوسـيلة الوحيـدة القائمـة بـين وادى الرافدين. فآشور التى اعتمدت نظام القوة العسكرية المتعالية والقائمة علـى مبدأ الهجوم، مضت تبسط نفوذها على الشام وفلسطين مما هدد كيان مـصر التى ترى أنها وحدها لها حق السيطرة على هذه الأراضى التى أخـضعتها على عهد تحتمس الأول والثالث بعد طرد الهكسوس واستعادت قوتها بـأن بسطت سلطانها فى غرب آسيا حتى نهر الفرات.

لقد قامت أولى الصدامات بين آشور ومصر على عهد الملك سـرجون الثانى حوالى سنة ٧١١ ق.م، إذ بدأت آشور تسيطر على سوريا وفلـسطين مما أوغر صدر مصر التى كانت تساعد وتحرض وتدس أمراء لهذه الممالك حتى انتهى الصراع بدخول بعض ملوك آشور الى العاصمة "منف". على أن مصر تمكنت بعد زوال مملكة آشور الثأر لنفسها فى العصر البابلى الثـانى على عهد "نخاو الثانى".

ولقد أحدثت هذه الحروب شرخاً عميقاً فى نفس الشعبين لآمـاد بعيـدة خاصة أن هذه الشعوب كانت شديدة الإرتباط بحكامها. ولعل من المفارقـات العجيبة أن نجد بين ملوك آشور – وكلهم بالطبع اتسمت حروبه بطابع القسوة المتناهية والوحشية حيال أبناء الدول المغلوبة – من يمتلك ذائقة أدبية مرهفة كسرجون الذى حارب حلفاء مصر حيث اعتنى بمكتبة ضخمة حوت شـتى المعارف الإنسانية والعلمية كما شهد عصره نشاطاً فكرياً كبيراً.

أما الملك "آشور بانيبال" الذى دخل مدينة طيبة ودمرها كان كـصاحبه يمتلك حساً أدبياً عاليا وولعاً بالبحوث التاريخية التى عنى بها كثيراً. كما كان يفخر بممتلكاته الأدبية فيؤلف ويقوم بنفسه بكتابة مؤلفاته على ألواح الطين. ومن جملة أقواله المؤرخة لأعماله : "من أسباب سرورى أن أكرر الكتابات الجميلة الغامضة المدونة باللغة السومرية والكتابات الأكادية التـى تـصعب

قراءتها"[٢]. وقد أمر هذا الملك العاشق للحرب والمعرفة معا بنسخ كل ما خلفه السومريون والبابليون من آداب ووضعها في مكتبته في نينوى التي قدرت محتوياتها بثلاثين الف لوح طيني، وجدت سليمة بعد مرور خمسة وعشرين قرنا من الزمن. كما وصفت بأنها "أثمن ما في العالم من الذخائر التاريخية"[٣] ووجدت محتويات المكتبة مصنفة ومفهرسة ليسهل تناولها. وإذا ما قيل بأن أهم ما يخلد ذكر آشور في تاريخ الحضارة هو مكتباتها "[٤] فهي أيضا كاشفة لأقدم ما بقي لدينا من الكتب في علم التاريخ.

ورغم تباعد أصحاب الواديين العريقين وجدانيا وجغرافيا .. فقد شهدا تماثلاً فكرياً وأدبيا من خلال ما رصدته آثارهما الرائعة. ففي معاملة الوالدين – على سبيل المثال – يطالعنا النص السومري :

" أطع كلام أمك كأنه أمر إلهي "[٥] يقابله النص الفرعوني

" كم هو جميل أن يطيع المرء أباه .. إن ما يريده الرب هو الطاعة " [٦]

وفي إبداعها الفكري وخبرتها لأهمية الكتابة ، يقول النص السومري :

" إن من يريد الكتابة .. عليه إن ينهض مع الشمس "[٧] وفي النص الفرعوني : "وطن نفسك على أن تكون كاتبا حتى تستطيع أن تدير أمور العالم كله .. "[٨]

إن المرء ليحزن أن مضت هاتان الدولتان في صنع حضارتهما الأولى منفردتين " يوم كانت الدنيا طفلا يحبو في جهالة القرون "[٩] حتى بهرتا العالم فيما بعد وكنت أتمنى لو حدث تزاوجاً بينهما إذن لأمدتا الساحة الثقافية بسنا نور لم تعرف له الدنيا سطوعاً.

وإذا طوينا هذه الصفحة الثرية من تاريخنا القديم، وإنتقلنا الى تاريخنا الوسيط وتحديداً مرحلة الفتح الإسلامي حيث وقوف مصر والعراق لأول مرة معا تحت المظلة الإسلامية لتتمخض النتائج عن طفرة في مسار علاقتهما. فالدين الجديد المشترك استطاع أن يعرب الدولة المفتوحة ويؤاخي

بينهما رغم تباين الأعراق والقوميات وبالتالى تلاشت تلك الصراعات والأحقاد المتوارثة لتظهر ثمارها فى العصر القيادى للحضارة الإسلامية حيث التواصل العلمى والفكرى والدينى والأدبى تمثل فى نتاج أربابها وتنقلهم بين القطرين. وشهد العصر العباسى الأول إبان قوة الخلافة ومركزها بغداد عصراً من الأزدهار الأدبى والفكرى استطاعت معه استقطاب علماء العالم لمركز امبراطوريتها كان منهم العديد من علماء مصر وفقهائها يتصدرهم الأديب والشاعر الإمام الشافعى (رضى الله عنه) حيث دخل بغداد ١٩٥ هـ ليستقر فى مصر سنه ٢٠٠ هـ حتى وفاته .. كما شهد العصر الوسيط تبادل أدوار العلماء أيضا حيث وجدنا ابن الهيثم (٩٦٥ – ١٠٣٩م) يغادر البصرة الى القاهرة زمن الحاكم بأمر الله الفاطمى، ويعرض عليه مشروع تنظيم جريان نهر النيل، وإن لم يخل العصر العباسى الثانى رغم ضعفه من صراع سياسى بين بغداد ومصر التى مثلت أول دولة تنسلخ عن جسد الخلافة وتعلن استقلالها ثم لتتشكل -فيما بعد- الخلافة الفاطمية.

ومع كل الأدوار الإسلامية لم تكن عليه الأجواء السياسية ما شهدته العصور القديمة من قطيعة بينهما. فنجد على سبيل المثال أن من أدباء العراق "عبد اللطيف البغدادى (١١٦٢–١٢٣١م) ، قد هاجر الى مصر واستوطنها وله فيها مؤلفات منها الإفادة بأرض مصر، وشرح فصول القراط وعندما حدثت نكبة الخلافة العباسية ٦٥٦ هـ شهد علماء العراق وأدباؤها وحتى حرفيوها "هجرة معاكسة" إذا كانت مصر ملاذهم وهى تفتح ذراعيها لهم. بل وجدنا من آثر البقاء فيها !. وامتد هذا النزوح ليشمل أدباء "الموصل" التى كانت حينذاك أحد المراكز الثقافية الشهيرة ويتوجه العلماء إليها، إجتاحها التتار سنة (٦٦٠هـ/ ١٢٦٢ م) ليولى أحد أبنائها الأديب والشاعر الساخر والطبيب "ابن دانيال الموصلى" (٦٤٦–٧١٠ هـ) وجهته نحو مصر التى

استوطنها وذاعت شهرته فيها ، وكان يشهد بعض مجالس السلطان الأشرف قلاوون (١٠).

لقد شهدت هذه الفترة حركة تزاوج فكرى وثقافى وعلمى وازدهرت فى ظل الأوضاع السياسية حينذاك ، كما أن هذا التقارب بين الشعبين أفرز حكايات شعبية وأسطوريه مستوحاة من لون أدبى تراثى شعبى تتناقلة الأجيال خاصة فى صعيد مصر المحكوم بعاداته المتوارثه عن شاب وشابة أحبا بعضهما ولكون التقاليد القبلية الصارمة تحول دون زواجهما فقد وجدا فى الهرب الى العراق منفسهما، وهناك عاشا حياة هادئة. ولكن الأقدار تشاء أن يموت أحدهما فى شمال بغداد والآخر في جنوبها، لتنمو نخله على قبر كل منهما يمتد سعفها عاليا فى الأفق حتى يلتقى ويغطى سماء بغداد حبا وظلالا. هذه الحكاية غدت مواويل فى صعيد مصر (١١) تغنى.

والسؤال .. لماذا اختار هذان العاشقان بغداد-العراق دون سائر الممالك يومها ؟!.

هذه الحكاية التى نمت فى صعيد مصر وترعرعت فى العراق معطيات أخرى لالتقاء هذين الشعبين من خلال أنواع الثقافات المشتركة وتنامى العلاقات الودية بينهما.

شكل إنتهاء السيادة العثمانية بفعل الهجمة الإستعمارية الغربية، تفكك منظومة الهيكل السياسى للعرب، ولكن لتبرز قضية جديدة هى فكرة انبعاث المد القومى والتأكيد على الوجود العربى فى فترة فجر النهضة العربية فى القرن التاسع عشر من خلال ثقافته وتجاربه ومصالحة المشتركة، وأيضا لتماثل الظروف الإجتماعية والسياسية.

فى هذا المنعطف التاريخى الجديد كان الشعر يمثل الوقود الروحى والصوت العالى لتوحد العرب ، ومن طلائعه الفكرية والأدبية الشاعر العراقى الكبير عبد المحسن الفاطمى الذى اتخذ من مصر موطنا ثانيا له

يصلنا صوته الذى يصبح بحسه القومى معبراً عن الحنين والتوحد والتفاعل الوجدانى المشترك عبر ترنيمة يتعانق فيها الحنين والآلم :

أحـــن إذا قيــل العــراق وأنحنـــى	وأشـــهق إذا قيــل الــشام وأزخــر
وأطرق إذا قيل الحجاز علــى جــوى	وأعجــب إذا قيــل مــصر وابهــر
جميع بلاد العرب فــى القــدر واحــد	إذا وازنوا البلدان يوما وقــدروا[١٢]

لقد سجلت الأعوام (١٩١٧ – ١٩٣٩ م) ذروة التأكيد على الوجــود القومى، بل ونجد اختلاط الشعراء بين قطرى مصر والعراق أخذ خطاً أعمق وأشد اندفاعا وحدة حتى بلغ تدخل بعضهم فى الشؤون السياسية للقطر الآخر لدرجة عرض نفسه لغضبة حكامها [١٣].

ونحن بإزاء لون من الوان التجاوب الروحى حيث نجد الشاعر العراقى جميل صدقى الزهاوى عندما يبعد عن وطنه تكون مصر أول ما تتجه إليها بوصلة تفكيره. ومع بعض نسيج مشاعره النفسية الموزعــة بــين العــراق ومصر :

لــيس مــن بعــد العــراق قــصر	غير مــصر ومــصر أخــت العــراق
فى رحيلى عن العــراق الــى مــصر	مــصابى ، معــادل لإشــتياقى[١٤]

وفى إنصهار وذوبان مشاعر أبناء القطرين نتــصفح أوراق "الــدكاترة" زكى مبارك "من وحى بغداد"، فنحسب جيشان عاطفته شلالا قوى الإندفاع يرمى برذاذه فينعشنا . فهو فى حبه الدنف للعراق يعبر عن روحة الــشاعرة الدائمة الهيمان فى آفاقه :

" وسيأتي يوم يعذرني فيه من اتهموني بالإسراف في حب البلاد التي عرفت بكاء الحمائم .. سيعرف اخواني في مصر أنني بنيت لهم صرحاً من الود في وطن نبيل هو العراق ، سيعرف أخواني أن غيرتي على سمعة العراق ستضاف الى المحاور المصرية ، وسيقول المنصفون إن المصري حين يغترب لا ترى عيناه غير الجميل من شمائل الرجال .. "[١٥]

وفي موضع آخر ترتفع حدة نبرات هذا الجيشان العاطفي المور في حبه لمصر من خلال حبه للعراق وسفارته الأدبية لمصر :

" ما ذقت طعم الحياة إلا في العراق

ولا رأيت صدق القلوب إلا في العراق

ولا عرفت جمال النيل إلا بعد أن رأيت لون مائه في دجله والفرات"[١٦]

ولعل المنصفين يعذرون الدكتور زكي مبارك عشقه للعراق بعد أن ظلم في مصر، ليجد في العراق قلباً حنوناً ينبض بحبه .. وأناسا قدروا له مواهبه الأدبية.

والأمثلة السابقة بسياقها الأدبي الرفيع تقدم صورة تاريخية مضيئة لتبادل الأدوار.

وكما ظهرت الإشراقات والتفسيرات المؤصلة لتاريخنا العربي والإسلامي في مؤلفات اساتذتنا منهم الدكتور عبد العزيز الدوري وكتابه (نشأة علم التاريخ عند العرب) الذي يضرب على وتر الوحدة بينهم كمجتمع وتاريخ. فالمحن والمأسي عمقت التلاحم بينهم فوقفوا في وجه الإستعمار كبنيان مرصوص.

وما بين عام ١٩٤٩-١٩٥٦م ، كانت الأمة العربية من مشرقها حتى مغاربها تشهد تحولات سياسية مصحوبة بفترة غليان في سبيل الحرية السياسية والاجتماعية. وكان لقيام الثورة في مصر عام ١٩٥٢م إنعكاسها على العرب "بتقوية الأمل في تحقيق عالم مختلف وأمه عربيه مرتبطة بثورة

إجتماعية حقة لتتبوأ موقعها المناسب فى العالم"[١٧]. وعندما وقـع العـدوان الثلاثى على مصر تحرك العراقيون لمناهضة سـلطتهم الحاكمـة والتطلـع للوقوف مع مصر فى خندق واحد سيما والشعب العراقى كان ينوء بضغوط سياسة حكومته المستمرة لإبرامها المعاهدات الجائرة مع الإنجليز وقمع حرية الشعب الى جانب بث سمومها من إذاعة بغداد ضد مصر وتوجهها القـومى لتتوج هذه السياسية البعيدة عن روح وحدة الشعوب العربيـة بـــ "حلـف بغداد"[١٨] السئ السمعة كما يظهر العراق قوة متزعمة للكتلة التى تناصـب مصر وحليفاتها العداء.

أجل .. لقد كان لظهور عبد الناصر وبرنامجه السياسى الذى يدعو الى وحدة الشعوب العربية ومقاومتها الإستعمار وعملاءه ، وتبنيه سياسة عـدم الإنحياز إضافة الى خطاباته ووسائل إعلامه الموجهة للشعوب العربية يمثل تهديداً لأنظمتها وخاصة نظام العراق الذى لعب دوراً قيادياً بارزاً ومناقـضا تماماً لدور مصر.

ومعذرة لهذا الاستطراد التاريخى الذى أراه جـزءا متممـا لموضـوع البحث. فلقد مضى العراقيون يتابعون أحداث "بورسعيد" بعد هبـوط جنـود المظلات البريطانية فى ٥ نوفمبر ١٩٥٦ م ، ليليها إنزال قوات المظـلات الفرنسية بربع ساعة، ليحولوا زرقه سمائها التى تحاكى بحرها الـى جحـيم بفعل قنابلهم ليسقط على أرضها الآف الشهداء. وإسـتكمالاً لهـذه الجريمـة التاريخية (الأنجلو- فرنسيه) كان الغزو البحرى لشواطئها فـى ٦ نـوفمبر لتستباح هذه المدينة الوادعة المطمئنة فى أحضان البحر بكل الـوان الخـسة والإنحطاط التى تعاقبت والتقت خيوطها التآمرية مع القوات الإسرائيلية التى شكل تحركها مفاجئة للقيادة المصرية لوجود هدنة بينهما، إذ كانت أول مـن سارع بالإنزال فى سيناء تعضيداً للإتفاقية السرية بيـنهم. ورغـم بـشاعة

الجريمة وعظمها بقى أهالى بورسعيد رجالاً ونساءاً يسطرون ملاحم بطولة خالدة حمدها لهم التاريخ العربى والإنسانى.

على الجانب الآخر كان يحز فى نفوس العراقيين سماح النظام العراقى للطائرات الإنجليزية الإنطلاق من قاعدتى الشعيبة فى البصرة، والحبانية فى الرمادى لضرب مصر. لذا برز الأدباء والشعراء "كقادة حقيقيين يمسكون بزمام توجيه الشعب المحتقن سياسياً والذى ربط إنتعاش آماله بثورة مصر وأهدافها وبدت مقالاتهم وخطبهم وقصائدهم الداعم الحقيقى للتظاهرات التى نفر لها الطلبة وسائر شرائح الشعب .. هذه الجموع الثائرة انطلقت من ساحة "السويدى" مارة بجسر "مود"[١٩] ولم يجد تعطيل المدارس والجامعات فتيلا لوقف التظاهرات رغم إعلان الأحكام العرفية وفتح بوابات السجون والمعتقلات وملئها بالمواطنين الذين ساقتهم السلطة ألوان العذاب حتى خضعت لهذه الإنتفاضة الشعبية فى طول البلاد وعرضها – والتى لم يتحسب لها – بإيقاف الإنجليز عن هاتين القاعدتين.

لقد برز الأديب العراقى كأحد أهم الروافد المقاومة للمحتل وتفعيل دوره القومى ، لذا اعتبر الصانع الحقيقى لهذه الانتفاضة التاريخية التى أشعلت فى ذاته حرائق الثورة على النظام المستبد كان من تداعياتها الإطاحة به وقيام ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ م.

لقد مثل العدوان قاسماً مشتركاً للهم الذى كانت تدركه كل شرائح الشعب العراقى خاصة شباب الجامعة .. لقد كنت شاهدة عصر إبان تلك المرحلة !!.. كنا يومها نعيش فى مدينتا "الموصل" عندما أغلقت جامعة بغداد – وهى الجامعة الوحيدة يومها. وعاد أشقائى الذين شاركوا فى تظاهرات الطلبة ، ولقد رأيت آثار ضرب أفراد الشرطة لهم .. كدمات زرقاء وحمراء على سيقانهم وسواعدهم .. ومن خلال أحاديثهم عن معاناة مصر ارتبطت أنا الأخرى بها وجدانيا رغم حداثه سنى فى تلك الحقبة.

ولئن افتقد شباب العراق الذى كان يتحرق شوقا للسفر الى مصر مـن خلال الانجذاب الروحي الذى يسري في عروق أخوة الدم والدين والتـراب والمصير المشترك ، بسبب تعنت النظام الذى مثل حاجزاً منيعاً يحـول دون الوقوف في جبهة واحدة مع شباب مصر المقاوم للعدوان الجائر .. فقد وجد الأدباء ضالتهم، لذا ذهبوا يصوغون من ذوب روحهم ونفثات قلوبهم لوحات شعرية تعبر عن هاجسهم واعتزازهم بكفاح الشعب المصري ، وإعجـابهم بمصر الثورة تلك التي مثلت أهدافها الشوكة الواخزة في جـسد الإسـتعمار الإنجليزي والفرنسي خاصة بعدما رأوا في تـأميم قنـاة الـسويس ضـربا لمصالحهم فالتقوا مع مأرب اسرائيل لإجهاض ثورتها !..

والحق .. بدأ الأدباء في هذه المرحلة ألصق بهموم أمتهم وأشد التزامـاً ووعياً .. وبعداً عن ذاتيتهم وأكثر إنتقاءا وتنظيراً ونشراً للثقافـة الوطنيـة وتصعيداً لمقاومة المستعمر الذى وجـدوا فيـه تهديـداً لهـويتهم وكيـانهم الحضاري.

لقد ألقى الشعراء بثقلهم الأدبي في هذه المعركة .. فأدب المقاومة يبرز ويتوهج عندما تواجه الشعوب قوى استبدادية من داخل الوطن ، أو غازيـة من خارجه. عندها يشحذ الأدباء وهم طليعة الشعب أسلحتهم لرفد معـركتهم بلون من ألوان المقاومة.

لقد مثلت الكلمة الرافضة للظلم أحد أهم الركائز الفاعلة التي اسـتثمرها الأدباء لتقويض عروش لم تقو الأسلحة الميدانية على حمايتهـا. وشـعراؤنا الذين طالما تغنوا بثورة مصر وقائدها هبوا كالإعصار في وجه المحنة التي اكتوى بنيرانها شعب مصر لكأنها محنتهم القومية. لقد بات الـشعر قـوتهم اليومي ومظلة تتوحد تحتها أصواتهم بعيداً عن مناهجهم الفكرية واختلافاتهم السياسية وتنظيراتها.

ولم تكن الشاعرة العراقية دون أخيها الشاعر ثورة مثلت ريادتها "رباب الكاظمى" ليليها جيل الدكتورة "عائشة وهبى الخروجى" التى سجلت عشقها لمصر قصائد تذوب وجداً ، خاصة بعد زيارتها لمصر.

أما الشاعرة "نازك الملائكة" .. فكانت شعلة تلتهب بوقود الوطنية ومفردات الوحدة العربية، وكان لقصائدها فى حب التى اختارتهم قطر لهاجه المبرم، مذاقه الخاص.

على أن الشاعرة العراقية المبدعة "باكزة أمين خاكى" وهى تلميذة الشاعرة عائكة الخروجى .. لا نجدها تترجم عشقها لمصر باتخاذها وطناً ثانياً .. إنما وجنسية ! .. فهى (العراقية المصرية) لقد وجدنا باكزة أعلى الأصوات المنسوبة ثورية .. ولكم حوكمت وسجنت وعذبت بسبب قصائدها التى تدعو الى الثورة والإطاحة بالسلطة خاصة قصيدتها "لسنا عبيد" و "ثورة الأحرار" و "ثار العبيد" كما أصيبت برصاص شرطة السلطة الملكية خلال مظاهرة وثبة الطلبة عام ١٩٤٨ م .. ورغم جرح صدرها اجتازت الجسر الذى استشهد عليه بعض الطلبة ولقبتها بعض الصحف العراقية يومها بفتاة الجسر ! .. ولها قصيدة متميزة تروى لأحفادها هذه الوثبة بعنوان "أنشودة الجسر" (٢٠).

وبرغم ثوريتها ووطنيتها الأصيلة سأختار قصيدة فى حبها لمصر وهى تزورها لأول مرة ضمن وفد طلبة جامعة بغداد .. هذا التواؤم الروحى فى عشق العراقى لمصر انعكس أصداؤه فى قلب شاعرتنا فخرجت علينا بقصيدة "سلام من العراق" وقد ألقتها فى جامعة القاهرة عام ١٩٥٣ م ومنها :

بعث العراق سلامه لرباك — وشدت صبا بغداد فى ذكراك
وتمايلت أمواج دجلة فى منى — وتعطرت نسماته من شذاك
ما كاد يوطى بالكنانة ركبنا — حتى ابهرنا من عظيم سناك
يا مصر يا أخت العراق تحية — من عاشق منى النهى بلقاك

مصر الحبيبة والقلوب جميلة وسرحت قرب النيل في نجواك
وعجبت إذا يزوى الجمال بأسره ويذوب في طمى الورى إلاك
هيهات أن أرضى بديلك موطناً شل الفؤاد إذا هويت سواك(٢١)

بهذه اللغة الرائقة والمجنحة تعبر ابنة العراق .. عن سحر مصر الذى جذبها ولم يدعها إلا وقد غدت زوجة لرجل مصرى مرموق يعمل فى منظمة الأمم المتحدة.

وأمام العودة الى أحداث بورسعيد، والعدوان الغاشم على مصر نجد ما من مفكر أو أديب أو صحفى أو شاعر يمتلك حساً وطنياً وقوميا لم يشارك بزرعه ألغاما من نثره أو شعره يود تفجيرها بوجه هذا العدوان الذى شكل منعطفاً سياسيا وتاريخاً هاماً لتحرك الشعب العراقى من أجل تحرير ذاته ومن خلال التطلع إلى ثورة مصر الرائدة.

وإذ أدى أدباء العراق دورهم التاريخى تجاه محنة مصر رغم محاولة السلطة تكسير اقلامهم وتكميم أفواههم، فثمة سؤال يلح على ويلقينى فى دوامة الحيرة وهو لماذا أفتقد صوت "نازك الملائكة" فى هذه المناسبة وهى الشاعرة المفعمة وطنية وتلاحماً مع قضايا أمتها خاصة وقد ورثت عن أمها الشاعرة الطليعة (سلمى) أم نزار الملائكة ، توجهها القومى ومدها الثورى، نراها ارتضت الوقوف فى منطقة الظل من هذا العدوان وهى التى طالما تغنت بثورة مصر وأنشدت لرئيسها ولدقات ساعة العمل الثورى، ولشمسها ونيلها ولوحدتها مع سورية، وهللت لنصر عبور قواتنا المصرية القنال فى العاشر من رمضان . (٢٢)

وهى أيضا من ألقت عليها الدكتورة عائشة عبد الرحمن وشاحا هو إهداؤها الذى تصدر مؤلفها "الشاعرة العربية المعاصرة" (الى صديقتى نازك

الملائكة شاعرة العصر التى حققت وجودنا الشعرى بأصـــــالة واقتـدار، تحية إكبار ومودة ..). الحق .. لقد قرأت أعمالها الكاملة التى تزخر بفيض المناسبات الوطنية التى غطت عالمنا العربى، ومن يقرأ لها قصيدة عن حرب لبنان قبل ٣٣ عاماً يخالها كما لو نظمت هذه اللحظة.

هذه الشاعرة الشجاعة .. لم ارتضت الصمت أمام بطولة بورسعيد وهى التى القت عصا تسيارها فى مصر التى اختارتها وطنا آخر ؟! .. الحقيقة لا أجد تفسيراً اللهم أن هول الصدمة جعلت القوافى تستعصى عليها.

وأمام جهاد بورسعيد وصمودها سطر طليعة شعراء العراق الثوريـون قصائدهم ملاحم تحكى كفاح شعب دفاعاً عن وطنه، ومـن هـؤلاء شـاعر العروبة "محمد مهدى الجواهرى" الذى تقلت دواوينه ليس فى حب مصر بل وفى رموزها الأدبية والسياسية أيضا. فمن يقرأ أعماله الشعرية الكاملة يجد فى طريقه سلسلة ذهبية تنتظم انتظاما عقد من اللآلئ ..

لقد أهدى الجواهرى من مدينة دمشق قصيدته المعنونة "بورسعيد" تقديراً وإعجاباً بصمود أهلها ومقاومة الشعب المصرى دفاعاً عنها، ومما جاء فيها:

كنانـــة الله اســـلمى إن المنـــى ... دونـــك لغـــو .. والحيـــاة باطـــل

كم غاص فى رمالك الـسمر غـــو ... غار .. وكـم ديـست بهـا جحافـل

خـــط أبـــو الهـــول لهـــا مـــصايراً ... تعرفـــه الأغـــوار والمجاهـــل

****

حتى يقول :

واصـــطرع الباطـــل وهـــو فـــارس ... مـــدجج .. والحـــق وهـــو راجـــل

مـــات الـــضمير فانطفـــا.. واتقـــدت ... مـــن حمـــم القـــواذف المـــشاعل

وابتـــــدرت عــــوالم تـــساءل ... والله والـــشعب الأبـــى فاعـــل

****

كنانـــــــــة الله ولله يـــــــــد	تلـــوى يـــد الطـــاغوت إذ تـــصاول
صبر لحين يـــدرك البغـــى الـــونى	صــــبراً ليـــوم تكـــشف المقاتـــل
صـــبراً علـــى حنظلـــة .. فكريـــة	تخجل مـــن حريرهـــا الحناظـــل[٢٣]

فكل ما رصده الشاعر فى قصيدته يمثل رجع صدى لموقف رافض لهذا العدوان المتبربر. ونلاحظ استهلاله بعظمة مصر من خلال عمق تـاريخى وحضارة مبدعة .. وتأثيرات قادمة من العصور تتجسد فى رموزها كالهرم وأبى الهول .. وإنسانها المبدع وموقعها العبقرى، منظومة مكنتها من تساقط الغزاة والطامعين تحت قدميها.

لقد زاوج شاعرنا بين الصورة التراثية الموغلة فـى القـدم .. وبـين الصورة البطولية المعاصرة . فالشاعر يعلم تماماً أن مصر ليـست طريـدة سهلة للعدو المغير مهما جند من أسـلحة لـصيدها ، فـشعبها عـصى .. والشعوب التى تمتلك رصيداً راسخاً متجذراً من حضارة عريقة شامخة محال أن تقهر أو تذل إذا ما دهمتها الخطوب . فمخزون القيم الدينيـة والإنـسانية تشعل فى روحها وقود الإستماتة دفاعاً عن أرضها وإنسانها. والشعوب الحية هى التى ينتصر لها الحق.

ومـن بغداد التى غطت شوارعها التظاهرات المشتعلة غضباً فى تلـك الفترة، وقف شاعر الثورتين (ثورة تحطيم الشطرين فى القصيدة .. والثورة على النظام الحكم إنذاك)، "بدر شاكر السياب" الذى وجد متنفسا للتعبير عن تمرده .. وهو الشيوعى الذى طالماً طورد وسجن بسبب فكره هذا ، سرعان ما انسلخ عنه بعد ثورة الموصل عام ١٩٥٩م ، تلك المدينة التى اسـتبيحت بشاعة من قبل غلاة الماركسية ليمم وجهه نحو خط ايديولوجى جديد مرتبط بالهم القومى العربى.

لقد استغرقت السياب حالة شعورية إزاء العدوان الثلاثي لـذا تفجـرت شاعريته وكأنها بركان يقذف بحممه فى كل اتجاه ، منها قصيدته التى أهداها إلى أهالى المحافظة الصامدة وعنوانها "بورسعيد" وكأنه اتخذ مـن إسـمها وساماً يحلى صدر الشعراء كونها تحملت العبء الأكبر من هـذه الحـرب الجائرة. وفى قصيدته هذه نجد تعانق الشعر العمودى بالـشعر الحـر بمـد سمفونية متناغمة القوافى .. كما نلحظ فى بعض نسيج نصوصها لكأنما أهل العراق يعانقون أهل مصر ! .. ومن بعض مقاطعها :

يا حاصد النار من إشـلاء قتلانـا	منك الضحايا ، وإن كـانوا ضـحايانا
حييت بورت سعيد من مـسيل دم	لـولا إفتـداء لمـا يغليـه ماهانـا
حييت من قلعـة مـا آذ كأهلهـا	بحـب الـسماوات إلا خـف إيمانـا
يامرفأ النور ما أرجعـت وادعـة	من غيـر زاد ولال آويـت قرصـانا
فالويل .. لو كان للعادين ما قدروا	لانهد مـن حاضـر مـاض فلخزانـا
فلا أتبنى هرمـا بـان ولا لبـست	تيجانها ، فى انتظار الروح ، موتانـا
ولا تفجـر فـى ذى قـار فتيتهـا	ولا تنفـست الـصحراء قرآنـا
حييت موتى ، وأحيـاء ، وأبنيـة	مستـشهدات أو استعـصب أركانـا

من أي مارثة ؟ .. من أى قيثار
تنهل أشعارى ؟
من غابة النار
أم من عويل الصبايا بين أحجار
****

حييت فالوحش أوهى فيك مخلبه
ياغابة النار قد أثمرت بالغلب
ياليت أبواب قلبى منك تلتهب
ياليتها دون قفل .. ليتها خشب
****

جاءوك ! جاء الصليبيون ، قاصفة

تنتقض فى أثر أخرى ، فاللظى مطر

يا قلعة النور تدمى كل نافذة

فيها ، وتلظى ، ولا تستلم الحجر

— أحسست بالذل أن يلقاك دون دمى

وشعرى وأنى بما ضحيت أنتصر [٢٤]

بغداد : ١٩٥٦م

لعلى أكتفى بهذه المقاطع المختارة من قصيدته التى تتجاوز الـ (٧٣) بيتا تترجم بصدق معاناة شعب مكبل بالقيود كالعراق ود لم يشارك كأصغر مقابل إلى جانب اشقائه.

وفى القصيدة نلاحظ تنقلات عضوية رشيقه أملتها عليه فداحة الجريمة التى اعتاد الصليبيون تكرارها لتفجر فيه طاقة محمومة متقدة عبر فيها عن موقف فكرى وإنسانى وقومى. لقد رأى الشاعر بقلبه أن هؤلاء الغزاة رغم حصدهم الأبرياء من إخوانه أهالى بورسعيد، إن أيما شهيد سقط على أرض مصر ضمن هذه المعركة، سيصبح موته بعثا وانتصاراً لا على الغزاة فحسب .. إنما على الموت أيضا ، لأن الشهداء وحدهم .. هم الأحياء ! .

ويبقى الأديب العراقى مشدود القلب إلى إشقائه فى مصر الكنانة متجاوباً مع مأساة شعب خاصة إذا كان هذا الشاعر قد تذوق مرارة الظلم والنفى عن الوطن بسبب عشقه للحرية ! ..

كان هذا الشاعر "عبد الوهاب البياتى" يفقه المعنى الحقيقى للحرية .. حرية الفرد .. وحرية الشعب .. ويحس بعمق مفردات البعد الجذرى للثورة على الظلم الذى طالماً تذوق بسببه طعوم الاغتراب عن الوطن. لذا فقد غمس قلمه الثائر بمداد العدوان الثلاثى اللصوصى ليصوغ قصيدة لكأنما حرارة مفرداتها مستمدة من لهيب وشظايا سماء وأرض بورسعيد ..

فها هى قصيدته أو "الصرخة" المترجمة (بورسعيد) .. هـذه المدينـة التى غدت عنوانها لكبرياء العروبة واستعصائها على الدخلاء، مثـار فخـر وعشق يلهج بإسمها الشعراء ..

على رخام الدهر بورسعيد
قصيدة مكتوبة بالدم والحديد
تنزف من حروفها الدماء
تهدر فى رويتها المنتصر الجبار
صيحات فجر الثأر
تطل من أبياتها بنادق الأنصار
وأعين الصغار
على جبيرة الشمس بورسعيد
مدينة شامخة الأسوار
شامخة كالنار
كالإعصار
فى أوجه اللصوص
لصوص أوربا من التجار
ومن مجرمى الحروب
وشاربى الدماء

****

عبر جدران الموت بورسعيد
صامدة كالبحر
لا تنام
يخوض فى ساحتها السلام
معركة الحياة
تحرسها بنادق الأنصار
وأعين الصغار (٢٥)

صورة شعورية صادقة لحروف مقاتلة محترقة تولدت من أوتار الغضب والثأر ولصوص وتجار الحروب.

إن لهجة الشاعر المتوعدة عبر هذه القصيدة إنما تمثل جزء من خوضه تجربة حياة مريرة عاشها فى ظل الظلم السياسى والقهر والمنفى، والسخط الذى حفر فى وجدانه أخدوداً عميقاً على ذاته خاصة .. وما شهده وطنه .. لكن .. من بين ركام مخلفات الحرب .. ومن وراء سحب دخان مدينة تحترق ، يرى الشاعر بحسه أن ثمه رايات نصر تبدو فى الأفق يلوح بها فرسان بورسعيد أمام معركة الحياة التى حمتها بنادق أهلها الأنصار كذا أعين أطفالها الصغار الذين خاضوا تجربة قاسية أمام معركة الصمود والوجود.

تلك بعد نماذج لزفرات حرة أطلقها شعراء وادى الرافدين معبرين عن صدى موقف شعورى وفكرى وإنسانى وأدبى إزاء ما تعرض له إبناء وادى النيل الشقيق من عدوان دموى وهجوم وجيش من لصوص وتجار الحروب عام ١٩٥٦ م.

الهوامش

(١) سيد كريم : لغز الحضارة المصرية ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٦ م

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة زكى نجيب محمود ، محمد بدران ، المجلد الأول جـ ٢ ص ٢٨٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١ م .

(٣) هـ . ج . ويلز : موجز تاريخ العالم ، جـ ١ ص ١٤٣ ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٣ م .

(٤) ول ديوارنت : قصة الحضارة ، مجلد جـ ٢ ص ٢٨٤ .

(٥) حضارة العراق : نخبة من الباحثين ، جـ١ ص ٣٧٤، دار الحرية ، بغداد ١٩٨٥م

(٦) محرم كمال : الحكم والأمثال والنصائح عند قدماء المصريين ، ص ٤ ، ط ٢ ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٨ م .

(٧) حضارة العراق : نخبة من الباحثين، جـ١ ص ٣٧٤، دار الحرية ، بغداد ١٩٨٥ م

(٨) محرم كمال : الأمثال والنصائح عند قدماء المصريين ص ٤٤ ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٨م .

(٩) رضا سيد احمد : الشرق الأدنى القديم : خال من دار النشر وتاريخ صدوره ، ولكن يرجع نشره بعد عام ١٩٩٣ من سياق مصادره .

(١٠) دونالد كارلوس ومصطفى جواد: شخصيات القدر ، القدمه ، مكتبة النهضة ، بغداد ١٩٦٣ م .

(١١) سرد لى هذه الحكاية الشعبية الأستاذ / محمود أمين العالم .

(١٢) عمر دقاق : الأتجاه القومى فى الشعر العربى الحديث ، ص ٢٧٠ ، دار الشرق الغربى ، بيروت ١٩٨٥ م .

(١٣) هذا ما فعلته الشاعرة العراقية رباب عبد المحسن الفاطمى ، عندما دافعت عن حزب الوفد من خلال أبيات سارعت إلى نشرها صحف وفدية محايدة كالأهرام ، مما عرضتها لغضب الحكام ، وهذا مؤشر – كما أعتقد – من معطيات المد القومى فى تبادل الأدوار ، ومن قصيدتها :

لا تســـــل في مصــــر　　　عما فعل الخصــــــام

جنى عـــــلى البلاد ما　　　لم يجنــــه ظــــلام

وعطلتـــــا صحائــف　　　وحطمـــــت أقــلام

عائشة عبد الرحمن : الشاعرة العربية المعاصرة ص ٤٦ مطبعة لجنة التــأليف والنشر والترجمة ، القاهرة ١٩٦٣ م .

(١٤) حضارة العراق : نخبة من الأساتذة ، جـ ١ ص ٢٢ .

(١٥) كريمة زكي مبارك: سيرة وحياة زكي مبارك، ص ٨٩ ، دار مصر للطباعــة القاهرة

(١٦) حضارة العراق : نخبة من الأساتذة ، جـ ١ ص ٢٣

(١٧) البرت جوراني : تاريخ الشعوب العربية ، جـ ١ ص ٢٦٦ ، سلــسلة الألــف كتاب ، القاهرة ١٩٩٩ م.

(١٨) خطب جمال عبد الناصر.

(١٩) أطلق على هذه الساحة اسم " ساحة الشهداء " وكذلك استبدال اسم جسر الجنرال مود بجسر الشهداء ، بعد زوال الحكم الملكي عــام ١٩٥٨ م . وذلــك تخليــدا لإنتفاضة طلبة الجامعة في بغداد عام ١٩٤٨٧ م .

(٢٠) كل قصائد باكزة ، نجدها في ديوانها الوحيد " غــداً نلتقـــي " ، شــركة الأمــل للطباعة والنشر ، القاهرة أغسطس ٢٠٠٢ م .

(٢١) المصدر السابق ، ص ٧٤ .

(٢٢) عائشة عبد الرحمن : الشاعرة العربية المعاصرة ، ص (١) ، القاهرة ١٩٦٣

(٢٣) شوقي عبد الأمير : المختار من شعر الجواهري ، جــــ ١ ص ١٨١ الهيئــة العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٢ م .

(٢٤) بدر شاكر السياب : الأعمال الكاملة ، ص ٤٩٢ ، دار العودة ، بيروت ١٩٧١م

(٢٥) عبد الوهاب البياتي : قصيدة بورسعيد ، ص ٢٨١ المجلد الأول ، بيروت

أدب المقاومة في مصــر
العدوان الثلاثي و أثره في الشعـــــر

فــايــز علــي

مقدمــــة

منذ خمسين سنة أعلن الرئيس جمال عبد الناصر (ت ١٩٧٠م) تأميم قناة السويس أملاً فى تحقيق جملة من الأهداف الوطنية فى مقدمتها تمويل بنـــاء السد العالى الذى افتتح فى الخامس عشر من يناير سنة ١٩٧١ أى بعد وفاته. وعجل ذلك الإعلان بوقوع العدوان الثلاثى فى آخر أكتوبر سنة ١٩٥٦، وإن كان التخطيط له يبدو سابقاً لذلك الإعلان نفسه. لقد جاءت تلــك الأحــداث مواكبة لثورة يولية ١٩٥٢، فشكلت باعثاً قوياً للأدباء كى يبدعوا نوعاً مــن أدب المقاومة والنضال. وإذا كان الإعلان قد شجع النمط الغنــائى العــامى سواء بالإذاعة أولاً ثم التليفزيون ثانياً، فإن أدب المقاومة قــد كتــب باللغــة العربية أيضاً ووفق قواعد جعلت منه امتداداً طبيعياً للأدب العربى الكلاسيكى وإن حمل طابعه وسماته المميزة. وفي هذه الدراسة الموجزة نحاول إيضاح تلك السمات في نماذج مختارة من شعر هاشم الرفاعــــي، ومحمود غنــيم، وبيرم التونسي.

" معركة القناة" قصيدة الشاعر هاشم الرفاعى (١٩٣٥-١٩٥٩م) :

تغنى شاعرنا بالحرية والاستقلال، ونادى بتحرير بلدان أفريقيا وآســيا فانتصر لثورة الجزائر مثلاً، وأنشد فى ذكرى الجلاء، وغنى للشهيد، وامتدح الثورة وقائدها، وكانت أشعاره محكمة النظم مشعة بالإشارات إذ عبرت عن

صدق الموهبة والتمكن من اللغة وبلاغتها. لذلك قال عنه أساتذته **مثل زكـي المهندس، وعلى الجندى** أنه لو بلغ مدى الثلاثين لصار أشعر أهـل زمانـه والقصيدة "دالية" تقع فى نحو خمسة وأربعين بيتاً ومطلعها :

بمدفعه المغرور قد صال واعتدى وراح علينا بالقذائف واغتدى[1]

وهو مطلع يشي بعدوانية المستعمر الذى ما كاد يرحل عن البلاد حتى عاود العدوان. وشاعرنا يستدعى، ويستعدى تيار المقاومة وكأنه يستمده من النيـل الرقاق ... فيصنع عقدة درامية فتيلتاها العدوان والمقاومة . يقول شاعرنا :

وأغرى بنا عن الحدود كلابـه وأرسل للعـدوان يضرب موعـدا
يحاول بالتهديد إذلال أمـة وإلقاء شـعب فى القيود وفى الردى
وهيهات ، إن النيل ضمد جرحه فلم يخسة مغلوباً على أمره – الـعدا
تخاذلنا ولى مع الأمس ، لم نعد عبيداً ، وكم ذا يصنع الخوف سـيداً"

فأتى شاعرنا بجملة أفعال ماضية لكنها مرتبطة بالمضارع ليصور حال العدوان الراهن، وهى صال واعتدى – وراح واغتدى وأغـرى – وأرسـل يضرب ...إلخ وفى مقابل هذا العدوان الطاغى نجد النيل قد ضمد جرحـه، فى استعارة وكناية عن الصمود. والمقصود طبعاً صموداً أهل وادى النيـل، ولكن النيل يتدفق فى شعورنا بتيار الحياة المتجدد الذى يبدو مقاومـاً لكـل صور الإبادة. إن هذا المطلع يفيض بحيوية المقاومة، وإرادة الحياة، وينطوى على منهج كلامى فيه وضوح الحجة، مما يتأكد فى بقية القـصيدة. وغيـر خاف أن مفردات الأبيات تنسق مع المفردات التى كانت تتردد فـى خطـب الزعيم **جمال عبد الناصر** آنذاك: "من يعتد على مصر اليوم يعتد على الأمة العربية كلها ومن يعتد على مصر سيدرك أنه جلب على نفسه مـصيبة لـن يتحملها مطلقاً، وسنعطى العالم مثلاً كيف تستطيع دولة صغيرة أن تقف أمام عظمى تهدده بقوة السلاح.[2]

وفى المقطع التالى من القصيدة حجاج بليغ عن ملكية المصريين للقنـــاة، وهذا بيت القصيد :

سلوا (إيدن) الموتور ماذا أثـــاره	علينا ، فأرغى بالحـــديد وأزبـــدا
لئن ساءه أن يأخذ العقد أهـــــل	فمنطق الاستعمار ما زال مقعـــــداً
قناتى وفى أرضى ، وجدى لحفرها	أكب على الصحراء بالفأس مجهداً
وفوق ثراها فاض مـــاء جبينـــــه	وأدمى له جلاده الظهر والـــــيدا
فلا صلحت هذى القناة ولا جــرت	بحاجات قوم لا يمرون ســـــجداً

فبعد ما يدحض الشاعر منطق الاستعمار بسوق الأدلـــة المؤكـــدة، فالقناة فى أرضه تجرى، وقد عانى جده ما عاناه فى حفرها .. ومن ثم جاء تهديده مقبولاً حين دعا بألا تصلح هذه القناة للمعتدين. " وصـــدق الـــشاعر الملهم فى تعبيره عن الإرادة المنتصرة، فلم تجر القناة بعد إصلاحها بحاجات أو لتلك القوم، إلا وهم يمرون بها سجدا ويعطون الجزيـــة عـــن يـــد وهـــم صاغرون".[٣] ونلاحظ هنا فى: قناتى – أرضى–جدّى – تكـــرار ضـــمير الملكية العائد على الشاعر نفسه لأنه اتخذ من مسألة القناة قضية خاصة به. ولنلاحظ أيضاً أن ثمة تياراً خافياً يجمع النيل والقناة وعرق الجـــد المكـــافح الذى سال فى شق القناة. إنه تيار الحياة المتجدد الذى صاغ منه الشاعر لحن قصيدته .

ولئن دار الجدل فى المقطعين السابقين بين إرادتى العدوان والمقاومـــة، فإن المؤامرة وإفشالها يصنعان طرفى الجدل فى المقطع التالى :

لكم تحت جنح الليل أبرم كيدهُ	وطالعة تصميمنا ، فتبـــــدّدا
وشاء خداع الناس بالإفك إنه	تعود هذا الأمر فيما تعـــــودا
وذاق شياطين المظلات بأسنا	فأوردهم بحراً من الهول أسوداً
وقاومهم شعب إذا سيم خطة	من الذل لا يلقى إلى الذل مقودا
مؤامرة كانت أعدّت فأحــكمت	ولكنها ضاعت على بابنا سُدى
بكل فتى يهفوا إلى الدم سيفه	لا ينثنى حتى يروى له صـــدى

كذلك نحمى النيل من كل طامع ونســعى إلى العلياء كهلاً وأمردا "

وأحسن شاعرنا استخدام رمز الليل الذى يتسق هدوؤه مع جو المؤامرة، ورمز الفجر – الذى لم يصرح به – الذى طالع الكيد فبدده، والمطالعة أبلــغ من الطلوع هنا فكان فجر التصميم واجه جنح الليل عن قصد ونيــة.(٤) ولا أدل على خداع العدو من أنه دأب على الإفك واعتاده، وهنا يضمن شــاعرنا الشطر الأول فى مطلع المتنبى الشهير :

" لكل امرئ من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن فى العدا "

وشاعرنا يستحضر تفاصيل المعركة فيشبه قوات العــدو المظليــة التــى أسقطها على مدينة بورسعيد بالشياطين، ولكن "بأسنا" نحن أوردهــم بحــر الهلاك الذى يوازن النيل والقناة اللذين ذكرهما شاعرنا من قبل، وكأن باله قد انشغل بالمياه نظراً لفرط تعلقه بالقناة، وتعود الصورة المائيــة – إن جــاز التعبير – للظهور، فكل فتى مقاوم يروى عطش سيفه إلى الدماء فى ســياق ملحمى أكد فيه شاعرنا فكره المؤامرة التى ضاعت سدى رغم إحكامها. لقد تبددت على بابنا الذى يشير إلى القناة مرة أخرى، وهكــذا تتعــدد الرمــوز والإشارات لتثرى تصوير النزاع المحتدم عند القناة، وهى باب مصر أو باب النيل اختصاراً "كذلك نحمى النيل..". وقد أفلح الشاعر فى أن يتخــذ النيــل رمزاً لمصر فى قصيدته كما اتخذ القناة بابها وغرتها. ومــن المنطقــى أن يتدرج القول إلى كفاح بورسعيد ، فيقول الشاعر:

" وفى الساحل المخضوب قامت مدينة تســـــطر أمجاداً وترفع سؤددا
فلم تخش نسر الجو يرسل فوقــهـــا شواظا بها شب الضــــرام وأوقدا
ولم ترهب الأســـطول والحتف جاثم عــلى ظهره يسمى إليها مهــــدداً
فكم هابط فى كفه الموت مد هـــوى تلقفه رام لـــه وتصيـــــــدا
وكانت لهم (دنكــرك) أخرى ولم تكن كبـــــاريس للألمان صيداً معبداً

والصورة متكاملة مفعمة بــالألوان، فالــساحل مخــضوب (بالــدماء)، والطائرات (نسر الجو) تصب شواظها، والأسطول يحمل الردى، والمظليون يهبطون وفى أيديهم الموت، ولكن هذا ليس كل شيء فــثم الرمــاة المهــرة والصيادون القناصون يترصدون كل أولئك، فلم تكن بورسعيد بــاريس بــل دنكرك.(٥) وما لشاعرنا لا يقسم بها فيقول :

أقسمت بالبطل الشـــــهيد	وبغضبة الشعب المجيد
وبثورة البركان بركـــــــا	ن العلا فى بُرسعيد(٦)

إن كفاح بور سعيد أكد وحدة مصر و العرب علي نحو فريــد، فثــورة مصر كانت نموذجا للشعوب العربية التي شاركت مــصر محنتهــا، وكــان الشهيد جول جمال ابن سوريا خير دليل علي تلــك الوحــدة. وفيــه يقــول الرفاعي:

و تزاحم المتسائلون هناك عن هذا الشهيـــــد
ذي السحنة العربية السمراء و البأس العنيـــد
أتراه من أهل الثغور..أكان من ريف الصعيـــد؟
و جري الجواب علي الشفاه يهز أسماع الخلود
قد جاء من بلد وراء البيد..أقبل من بعيـــــد
ليضيف عدة أسطر بيض إلي الأمل الوليـــــد
فيقول جاري: هل سمعت؟ لقد بعثنا من جديـد
قد كان يحمي اللاذقية ها هنا في بور سعيـد

ويجسد شاعرنا روح الأمة المصرية التى ما فتئت تقاوم المحتلين، ومــا مقاومتها البريطانيين فى القرنين التاسع عشر والعشرين إلا فصل من فصول ملحمتها المجيدة التى استهدفت السلام. وهذا ما يعبر عنه شاعرنا فى المقطع التالى الذى نجتزئ منه قوله :

" ألا إننا شئنا السلام ، فلم نجد	مجالاً لكى يبقى لنا السيف مغمدا
ولم نك مختارين عند امتشاقه	على الرغم منا أن نمد المهنـدا

والشاعر لا يعبر وحسب عن الحال الراهنة بل عن طبيعة أصيله في حضارة مصر عبر العصور. فحروب مصر لم تكن إلا عن ضرورة واضطرار رداً للعدوان،(٧) ولا عجب أن يذهب **أحمد لطفى السيد أستاذ الجيل (ت ١٩٦٤)** – الذى كان معاصراً بشكل ما لشاعرنا إلى أن الحرب ليست من طبيعة البشر رغم كل المبررات التى ساقها بعض المفكرين لدحض هذه المقولة، وكأنى بأستاذ الجيل هنا يقدم رؤيته المصرية المناهضة للحرب فيعتبر أن الحرب ليست فى طبيعة الإنسان من حيث هو إنسان ، فيقول : **" والدم من حيث هو لا يصح فاسداً ولا يفسر صحيحاً والذى يراه أنصار السلام هو أن الحرب ليست من طبع الإنسان كالعائلة والأبوة والعمل، بل هى عادة تأصلت فى نفوس الناس يمكن القضاء عليها كما قضى على الرق ونحوه بوسائل التربية التى لا شك فى أن العالم يتقدم فى أمرها".**(٨) وقد نسأل كيف تتسق هذه الرؤية المسالمة مع قول الرفاعى نفسه فى قصيدته"سنقاتل" التى نظمها أيضاً فى أواخر أكتوبر ١٩٥٦ إبان العدوان:

نار علـى جنبات النيل تحـتدمُ — فلينصف السيف إن لم ينصف الكلم
إنى رأيـت طلاب الحق مضـيعة — للوقت إن لم تذد عن حوضه همـم
واحزم الناس من لو قام منبـعثاً — حقاً ، إلى السيف لا للقول يحتكم "(٩)

ولكن عذر الشاعر ممهد، فقد احتدمت الحرب على جنبات النيل وحدث العدوان فعلاً فحينئذ يكون الاحتكام للسيف كى يحمى الحقيقة ويدافع عن السلام، ويبدو الرفاعى هنا سائراً على نهج البارودى (ت ١٩٠٤م) الذى قال من قبل إبان الثورة المصرية سنة ١٨٨٢:

إذا المرء لم ينهض بقائم سيفه — فياليت شعرى كيف تحمى الحقائق

وقال فى معادلة فريدة بين السيف والقلم في قصيدة لتوفيق بمناسبة جلوسه سنة ١٨٧٩م :

فالسيف لا يمضى بدون روية — والرأى لا يمضى بغير مهند

ويذكرنا البيت الثانى فى مقطع الرفاعى بقول الحكيم زهير:

" ومن لم يذدْ عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم"

فالسيف إذن وظيفته الذود والدفاع لا العدوان، ومن لا يظلم الناس افتراضاً وإمكاناً – أى يتوقع ظلمهم له؛ فإنه يتعرض للظلم على أيديهم فعلاً. والمفاضلة بين السيف والقلم شغلت الأدباء قديماً، فتباروا فى ذلك وكتبوا المناظرات مثل **مناظرة العماد الاصفهانى.**(١٠) وفيها يعرض كل منهما حجته، فيقول القلم بعد المقدمة: " إن القلم منار الدين والدنيا ، ونظام الشرف والعليا .. به رقم كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل .. (وهو) المتيقظ لجهاد أعدائها (أى الأمة) والسيف فى جفنه نائم .. فعند ذلك نهض السيف قائماً عجلاً". وقال بعد مقدمة أيضاً: " إن السيف زنده القوى، وحده الفارق بين الرشيد والغوي..". وتستمر المرافعة والحجاج بين السيف والقلم حتى يأتى وقت الحكم: " فلما رأيت الحجتين ناهضتين والبينتين متعارضتين رددت القلم إلى كنه، وإغمدت السيف فنام ملء جفنه، وأخرت بينهما الترجيح ".(١١)

ليس هذا وحسب، فللكلمة فى المعتقد المصرى قوة تتجاوز أحيانا كل القوى المادية، وهذا ما يظهر فى حكمة **خيتى الرابع** (ح . ٢٠٧ ق.م):" **إن صاحب الحق لا يجد من يفحمه** ". على حين يتردد ذلك المعنى بصورة أكثر حماساً ليلائم سياق أنشودة الملك **سنوسرت الثالث** (١٨٧٩-١٨٤١ق.م) :" ونطقه (أى كلامه) هو الذى يجعل البدو يولون الأدبار"(١٢). وإذ كان سنوسرت الثالث سكينه قد أمات الألوف من رماة السهام"(١٣) فإن بورسعيد هاشم الرفاعى كانت صياداً للعدو ولم تضح صيدا لـه وكانت دنكرك لا باريس. ثمة إذن قوة معنوية خافية فى كفاح مصر مثل تلك القوة الخافية فى سكين ملكنا سنوسرت .

رؤية إجمالية للقصيدة : عقد الشاعر مقابلة بين طبيعتى الحرب والسلم والعدوان والمقاومة فحشد فى جهة تعبيرات مثل المدفع المغرور والقذائف والتهديد والمؤامرة وإيدن الموتور الذى أرغى بالحديد وازبد، والكيد فى جنح الليل .... وفى مقابلها تعبيرات مثل: النيل المضمد لجراحه، وقناتى وأرضى وتصميمنا .. ونرى أن القصيدة اكتسبت حيويتها من هذه المقابلة غير المتكلفة فى مجملها، مما حملنا على التفاعل مع أحاسيس الشاعر ذى الأنفاس اللاهثة التى لا تخف حدتها وتخفت الإ حين يقول مختتماً قصيدته :

" وخلف ضباب الظلم يلمع بارق ... به أمل للثائر الحر قد بدا
وأسمع لحن النصر فى كل أمة ... مكبلة فوق الشفاه ترددا "

هكذا تبدأ القصيدة بإدانة العدوان وتنتهى بنبوءة النصر لمصر ولسائر الأمم المكافحة التى طالما تغنى شاعرنا بكفاحها فى ديوانه.

وإذا كنا اليوم بصدد أدب المقاومة فما أشبه الليلة بالبارحة ! فلنرجع إذن إلى أدب البطولة المتمثل في سيفيات المتنبى وأدب الحروب الصليبية مثلا لنقف على أوجه التشابه والتباين، وهنا **نسأل ما الجديد فى شعر المقاومة الحديث؟** لعل من اللافت للنظر أن البطولة هنا فكرة عامة مجردة، ورغم السياق الفخرى العارم فى قصيدة الرفاعى، فإن البطولة لا تصب فى شخص بعينه بقدر ما تتقمص روح الشعب كافة. على النقيض من سيفيات المتنبى التى تدور حول شخصية سيف الدولة صاحب الانتصارات العظيمة، وصلاحيات **ابن سناء الملك** (وغيره) التى يبرز فيها البطل صلاح الدين، وبقدر ما نسُج حول شخصية البطل من أساطير ومبالغات كان تفرد تلك القصائد القديمة من مثل قول المتنبى عن سيف الدولة[١٤] :

وصول إلى المستصعبات بخيله ... فلو كان قرن الشمس ماء لأوردا

بل إن المتنبى يفرط فى فخره بنفسه حتى يبدو بطلاً آخر منافساً لسيف الدولة.

نماذج من الشعر الوطنى

قدمنا إحدي القصائد الوطنية لهاشم الرفاعي، ونبحث الآن قصيدة للشاعر محمود غنيم عن تأميم القناة. ولشاعرنا مجموعة من القصائد تغنـى فيهـا بالثورة المصرية وملاحمها الوطنية إبان الجلاء وتأميم القناة والوحـدة مـع سوريا وبناء السد العالى، وقد اختص القناة بقصيدتين : واحدة فى تأميمهـا والثانية فى حربها.

تقع **القصيدة الأولى** فى نحو ستين بيتاً يعرض فيهـا الـشاعر تـاريخ حفرالقناة عرضا وجدانيا مؤثرا ثم يعرض لمعاناة المصريين عبر العصور، ويشيد بتأميم القناة لأنه ردها إلى مصر، ويصور فى عزة وانتشاء صـمود مصر، ويتوعد الغرب المعتدى. وكأنما أدرك الشاعر بحدسه أن المعاناة هى لب المسألة، فما فتئت القناة مرتبطة بمعاناة مصر والمصريين منـذ كانـت جنينا حتى غدت كياناً مكتملاً أراد البعض أن يجعل منه دولة داخل الدولة .

هذه القناة التى غدت مطمعاً للغزاة جعل منها الشاعر فلذة غاليـة، بـل جعلها قلب النيل الذى لا حياة لمصر بدونه، ورأى منها عن حـق مـصدر الموت لمصر، ومبعث الحياة للشرق والغرب فى نفس الوقت :

" ربض الجيش على خط القناة	**وعلى شطآنها ألقى عصـــــاه**
أيها العيش أعدها للحمـــــى	**فلذة شطآنها ألقى عصـــــاه**
هى قلب النيــــل إلا أنهم	**وضعوها بين أضلاع ســـــواه**
ساقت المـوت إلى مصر وإن	**بعثت فى الشرق والغرب الحياة**[١٥]

وإذ كانت القناة مبعث الموت والحياة معاً، فـإن شـاعرنا أدرك بهـذا التعريف جوهر تلك القناة، فلم يهتم بأبعادها أو موقعهـا بقـدر مـا اهـتم بخطورتها وأهميتها ومضى يشرح كيف اقترن ميلاد القناة بموت العاملين فى حفرها :

" هذه الحفرة من عمقــــها ؟	**ذلك الجسرُ المعلى من بناه ؟**

رب فلاح شكت فى كفــــــه	فأسه الخرساء إذ خارت قواه
لم يزل يحفـــــرها حتى جرى	مــاؤها وهو مشوب بدماه "

فلولا وفاة أولئك العمال الكادحين أو إعياؤهم لما ولدت القناة ! ويستطرد الشاعر إلى مسألة التأميم الذى هدف من ورائه عبد الناصر إلى تمويل بنــاء السد العالى بعد ما سحب البنك الدولى عرضــه بـسبب ضــغط الولايــات المتحدة:[١٦]

حينما قال جمــــال "أممت"	رقص الوادى وغنت ضفتاه
وسرت فى كل عطف هزة	وتمشت بسمة فوق الشفاه
ما بنى التأميم سداً عاليــاً	بل بنى للنيل جاهاً أى جاه

هنا يتأكد مرة أخرى الشعور الجماعى الذى طغى على كل ما عداه مــن أحداث حتى أن شاعرنا لا يلتفت إلى المزايا المادية الملموسة لتأميم القناة قدر التفاته إلى ما حققه ذلك من مكاسب معنوية للشعب المصرى كافــة، الأمــر الذى يفسر لنا لماذا خلت هذه القصيدة وضربياتها مما عهدناه فــى القــصائد العربية الفخرية – مثل سيفيات المتنبى – من خبرات إنسانية عميقة أو حكم وأقوال تجرى مجري الأمثال[١٧]. وتتأكد هذه السمة فى ختــام القــصيدة إذ تتصاعد نغمة الفخر الشعبى ، فيقول الشاعر :

" أيها الغربُ اتئدْ إن هنا	ضيغما قام يحــامى عن شراه
لا يبالى حين يحمى حقه	لو عــــدا الدهر عليه لرمــاه
يطلب الحق بجيش باسل	حالق الجــــو نسور وبــزاه
لا يحق الحق إلا قـــوة	تفعــــل القوة ما يعيي القضاه

يطرح شاعرنا قضية الحق والقوة. فالحق بدون قوى تسانده قد يضيع فى معارك الحرب والسياسية كما قال الرفاعي أيضا، وقد أشرنا من قبــل إلــى التساند المطلوب بين القوة (السيف والسلاح....) والقلم (الكــلام والــرأى والحق....) وشاعرنا حينما ينتصر للحق ضد القوة إنما يستعيد حكمة الملك

الحكيم خيتى الرابع (ح . ٢٠٧ ق.م) حينما قال : "إن الكلمـــة أقـــوى مـــن السلاح".[١٨] ولا عجب أن يتوعد الشاعر الأعداء، فيحذرهم من الأسد الـــذى يدافع عن عرينه، والنسر والباز المنقضين من السماء إلى آخر تلك الـــصور المصرية الأصلية، التى عجت بها ملاحم تحتمس وسيتى ورمسيس منذ القدم. فرمسيس فى قـــادش " مثل الإله منتو سلطاناً وقوة"[١٩] وهو الأســـد القـــوى المخالب، العالى الزئير" الذى يفتك بفرائسه، وهو الفهد سريع العدو، وهـــو العاصفة التى تقتلع الأعداء ....إلخ. ولا عجب أن تعلق هذه الصور البلاغية بأذهاننا منذ الصغر نظراً لتأثير تلك الملاحم القديمة فى الخيـــال والـــشعور الجمعيين، فتجرى على ألسنة الشعراء بوعى أو بدون وعى، ومنتـــو هـــو الصقر أو الباز أو الباشق الذى ينقض فاتكاً بالأعداء كما تصفه الملحمة إذ أن منتو إله الحرب القديم كان يظهر فى هيئـــة الـــصقر أو الإنـــسان ذى رأس الصقر.

وأما قوله: " لو عدا الدهر عليه لرماه" فيستعيد تعبير ابن منقذ الشهير: " وينقاد طوعاً فى أزمتنا الدهرُ". ليس التعبيران متطابقين، ولكن تحدى الدهر (الزمان) وارد فى الحالين. وعلينا أن يتسع خيالنا لندرك أن المقصود لـــيس الدهر ذاته بل أهل الدهر على سبيل المجاز المرسل. وقد أحسن البـــارودى التعبير عن هذا المقصد فقال: "فإنى إن ذكرت الدهر فإنما أقصد بـــه العـــالم الأرضى لكونه فيه، من قبيل ذكر الشيء باسم غيره لمجاورته إياه، كقولـــه تعالى: (واسأل القرية) أى أهل القرية".[٢٠]

الشعر الوطنى وشعر المناسبات

لا يعيب الشاعر أن يكتب فى مناسبة عزيزة لديه،فيصدر عن موهبـــة صادقة و تجربة حقة. وإنما يعيبه أن ينظم في كل مناسبة نظمـــاً متكلفـــاً لا صدق فيه ولا تجربة.[٢١] وجدير بالنقد الأدبى الآن أن يقـــف ملياً بـــأدب

المناسبات التاريخية والأدب السياسى الوطنى ليرصد منحنى تطوره ويتلمس خصائصه. وقد لا يتسع المقام هنا لرؤية متأنية بيد أنه ينبغى التنويــه بمــا يتمتع به الأدب الوطنى من حماسة ومشاعر دافقة تجعل منه أدباً إنسانياً خالداً فيه ملامح رومنسية إذ يتوق إلى الكمال والمثل الأعلى، وفيه روح ملحميــة تكشف عن أسمى المشاعر الإنسانية من فداء وتضحية وإيثار وإقدام. والأمم بحاجة إلى استعادة هذه المشاعر وتجديدها على الدوام .

ولدى المقارنة السريعة بين أدب العدوان الثلاثى (حديثاً) وأدب الحروب الصليبية (قديماً) يلفت نظرنا عدة أمور، منها وجود رؤية كونية تقوم خلــف مشاعر الفخر والاعتزاز وهذه الرؤية تظهر فى خطب ومقــالات وقــصائد شتى، ونضرب لها مثلاً بمطلع قصيدة أسامة بــن منقــذ (ت ٥٨٤ هـــ) الشهيرة :

أبى الله إلا أن يكون لنا النصر	لتحــيـــا بنا الدنيا ويفتخر العصــر
وتخدمنا الأيام فيما نرومـــــه	وينقاد طوعاً فى أزمتنـــــا الدهر
وتخضع أعناق الملوك لعزنـــا	ويرهبها منا على بعْدنا الذكـــر(٢٢)

وتستمر الأبيات فى هذا النسق الفخرى المطنب، إذ تتأكد فى قول الشاعر سيطرة القوم على الدنيا مكاناً وزماناً (العصر والأيام والدهر). والسيطرة هنا ليست وهمية بل حقيقية – فى رأى الشاعر لأنها تتم بإرادة إلهية واعية، وإن جاءت على غير هوى الأعداء الذين شنوا حرباً عدوانية مــدمرة (حــروب الفرنجة) تحت وهم السيطرة على الدنيا زماناً ومكاناً. وفى تصورنا أن هــذا المطلع ينطوى على منهج كلامى شديد الإقناع للمؤمنين بنــصر الله، وهــم الجماهير التى يخاطبها الشاعر.

والجدير بالذكر أن المصرى اعتقد قديماً فى أن الإله هــو الــذى يمــنح مصر ومليكها النصر على الأعداء، فآمون رع إلــه الأمبراطوريــة يهــب

تحتمس الثالث (ح١٤٧٠ ق.م) القوة والنصر على أمم الأقواس التسع (التى ترمز للأعداء التقليديين لمصر).

ورع إله الشمس هو الذى يطأ أرض خيتا (مملكة الحيثيين) لمحبـــوب آمون رع (أى رمسيس الثانى). وحين توشك الدائرة أن تدور على رمسيس ويتخلى عنه جنده لا ينقذه إلا آمون – رع إذ يهرع إليه رمـــسيس ويجـــأر بالشكوى على نحو ما فعل زعيمنا عبد الناصر إذ قام خطيباً فـــى الجمـــوع بالأزهر إبان العدوان الثلاثى. أي دور كبير يؤديه إذن الشعور الديني فـــي الحالين؟

لكننا نلاحظ بوضوح غياب التبرير الدينى لحرب المقاومة فـــى قـــصيدة هاشم الرفاعى. أما قصيدة ابن منقذ فتبدأ بالتبرير الدينى القـــوى، وتـــستمر تتسج على هذا المنوال فى معظم مقاطعها. وفى تصورنا أن الشعور الـــدينى القوى موجود و قائم عند الشاعرين، ولكن يبدو أن ثمـــة اســـتنفارا شـــديدا للشعور الديني في أدب الحروب الصليبية كله لا في قصيدة أسامة وحـــدها، وسببه كامن وراء شعارات تلك الحروب و الحمـــلات، ويبـــدو أن تـــذرع الفرنجة بالدين فى الحال الأولى هو الذى استنفر الـــشعور الـــدنيى، فظهـــر واضحاً جلياً فى رائية أسامة. أما فى حال العدوان الثلاثى فالعنصر الواضح فيه كان التواطؤ بين الاستعمار الغربى والصهيونية ضد الحركة الاستقلالية التى تبلورت عن فكرة القومية العربية، وكانت مصر مركزها وبؤرتها، ومن هنا لم تكن الحاجة ظاهره لاصطناع مبررات دينية للمعركة .[٢٣]

وكذلك اكتسبت القصيدة الوطنيـــة وحـــدة عـــضوية إذ ترابطـــت فيهـــا الأغراض لتؤلف موضوعاً واحداً، ولذلك غابت المقدمات الطويلة، واختفـــت الأغراض الغنائية المعهودة فى القصيدة العربية التقليدية. وحلت محل ذلـــك جمعيه صيغة ملحمية اصطبغت بها القصيدة الوطنية، فتغنى الشاعر بالمجـــد

والبطولة، وتحدث بلسان الوطن وجماعاته التى انصهرت فى وحده واحدة رغم ما بينها من تباين فى الرأي وتعدد فى المشارب. ومن ثم سادت نظرة متفائلة مؤمنة بالنصر.

فن الملحمة بين قادش والسويس:

ومع كل هذه الملاحظات غاب شيء هام فى تصورنا عن جل القصائد الوطنية، وكان غيابه أوضح فى أغانى الإذاعة وأناشيدها، ونعنى بذلك الرؤية النقدية التى لا غنى عنها للتبصير بالأخطاء الذاتية والتحذير من غدر الأعداء ولؤمهم. والتحليل التاريخي يقفنا على بعض الأخطاء التى اعترت التخطيط العسكرى، فقد تم الدفع ببعض القوات الماشية والمدرعة إلى خط المواجهة وسرعان تم سحبها خلال ثمانى وأربعين ساعة حرصاً عليها من إصابة محققة، مما أدى إلى تعرضها إلى مخاطر أثناء الأنسحاب أيضاً، وذلك رغم الثبات الذى أبدته القوات المصرية فى رفح وأبى عجيلة و ممر متلا وشرم الشيخ " **وفى غياب الطيران المصرى تم الانسحاب من سيناء دون تغطية جوية، وصبت الطائرات الفرنسية والبريطانية نيرانها على القوات المنسحبة فى هجمات لا تهاون فيها. كانت تقذف وتنقض وتحرق بقنابل النابلم الرجال والمعدات**".(٢٤) ومع ذلك وصلت معظم القوات المصرية بسلام إلي القناة. ونحن نبحث هذه المسألة من الوجه الأدبية نستدعى موقفاً مشابهاً حدث فى موقعة قادش (١٢٨٥ق.م) التى كان بطلها الملك الشاب رمسيس الثانى (١٢٩٠-١٢٢٣ ق.م) الذى استخفته جرأته وشجاعته فتقدم تقدماً غير محسوب وهو في قلة من العتاد والجند، مما أوقعه فى فخ كان سيكلفه حياته إذ فاجأه الجنود الحيثيون وكادوا يفتكون به أو يأسرونه لولا إقدامه وشجاعة حواديه على حد تعبيره – بينما انفض عنه جنوده وبقى الملك يناضل ببسالة حتى أتته النجدة فانقلب ميزان المعركة.

وبينما غابت أى إشارة نقدية إلى قصور التخطيط فى **معركة الـسويس**، فاللافت للنظر أن أن **ملحمة قادش** الشهيرة – رغم ما فيها من مبالغــات – سجلت كل ما حدث – فوصفت بدقة مشاعر رمــسيس فــى تلــك الـساعة الحرجة، وردود أفعاله، ونكتفي هنا بندائه لجنوده أن يثبتوا، فقال لهم: " **مـا أشد تخاذل قلوبكم يافرساني! وإنه لمن العبـث الاعتمــاد علــيكم** ..".[٢٥] ويضيف نص الملحمة حكاية عن فرعون قوله: "ثم قال جلالته لمشاته وكبار ضباطه وفرسانه: **ما أعظم الجريمة التى ارتكبتموها يا كبار ضـباطى ويـا مشاتى ويا فرسانى ! أنتم يا من لم تحاربوا ! ألم يتفاخر الواحد فى مدينته بأنه كان شجاعاً أمام سيده الطيب؟ ألم أقـدم إحـساناً لأى مـنكم ؟ كيـف تهجروننى وسط الأعداء؟**...".[٢٦] نغمة التوبيخ عالية رنانة، وهى تفيد كـل من يطالع اليوم هذه الملحمة إذ تنقل إليه دروساً هامــة تهديــه فــى غـدة، فالمطالع للملحمة يعرف تفوق الحيثيين فى وســائل الاســتطلاع والخــداع وامتلاكهم زمام المبادأة والمفاجأة فى موقعة قادش، ومن مثل هذه الانتقادات القاسية قد يتعلم قارئ الأدب أضعاف ما يتعلمه من عبارات النصر ومــديح القادة.

وإذا عدنا إلى قصيدة **ابن منقذ** وجدناها بالإضافة إلى جديتها وقوتها أشبه بيوميات المراسل الحربى الذى عاصر المعارك وأتقن وصفها، فيقول لنا مثلاً : ونحن أسرناالجوسلين..و قتلنا البرنس.. ونحن كسرنا البغدوين .. وســرنا إليه حين هاب لقاءنا .. ونحن فتحنا تل باشر".[٢٧] وكذلك الحال فى موقعــة قادش التى يروى فيها ملكنا رمسيس عن واقع الحال فــى حومــة الــوغى، فيصف خفايا الحرب ودقائقها، ويسبر أغوار النفوس: نفوس من معه من جند وقادة وأعداء .. وإنا لواجدون فى **حوليات تحتمس الثالــث** نموذجــاً لأدب الحوليات لعله هو الأقدم في التاريخ.

ولا نريد أن نقول إن شعراء حرب السويس لم يبلغوا شأو أسلافهم فـــي الملاحم الصليبية أو فى ملحمة قادش. ولكنهم لـــم يرصـــدوا لنـــا تفاصـــيل المعارك ولم يقدموا لنا من ثم رؤية نقدية لا زلنا في حاجة إليها رغم فـــوات كل تلك السنين. والآن ننتقل إلي الزجل لنري كيف عبر عن حرب السويس.

محمود بيرم التونسى وتأميم القناة

وقفنا على نماذج من الشعر العربى كقصدية الرفاعى، وها هنـــا نأخـــذ نموذجا من الزجل لبيرم التونسى (ت١٩٦١ م) الذى كان بلا شك من كبـــار أئمة الزجل فى عصره، ولعل ذلك يرجع إلى التقائه بالشعب فـــى معاناتـــه، فعبر عن الاشتراكية وجسد أبعادها الاجتماعية والسياسية، وناهض الفـــساد والإقطاع والنفوذ الأجنبى داعياً إلى الاستقلال والوحـــدة العربيـــة والعدالـــة الاجتماعية. وفى زجليته عن تأميم القناة يشيع روح التحدى والإصرار، كما يسخر من الأعداء سخرية لاذعة، ويعبر عن انتمائه لوطنه .. يقول بيرم :

فى أرضنا وبســـواعدنا القنال اتمد ... ميراثنا أصله لنا من عند سابع جد

وفيه سفن كل دولة ماشية ما تنصد ... قالوا بلا مرشدين من عندهم ينهار

الحمد لله بإيديهم أهو اتسد[٢٨]

وزجالنا يؤكد – كما فعل الرفاعى – على امتلاك مصر للقناة منذ القـــدم وأن أمور القناة كانت تسير على ما يرام، وظلت كذلك بعد إبعاد المرشـــدين الأجانب أو سحبهم بالأحرى رغبة فى تعطيل الملاحة والإضـــرار بموقـــف مصر، وتتجلى المفارقة فى نجاح المرشدين المـــصريين – وقـــد عـــاونهم المرشدون اليونانيون أيضاً – ففشلت مؤامرة سحب المرشـــدين، ولـــم يبـــؤ المعتدون إلا بسد القناة فى وجوهم هم أنفسهم وإذا بانجلترا ســـيدة البحـــار تغرق فى القناة :

ست البحار فى قنال شبرين غرقانه ... إهانة يا إنجلترا ما بعدها إهانـــة

يا مجرمين يا اللى جيتونا على خواته   الدنيا فى الحرب شايفاكم وشايفانا

ويستخدم بيرم التعبيرات المصرية الأصلية، فكلمة "ست" مؤنــث "ســي" وتعنى" سيدة"، وقد كانت إنجلترا اعظم دولة بحرية فإذا بها تغرق في شــبر ميه كما في المثل الشعبي، وهذا يعني منتهي الفشل. وبذلك ينجح بيرم فــى التهكم بإنجلترا والتعبيرات عن روح السخرية منها عند العامة. وأما توعــده للمجرمين بأن العالم كله يراهم فدليل على افتضاح أمرهم وفشل تــدبيرهم، وهم "جوم على خوانة " على حد التعبير الشعبى. ويعزز بيرم جو السخرية بتوعده إيدن بالهزيمة ، فيقول:

إيدن يا عايق حسبت الحرب دى عياقة   وبعت جندك لناس للموت مشتاقة

تحسبها فى بورسعيد والمنزلة خناقة   لقيتها مدبح وأجنادك غنم فيها

أقف بقى عالمراية صلح الياقة

وإيدن إذ يبدو عايقا، فالعياقة هنا لا تعنى الظرف وخفة الدم لأن الكلمــة مشتقة من إعاقة الطريق [٢٩]، فالعايق هو قاطع الطريق، وهو هنا ممثل دولة عظمى وإمبراطورية منطفئة. وتتأكد إدانة ذلك السياسى حين يزج بجنوده فى مذبحة، وكأنهم غنم تُساق إلى الذبح. ويمعن زجالنا فى إهانته فينصحه بأن يصلح الياقة حتى يبدو حسن الهندام أمام الرأى العام، وكأن هذا هو كل مــا يعنيه من الأمر، سخرية ما بعدها سخرية. وأصالة شعر بيرم لا تقف عنــد هذا الحد بل تتجاوزه إلى انصهار ذلك الفنان المناضل فــى حيــاة الــشارع المصرى حتى غدت معاناة الكادحين جميعهم معاناة خاصة به هــو نفــسه، فانطلق لسانه ليعبر عن كل ما كان الناس البسطاء يعانونه فى كــل حــين. وانظر إلى تعبيره أن القناة ميراثنا من عند سابع جد تجده تعبيــراً مــصرياً أصيلاً ، فالقط – ويرمز فى الأسطورة إلى رع إله الشمس أيضاً – له سبعة أرواح، ومن ثم فالجد السابع أورثنا القناة بخلودها الذى يشبه خلود الــشمس فى مدارها.[٣٠]

هكذا اهتم الشعراء بقضية الوطن لدي تأميم القناة فلم تلن قناتهم، وعبروا بالعامية و الفصحي عن روح المقاومة التي اشتملت مصر من أقصاها إلـــي أقصاها. وإن كنا اكتفينا بنماذج قليلة فقد اتضح لنا منها أن ثمة سمات لشعر الوطنية الحديث لا بد للناقد أن يرصدها بدأب وموضوعية، ونرجو أن نكون قد أسهمنا في أداء هذه المهمة.

الهــوامــش

(١) ديوان هاشم الرفاعى، تقــديم محمــد كامــل حتــه، المطــابع الأميريــة، القــاهرة ١٣٨٠هــ/١٩٦٠م ، ص٢٠٤-٢٠٦ وقد عرف الدكتور كامل حته شاعرنا بأنه من ألمع شعراء الثورة العربية الكبرى ، فهو يتغنــى بمبادئهــا وانتــصاراتها ، ويخوض معاركها فى كل ميدان .. المرجع نفسه : ٤٩ .

(٢) نجلاء أبو عز الدين، ناصر العرب، دار المستقبل العربى، القــاهرة ، ط١٩٨٨،١، ص١٥٦. والنص من خطاب عبد الناصر فى كلية الطيــران فــى ١٥ ســبتمبر ١٩٥٦.

(٣) ديوان هاشم الرفاعى : المقدمة :٥٠ .

(٤) نرى أن الشعر العربى ملىء بالرمزية، التى تسبق الرمزية الحديث (بودلير وبلــوك وبالمونت...) لولا عدم التفات النقد إليها، وقد عرضت تصورنا هذا في دراســتنا "الرمزية والرومنسية فى الشعر العربى ".

(٥) لقي البريطانيون في دنكرك هزيمة قاسية، ودنكرك مدينة بشمال فرنسا، شهدت فــي ٢٦ مايو-٤ يونيو١٩٤٠ عملية إجلاء نحو ٣٠٠ ألف من جنــود الحلفــاء إلــي إنجلترا بعد أن عزلتهم القوات الزاحفة علي سواحل بحر المانش و خربت المدينة تماما. بعكس انتصار الألمان السريع في باريس إبان الحرب العالمية الثانية.

(٦) وهى مطلع قصيدته التى عنوانها (بنت العروبة)التى ألقاها فى الثانى مــن ديــسمبر ١٩٥٧.

(٧) كانت مصر مملكة مستقلة مكتفية بحدودها إبان الدولتين القديمة والوسطى لما ينــاهز ألفاً وخمسمائة سنة أي حتي سنة ١٧٠٠ق.م تقريبا، ولم تبدأ حروبها التوسعية إلا بعد هزيمة الهكسوس المحتلين وطردهم سنة ١٥٥٠ ق.م، فأصبحت إمبراطورية بلغت أقصى اتساعها مع تحتمس الثالث (ح١٤٧٠ ق.م).

(٨) أحمد لطفى السيد، قصة حياتى، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٩٨، ص٢١٢. ومن دعاة السلام أيضاً الفيلسوف كانط (ت١٨٠٤م) في "مشروع السلام الــدائم" وبرترانــد راسل (ت١٩٧٠م).

(٩) ديوان هاشم الرفاعى : ٢٠٢ .

(١٠) محمد سيد كيلانى، أدب الحروب الصليبية، ط ٢، دار الفرجانى، القـاهرة ١٩٨٤، ص١٠٠.

(١١) كيلاني : أدب : ١٠١ – ١٠٦ .

(١٢) سليم حسن، الأدب المصرى (١٩٤٥)، دار أخبار اليوم، العدد ٢، القاهرة ١٩٩٠، حـ٢، صـ١٨٥ .

(١٣) نفسه : ٢ : ١٨٥ .

(١٤) أوضحنا فى دراسة لنا لدالية المتنبى هذه كيف مزج المتنبى بين المـدح والفخـر والحكمة فى نموذج فريد .

(١٥) محمود غنيم، ديوان فى ظلال الثورة، دار المعارف بمصر ١٩٦١، ص١٦-١٩ .

(١٦) عن مسألة تأميم القناة راجـع مـثلاً: Vatikiotis , The Modern History of Egypt , Weidenfeld, London 1969, p. 392 ff. حسن البدري وفطـين أحمد فريد، حرب التواطؤ الثلاثي، المكتبة الأكاديمية، القاهرة١٩٩٦.

(١٧) إنصاف الشعر العربى ضرورة نقدية، إذ لدينا منذ الجاهلية أشعار إنسانية عظيمة لا يجب تجاهلها.

(18) Brunner, Altaegyptische Weisheit, W .B. G, Darmstadt 1988 ,S.142 .

(١٩) سليم حسن، الأدب المصرى، ٢ : ١٩٥ .

(٢٠) ديوان البارودى ، شرح الجارم ومعروف، دار المعارف بمصر ١٩٧١، حـ١، مقدمة البارودى، ص٥٩.

(٢١) أكد المازني والعقاد على أهمية الصدق فى تجربة الشاعر، وانتقـد العقـاد تكلـف شوقى فى أشعاره .. راجع العقاد والمازنى، الديوان فـى النقـد والأدب ١٩٢٢، هيئة الكتاب، القاهرة ٢٠٠٠ ، ص٢٤ وقارن المازنى، الشعر غاياته ووسـائطه، تقديم مدحت الجيار، دار الصحوة، القاهرة، ١٩٨٦، ص٧٢. وابن خلدون يقـدر دور الصنعة على ألا تجور على موهبة الشاعر .. المقدمة، دار الشعب، القاهرة، ص٥٣٩.

(٢٢) كيلانى : أدب : ٣٧٨.

(٢٣) سليم حسن، الأدب : ٢ : ١٩٠ عن مدائح تحتمس الثالث .



(٢٤) نجلاء، ناصر:١٦٨.

(٢٥) سليم حسن، الأدب: :٢:٢٠٢ وقارن:عبد الرحمن زكـي، الجـيش فـي مـصر القديمة:٢٢٢ وأيضا دراستنا عن أبي سمبل.

(٢٦) سليم حسن:الأدب:٢:. ٢١٢

(٢٧) كيلاني:أدب:٣٧٩-٣٨٠.

(٢٨) راجع:عبد الله أحمد عبد الله، بيرم ثائرا شاعرا، القاهرة، د.ت.

(٢٩) عن العياق تحدثت مراجع الأدب الشعبي مثل:محمد رجب النجار، حكايات الشطار والعيارين، هيئة قصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٣.

(٣٠) علي نحو ما صورته برديات كتاب الظهور نهارا المعروف خطأ بكتـاب المـوتي مثل بردية آني وهونفر.

رقم إيداع : ٩١٦٣ / ٢٠٠٨